مارون عبّود

أدب العرب

مختصر تاريخ نشأته وتطوّره وسير مشاهير رجاله
وخطوط أولى من صورهم

دار مارون عبّود
بيروت
ص ٥٤٢
دار الثقافة

ادب العرب



مارون عبّود



مختصر تاريخ نشأته وتطوّره وسير مشاهير رجاله
وخطوط أولى من صورهم

دار مارون عبّود — بيروت ص ٥٤٢ — دار الثقافة

طبعة جديدة

مضاف اليها ملحق نصوص صدر منفرداً بالطبعة السابقة

١٩٦٨

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

نقد

مجددون ومجترون

دمقس وارجوان

جدد وقدماء

نقدات عابر

على الطائر

على المحك

في المختبر

دراسات

الشعر العامي

الرؤوس

زوبعة الدهور

أو

ابو العلاء المعري

صقر لبنان

أو

احمد فارس الشدياق

الشيخ بشاره الخوري

امين الريحاني

بديع الزمان الهمذاني

روّاد النهضة الحديثة

المحفوظات العربية

أدب العرب

قصص

الامير الاحمر

توادوسيوس قيصر

جواهر الاميرة

ربة العود

اتالا

رينيه

الحمل

فارس آغا

تمثيليات

مغاور الجن

اشباح القرن الثامن عشر

الاخرس المتكلم

مجنون ليلى

كريستوف كولومب

أقاصيص

أقزام جبابرة

وجوه وحكايات
احاديث القرية

اجتماع

تذكار الصبا
الاكليروس في لبنان
كتاب الشعب
سبل ومناهج
سيرة البابا بيوس

نقـد سياسي

اشباح ورموز
من الجراب
حبر على ورق
قبل انفجار البركان

تاريـخ

بيروت ولبنان (جزءان)

شعر

زوابع

كتب ستصدر

علوم اللغة العربية
تمثيليتان اذاعيتان
العجول المسمنة
الراهب اللبناني
رومية في لبنان
من كل واد عصا
كتاب المخدة
عيد الشجرة
الأسيران

توطئة

هذا كتاب جعلته ملخصاً لتسهل على النشء مراجعته في اضيق وقت ، ويحقق قول العرب في تحديد الأديب : هو من المّ بطرف من كل فن .

لقد تضمن هذا المجلد ما يحتاج اليه الطالب قبل اقدامه على الامتحان . وهو في الوقت نفسه مرجع يغني من قلّت مروءته عن مطالعة المطوّلات [1] . قد بعدت فيه عن السحر الكلامي الذي لا يشبع البطن ، ولا يسمّن الضلع . وما التوفيق الا بالله والاجتهاد :

بقدر الكد تُكتسَب المعالي ومن طلب العلى سَهر الليالي
ومن طلب العلوم بغير كدٍّ اضاع العمرَ في طلب المحالِ

اسمعت يا حبيبي ؟ فأنا مجرِّب وحكيم في وقت واحد ، استغفر الله ، ولكن الانسان تظل تعجبه نفسه حتى يمرض ، وحسبي انه صحّ فيَّ قول المتنبي :

يهون علينا ان تصابَ جسومُنا وتسلم اعراضٌ لنا وعقولُ

١٩٦٠ **مارون عبود**

---

١ — من شاء المطولات فعليه بكتاب الرؤوس للمؤلف نفسه . (الناشر)

العرب وبلادهم وأنسابهم

العرب : نسبة ليعرُب « جد العرب » او عربة (اسم مكان في الجزيرة) اوبمعنى بدو ، وهو الراجح .

اصلهم : ليس العرب كلهم من أصل واحد . ولجوا الجزيرة من الشمال فارّين من وجه أعدائهم ، فماشوا فيها عيشة بدو على الانعام والاعشاب فتنازعوا البقاء ، وهكذا نشأ الغزو وكانت الغارات .

موطنهم : شبه جزيرة العرب – وان لم يكونوا كلهم فيها – ، وهي واقعة في الجنوب الغربي من آسيا .

حدودها : تحدها شمالاً بادية الشام ، وشرقاً الخليج العربي وبحر ُعمان ، وجنوباً المحيط الهندي ، وغرباً البحر الأحمر .

طبيعتها : أكثرها **صحراء** ، والصحراء ثلاث مناطق :

ا – بادية السماوة : مرملة ، شحيحة الماء ، مجدبة ، قيظها شديد وأغلب سكانها بدو .

يقع جنوبيها جبل شمّر المعتدل المناخ الغزير المطر والنبات . فيه قرى وبلدان عديدة ويُعرف بجبل طيء .

ب – صحراء الجنوب : أرضها صلبة مجدبة في الغالب الّا إذا أمطرتها السماء . في بعض بقاعها نخيل واشجار ، فيها الاحقاف والدهناء وتعرف كلها بالربع الخالي .

ج – الحرار : أرض بركانية تمتد من شرقي حوران حتى المدينة .

الحجاز واليمن : إذا أغفلنا شأن الصحراء فالجزيرة تتألف من جزئين : الحجاز واليمن .

ا ــ **الحجاز** : في الشمال ، يمتد من العقبة إلى اليمن ، وسمّي حجازاً لفصله تهامة عن نجد . والحجاز قطر كان فقيراً ــ قبل ظهور النفط ــ كثير الأودية الشتوّية ، قليل الماء ، حار المناخ ، ما عدا الطائف . اكثرية سكانه الساحقة بدو . وقع على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشمال فكان ذا اهمية تجارية ، فأمّه اليهود في الجاهلية واستعمروا خيبر والمدينة (يثرب) وغيرهما .

ب ــ **اليمن** : يقع جنوبي الحجاز في الزاوية الغربية الجنوبية من الجزيرة . اشتهر بالغنى والخصب . اشهر مدنه : صنعاء ، نجران ، عدن . لسكانه القدماء علاقات بالهند والشرق الادنى .

وتلي اليمن شرقاً **حضرَموت** وهي صقع جبلي كان عامراً بدليل الخط المسند الموجود في بعض خرائبه ، **وظفار** ، مصدر التوابل ، تقع شرقي حضرموت .

وفي الزاوية الجنوبية **عُمان** ، وهو قطر جبلي على شاطىء البحر ، اشتهر سكّانه بالملاحة ، وفي الشمال الغربي من عمان ، **قطر البحرين** ، الممتد إلى حدود العراق .

نجد : اما نجد فهي الجزء المرتفع الممتد من جبل الحجاز إلى صحراء البحرين شرقاً ، فيه الصحاري والاراضي الزراعية ، وهو اصح بلاد العرب واجودها هواء .

مناخ الجزيرة عموماً : شديد الحرارة ، يعتدل في الجبال ليلاً في الصيف ، وتتجمد مياهه في الشتاء . احسن أهوائها الرياح الشرقية المعروفة بالصَبا ، واردأ الرياح ريح السموم. احسن أيام الجزيرة فصل الربيع غبّ المطر ، إذ ينبت العشب ، وبحق سمّى العرب المطر غيثاً ، لأنه غوث لهم .

سكان الجزيرة: تُصوّرهم لنا التوراة تجّاراً يربطون مصر وسوريا وفلسطين، في حين انهم لم يكونوا في أول عهدهم غير نقلة التجارة وحماة القوافل في أرضهم

من اعتداءات اخوانهم ، الى ان تدرّجوا في سلم التجارة وصار بعضهم في آخر جاهليتهم تجاراً . وينبئنا التاريخ ان النبي (صلعم) جاء سوريا مرتين متجراً.

أمّا أصلهم فيزعم بعض المؤرخين أنهم وسكان الفرات ووادي النيل من أصل واحد . تحضّر اولئك وغرق العرب في بداوتهم فكانت سبب تأخّرهم عمّن حولهم ، فعاشوا قبائل متّكلين على الأرض والسماء ، لا يفكّرون بالرقي ولا يستخدمون عقلهم في تنظيم شؤون حياتهم ، كل رجائهم بالانعام ، فهي في نظرهم كل شيء من موارد الرزق .

أمّا سكان **اليمن** فكانوا متمدّنين .

أقسامهم وأنسابهم : انقسم العرب — ككل المغرقين في البداوة — الى قبائل متعددة . أساس القبيلة الجد الواحد ، والأنساب عن طريق الحلف والولاء . وعلى القبيلة بنوا نظامهم الاجتماعي .

عاشت القبائل في نزاع دائم . يتحالفون للدفاع والهجوم فيؤدّي هذا التحالف ، اذا طال امده ، الى اندغام عدة قبائل وانتسابها لاقواها ، فيزعمون اخيراً انهم من أصل واحد . ولذلك ترى الأنساب التي عني فيها العرب جداً عرضة للشك والريب . فاليمنيّون اختلطوا بالحجازيين لمّا نزحوا الى بلادهم عند انحطاط تجارة اليمن ، قبل الميلاد بثلاثة قرون ، وكذلك رحل الحجازيون الى اليمن لكثرة نسلهم وضيق موطنهم . فتاريخ العرب غير ثابت لأنه لم يكتب ، لبداوة العرب وامّيتهم ، ولا آثار تثبته حين كان العرب متحضّرين كاليمنيين والحميريين ، اذ لم يُعثر الّا على شيء يسير من آثارهم .

فالاعتماد في تاريخ العرب على ما دوّنه الرومان واليونان والمصريّون والفرس ، والشعر الجاهلي الذي لم يدوّن الا في العصر الثالث .

خلاصة الانساب : اليكها كما اتفق عليها أهل هذا الزمان ، تبعاً لرواية التوراة التي تجعل عرب الشمال : الحجازيين او العدنانيين ، من نسل اسمعيل ؛ وعرب الجنوب : اليمنيين او القحطانيين ، من نسل يقطان (قحطان) .

نسل قحطان : كهلان وحِميَر

شعب كهلان :

أ ـ طيء ، وهي القبيلة المشهورة التي اطلق السريان والفرس اسمها على كل العرب .

ب ـ همدان .

ج ـ مذحج ، ومنها بنو الحارث ، سكان جنوب الطائف .

د ـ بجيلة ، كان لها أثر عظيم في فتوح العراق في عهد عمر .

هـ ـ جذام : سكان بادية الشام ، ومن جذام **لخم** مؤسسة ملك الحيرة على الفرات ، **وكندة** سيدة حضرموت واليمامة ، ومنها امرؤ القيس .

و ـ الازد ، حكمت عُمان ، ومنهم غساسنة الشام وخزاعة سيدة مكة قبل قريش ، ومنهم ايضاً **الأوس والخزرج** سكان يثرب .

شعب حِميَر :

أ ـ قضاعة في شمالي الحجاز .

ب ـ تنوخ ، سكان شمالي الشام .

ج ـ كلب ، سكان بادية الشام .

د ـ جهينة وعذرة ، في وادي أضم بالحجاز ، والهوى العذري منسوب الى هذه القبيلة ..

نسل عدنان : ربيعة ومضر

شعب ربيعة :

أ ـ اسد .

ب ـ وائل ، ومن وائل : **بكر وتغلب** ، كانت بينهما حروب طاحنة

ملأت حوادثها وقصصها التاريخ العربي المؤيد بالشعر .

شعب مضر : قيس : ويطلق اسمها على من ليس باليمني « **قيسي ويمني** » ومن قيس **غطفان** ، ومن غطفان **عبس وذبيان** ، **وتميم** سكان البصرة ، **وهذيل** الذين اشتهروا باجادة الشعر والاكثار منه ، **وكنانة** ومنها **قريش** .

وعلى هذه القاعدة النسبية انقسم العرب في عصبيتهم ، ولا بد من معرفتها لمن يشاء تفهم حوادث التاريخ وحل نصوص الشعر والأدب ، وخصوصاً الفخر والهجاء .

قيسي ويمني : كان العداء بين **ربيعة ومضر** بالغاً أشده ، حتى أن ربيعة كثيراً ما كانت تحالف اليمنيين لمقاتلة القيسيين احفاد مضر ، ابناء عمهم .وهكذا أصبح اليمنيون وابناء ربيعة حلفاً ، والمضريون المعروفون بالقيسيين حلفاً آخر ، فعرف هذان بحزبين عربيين « قيسي ويمني » لا يزال يرافقنا في احزابنا حتى اليوم .

عداء القحطانيين والعدنانيين : القحطانيون او اليمنيون ، اهل الجنوب ، عاشوا متحضرين .

العدنانيون او النزاريون او المعدّيون ، اهل الشمال غلبت عليهم البداوة . لغة اليمنيين كانت تخالف لغة الحجاز وضعاً وتصريفاً ، وهي اكثر اتصالاً باللغة الاكّادية والحبشية . اما لغة الحجاز فاكثر اتصالاً بالعبرية والنبطية .

اما رقي هذين الشعبين فاختلف تبعاً للحضارة واللغة والاختلاط بالشعوب .

وقد كان العداء بينهما شديداً حتى اختلفت العمائم والرايات ، فاعتمّ المضريون باللون الاحمر ، واليمنيّون باللون الاصفر وفي ذلك قال أبو تمام :

محمرّة مصفرّة فكأنها عصَب تيمّن في الورى وتمضّر

وسبب العداء النزاع الطبيعي بين البداوة والحضارة . يدلنا على هذا العداء ما كان بين اهل المدينة — الأوس والخزرج — وهم يمنيون ، واهل مكة وهم عدنانيون .

وظلّ هذا الخلاف والتنافس بينهم بعد الاسلام ، تثبته اقوال شعرائهم .

وظلّت كفّة اليمنيين في التنافس راجحة حتى ظهر النبي وهو عدناني ، ثم صارت الخلافة في قريش آله .

فعني اذ ذاك القحطانيّون بتلوين تاريخهم ، فقالوا أن قحطان جدّهم هو ابن هود ، ثم قالوا ان اسمعيل هو ابو العرب جميعاً .

اقسام تاريخ العرب ثلاثة :

ا — بائدة ، وهي الأمم التي انقرضت قبل التاريخ الجلي .

ب — عاربة ، وهم القحطانيون .

ج — مستعربة وهم العدنانيون .

ويرى الدكتور احمد امين صاحب «فجر الاسلام» انه لا يبعد ان يكون هذا التقسيم قحطانياً فجعلوا العدنانيين بعدَهم في العروبة .

عصبية العرب : ظهر الاسلام والعرب ثلاث فرق : ربيعة ومضر واليمن ، وكانت عصبية الجاهلية تأكل قلوبهم وتملك عليهم كل مشاعرهم ، فحاول النبي إطفاء جذوتها فخمدت حيناً ، وما لبثت ان تأجّجت بعد موته في سقيفة بني ساعدة ، وامتد لسانها في عهد عثمان ومعاوية وعلي ، فالتهمت الامويين واكلت العباسيين .

استغل الامويّون هذه النعرة العصبية فمزّقوا شمل العرب . ليست الخلافة سبب الشقاق في الاسلام ، انما هي العصبية الجاهلية « بلوى العرب » ، ولا يزال التفريق الذي نتج عن هذه العصبية يتهدد ملوك العرب حتى يومنا هذا .

الدول العربية : كانت العرب ثلاث دول ، وامارات متعددة :

أ — الدولة الأولى : التبابعة ، كانوا في صنعـــاء ، أشهر ملوكهم بلقيس معاصرة سليمان بن داود .

ب — الدولة الثانية : المنـــاذرة ، كانوا في العراق ، عاصمتهم الحيرة ، من ملوكهم عمرو بن هند ، والنعمان الرابع ممـدوح النابغة . كان هؤلاء المـلوك غير مستقلّين يخضعون للفرس .

ج – الدولة الثالثة : الغساسنة ، عاصمتهم دمشق والبلقاء ، يخضعون للروم خضوع المناذرة للفرس . (اشبه شيء بالانتدابات التي كانت عندنا) .

الامارات : اما الامارات فعديدة ، منهـا : كندة وتغلب وبكر وعبس وغيرهم . وكانت الإمارة تتناول أكثر من قبيلة .

كانت هذه الدويلات والامارات عربية في اخلاقها وعاداتها ولغتها ، أمّا ميولها فلم تكن عربية بحتة . كان المناذرة ميّالين للفرس ، والغساسنة للروم . وكانوا في شقاق مستمر ونزاع دائم ، فضعفوا ولم يستطيعوا مقاومة جيوش المسلمين عند امتداد موجة الفتح الأولى .

حالة العرب الاجتماعية ونظمهم : عاشوا متفرّقين قبائل ، لا تربطهم جامعة النسب بل العصبية للقبيلة ، ضلّت أم أصابت . يندغم الفرد بقبيلته حتى يكاد لا يشعر بذاتيته المستقلة . قبيلتهم أمـة ، واسرتهم طائفة . تتألف القبيلة من الاسرة ، رأس الاسرة الأب ، فالكبير من الذكور ، يئد بناته وينتقي من أبناء أمته إذا شاء ، وللزوجة المحل الثاني في الاسرة ، يحلها الزوج وينتسب اليها الابن انتسابه إلى أبيه ، تشارك الرجل في شؤون الحياة كافـة ، فهي إلى الرجل أقرب منها إلى المرأة .

أمّا رأس القبيلة فقَيدومها الممتاز ، ثم صارت الامـارة في بيوت خاصة كولاية العهد ، وأمير القبيلة سيدها الآمر المطلق ، وهو القاضي والحاكم ، واليه يرجعون في شؤونهم حسب عرفهم وتقاليدهم المرعيّة – هـذا ما يعرف بحكم العشائر حتى يومنا هذا – إذن ، فلا حكومة مسيطرة على العرب ، مـا عدا المتحضّرين منهم – ولا يطالب بحقوق الفرد غير قبيلته .

وعلاقات القبائل ببعضها عدائية أكثر منها ولائيـة ، غزو دائم وغارات مستمرة . إذا لم تجد القبيلة من تغزوه غزت بعضها كقول القطامي :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وقد تتحالف قبيلتان إذ تلجأ الضعيفة إلى القويّة لتذود عنها ، ولكن حلفهم هذا لا يدوم ، فينقلبون أعداء متحاربين .

زواجهم عقد بسيط. للرجل حق الطلاق ما لم يشترط غير ذلك عند العقد ، وهناك زواج آخر أشبه شيء بزواج المسافحة ، يعقده الفساق من الشباب ، وزواج السبي ، وهو إذا تغلّبوا على رجال أخذوا نساءهم واستحلّوهن زوجات لهم . أما تعدّد الزوجات عندهم فلم يقف عند حد، والعصبية في الزواج صيّرت ابن العم المالك الحقيقي لابنة عمه ، لا تُزف إلى سواه الا بإرادته .

والاسرة مرتبطة بالقبيلة أشد ارتباط . إذا جنى أحدهم جناية حملت قبيلته وزرها ، وإذا غنم فللقبيلة غنيمته ، وللزعيم خيرها .

إذا جنى العربي في عشيرته يلجأ إلى سواها ، فإن حمته والاها وصار منها يتعصب لها وتتعصب له .

شرائع وعادات :

البنون والبنات : مولد الغلام عيد . ومولد الابنة يوم بؤس وحزن . وقد يئدون البنت أو تنفى الى الجبال لرعي الإبل .

الختان : كانوا يختنون الطفل قبل بلوغه الحول الأول ، كما كانوا يختنون البنت .

الميراث : لم يكن للميراث قاعدة مقيدة بنظام ، فقد يتحالف رجلان فيرث أحدهما الآخر، ويرث المتبنّى كالبنين، وقد يحرم الرجل زوجته واولاده ويهب ثروته لبطل قبيلته .

الطلاق : مرجعه الرجل ، كما تقدم ، وهو انواع لا محل لذكرها هنا .

الاخذ بالثار : لا بد منه ما لم تفصل القضية في محكمة العشيرة .

العقوبات : يقضي بها شيخ القبيلة وهي قطع اليد على السارق ، والرجم على الزناة ، والقتل على القاتل عمداً .

وقد تستبدل عقوبة القتل بدفع الف بعير فدية لأهل المقتول إن كان شريفاً، ومئة إن كان من العامة ، وقد تدفع القبيلة الفدية عن القاتل لتنقذه من الموت .

هتك العرض : هذه أفظع الجرائم عند العرب . فقد تتفانى لأجلها قبيلتان

انتقاماً لعرض بكر ، ودفاعاً عن شرف القبيلة وسمعتها .

خرافاتهم : الكهانة ، العرافة ، الزجر ، الطيرة ، الميسر ، الازلام ، رمي البعرة ، وأد البنات ، حبس البلايا ، تعليق كعب الارنب ، تعليق سن الثعلب والهرّة ، تعليق حلي النساء على الملسوع ، كيّ السليم من الإبل ليبرأ الأجرب . وطء المقلّات جثة المقتول ، مسح الطارف عين المطروف سبع مرات ليسكن هيجانها ، الغول ، الهامة ، رمي سنّ الصبي ، جزّ نواصي الأسرى .

دياناتهم : البدوي قليل الدين قلما يكترث لما يعبد .

عاش العرب مشركين فألـّهوا قوى الطبيعة ومظاهرها التي لم يكن يحجبها عن أبصارهم حاجز من حواجز الحضارة ، اذ يقابلها البدوي وجهاً لوجه . فعبدوا الشمس والقمر والاجرام والنار ثم الاصنام والاوثان . وليست اصنامهم وليدة الفن كاليونان والرومان . قد يعثر البدوي في رحلة على حجر يمثل مخلوقاً بعض التمثيل فيأتي به إلى الكعبة حيث ينصبه إلهاً يتقيه ويخشاه ، ثم يستشيره في المهمات. فقد كانوا اذا عمدوا إلى غزوة اجتمعوا حول الوثن يستشيرونه بالامر ، بواسطة أزلام يجيلها سادن كعبتهم ، فإن خرج له « لا تفعل » أحجموا ، وإن خرج « افعل » أقدموا . وفي ذلك يقول شاعرهم :

انـّا اجتمعنا فهبِ السراحا ان لم تقله فمُرِ القداحا

ومن أشهر أصنامهم بنات الله الثلاثِ : اللاتِ والعزّى ومناة . وقد تهوّد وتنصر فريق منهم .

اليهودية والنصرانية : انتشرت اليهودية في يثرب وخيبر واليمن والطائف ، وكانت النصرانية في نجران ، فنازعت اليهودية في الجزيرة : يغشى قسيسوها وأحبارها أسواق العرب مبشـّرين معلمين . ومن نصارى العرب غساسنة البلقاء ومناذرة الحيرة .

تشيـّع لليهودية ذو نواس ، أحد ملوك حِميَر ، فاضطهد نصارى نجران وقتلهم . فانتصر لهم نجاشي الحبشة وهاجم ذو نواس الخ ...

وقد كانت هذه الأديان من بواعث الفتن في الجزيرة .

وقبل ظهور الاسلام كان قد تسرّب الشك بالأصنام والاوثان إلى نفوس العرب ، كما جرى لأحدهم مع أحد الاوثان اذ رأى ثعلباً يبول برأسه ، فقال :

أربٌ يبول الثعلبان برأسه ! لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

فلما ظهر الاسلام أسلم كثيرون بعد صراع ونزاع ، فساد الاسلام إلا في بعض القبائل ككندة وبكر وقيس .

ثقافتهم : ثقّف العرب بعض الثقافة ثلاثة امور :

١ – اتصالهم بالروم والفرس بواسطة دولاتهم المار ذكرها التي كانت قائمة على التخوم . شيّدها غير العرب ليصدّوا بها غارات العرب عن مستعمراتهم .

٢ – التجارة التي مزجتهم بالأمم بعض المزج ، فاقتبسوا باختلاطهم بها مدنية وادباً وعلماً .

٣ – اليهوديه والنصرانية اللتان حملتا إلى الجزيرة بعض الثقافة اليونانية من الفلسفة والأدب إلى جانب علوم التوراة وما فيها من تاريخ التكوين وحديث الثواب والعقاب والبعث والجنه والنار الخ ...

وحملت اليهودية ايضاً الزراعة والصناعة .

فمن هذه العوامل دخلت اللغة ألفاظ جديدة لأغراض جديدة ، وتأثرت العقول بمبادىء جديدة لم يألفها العرب كالشك والزهد الخ ...

نعم ، إن دخول هذه الثقافة لم يكن منظّماً ، ولم تسر سيراً سريعاً لتبدّي العرب وأميّتهم ، وإعراض السواد الأعظم عن كل ما هو جديد . وهذا شأن كل امّة في اقتبال الجديد واعتناقها له مهما كانت عريقة في الحضارة .

وقصارى الكلام ان تثقّف العرب كان بطيئاً ضيّق النطاق ، فأهل الحيرة عرفوا شيئاً من علوم الفرس واليونان وآدابهم ، وغساسنة الشام أدركوا أشياء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، وأهل اليمن كانوا متّصلين منذ عهد بعيد بالفرس والحبشة والرومان .

علومهم : امّا غير هؤلاء من عرب الجزيرة فكانوا لا يدركون من العلم والفن إلا ما توصلوا اليه بالتجارب والاختبار . إننا نستطيع ان نسمّيه علماً بالنسبة

لأيامهم ، وهاك بعض علومهم :

علم النجوم : عرفوا شيئاً منه لحاجتهم إلى معرفة الفصول والرياح والسرى والأمطار ، كما عرف جيرانهم واخوانهم الفينيقيون نجمة القطب ليهتدوا بها في مخر البحار .

الطب والبيطرة : عالجوا أنفسهم وحيواناتهم بالعقاقير والكي والحجامة ، ثم بالرقي والطلاسم .

علم الانساب : حرصهم على عصبيّتهم أوجد هذا العلم .

الفراسة والقيافة : لكثرة ملاحظاتهم استدلّوا بهيئة الإنسان الخارجية على أخلاقه ، وبأعضائه على نسبه ، وذلك ليكشفوا الدعيّ منهم .

حروبهم وأول عهدهم بالاتحاد : أضعفتهم الحروب وكادت تفنيهم ، فاستيقظ العرب لأول مرة واتحدوا عندما هاجم جزيرتهم أبرهة الحبشي واحتلها ، فأبت انفة العربي واباؤه ونزعته الأستقلالية إحتمال النير الاجنبي ، فاستعان سيف بن ذي يزن بالرومان فخيبوه ، لأن احتلال الحبشة لليمن كان بتشجيعهم ، فالتجأ إلى كسرى فأمده بجيش لجب تغلب به على الحبشة واستعاد حرية العرب بعام الفيل ، وصار سيف بن ذي يزن ملكاً عليهم .

استعادوا الاستقلال ، ضالة البدوي المنشودة ، وظلوا كذلك حتى طمعت الفرس بملك العرب بعد وفاة « سيفهم » ، فبسطوا سيادتهم عليهم ، ثم استبدوا فقتلوا النعمان ملك العرب ، فهاج العرب وتجمعوا وقاتلوا الفرس فاستظهروا عليهم بيوم ذي قار .

شعر العرب بفائدة الاتحاد فاعتصموا به وظهروا أمام الأعاجم كدولة قويّة متّحدة . وبلغ اتحادهم الأوج تحت لواء النبي (صلعم) .

اخلاقهم : العربي معجب بنفسه ، معتد بشخصيته ، حريص على حريته واستقلاله ، وذاك ربيب الصحراء ، كريم مغياث ، وهّاب . أحوجته العازة إلى الغزو فصار السلب بالقوة فخراً ومجداً ، شجاع يقظ على حد قول الشاعر :

ينام باحدى مقلتيه ويتّقي   بأخرى المنايا فهو يقظان نائمُ

انشأته على هذه الاخلاق مجاورته القبائل المعادية والحيوانات الضارية .

أبي النفس ، سخي ، شجاع ، كريم ، فخور ، يحب اللهو وآلاته من خمر وميسر وصيد وغناء ، يدلك على ذلك شعرهم الحافل بالتغني بهذه السجايا .

والخلاصة ان مثل العربي الاعلى في الاخلاق هو المروءة ، وهي لفظة تنطوي تحتها ، في عرفهم ، كل الصفات الكريمة .

البدوي يحتقر كل عمل غير رعي الابل والاغارة . يرى كل رزقه في أنعامه ، فيقتتل على الغدير ، ويتطاحن على المراعي . هو غير أهل للتجارة ، ولم يكن في أول عهده بين التجار غير سائق أو دليل ، او حامٍ من إغارة ابناء عمّه وخاله. وهو مع ذلك ذكي نبيه ، تكفيه اشارة لفهم المراد .

يعيش عيشة رخاء في العام الخصيب ، ويأكل الضب واليربوع في زمن الجدب والقحط .

اذا ما تميميٌّ أتاك مفاخراً فقل عدِّ عنه كيف أكلك للضبّ

سائح أبدي لا يقرُّ له قرار . ينازل الطبيعة وجهاً لوجه . واذا كان لناموس بقاء الأنسب تأثير في البشر فالعربي البدوي انسب الناس .

لغة العرب

اصلها : إحدى اللغات الساميّة ، نسبة لسام ، أحد الآباء الأوّلين — كما اتفق الناس — الذي من أصله العرب . ويقول المحقّقون من علماء اللغات ان لغتنا العربية أقرب اللغات شبهاً باللغة التي اشتقّت منها، معلّلين ذلك بانزواء العرب في جزيرتهم واعتزالهم .

كانت في بدء عهدها فرعين عظيمين : لغة مضر ، ولغة حِمْيَر . كان وبينهما فروق كما ورد في كلامنا على لغة القحطانيين والعدنانيين . اما اللهجات فتعددت الى حد عظيم ، بيد انه مع توالي الايام والعصور صرعت لهجة قريش لهجات الجزيرة كلها ، لأسباب ستأتي . لغة الأدب (الشعر والنثر) ولغة الدين (القرآن) ولغة السياسة والإدارة (بعد الاسلام) فاغتنت بما أُدخل عليها من الالفاظ الجديدة التي دعا إليها الدين والسياسة والحضارة والعلم الجديد.

لقد كان العرب والسريان والعبران في الجزيرة يتفاهمون بلا ترجمان . ولكن تطوّر اللغة العربية بتطوّر قومها أبعدها عن أخواتها . واللغة تسود بسيادة قومها وتنمو برقيّهم ، فذلك لم يبقَ رابطة تربطها باختيها غير ألفاظ تختلف لهجة يعرفها المطّلعون على هذه اللغات الثلاث ، ومنها يعرفون ان هذه اللغات من مقلع واحد .

اسباب نموّها ورقيّها : هي العوامل التي تقدّم ذكرها في كلامنا عن ثقافة العرب تحت عنوان « ثقافتهم » .

فاللغة كائن ينمو ويتكاثر. فكلّما وُجدت الأغراض خُلقت الالفاظ. وصار

العرب دولة بعد الفتح الإسلامي ، فكانوا كالبوتقة للّغات ، فصهروها وطبعوها بطابع لغتهم الخاص ، وأخذوا منها كل ما احتاجوا اليه ، فاتسّع نطاق لغتهم أيّما اتساع .

وأهم أسباب النمو هي : المجاز، والاشتقاق، والابدال ، والنحت، والقلب، والتعريب ، وهاك التفصيل :

أ ــ المجاز أو التجوز : وهو أوسع أبواب اللغة ، فمنه تثري اللغة إلى ما لا حد له . ومن شروطه وجود العلاقة بين المعنى والكلمة التي نقلت اليه. ويكون المجاز في المفرد والجملة .

ب ــ الاشتقاق : هو من ميّزات اللغة العربية وبه تتناسل إلى حد بعيد . فبنقلك اللفظة من صيغة إلى صيغة تنقلهـــا من معنى إلى معنى آخر ، فتستغني غالباً بكلمة عن جملة كقولك : استكتبت فلاناً ، أي طلبت اليه ان يكون كاتباً لي الخ ...

ج ــ الابدال : وهو إبدال حرف بحرف من لفظة فتكونان بمعنى واحد . وللإبدال اسباب ، منها استثقال بعض الحروف عند بعض النـــاس ، فأبدلوها بأخف منها . وللإبدال أثر كبير في اللغة تعثر عليه في أكثر كلماتها ان لم نقل كلها ، واليك المثل : **املس املص املز أي اتخلص . لصق لسق لزق . البصاق البزاق البساق الخ ...**

د ــ القلب : وهو تقديم حرف أو تأخيره في اللفظة بشرط أن لا تتبدّل الحروف كقولك : فطس طفس ، يتسكع يتكسع ، اوباش اوشاب الخ ...

ه ــ النحت : ويقصد به الايجاز ـــ والايجاز بغية العربي ومطلبه في كل شؤونه حتى اللغة . لباسه وجيز ، وأكله وجيز ، وبيته وجيز ــ وهو أن تصوغ كلمة تدل على كلمات كقولهم : « بسملَ » و « كبّر » . ويكون النحت بالفعل نحو « سمعل » (قال السلام عليكم) ، وبالوصف نحو صلدم ، للحافر الشديد من الصلد والصدم ، وبالاسم نحو جلمود من جلد وجمد ، وبالنسبة نحو مرقسي (من سلالة امرىء القيس) .

و — التعريب : وهو نقل الكلمة الأعجمية على نهـــج العرب وأسلوبهم . فالحاجة إلى التعريب ماسّة دائماً في كل مكان وزمـــان . وقد لجأ اليها العرب في كل اطوارهم ولم يأنفوا من الإلتجاء اليها كما نأنف نحن اليوم . وفي اللغة الفاظ لا تعد كلها أعجمية معربة . وفي القرآن الكريم مئة كلمة منها .

خصائص لغة العرب : للغة العرب خصائص في افهام المعـاني ليست لغيرها من اللغات ، منها :

١ — الايجاز : وهو وليد الاشتقاق والنحت .

٢ — جمال التعبير : الذي تتولد منه معانٍ فرعيةعديدة تفقد رونقها وجمالها الفني إذا ترجمت .

٣ — الاعراب : الذي به يعرف الخبر من الانشاء ، والمفعول من الفاعل ، والمضاف من المنعوت ، والتعجب من الاستفهام ، والنعت من الحال ، والحال من الخبر . ففي اعراب ما أحسن زيد ، تتضح الاغراض الثلاثة .

٤ — الحركات : كقولهم مِفتح للآلة ومَفتح لموضع الفتـــح ، ومنصّ كذلك الخ ...

٥ — ترك التأنيث : حيث لا يشارك المذكر المؤنث في الصفة كقولهم: امرأة طاهر (من الحيض) وطاهرة (من العيب) وقاعد (من الحبل) وقاعدة (من القعود) الخ . ومثل قولهم : كم رأيت رجلاً ، في الاستخبـــار أي الاستفهام ، وكم رجل رأيت ، في الاخبار للتكثير .

٦ — مخالفة الظاهر . كقولهم : قاتله الله ، الخ ...

٧ — الزيادة : كقولهم : صه وصهن ، ضيف ضيفن ، ورعشن ، الخ ...

٨ — الاختصار : كقولهم : أثعلبا وتفر .

٩ — ورود الفاظ كثيرة بمعنى واحد يلجأ اليها الألثغ ليكتم لثغته أمـــام الناس ، كقولهم راية وغاية (للعلم) ، رمّازة وغمّازة (للفتاة) ملّث وملس ، وفاضت وفاظت الخ ...

١٠ — كثرة حروفها وهي صالحة للاتصال بما بعدها وما قبلها ، الا ستـــة

حروف فانها لا تتصل الا بما قبلها وهي : ر و ز ذ د ا .

كلمة لا بد منها : نمت اللغة العربية وتناسلت فكثرت ثروتها الأدبية حتى انتهت الينا فوقفنا بها موقف الجمود . والجمود دليل الموت والفناء . أغلقنا باب المجاز والاشتقاق ، وسددنا على انفسنا منافذ النحت والتعريب ، فاصبحت الفاظ لغتنا كالمحنّطات في المتاحف او كالمتاع الذي لا يصلح للاستعمال . لقد صارت كالأوثان في كعبة الجاهليين لا نجرؤ على مسها ، نأنف من ادخال الدخيل اليها بالتعريب مع انها مملوءة به وهو منبع ثروتها . لا نستعمل الا ما ورد في كلامهم ، فاصبحت لغتنا لا تصلح الا للتعبير عن اغراض ذلك الزمان .

ما أشبه لغتنا بشجرة لم تمسها فأس مشذّب ، لا مائية ولا نضارة فيها . ييبس منها ما ييبس ولا تفرخ جديداً .

نزعم إنها تحتوي كل الألفاظ من قديم وجديد ، مما ولد وسيولد ، وذاك لعمري الضلال المبين . اجل ان العربي لأنوف من كل غريب ، حتى الالفاظ التي يحتاج اليها ليعبّر عن غرضه . وهذا لعمري منتهى الضلال والشطط . فهذه أرقى اللغات الاوروبية تدخل اليها الألفاظ الجديدة بالمئات كل عام ، من دخيل وغيره ، وهذه معاجمهم تدلنا على أصل كل كلمة دخلت لغتهم ، ولا حياء ولا خجل .

أنا لا اقول بادخال كل لفظة إلى لغتنا فتصبح فوضى ، ولكنني اقول بأخذ كل ما نعجز عن إيجاده لنتفاهم مع ناس هذا الزمان .

وان كان لا بد من اخذ الفاظ من اللغة واطلاقها على مسميات مستنبطات جديدة ، فنحن محتاجون إلى قاموس مصوّر يخصص كل اسم بمسماه بعد رسمه وتعريفه التعريف الذي لا التباس فيه ، فلا يكون تفسير سَعُدَ ضد شقيَ وشقي ضد سعد كما هي الحالة في المعاجم التي بين ايدينا .

إن الحيوانات والحشرات بريّة وبحريّة ، مختلفة متنوّعة ، ولها أسماء عديدة في لغتنا ، فلماذا لا نخصّ كل نوع باسم خاص به ، وكذا قُلْ في النبات وغيره من الاشياء .

لماذا لا نشتق تلفن من التلفون ، كما اشتقّ الإمام علي نَـوْرز من كلمة نيروز بقوله : « نورزوا لنا كل يوم » ، وكما قالوا دوّن من كلمة ديوان . اما اذا كان لا بد من استعمال كلمة هـاتف للتلفون ، فلتكن كلمة هتف بدلاً من تلفن . وهكذا قل في كل الالفاظ المستحدثة .

فما اشبهنا بأبناء اتصلت بهم ثروة آبائهم فلم يعملوا على زيادتها وانمائها ، فكادت تفنى وتضمحل وهم ينظرون اليها نظرة الجاهل الى مريض يتململ امامه ولا يعرف بما يسعفه .

آداب الامم

الفكر العام : من اطـّلع على آداب الأمم ظهر له أن الفكر الإنساني متـّفق على بعد القارات . فعدة كتـّاب في أمم مختلفة ، اتفقوا في النظر الى الحياة ، وان اختلفوا جنساً وديناً وعصراً ولغة .

الأدب العام : هو مأثورات كل أمة مما روي عن نوابغها من كلام ، وخير الأدب ما استهواك وملت إلى استماعه مراراً وتلذذت بأخيلته ومعانيه وطربت لموسيقى الفاظه .

ولكل الأمم آداب ، ومن اطلع على آداب احدى الأمم برويّة وإمعان ، أدرك عاداتها الاجتماعية والدينية ، ورأى أمامه اخلاقها مصورة ادق تصوير .

تاريخ الأدب : علم يبحث عن تطوّرات كل لغة وما فيها من ثروة أدبية نظماً ونثراً ، ثم يتتبع سير الفكر في تلك الأمة ،يرافقه في سيره صعوداً وهبوطاً من الولادة إلى الشباب فالهرم فالموت فالانبعاث. ويُعنى هذا العلم بتاريخ من نبه من حملة القلم ، ناقداً ما كتبوه ، مبيناً تأثيرهم ببعضهم صناعة وتفكيراً . ومن درس تاريخ آداب أُمة رآها في همجيتها ومدنيتها . فدرس آداب أمة هو درس تاريخها ، ولكي يكون حكمنا صحيحاً يجب أن ندرس كل العصور .

اهمية تاريخ الادب : الأدب مرتبط باللغة والتاريخ.فدرس تاريخ الامة من حيث الاجتماع والدين والسياسة ضروري لفهم آدابها . ودرس آدابها ضروري لتصديق تاريخها . فالأدب صورة العصر بما فيه من جمال وقبح .ومتى فقدت أُمة آدابها فقدت لغتها وتاريخها . وكل أُمة تتضعضع لغتها وتندثر ، تتفكك عرى

وحدتها وتجهل أمجادها ومفاخرها . وكل أُمة منيت بهذا الداء سهُل إستعبادها، وماتت قوميتها، وانحطّت مهما كانت نبيلة ، كسلسلة ذهبية مفككة الحلقات.

فوائد تاريخ الادب : يُبيّن لنا فكر الشعب العام وتطور التعبير والاسلوب بتطور الأمة وامتزاجها بسواها . وباطلاعنا على التأثيرات الإجتماعية والسياسية والدينية ،نحكم على الانشاء في أي عصر كتب. فما يستعمل في عصر من الالفاظ قد لا يستعمل في عصر آخر، لأن اللغة اكتسابية ، خاضعة للنمو . ومن درس تاريخ الادب فهم أساليب الكتّاب .

أقسام الادب : الأدب قسمان: نظم ونثر . ونبحث الآن في شيء من هذا ، بل نرجئه الى الفصل التالي ونقدّم عليه الآن البحث في العقلية العربية .

العقلية العربية

العربي : ذكي تكفيه الإشارة ليفهم – إن اللبيب من الاشارة يفهم – حاضر البديهة ، ذكاؤه ليس في الابداع بل تفنّن بأساليب الكلام . مفرط بحب الحرية الشخصية – لا الاجتماعية – لا يخضع ولا يدين لأحد . ولذلك قال عنه الأب لامنس: اليسوعي : العربي مثال الديمقراطية . سبب كل شقائه إغراقه في محبة الحريّة وثورته على السلطة . وهو من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد القبيلة ، كريم مضياف ، يبر اذا حالف ، ويفي اذا صادق .

قال اوليري : **العربي ضعيف الخيال جامد العواطف** » .

ليس العربي جامد العواطف ضعيف الخيال ، بل العربي مقلّد لا يفكّر كثيراً ، ككلّ من يعيش في محيط محدود . هو في أدبه مثله في حياته . فكما أنه لم يفكّر بتغيير مجرى حياته ، لم يفكّر بتغيير أسلوب أدبه وتفكيره . ولذلك لم يخرج على مألوف من تقدموه الّا خروجاً ضئيلاً في كل اطواره . فهذه آثار البداوة لا تزال ظاهرة في شعراء القرن العشرين وأدبائه ظهوراً ملموساً .

قلّة تفكير العربي جعلته يصدّق خرافات كثيرة . وليس العربي وحده مصدّقاً للخرافات ، فللأمم العريقة في المدنية خرافات تضحك كل مفكر .

فماذا نقول متى عرفنا ان الاميركي يعتقد اعتقاداً يكاد يكون عقيدة ان « نعلة الفرس » فيها سعادة وفأل ؟

العقل للعربي لا ينظر إلى الاشياء نظرة شاملة تتحرّى المسائل من أصولها ، بل يطوف حول الموضوع كالنحلة ، تأخذ شيئاً من الشهد وتترك كثيراً، ولكن

عسلها في كل حال لذيذ .

ولهـــذا ضَعُفَ « منطقه » وظهرت افـكاره كسلسلة ذهبية مفككّكة الحلقات . وهذا ما نلمسه في الشعر العربي . وبناء على هذه الخاصة جعلوا البيت وحدة القصيدة .

وقد قصرَ نفَس الشاعر العربي وصرت إذا أغفلت من القصيدة بعض أبياتها أو قدمت أو أخرت فيها لا تدرك أن هناك شيئاً مفقوداً .

اسباب تكوين عقلية العرب : أولاً البيئة الطبيعية ، وهي المحيط الذي عاشوا فيه . فهناك جبال وأنهار وصحراء .

ثانياً — البيئة الاجتماعية : كنظام الحكومة والدين والاسرة الخ ...

فبيئتهم الطبيعيّة القاسية حالت دون دخول المدنيّة اليها . فلم يطمـــع بجزيرتهم الفاتحون والمستعمرون لجدبها وخشونة العيش فيها .

إن حياة الصحراء على وتيرة واحدة ، ولذلك جاء الأدب العربي على وتيرة واحدة ، فلا تبدّل ولا تغيير في مشاهد الطبيعة يولـّد الفكر ، وينوّع الخيال ، ويلوّن التصوّر .

ففي ذلك الإقليم الطلق نشأ عقل طلق الّا من قيـــدين : قيد الدين ، وقيد القبيلة .

قيد الدين : دعاهم اليه خوفهم من عناصر الطبيعة الثائرة التي تقابلهم وجهاً لوجه ، فترهبهم .

قيد القبيلة : دعاهم اليه التنازع والخصام والحرب في سبيل المعـــاش . في لغتهم دلالة على عقليتهم . سمّوا المطر غيثاً لقحط أرضهم . وعـــدّوا الكرم رأس الفضائل لبؤسهم . وجعلوا الشجاعة رأس المـكارم الاخلاقيـــة لحاجتهم الى الدفاع .

اللغة وعملها في تكوين العقلية : اللغة تدل على العقلية بألفاظـــها الدالة على الاشياء التي تعرفها الأمة . وهذا نعرفه من المعاجم . امّا معاجمنا فلا تدل على شيء من هذا ، لأنها لم توضع في عصور مختلفة ، بل جمعت كلها دفعة واحـــدة ،

فخلطت الألفاظ الجاهلية بالأموية والعبّاسية . قد تصلح دليلاً على العصور السالفة ، أما أن تدل في الغد على عقليتنا نحن فهذا بعيد، لأننا لم ندخل فيها شيئاً يدل على عقليتنا من مسمّيات علومنا وما نعرفه من غرائب العلم والفن على اختلاف فروعها .

أمّا أسلافنا الأقدمون فمن لغتهم نستدل على عقليتهم .

ففي الماديات اوجدت حاجتهم إلى الناقة الألفاظ الكثيرة المتعلّقة بها . وقلة احتياجهم إلى السفينة والانتفاع بها قلل ألفاظها جداً. وصفوا الصحراء وما فيها بكل دقّة . ولم يصفوا البحر إلاّ قليلاً . وهذا طبيعي إذ لا يصف الانسان إلّا ما يحتك به .

ألم يقل عمر بن الخطاب لأحد قوّاده: « صف لي البحر » عندما سأله ركوبه للفتح ؟ ألم يقل الشاعر العربي في ذلك الزمان :

لا أركب البحر أخشى ... عليّ منه المعاطب
طين أنا وهو ماء ... والطين في الماء ذائب

وفي المعنويات نجد ألفاظ البؤس أكثر من ألفاظ السعادة ، لكثرة مصائبهم وويلاتهم .

إذا لجأنا إلى الشعر فلا نستطيع أن نحكم به على عقلية العرب جميعاً ، لأنهم كانوا قبائل متعددة تستعمل ألفاظاً مختلفة ، ولأسباب أخرى ستأتي فيما يلي :

وإذا لجأنا إلى القرآن الكريم – كما يريد الدكتور طه حسين – فلا نجد صورة الجاهلية تامة ، لأن في ألفاظه وتعابيره ما هو خارج عن مألوف عرب الجاهلية .

الشعر : الشاعر علم القبيلة . والشعر في عرفهم من شعر ، أي علم ، أمّا علماء اللغات فيقولون أنه من كلمة شير العبرانية ، ومعناها الغناء . ونحن إلى هذا الرأي أقرب ، لأننا إلى الآن لا نزال نقول أنشد فلان قصيدة .

إننا نخالف القائلين ان معنى شعر علم ، لأن شعراءنا اليوم (شعراء الزجل) ليسوا أعلم الأمة ، بل هم ذوو قرائح منحتهم ايّاها الطبيعة . وكذلك كان

الشعراء في الجاهلية .

الشعر ديوان العرب – هكذا قال الأقدمون ، وهذا معناه أن الشعر وثائق تاريخية ، وهو كذلك لو عني الرواة بحفظ الشعر نظراً لقيمته التاريخية. ولكنهم لم يحفظوا ولم يدوّنوا إلّا مـا لاءم أذواقهم ، واغفلوا كثيراً من الشعر الذي لو حفظ وبقي لكان منه وثائق تاريخية ذات قيمـة تدل دلالة واضحة على عقلية العرب .

الأمثال : تدل دلالة أصدق من الشعر على عقلية الأمة ، لأنهـا صادرة عن مجموعها ، بخلاف الشعر الذي ينبع من أفرادها .

والأمثال تدل على ضروب حياة الأمم تجارية واجتماعية وزراعية، كقولهم : استنوق الجمل ، لا في العير ولا في النفير ، في بيته يؤتى الحكم . فالأمثال التي قيلت في المرأة تدل على انحطاط مقامها ، والتي قيلت في الحياة الاقتصادية تدل على جدب البلاد وقحطها .

الأحاجي والأسئلة : وهذه تدل على مبلغ عقليتهم أيضاً كمـا جرى لعبيد الابرص مع امرىء القيس ، وما جرى لامرىء القيس مع الابنة الـتي خطبها ، ومعاوية مع من سأله .

القصص : القصص التي خلقوها للحيوانات تدل على عقليتهم أيضاً كقولهم : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا اذنين .

ومن القصص ، أيام العرب ، أي حروبهم وأحاديث الهوى ، وقصص أُخرى أخذوهـا من أمم أُخرى ، أو أحدثوا هم ما يشبهها ، وهـذا يدل على أنهم لم يكونوا بمعزل عن غيرهم من الأمم كما يظن ، بل كان هناك امتزاج .

الاسلام وعقلية العرب : للاسلام أعظم أثر في عقلية العرب فقد جاء بتعاليم جديدة مخالفة لمعتقدهم فغيّرت عقليتهم . وبواسطة الفتح الاسلامي استفاد العرب من مدنيّات الأمم التي استولوا عليها فاخصبت عقليتهم .

الإسلام غيّر قيمة الأشياء في نظرهم . فمنها ما غلا ومنها ما رخص . فمثل الإسلام الأعلى غير المثل الجاهلي .

المثل الجاهلي : شجاعة شخصية ، شهامة لا حدّ لها ، اسراف في الكرم ، منتهى الاخلاص للقبيلة ، انتقام ، ثأر ، عصبية ، لذّات ، تمتع .

المثل الاسلامي : خضوع لله وانقياد اعمى ، صبر ، اخضاع منافع الشخص والقبيلة لأوامر الدين ، قناعة ،تواضع ، مساواة لقتل العصبية ، تعصب للجنس.

في القرآن الكريم : ليس البر أن تولوا الخ . ولكن البر من آمن بالله الخ . . .

وفي الشعر الجاهلي : إذا القوم قالوا من فتى خلتُ أنني الخ .

ألّا ان العصبية التي حاربها الإسلام ظهرت من حين إلى آخر في التاريخ الإسلامي ، وهي سبب النزاع بين عثمان وعلي ومعاوية .

أجل ، لم يصبغ الإسلام كل العرب صبغة واحدة ، بل صبغ الذين تغلغل الإسلام في اعماق نفوسهم ، وهم المهاجرون والأنصار . والنزعة الجاهليّة ظاهرة أشد الظهور في الشعر الأموي .

التمازج : وامتزج العرب بغيرهم من الأمم والشعوب بعد الفتح الاسلامي ، فتغيّرت بذلك العقلية العربية ، وتناول المزج كل شؤون الحياة من اجتماع وآراء ودين .

وقد ساعد **الرقّ والولاء** على الامتزاج . فالاسلام حبّب عتق الرقيق وجعله كفّارة عن جرائم كثيرة ، ومن أُعتِقَ كان « **مولى** » ، وهذا ما عرف بالولاء ، واذا مات المعتَق بدون عقب ورثه المعتِق .

إن **للموالي** هؤلاء يداً كبرى في تكوّن العقلية العربية . فبالزواج بالاماء والموالي ، اختلط الدم العربي بسواه . ومن ابناء هؤلاء السراري : زين العابدين ابن الحسين ، وقاسم بن محمد بن أبي بكر ، وغيرهما . وقد نبغ كثير من أبنائهن فزادوا في ثروة الأدب العربي .

والاختلاط في السكنى: كان من أقوى عوامل المزج . فالعجم الذين جاؤوا بلاد العرب أسرى حرب صاروا فيما بعد موالي احرارا ، وامست تعج بهم الأمصار ، فاحتكروا الصناعة والتجارة ، كما يحدث بعد كل انقلاب عظيم .

فمن كل الاسباب المتقدمة امتزجت العادات والأنظمة والحكم والفلسفة

وضروب الحكم .

ولمّا كانت هذه الأمم المغلوبة ارقى مدنية من العرب ، كانت السيادة لمدنيتها وحضارتها ونظمها . ولما كان العرب العنصر الأقوى ، صبغوا هــذه المدنيات بصبغتهم الخاصة .

وبالاجمال كان هذا التمازج تطعيماً بين العقل العربي والعقل الأجنبي انتج بعد زمن قليل .

فلما اطمأن المغلوبون الى الاسلام بدأوا يؤلفون في علومهم ، فتأثّر العرب بها بكل شيء ، حتى العقيدة الاسلامية لم تخل من تأثر .

وكانت الحرب سجالا في الشؤون الاجتماعية والدينية واللغات والآمــــال والأماني والنظم والعصبية ، فللعربي فيها ما ينافي غيره .

ثم ظهرت نتائج كل هذا في العصور التي تلت الفتح الاسلامي ، فانخذل العرب في النظم الاجتماعية والسياسية ، وانتصروا في اللغة والدين .

غلبت اللغة جميع اللغات وهزمتها ، واعتنق المغلوبون الدين الاسلامي ، وان تأثر الدين واللغة بشيء اعجمي .

أثر الفرس : اعتنق الفرس الاسلام ولم يكونوا كالمسلمين العرب . وتعلموا العربية ولكنهم لم يفكـّروا كالعرب ولم يتخيّلوا مثلهم ، فدخلت بذلك تعاليم جديدة في الاسلام ظهرت في التشيّع والتصوّف ، وغُمر الأدب العربي بمنتوجات فارس الأدبية .

مراكز الحياة العقلية : الحياة في المدن تختلف طبعاً عنها في السواد ، وقد تمتاز كل مدينة بعلم لأسباب أدبية .

فظهور النبي في مكـّة وهجرته إلى المدينة جعل لهما صبغة علمية خاصــــة ، وكثرة الاحداث السياسيّة في العراق وتتابع الفتن انشأا المذاهب الدينيــــة ، ووجود الدولة الأموية في الشام كيّف الحياة العلميّة فيها .

فأهم المراكز العقليّة هي : ١ — مكة والمدينــــة في الحجاز . ٢ — البصرة والكوفة في العراق . ٣ — دمشق في الشام . ٤ — الفسطاط بمصر .

الحجاز – مكة والمدينة : مركزان لطلاّب الحديث والفقه والتاريخ، فاقت المدينة مكـّة لكثرة مهاجرة الناس اليها ، فهي مقر الخلافة وكبار الصحابة ، لا يبرحها كبار قريش الّا لحاجة ماسّة ، وبها كانت توزّع الأسرى . فلهـذه الاسباب كانت تزدحم فيها الناس من كل طبقة .

إن هؤلاء الأسرى كانوا من طبقة عالية من مختلف الأمم التي دوّخها العرب. وبتوزيعهم على العرب صبغوا الحياة الاسلامية بعقلية تخالف ، من بعض الوجوه ، عقلية العرب لأن الاسرى كانوا ابناء علم منظّم .

كان في المدينتين حياتان متناقضتان : حياة زهد وتقى وعلم لوجود الصحابة الأتقياء القانتين ، وحياة لهو وتمتع أنتجت فنـّاً وادباً . وقد امتلأت المدينـة ومكة بالمغنـّين والمغنـّيات ، لأن طبقة العرب العليا كانت هناك ، وكان افرادها يتسابقون الى اقتناء اولئك المغنين والمغنيات ويتهادونهم كما يتهادون بالسلع .

العراق : رغب العرب في الهجرة اليه لغناه وخصبه ، فحملوا اليه العصبية القبلية وارستقراطية الفاتح .

فالعصبية القبلية ظهرت تجاه بعضهم بعضاً اذ خطـّطوا البصرة والكوفـة تخطيطاً قبليـّاً ، كل فريق على جانب ، كما في بعض المدن الاسلامية المسيحيـة اليوم : حارة الاسلام وحارة النصارى .

امّا أرستقراطية الفاتح فظهرت في موقف العرب من الموالي .

ثم تحوّلت العصبيّة القبليّة الى عصبيّة للمدينة ، فالبصريّون تعصّبوا للبصرة ، والكوفيون تعصّبوا للكوفة . تفاخروا بالفتوح اولاً ثم بالعلـم ، وتعصّب كل لعلمائه في مختلف الفروع .

فالعراق اكثر البلاد ثروة علمية وأدبية لأسباب أبرزها :

١ – المدنيّات التي ورثها العرب عن العراق ، وثروة البلاد التي تمكن العالم من التفكير إذا تهيأ معاشه .

٢ – كثرة الفتن التي كان العراق ساحتها، ونزوح كبار العرب اليه ، وبحثهم هناك في الحقوق والشرع توصلاً لمعرفة صاحب الحق من الزعماء .

٣ – اضطرار العرب الى وضع علم النحو لكثرة الموالي في العراق ليتعلموا العربية ، وقد وضع على النمط السرياني لأن السريان كانوا قبل العرب في العراق.

الشام : خصب الأرض واعتدال الجو بعثا كثيراً من الانبياء في هذا القطر ، فنشروا تعاليمهم. وتعاقب المدنيات عليه أورثه علوماً كثيرة. فحروف الكتابة عن الفينيقيين ، والتعاليم الإلهية عن العبريين ، والمذاهب الفلسفية عن اليونان ، والنظرات الفقهيَّة عن الرومان .

نزح العرب الى الشام في جاهليتهم وصاروا فيها ملوكاً وامراء ، واليها انتسبوا لا الى الجزيرة العربية .

فعند الفتح الاسلامي سادت لغة قريش فيها بدلاً من لغتها التي كانت خليطاً من الآرامية والعربية .

وكان فيها نصارى كثيرون احتفظوا بدينهم ، فقامت المساجد بجانب الكنائس ، وحصل احتكاك وجدال وحوار وخصومة ، فأدّى كل ذلك إلى البحث في القضاء والقدر وصفات الله التي هي الأساس لعلم الكلام .

مصر : أهم علومها كان علم الدين أوّلاً ، فلمّا هدأت حركة الفتح استعادت الثقافة اليونانية الرومانية نشاطها الى ان اصطبغت بصبغة اسلامية ، وهذا لم يظهر الّا في آخر عهد الدولة الاموية .

الخلاصة : عقلية عربيّة لها طبيعة خاصة هي نتاج بيئتها ، وعيشة اجتماعية خاصة يعيشها العرب في جاهليتهم .

دين إسلامي جديد أتى بتعاليم جديدة ، رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الجاهلي .

فتح إسلامي مدّ سلطانه على فارس وما حولها من مستعمرات رومانية كثيرة ، فأذاب مدنية الفرس وعلمهم ودينهم ودين المستعمرات الرومانية ومدنيتها وعلمها وكوّن منها مزيجاً واحداً مختلف العناصر .

كل هذه الأشياء كانت اسباباً لها نتائجها ، ومن نتائجها ما كان من حركة علمية ودينية .

وهكذا تطوّرت العقلية في وقت قصير وبلغت شأواً غير قليل ، ولكنها عادت إلى الجمود عندما ضَعُفَ أمر العرب ، وصارت إلى الهمود لمّا ذهب الملك من يدهم وآل إلى الاتراك ، وعادت إلى اليقظة والانبعاث حين فكر العرب بحقهم المسلوب ، وقاموا يجاهدون للوصول اليه ، ولا يزالون يجاهدون لاستعادة امجادهم الغابرة . اما اللغة فظلت تقاوم العوادي ، ولو لم تثبت في وجه الزمان لبادت الأمة واضمحلّ كيانها . وسترى اسباب هذا الثبات بعد قليل .

الادب العربي

كلمة عامة : الأدب العربي — الذي بين أيدينا اليوم — من الجاهلي حتى عصر الانحطاط ، غنيّ جداً ، لأنه أدب شعوب جمّة . فهو وارث مدنيات عديدة لها تصوّراتها وخيالاتها وأفكارها وحكمتها وفلسفتها ونظريّاتها الاجتماعية . لقد كان الفتح الإسلامي أشبه بالبوتقة التي صهرت فيها المعادن المختلفة ، ثم كوّنت منها شيئاً مطبوعاً بطابعها الخاص .

أدب البداوة : البداوة طور اجتماعي تمر به كل الأمم ، بل هو معبر إلى الحضارة لا بد أن تمرّ به كل أمة مهما سمت مدنيتها .

وللبداوة في الحياة طريقة خاصة وأدب خاص يكون في أول عهده شعراً ، لأن الشعر وليد الخيال والخيال يسبق الفكر ، لأن الشعر غناء والإنسان مفطور على الغناء منذ نشأته .

امّا النثر — ونعني الفنّي منه لا لغة التخاطب — فإنه وليد الفكر ،والبدوي قليل الفكر ينفر من المنطق . فعقلية البدوي وثابة سريعة الانتقال ، كانتقاله بين ليلة وضحاها من مفازة إلى مفازة .

ليس هذا في الأدب العربي فقط ، فكل أمة في عهد بداوتها لا يكون أدبها الّا شعراً ، ومتى انتقلت إلى الحضارة لا تحمل من تاريخها غير تلك الأناشيد الشعرية التي ترى فيها كل فخرها ومجدها .

فإذا بحثت في عهد بداوة العرب وغيرهم من الامم لا تجد الساسة والحكماء والقادة ومدبري الشؤون الاجتماعية الا" شعراء ، ولا تجد انظمة البدو وعواطفهم

وحكمتهم الّا في الشعر .

الشعر : فالشعر اول مظاهر الحياة الاجتماعية القوّية لكل أمــة كانت بدوية ثم تحضرت . فالأمة اليونانية ، مثلاً ، أول مظاهر حياتها الادبية ، الشعر .

فالحضارة بنت البداوة ، والأدب المتحضّر ربيب الأدب المتبدّي ، فـلولا امرؤ القيس ما كان عمر بن ابي ربيعة وبشّار ، ولا ابو نواس الخ .

لقد كان الشاعر منبراً متنقـلاً تُلقى عنه الدروس السامية ، وكان سيّده ، وهو الشاعر ، يزرع في العقول المبادىء الاجتماعية البدويّة ، بـــل يغرسها في الألباب غرساً ، فكل المثل العليا في الحياة البدوية تجدها في شعرهم .

النثر : امّا النثر في آداب الامم المتبدّية فلا أَثر له ، لأن النثر أقل تأثـيراً في النفوس من الشعر ، وأقل حفظاً ايضاً ، ولذلك لم يصل الينا من النثر البدوي الاّ بعض فقرات من سجع الكهّــان لا تستحق الاهتمام والاعتبار ، ما خــلا الأمثال ، فهذه بمنزلة الشعر من حيث التأثير والحفظ .

تطور الادب : يكون الأدب في بدء عهده ساذجــاً ، تلقيه السليقة بـلا أصول ولا قيود . يفصح الانسان عن فكرته كل ما جــاش في صدره بعبــارة أَقرب الى البساطة منها إلى الفصاحة والتأنق في التعبير ، يوردها كما توحي اليه بها طبيعته ، بلا تأنق ولا تنميق ، بعيداً عن الفن والتكلف .

وإن سأل سائل : ما دام الأمر كذلك ، اليس الشعر أكثر تصنـّعاً وتعملاً من النثر ؟ فلماذا لم يفصح البدوي عن فكـره نثراً ؟

فعليه نجيب : ان النثر كان موجوداً ، ولكن غير فني ، اي لغــة تخاطب . ومثل هذا الكلام لا يحفظ ولا يتناقله الناس كالشعر ليبقى ، ولا كتابة وتدوين تحفظه ، فباد . وكما أن الشعر ضرب من الغناء ، والأغاني طويلة الاعمار ، فلذلك أبدى البدوي أدبه بصورته المنظـّمة التي ندعوهـــا شعراً ، يتناشدها الناس في مجالسهم ، ولذلك قالوا : الشعر ديوان العرب .

أجل إن الشعر هو الحافظ الأمين لآداب الأمم القديمة ، كاليونان في الياذتهم ، والعبران في توراتهم الخ .

وقد مرّت على الأدب أطوار عديدة صقلته وهذّبته ونوّعته فوصل الينا في ارقى اشكاله . والادب نوعان : انشائي ووصفي .

الادب الانشائي : ويسمّيه الإفرنج أدب قوة ، وهو الكلام الذي ينشئه صاحبه نظماً ونثراً ، وهو الادب الحق الصرف .

فالأدب الانشائي يتأثر بالبيئة والعصر ، فهو مرآة العصر والبيئة ، يتطور بتطورهما وفيه القديم والجديد .

والأدباء قسمان : قسم ادبه قطعة من روحه ، فهو قوي الشخصية جبارها لا يهمه غضبَ الناس أم رضوا ، فهو على حد قولهم : قل كلمتك وامش .

وقسم يهمّه رضا الجمهور ، يفني شخصيته فيهم ولا يفنون فيه ، فهو يمثّلهم ولا يمثّل نفسه بشيء .

فالأدباء عموماً تلتمس شخصيتهم فيما يكتبون ويؤلفون ، بخلاف العلماء فإنك لا تلمس شخصيتهم فيما خطته ايديهم .

الأدب الوصفي : يتناول الأدب الانشائي شرحاً وتحليلاً وتاريخاً ، بل هو النقد بعينه .

إن الادب الوصفي هو ما نسميه تاريخ الآداب . فبينما الأدب الانشائي فن كله يكاد يفسده العلم إن دخل فيه ، نرى الأدب الوصفي يكاد يكون علماً كله أو مزيجاً من العلم والفن بل البحث والذوق . الادب الوصفي قديم في كل الأمم التي كان لها أدب انشائي ومدنية زاهرة .

أنشأ الأدباء أولاً بلا علم ولا فن ، كما تقدم ، ثم ارتقى النـــاس فجاؤوا يضعون القيود والأصول للأدب مستنتجينها من أقوال الأقـــدمين الغريزية ، فما رأيت اعظم من محبة النـــاس للقيود والتقاليد ، والقوانين في كل شيء ولكل شيء .

فالأدب اليوناني كان في أول عهده فناً كله ، ولم يكن الجمع والترتيب واستنباط النظريات ووضع الأصول والقواعد للنقد والبيان الّا في القرن الرابع ، وكذلك فعل الرومان وكذا فعل العرب .

أنشأ الإسلاميون والجاهليون وبعض العباسيين ، ثم استنبط العباسيون المتأخرون الاصول والنظريات .

فالجاحظ والمبرّد وابن قتيبة وابن سلاّم ادباء وصفيون .

تاريخ الادب : ان تاريخ الأدب علم قديم وليس علماً متكلفاً، بل هو كغيره من العلوم والفنون متأثر بكل مـا يؤثر بالحياة البشرية ، فهو يتطور ويتغير وينحط ويرقى .

كان يفهم بكلمة ادب في اطواره العديدة : مأثور الكلام من شعر ونثر ، ثم توسع هذا الموضوع ودخل فيه علوم عديدة خاصة كالبلاغة والنقد البياني، ثم عمّ علوماً كثيرة ، ثم تقلّص بعد التمدّد وعاد هذا التحديد إلى ما نفهم به اليوم : مأثور الكلام نظماً ونثراً .

ولتذوّق الأدب وتفهمه ، على الأديب أن يلمّ بتاريخه ، وتاريخه هذا يعين الطالب على فهمه بدون عناء وتعب ، أي أنه يكفيه مؤونة البحث والتنقيب في الكتب الأدبية التي تعد بالمئات، وقصارى الكلام: ان تاريخ الادب « قادومية » اي اقرب الطرق للمتأدّبين .

وتاريخ الادب متصل بالادب كل الاتّصال اي ان غير المتأدب لا يستطيع ان يكتب في تاريخ الادب، بخلاف بقية التواريخ فقد يكتبها ويدوّنها ويفهمها من ليس له علاقة بالموضوع .

الادب العربي : مرّ الأدب العربي الذي ندرسه بأطوار عديدة، منها الطور الجاهلي. ولم يصل الينا من هذا الطور الاّ قصائد تمثّل لنا حياة الجاهليين من كل مناحيها . فما تأثروا به اكثر وصفوه اكثر . أمّا النثر فلم يكن منه شيء ، كما سبق الكلام ، الا امثال تبيّن لنا ضروب الحياة والوانها . فالنثر الفني كان معدوماً . ولا اظن سجع الكهّان ممّا يعتد به .

ثم الطور الإسلامي الذي تأثّر كثيراً بالدين الجديد ، ثم بحضارات متعدّدة هضمها العرب والفوا منها حضارة خاصة بهم .

ليس الآن مجال البحث عن الأدب الجاهلي او الاسلامي ، إنمّا سنفرد لكل

منها بابا خاصاً فيما بعد . امّا الآن فنقول كلمة عامــــة عن تطور الأدب العربي وتأثره بغيره من آداب الامم عندما بسط العرب عليها اجنحة سلطتهم وفتوحهم.

ليس في الجاهلية فلسفة تستحق أن تسمى مذهباً ، فما حكمتهم التي نلمحها في اشعارهم الا خطرات أفكار تعرض لكل مفكر في الحياة وشؤونها . ولكننا ، نحن العرب ، نغالي بكل شيء ، حتى قلنا أن المعري عرف مــــذهب دروين لأنه قال :

والذي حارتِ البريةُ فيــــهِ حيوانٌ مستحدثٌ من جمادِ

وإنه خبير بعلم الفلك كعلماء هذا العصر لقوله :

ولنارِ المريخِ من حدثانِ الدهرِ مُطفٍ وإنْ عَلَتْ باتقّادِ

والثريا رهينـــة بافتراق الشمل حتى تعـــد بالآحـــاد

وإنه تنبأ عن الطيّارات والغوّاصات لأنه قال :

أقلقتمُ السابحَ في لجـــةٍ ورعتمُ في الجوّ ذاتِ الجناح

فالشعر الجاهلي ليس بمتنوّع المواضيع ولا غزير المعاني،بل هو نغمة واحدة، قليل الابتكار والتنوع. وقد تصرّف في الشعر وابوابه من جاء بعدهم من الشعراء الأمويين والعباسيين ومن جاء بعـدهم حتى عصرنا هذا ، فتطوّر الشعر بتطوّر العصور .

وسنقول كلمة في آداب الامم التي تأثر بها الأدب العربي من الجاهليــة حتى اليوم .

الادب الفارسي وتأثيره : يظهر أثره واضحاً جليّاً في شعراء العرب المنتمين إلى اصل فارسي ، فكثيرون من الفرس دانوا بالدين الاسلامي عندما غلبهم العرب على أمرهم فتعرّبوا . ومن هؤلاء ظهر شعراء وادباء كثيرون خلفوا آثاراً ملموسة في خيالنا ولغتنا .

فشعراء العرب الفرس ، ألفاظهم وتراكيبهم واوزانهم عربية ، امّا خيالهم ومعانيهم وروحهم ففارسيّة ، وفي شعر اكـــثرهم التسلسل المنطقي المكتسب من السلالة .

امّا اللغة : فعندما افتتح العرب بلاد فارس لم يكن في لغتهم غير الفاظ بدويّة صحراوية دعت اليها حالتهم الاجتماعية ، فاضطرّوا أن يأخذوا اسماء عديدة لمسميات شتى لم تكن عندهم في بداوتهم ، فعمدوا إلى لغة فارس ، أقرب الدول اليهم ، فاخذوا منها ألفاظاً لا تحصى ، ولا بد ان يكونوا تأثروا بالتعابير كما تأثروا بالالفاظ .

الحكمة : واقتبس العرب حكماً كثيرة من الفرس لأنها قريبة من العقل العربي الذي لا يحب البحث العميق .

الغناء : أخذ العرب كثيراً من الانغام الفارسية ووقّعوا عليها شعرهم العربي ثم تبع ذلك صورة مجالس الغناء والاجتماع لسماعه ، وقد كانت مجالس الغناء مجالس مساجلات أدبية يعرض فيها خير الشعر وينقد .

ثم تسمية الندماء واحتجاب الخلفاء عنهم بستارة جرياً على عادة ملوك الفرس ، ثم آل الأمر الى حضور الخلفاء مع الندماء حتى التجرد .

أسلوب الكتابة : وتأثر العرب باسلوب الكتابة الذي انشأه عبد الحميد الكاتب وجرت عليه «مدرسته» ، فتأثربذلك كل اصحاب الأساليب بعده.

الادب اليوناني : تأثر الأدب العربي بالفلسفة اليونانية اكثر من تأثره بالادب، لأن العرب بعد الاسلام كانوا أميَل إلى الدين منهم الى العلم والادب ، فكان للأدب الفارسي تأثير اكبر من تأثير الادب اليوناني في الادب العربي .

من اسباب ذلك تقيد العرب بخطط القدماء ،وامتزاجهم بالفرس ،وتذوّقهم عاداتهم ، بعكس ذلك بعدهم عن اليونان ، فلم ينظروا طرق حياتهم والوانها . كما ان تعاليم اليونان الدينية كانت تخالف كل المخالفة دين العرب . وكذلك نظمهم السياسية والاجتماعية ، فلهذا نرى اثر الادب اليوناني اضعف من اثر الادب الفارسي في الادب العربي .

آثاره : اما الآثار اليونانية في الادب العربي فهي :

١ — كلمات اخذها العرب من اليونانية .

٢ — ما كان من اثر في الشعر لشعراء النصرانية في الاسلام كالاخطل

والقطامي . يقول الاب لامنس : ان اثر النصرانية في ديوان الأخطل اثرضعيف، ونصرانيته نصرانية سطحية ككل العقائد الدينية في البدو .

وتأييداً لقول العلامة نذكـّر القارىء بان الاخطل طلـّق زوجته ، وهـذا غير جائز في النصرانية . ولا نظن ان رواية تأديب القسيس له ، عندما كان يسكر ، الا رواية ملفقة .

٣ ـ الحِكم اليونانية ، عني بنقلها السريان قبل العرب فنقلوا منها شيئاً كثيراً، ثم اخذها العرب لاتفاقها مع ذوقهم الادبي .

السريان : ان اثر السريان في اللغة غـير قليل . فاصول النحو والصرف صنـّفها العرب على المثال السرياني لان اللغتين شقيقتان . والسريان اغنوا اللغة العربية بما نقلوا اليها من علوم اليونان وآدابهم وآداب غيرهم من الامم . ومن ينقل مثل هذه العلوم والآداب الى اللغة يدخل معها الى اللغة التي يترجم اليها الفاظاً واساليب لا يجد ما يناسبها في اللغة المترجم اليها ، ولا سيما اذا كانت كاللغة العربية في اول عهد حضارتها .

فالثقافة اليونانية انتشرت في العراق والشام والاسكندرية على يدالسريانيين، فمن الخطأ ان نعتقد ان العرب كانوا بعيدين عن الاختـلاط بسواهم قبل العصر العباسي .

والفلسفة اليونانية دخلت الاسلام عن طريق كتب هؤلاء النصارى بواسطة المعتزلة والحكماء والصوفية ، وعنهم اخذت جماعة اخوان الصفاء جل افكارهم .

فالسريان قـاموا بنشر الفلسفة اليونانية وخاصة المذهب الافلاطوني . وقد كانت اللغة السريانية لغة الأدب والعلم لجميع كتـّاب النصرانية في أنطاكيـة وجوارها ، وأنشئت في الرها ونصيبين وجندي سابور وغيرهـا مدارس دينية كانت تعلـّم فيها اللغة السريانية واليونانية معاً . وكانت السريانية ايضاً لغـة الوثنية في حرّان ، وظلت هذه مركزاً للديانة الوثنية والثقافة اليونانية الى ما بعد الاسلام . وهؤلاء الوثنيون الذين نعنيهم هم الصابئة .

ترجم السريان اكثر ممّا الـّفوا ، فأغنوا الأدب العربي بما ترجموه . ولا نزال

نلمح أثر لغتهم في الشعر العربي العبّاسي كقول الشاعر العبّاسي بساقٍ سرياني :

فقال « آزال بشينو »[1] حين ودّعنا فقلت والله زلنا عنـك بالشين

لم يبتكر السريان فيما كتبوه ، وشعرهم اكثره ديني لأن علماءهم رهبان .

فاللغة السريانية حفظت بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها ، كما ان ترجمتهم عن اليونانية أساس علوم المسلمين .

لقد نقل السريان العلوم عن اليونانية بأمانة ، امّا الإلهيات فحوّروها بما يتفق مع المسيحيّة ، وكذلك فعل المسلمون بعدئذٍ فيما يخالف تعاليم الإسلام .

ولم يترجم السريان عن اللغة اليونانية وحدها ، بل ترجموا ايضاً عن اللغة الفهلوية . وفي جملة ما ترجموه « كتاب كليلة ودمنة » .

لقد قدّم هؤلاء السريان خدمة جليلة للعلم في العصر الاسلامي ، وقدّموا كذلك خدمة جلّى للعرب فكانت مدارسهم تهتم بنشر الثقافة ، ودخلها كثير من أبناء المسلمين ، فعلّموهم العلوم العالية . تدلنا على ذلك تلك الفتوى التي افتى بها رجال الدين النصارى في ذلك العهد . واليك تلك الفتوى كما جاءت في كتاب فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين :

يحلّ لنا ان نعلّم ابناء المسلمين التعليم العالي .

هذه هي العناصر التي يتألف منها الأدب العربي في عصوره القديمة : الجاهلي والأموي والعبّاسي ، امّا تطوّره واصطباغه بصبغة النهضة الجديدة ، فسنفرد له باباً خاصاً عند بلوغنا الكلام عن عصر الانبعاث .

وكذلك سنفعل حين نبحث أدبنا الغربي ونعني به الأندلسي .

---

(١) معناها : اذهب بسلام .

اطوار الادب العربي

تعوّدنا أن نقسّم الأدب العربي تبعاً للسياسة لأنهـــا من العوامل التي تؤثر بالأدب فقد تخمـده أو تضرمه . فإذا كان السلطان من المولعين بالأدب والأدباء راجت سوقه ، وأقبل الأدباء على أعمال الفكر للإتيـان بالروائع . وإن كان من المعرضين عن بنات الأفكار بقيت مستقرّة حيث ختم الله عليها .

فالمقياس السياسي ، كما رأى طه حسين — وهو ينظر إلى الأدب الغربي — لا يصحُّ مقياساً للأدب السلطاني العتيق ، امّا في الأدب الغربي فيصح . ثم في الأدب العربي دواعٍ غير دواعي الأدب الغربي . الأديب الأجنبي عوّل أخيراً على الشعب فيما كتب ، امّا الأديب العربي فما زال يعوّل على الحاكم الذي يمده بماله وعطاياه واكرامه . ولمّا ذهب الأمراء المولعون بالادب ، سقط الشعر من أوجه ، إلى أن كانت النهضة الأخيرة التي ظهرت في مصر فأخرجت البارودي وصبري وشوقي . وظهورهم أهاب بغيرهم ودفع الأدباء والمفكرين إلى النسج على منوالهم ، فبدت في العالم العربي نهضة شعرية أدبية جديدة ، اشتد ساعدها بظهور النقد الجديد وعلم الأدب الجديد ، ولكنها بقيت تعوّل على بيت المال .

فكل هذا سببه اهتمام حكومة مصر . فلولا عباس لم يكن شوقي ، ولولا الجامعة المصرية لم يكن طه حسين ، بل كان لا يزال قابعـــاً في إحدى زوايا الأزهر الشريف .

إذن ، فالمقياس السياسي يصلح لعصور الأدب مقياساً عندنا ، وعلى هـــذه النظريّة التي نؤمن بها كل الايمان نجاري من قسموه إلى خمسة عصور :

العصر الجاهلي ، العصر الأموي ، العصور العباسية ، عصر الانحطاط ، عصر النهضة .

العصر الجاهلي

لم يسمّ هذا العصر بالجاهلية إلاّ بعد ظهور الإسلام . سمّاه القرآن الكريم الجاهلية ، بمعنى الجهل ضد الحلم .

الأدب الجاهلي : نسبناه إلى الجاهلية فقلنا الأدب الجاهلي ، وهو يتناول الشعر والنثر ، الدالين على حالة ذلك العصر من اجتماع وسياسة ودين . وهذا الأدب لم يُبدأ بتدوينه إلاّ في القرن الثاني للهجرة ، حين بدأ عصر التصنيف والجمع .

كان ذلك الأدب غير مدوّن ، شأن سواه في عصر كعصر الجاهلية قلّ فيه من يكتبون ويعنون بهذه الشؤون .

دُوّن هذا الادب فساد الخلاف وحامت الشكوك والظنون حول صحّته . فنهم من شك ببعضها ، ومنهم من انكره جملة وتفصيلاً . ولا يزال إلى يومنا هذا عرضة للنقد والتمحيص وميداناً لطالبي الشهرة العاجلة . لا يعنينا البحث في صحة هذه النصوص ، بل نفترضها صحيحة كما هي خوفاً من إضاعة الوقت بما لا يفيد .

نشأة الشعر الجاهلي : لا أحيلك ، يا أخي ، على التاريخ ، فهناك مسالك وعرة لا تستطيع اجتيازها ، وخرافات لا يمكن تصديقها . فأجدادنا ، رحمهم الله ، أكّدوا لنا ان جدنا آدم نطق بالشعر . واتسعت دائرة أوهامهم حتى قالوا لنا ان ابليس أيضاً قال الشعر العربي . فهذا ما لا أريد أن أحشو به دماغك . وعليه أقول : الشعر العربي نشأ ككل شعر في كل أمة متبدية كاليونان وغيرها . الشعر غناء ، وأوزانه توافق الغناء . ولذلك سبق الشعر النثر . فالشعر وليد الخيال ، والنثر وليد التفكير ، والخيال في العقل البشري أسبق من التفكير .

أمّا كيف نشأ الشعر ، فليس لدينا تاريخ نعوّل عليه ، بل جلّ ما هنالك أقاصيص وخرافات . فان رغبت فيها فإنني أحيلك على خزائن الأدب ، فهي تعج بها عجيجاً .

اقسام الشعر الجاهلي : الشعر الجاهلي قسمان : قسم قاله الشعراء ارتجالاً بلا تروٍّ ولا كدّ ذهن ، كشعراء الزجل عندنا اليوم . وقسم قالوه بتعمّل واعنات رويّة . وآية هذا ما قرأناه عن زهـــير وقصائده الحوليّات التي كانت تنظم بأربعة اشهر ، وتنقّح باربعة وتعرض باربعة .

الوحدة في الشعر الجاهلي : نتهم الشعر العربي عموماً والشعر الجاهـــلي خصوصاً بأن لا وحدة فيه بل وحدته تقوم في البيت لا في القصيدة . وهــذا أراه تطرّفاً ، بل تحاملاً على الشعر العربي جاء بها بعض ادباء اليوم ، واليـــك البيان :

ان الشعر العربي الجاهلي لم يتبع الوحدة المنطقيـــة كما يكتب شعراء الغرب الذين ينظمون طبقاً لأصول وقواعد معلومة . ولكن هذا لا يعني ان الشعر العربي يخلو من الوحدة . فكل كلام يخلو من وحدة تربطه ببعضه نعدّ صاحبه مجنوناً. وأسلافنا لم يكونوا كذلك ، بل هم اصحاب عقول ثاقبة كما تخبرنا آثارهم .

ان وحدةالشعر العربي الجاهلي تقوم بالعاطفة، والتصور ، والخطةالواقعية .

فالشاعر الجاهلي اتبع السلّم العقلي بقصيدته التي ينتقل فيها من ذكرى الى ذكرى . والشعر الحقيقي ذكريات عذبة ومُرة ، وهي منبع الشعر .

اذن ، فللشعر الجاهلي وحدة خاصة هي وحدة العاطفة التي تدفعه إلى ترتيب قصيدته بحسب ذكريات الشاعر واحدة تلو الأخرى.وكما ان لكل شاعر اسلوباً خاصاً ، نستطيع ان نقول ان للشعر الجاهلي اسلوباً خاصاً ووحدة خاصة .

مسلك الشعر القديم : سلك الشعر العربي منذ نشأته طريقاً غير الطريق التي سلكها الشعر الاجنبي . نشأ هذا **قصصياً** يتناول وصف حياة الآلهة والابطال. لا يذكر الشاعر نفسه بشيء بل يتكلم بلسان الجماعة ، فكان شعرهم طبقـــاً

لصور اجتماعاتهم .

وبعد زمن عثر الشاعر الاجنبي القديم على شخصيّته ، فأخـــذ يصفها فانشأ **الشعر الغنائي**

ثم تطوّرت تلك العقلية ، فنظم أولئك الشعراء الشعر الذي يصف الحيــاة الاجتماعية وصفاً دقيقاً ، ونعني به **الشعر التمثيلي** .

هكذا نشأ الشعر عند اليونان والرومان وعند شعراء القرون الوسطى في اوروبا ، وعلى هذه الطريق سلك شعر الهند ، نشأ قصصياً وصار غنائياً ،ولكنه لم يصل إلى التمثيل .

مسلك الشعر العربي : أمّا الشعر العربي فسلك سبيلا خاصاً : ابتدأ غنائياً خطابي اللهجة ولم يزل . لا يصف الجماعة ، وان وصفها فالقسط الأوفر لعواطفه وميوله ، ولذلك كان قصصياً لا تمثيلياً .

فالعربي ، كما قلنا ، لا يعرف من الدنيا الاّ شخصيته فقبيلته ، فان تكلم في شعره فعن شخصيته اولاً ، ولا يذكر قبيلته الا اذا اقتضت الحال ان يفتخر بها ، ولذلك لا نرى الشعر العربي الا غزلاً ومدحاً وفخراً وهجاء ورثاء (اكثره أهلي) .

وكل هذا من الشعر الغنائي . أمّا النهضة الحديثة فلا نتناولها بالبحث الآن كما قلنا سابقاً .

النفَس العربي : الشعر العربي ، بالنسبة لغيره ، قصير النفَس ، قوامـــه القصيدة ، وأطولها ما أربى على المئة قليلاً . وقِصْر نَفَس الشعراء العرب جعلهم يحسبون كل سبعة ابيات قصيدة . وتقيّدهم بقافية واحدة سبب قصر النفَس .

القصيدة : قوامها الموضوع ، والقافية ، والوزن . والاوزان ستة عشر . فالقافية والوزن يلتزمها الشاعر في كل القصيدة ، اما الموضوع فقد يتوصل الى الوصول اليه بدواع عدة ، واليكها :

سياق التصور : غالباً ما يكون هكذا :

راحل راكب جملاً ومعه رفيق او رفيقان . يرى آثار الأحبة فيذكر ايّامه معهم ، فيبدأ بوصف الحبيبة ثم الناقة . يصف وعوثة الطريق ومشقّات السفر —

السفر قطعة من العذاب — ثم يصف الحيوانات التي تعرض فيصطادها ، ثم يتخلص الى غايته التي كثيراً ما يفاجئك بها، وينتقل الى الفخر بالنفس فالقبيلة الخ .

أغراض الشعر : اغراض الشعر عند العرب يسيرة . والبدوي العربي يحب الاختصار في كل شيء حتى في الشعر . فكما ان لباسه مختصر ، فهو يختصر في تصوره ايضاً . ولذلك كانت اغراضه الشعرية قليلة سهلة هينة ، فلا يصف غير مرئياته ، ولهذا فهو لا يكد ذهنك ولا يتعبك .

كانوا أقدر في الصور اللفظيّة منهم في المعاني والابتكار . لبعضهم شخصية واضحة كزهير وطرفة، وبعضهم يندمج بقبيلته، وهذا اقل، كعمرو بن كلثوم، فما معلقته الا قبيلة تتكلم . وقد بدت في سماء الشعر العربي ظاهرة جديدة بظهور النصرانية واليهودية في الجزيرة .

ديباجة الشعر الجاهلي : الشعر الجاهلي سهل متين شديد الأسر ، حلو الوقع في الآذان ، لا تكلف فيه ، متين رصين قليل الغرابة والحوشية ، اذا قسناه بقياس بيئتهم ومحيطهم ، لا بقياس بيئتنا وعصرنا هذا .

لم يألفوا الغرابة ، لم يميلوا اليها الّا في بعض قصائد يسمّونها **المعلّقات** . امّا القصائد الرقيقة جداً كبعض شعر المهلهل وعنترة ، فيظن انها ليست من قولهم ، بل اكثرها منحول .

اللغة في الجاهلية : من صفات اللغة في الجاهلية :

أ — مقدرتها على التعبير عن النفس البدوية ومطامحها واغراضها .

ب — مقدرتها على التعبير عن المشاحنات والمنازعات على كل مرافق الحياة .

ج — وصف الوقائع والغارات والانتصارات والمفاخر وما يختلج في الصدر من لواعج .

د — عجزها عن شرح الأفكار العامّة والمعاني المعقولة ، وما يتعلق بما وراء الطبيعة من علوم دينية وغيرها ، لأنهم لم يعنوا بذلك .

العبارة الجاهلية — صفاتها :

أ — استعمال الالفاظ في معانيها الوصفية الحقيقية .

ب – اجتناب تلطيف العبارة .
ج – كثرة المترادف والمتوارد الناتج عن لغات قبائل متعددة .
ه – الايجاز وهو مزيّة من أهم مزايا الأدب الجاهلي .

النهضة الجاهلية : الذي وصل الينا من الشعر الجاهلي يدل على أنّ أصحابه مقلدون من تقدمهم ، فهم متّبِعون لا مبتدعون .

بيد أن شعر المتأخرين منهم كزهير والأعشى وعنترة والنابغة هو خير ما نُظم في ذلك العهد . فهؤلاء جاروا المتوسّطين كإمرىء القيس وطرفة وابن حلّزة وابن كلثوم وفاقوا المتقدمين .

فالعهد الأخير من العصر الجاهلي – اي المئة الاخيرة – هو عصر النهضة الجاهلية .

الاسواق : كانت ولا تزال إلى اليوم تقام في البلاد العربية ، في مدن عديدة ومواقع متوسطة . دعا اليها اولاً الاضطرار إلى المقايضة ، لأن الناس لم تكن تتعامل كاليوم بالنقود . كان للعرب كما كان لغيرهم من أمم الارض في طور البداوة أسواق تعرض فيها منتوجاتهم . وهذا لا يزال أثره إلى اليوم في العالم .

بيد أن الإقبال على هذه الاسواق لا يعظم الاّ اذا كانت الغاية منها دينية كالحج عند العرب .

اسواق العرب : للعرب اسواق كانوا يقيمونها سنوياً فيحضرها السوادالاعظم منهم . ينتقلون من سوق إلى أُخرى ، ينزلون دومة الجندل في أعالي نجد في غرة ربيع الاول ، فيقيمون الأسواق للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، ثم ينتقلون إلى هَجَر فيقيمون شهراً ، ثم ينتقلون إلى عُمان ثم إلى حضرَموت فعَدَن ، ثم الى عكاظ في الاشهر الحرام . وكانت لهم أسواق أُخرى في المجنّة وذي المجاز .

عكاظ : أشهر الأسواق ، وهو مكان بين نخلة والطائف ، وهي خاتمة الأسواق يقيمون فيها من غرة ذي القعدة إلى العشرين منه ، ثم يتوجّهون إلى مكّة لقضاء مناسك الحج . كان شرفاء العرب يحضرون من الاسواق سوق بلدهم إلا عكاظاً فانهم كانوا يحضرون اليها جميعهم . ففيها تفصل الدعاوى وتفتدى

الأسرى ، ويطلب الثأر ، ويفاخر العرب بعضهم بعضاً . فقد كان العرب يفاخرون بكل شيء حتى في كبر المصائب .

ثم تطوّرت النظرية فصارت السوق سوق ادب ايضاً .

لقد كانت هذه الاسواق محترمة جداً ، وخصوصاً سوق عكاظ ، لا يدخلها أحد بسلاحه ، بل يسلّمون اسلحتهم لأهل السدانة من قريش . ومن لا يفعل يعرّض نفسه للقتل .

وكان ينادي المنادي في هذه الاسواق على لسان اشراف العرب : هل من راحل فنحمله ، او من جائع فنطعمه ، او خائف فنؤمّنه . وكان الامراء في هذه المجتمعات يتقاضون الضرائب ، والأتاوة .

عكاظ واللغة : لم يكن العرب وحدهم يقيمون مثل هذه المجتمعات الادبية . فعند الرومان كان الجمناسيوم مجتمعاً للالعاب ، وفيه كان يتباحث فلاسفتهم وعلماؤهم ويتنافرون كالعرب في عكاظ .

إن أثر عكاظ في اللغة عظيم . فهذه السوق جعلت لغة العرب واحدة . ولولاها لصارت اللغة العربية لغات مختلفة منفصلة انفصال السريانية والعبرية عن أختهما اللغة العربية . فاختلاف منطق العرب جعل المترادفات كثيرة ، وهذه اوقعتنا ببلية عين الفعل وغيرها ، تلك التي لا يسلم من الوقوع بها أكبر علماء اللغة ، فللسيف والأسد والجمَل الفاظ عديدة جداً لأن كل قبيلة تسميها اسماً . فلما عظم شأن عكاظ عمد الشعراء إلى انتقاء افصح الألفاظ ، طلباً للاستحسان .

لغة قريش: لوقوع عكاظ بين نخلة والطائف كانت السيادة فيها لقريش سدَنَة الكعبة . والقرشيون رجال تجارة يعرفون كيف يروّجون الاسواق أكثر من غيرهم الذين لا عهد لهم بالتجارة ، فغلبت سوقهم الاسواق كلها لهذا السبب . وهناك سبب آخر لرواجها هو دنوها من الكعبة .

ولما صارت عكاظ سوقاً ادبية ايضاً كانت السيادة فيها للغة قريش طبعاً كما تسود اليوم لغة الاجانب في البلاد المستعمرة .

فعمد الشعراء للغة قريش المُضَريَّة تقرباً منهم ، وهكذا قويت لغتهم وغلبت بقية اللهجات .

اقسام الشعر وطبقات الشعراء : يقسم الشعر الجاهلي من حيث الكمية إلى شعراء **مكثرين ومعتدلين ومقلّين** .

يقسم الشعر الجاهلي **من حيث الزمان** إلى شعراء **متقدّمين ومتوسّطين ومتأخّرين** .

يقسم الشعر الجاهلي **من حيث الاجادة** إلى شعراء **متفوّقين وممتازين ومجيدين** .

فالمتفوّقون هم أصحاب المعلقات شعراء الطبقة الأولى: امرؤ القيس ، زهير ، النابغة .

والممتازون شعراء الطبقة الثانية : الاعشى ، لبيد ، طرفة .

والمجيدون شعراء الطبقة الثالثة : عنترة ، عروة بن الورد ، دُريد بن الصِمة ، المرقش الاكبر .

فالشعراء الجاهليون كلهم مجيدون ولكنهم متفاوتون في الاجادة ، وهم طبقات كما سترى .

قال الشاعر العربي :

الشعراء فاعلمنّ اربعه ... فشاعر يجري ولا يُجرى معه
وشاعر يخوض وسط المعمعه ... وشاعر لا تشتهي ان تسمعه
وشاعر لا تستحي ان تصفعه

الطبقة الأولى : شعراء الطبقة الأولى هم أصحاب المعلقات السبع ، ومنهم من زاد عليهم ثلاثة ، ومنهم من جعل النابغة والاعشى موضع عنترة ولبيد . اما المقدمون على الجميع أي **المتفوّقون** فهم : **امرؤ القيس والنابغة وزهير** .

واختلف الناس في أيّ من هؤلاء أشعر من أخيه .

اغراض شعرهم : وصف الأطلال والأحباب ، الفراق والهيام وسوء المصير ، وصف الناقة والقِرى ، مفاخر القبيلة ومآثرها ، مفاخر الشاعر والممدوح ،

وصف الصحراء وما يعرض لهم بها . وبكلمة مختصرة وصفوا كلما أحسوا به من المرئيات وصفاً دقيقاً . إن قوام الشعر العربي في هــذا الطور كان الوصف من جميع مناحيه والوانه .

مزيّة شعرهم : الدنو من الحقيقة ، البعد عن الخيال والمجاز ، وصف ما تراه العين ، وتسمع به الأذن ويشعر به القلب ، وهذه حقيقة الشعر .

ميزته : سذاجة ، ابتكار معان وتصورات ، متانة تعبير مع خشونة ألفاظ وفخامة ، اختصار وايجاز مع قصد في المجــاز ، مطابقة المعاني للواقع ، قلّة الغلو والمبالغة ، قلة المعاني الغريبة ، قلة التأنق في ترتيب المعــاني والأفكار ، الانتقال الفجائي من غرض إلى غرض بلا تمهيد ، بل قد يكتفي الشاعر بأن يقول لك : دع ذا أو عــدّ عن ذا ، كما نقول نحن اليوم ، في حديثنا : بلا طول سيرة .

ثم مقت استعمال الاعجمي ،وعدم تعمد المحسنات البديعية مثل الجناس،الخ.

أفضلية هذا الطور : يفضّل هذا الطور سواه بكثرة الشعراء المجيدين فيه ، فكل شاعر يفضل غيره بباب يبدع فيه .

فلامرىء القيس : حسن الوصف والتشبيه والابتكار والتصرّف بالمعاني .

ولزهير : الحكم والمدح والصناعة الشعرية ، أي اتقان التعبير .

وللنابغة : التصبّر والاعتذار وجودة القريحة والاحاطة بالموضوع من جميع أطرافه .

والأعشى : الرنة الشعرية .

ولعمرو بن كلثوم : الفخر والحماسة .

وللحارث بن حلزة : البرهان والحجة .

والمهلهل : رقة الشعور والشعر والحماسة .

شعراء الجاهلية بحسب التاريخ : اولاً : **المتقدمون .**

يكثرون الغريب من الألفاظ والوصف . معظم شعرهم في وصف الوحوش والأودية القفرة الكثيرة الخطر ، وأشهرهم : الشنفرى وتأبط شراً والمهلهل .

ثانياً : **المتوسطون .**

طالت قصائدهم ، وتنسقت معانيهم، واتسعت ورقّت أفكارهم ، فرقّت عبارتهم وتوسعوا بالأوصاف المختلفة . اشهرهم : امرؤ القيس وطرفة وابن حلزة وابن كلثوم .

ثالثاً : **المتأخرون .**

نسجوا على منوال المتوسطين ، ويمتـــاز شعرهم بدقّة الوصف وخصوصاً المحسوسات والاسهاب حتى التمام . وأشهرهم : عنترة وزهير والنـابغة والاعشى ولبيد .

الشعراء الاولون

الشنفرى

هو ثابت بن أوس ، أو عمرو بن مالك الأزدي اليمني ، لُقّب الشنفرى لضخامة شفتيه ، أو لحدّته .

أمّا كيف أسره بنو سلامان صغيراً وأدرك ذلك كبيراً وتركهم وحلف أنه يقتل منهم مئة ، وكيف قتل تسعة وتسعين ، وكيف كان يترصدهم ولا يصيب من الرجل إلاّ عينه فيرديه ، وكيف كملت المئة بعد موته ، فهذا ما لا أُصدّقه أنا ، امّا انت فصدّق ان شئت .

عدوه : كان الشنفرى من عدّائي العرب وهم : تأبّط شراً الذي يروي صاحب الأغاني قصيدة له في رثاء الشنفرى زميله ، واشتهر تأبط شراً بوصف الأودية وقتال الغول .

ومن عدائي العرب السَليَك بن السلكة وعمرو بن البراق وأسيد بن جابر ، وقد فاقهم الشنفرى جميعاً فقيل : « أعدى من الشنفرى » . وبالطبع فهذا العَدْو في الجاهلية يحبّب إلى صاحبه الغزو والنهب ، وما لاميّة العرب إلّا وصف حالة هؤلاء الشعراء الصعاليك الذين كانوا يخيفون الناس ويقلقون راحتهم . ومعظم شعرهم في غزواتهم ، وهربهم بعد سرقتهم وغزوهم .

لاميته : ٦٨ بيتاً من بحر الطويل ، مطلقة القافية ، عني بطبعها وشرحها كثيرون من أدباء العرب ، وترجمها كثيرون من المتمشرقين الى لغاتهم وطبعوها.

شكّ بعضهم بنسبتها اليه ، ولكنهم اتفقوا على انها تمثل الجاهلية ، ولا يعنينا من أمرها أكثر من هذا .

اغراضها : يبدأها قائلها بالتأهب للرحيل عن قومه لأن في الابتعاد منأى للكريم عن الأذى ،ثم شرع يفضّل الضواري على قومه لأنها لا تبوح بسره مثلهم ، ولا تتركه اذا اقترف جريمة . ويقول عن الضواري انها ان كانت باسلة فهو أبسل منها . ثم ينتقل الى وصف عفّته عن الطعام ليقنع قومه انه سيعيش في البرية راضياً قانعاً . أمّا رفاقه في هذه الرحلة فثلاثة : فؤاده ، وسيفه ، وقوسه ، التي وصفها ببضعة أبيات .

ولكي يؤكد لهم أنّه لن يعود اليهم يصف شخصيته ويفتخر بنفسه وباعماله . يقول انه ليس من المولعين بالنساء وليس بالجبان ، وليس من المخنّثين ولا الاوغاد القليلي الخير ، او الجاهلين بمخارم الارض . وهنا يصف جلَده على الاسفار واحتماله وعوثة الطريق :

اذا الأمعز الصوان لاقى مناسمي تطايرَ منه قادح ومفلّل

امّا الجوع فيقول بشأنه :

أُديم مطال الجوع حتى اميته واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهلُ

واذا اضطرّ فإنه يستفّ ترب الارض كيلا يكون لأحد عليه فضل. وهناك أوصاف شديدة لمعاناة الصبر على الجوع لأن نفسه لا تقيم على الضيم .

ولمّا اشتد جوعه دعا الضواري فألفاها أشدّ منه جوعاً ، واخذ يصف حالها وحالته ، الى ان وصف نفسه بأنه اشد منها ، واسرع عَدْواً حتى أنه يسبق القطا الى المورد ولو كانت عطاشاً لخمس .

وهو يرى في الترب فراشاً وثيراً ينام عليه هانئاً ، ثم يصف حلمه وعزمه اللذين لا يطيران حتى في أشد الليالي ظلمة وبَرْداً ، وتلك الليلة التي يصطلي بها الرجل قوسه وسهامه وهي عدة البدوي ، وسلاح المسافر في الصحراء . كل هذا الشقاء والشنفرى ماضٍ في سبيله لا تثني عزمه المخاوف والأهوال حتى مر

بالغميصاء فأزعج الحي والكلاب فاصبحوا يتساءلون عن الطارق أهو أنس أم جنّ .

ولمّا انتهى من برْد الليل وصف ما لاقاه في نهاره من شدة الحر ، وكيف قابل تلك الحرارة المحرقة بوجه لا تؤثر به النار ، وكان له من شعره ظلٌ يقيه ، فظل سائراً حتى ادرك الجبال واقام بين الوعول . آه .

وللشنفرى شعر غير هذه اللامية اهمها تائيته التي مطلعها : ارى أم عمرو ازمعتْ ثم ولّتِ الخ .

شعره : شديد الأسر ، خشن المبنى والمعنى . وماذا تطلب من واحد اليف وحوش ويعيش كالوحوش ، دقيق التصوير ، وصفه حقيقي ، مادي ، تام الاخراج ، قويّ الخيال ، بديهي .

المهلهل

ابو ليلى عدي بن ربيعة التغلبي ، شاعر يمني نجدي ، لم يُرْوَ لاحد قبله شعر طويل . سمّي المهلهل لأنـــه أول من هلهل الشعر اي جعله رقيقاً ، وقال فيه الغزل ..

عاش في أول حياته رجل لهو وقصف وسكر ، حتى سمّاه اخـــوه كليب « زير نساء » .

قال معظم شعره في رثاء أخيه كليب الذي قتله جساس بناقـــة البسوس التي عرفت حرب تغلب والبسوس بإسمها ، وبشؤمها ضرب المثـــل « اشأم من البسوس » .

لم يكن سبب مقتل كليب تلك الناقة ، إنما قتل كليباً بغيـــه . كان كليب ذا بغي .

شعره : يُلتمس الشاعر في البيئة التي توجده . فالشاعر أثر من اثار البيئـة والزمان والجنس .

كان المهلهل اميراً لاهيـاً سكيراً محباً للنساء كما يصفه لنا المؤرخون ، فرقّ شعره ديباجة وسهل معنى .

أغراض شعره ، ديباجته : رثاء ، غزل، وصف الخمر والحروب ، تهديـــد ووعيد ، اتفق والخنساء في موضوع واحد هو رثاء الأخ .

سهل الألفاظ ، سهل التركيب ، لا شدّة فيه ولا أسر ، تتدفق منه العاطفة تدفقاً . تقرأه فتشعر أنـــك تقرأ شعر رجل من معاصريك ، حتى تخال نفسك

شريكاً له في بلواه .

خير قصائده :

أهاج قـــذاء عيني الاذّكار ... هـــدوءاً فالدموع لها انحدار

كليب لا خير في الدنيا وما فيها ... إن انت خلـّيتها فيمن يخلـّيهـا

امّا صاحب جمهرة العرب فنقل له القصيدة التي عرفت بـ « الداهيـــة » ، واحصاها في مصاف « المنتقيات » . واليك مطلعها :

جارتْ بنو بكر ولم يعدلوا ... والمرء قد يعرف قصد الطريق

وأظنـّه عدّها من المنتقيات لأن فيها بعض الألفاظ الغريبة التي كان يألفهـا الجاهليّون ، ولأنها اكثر بقية قصائده متانة وشدة اسر .

الشنفرى والمهلهل :

شاعران مختلفان معنى ومبنى ، وإن كانا من الشعراء الأولين ، فكأنهما لم يعيشا في عصر واحد ، بل كأن بينهما الف عام .

اما الأسباب فاليكها :

عاش الشنفرى كما مرّ بك عيشة شظف وخشونة ليس بعدها خشونة ، في بيئة هي أخشن البيئات كما مثـّلها في لاميته ، فجاء شعره خشن المعنى والمبنى .

انت تكره تلك الخشونة وتأنس بسهولة المهلهل ورقته . انما عليك ان تعلم :

ان الشنفرى أليف المحسوسات ، لا يصف الا السلب والنهب ، وما يتبعها من اهوال ومخاوف ، فترى ذلك الجفاء وتلك الغلظة في نظمه ، لأن الموضوع يتطلبها ، فهما اذن متفقان كل الاتفاق مع موضوعاته .

وبالعكس المهلهل فإنه رقّ لأنه عاش عيشة ترف ورخاء ، فبعـــد عن كل خشونة .

فإذا رأيت شاعراً يصلب ويلين ولو في القصيدة الواحـــدة فلا تعلل ذلك بالانتحال ، بل انظر إلى الموضوع والمعاني ، فقد يستدعي معنى ما رقة وعذوبة لفظ كما يستدعي معنى غيره شدة اسر وخشونة لفظ . وقد يكون ذلك كله في قصيدة واحدة .

اصحاب المعلقات السبع

الشاعر : الشاعر علم القبيلة وخطيبها المُدْرَه ، ولذلك كان له المقام الاول في القبيلة ، وكانت القبيلة تهنأ ، كما قال صاحب العمدة ، «ابن رشيق» بظهور شاعر فيها لشدة احتياجها اليه ، فتولـَم الولائم وتـُقام الافراح .

ولذلك ترى اكثر الشعر الجاهلي خطابي اللهجة لأنه كان يلقى على الجماهير . ولا بدع في ذلك فالشاعر كان الخطيب ، في المفاخرة والمنافرة الخ .

وما هذه العاطفة التي تراها في مطلع كل قصيدة إلّا نتيجة تنقّلهم المستمر الذي يولد فيهم هذه العواطف ، فيصوِّرونها لك شعراً يعرب عمّا في نفوسهم من تأثر .

فما العربي الجاهلي إلاّ مسافر لا يقرّ له قرار ولا ينام الا على سفر

المعلقات : هذه القصائد اختارها الرواة القدماء ، فمنهم من عدّها سبعاً ، ومنهم من عدّها عشراً بحسب الغرض والميل . وهكذا صنّفوا الشعراء طبقات اولى فثانية فثالثة حتى العاشرة .

فالبصرة قدّمت امرأ القيس لأنها يمنية ربعية ، والكوفيون قدّموا الأعشى ، وأهل البادية والحجاز قدموا النابغة وزهيراً لأنهما مواطنان لها ، وعلى هذا القيام صنّفوا مراتب أصحاب المعلقات .

سمّوها **المطوّلات** ثم **المعلّقات** ، وسيّان عندنا أعُلقت على أستار الكعبة أم لم تُعلّق فلا يعنيني ان ابحث في هذا الأمر .

هذه القصائد عني بها فريق من الأدباء فشرحوها وفسروها وذهبوا فيها

مذاهب شتى . فمنهم من أنكر صحتّها كلها ، ومنهم من شك ببعض أبيات منها، ومنهم من اختلف برواياتها ، ومنهم من اغفل كثيراً من الشعراء الذين لا يقلون اهمية وشأناً عن أصحاب هذه المعلقات .

أصحاب المعلقات : امّا أصحاب المعلقات الذين يهمنا درسهم فهم : امرؤ القيس ، طرفة ، زهير ، لبيد ، عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلـّزة ، عنترة .

امرؤ القيس

نسبه : الملك الضليل ، ابو الحارث جندح بن حجر الكنديّ ، شاعر يماني ، حامل لواء الشعر في الجاهلية ، الفاتح فيه فتحاً مبيناً . لا أرى أسلوب عمر بن ابي ربيعة الاّ وليد أسلوبه . طالع بدقة معلقته وقصيدتـــه اللامية : « الا عم صباحاً ايها الطلل البالي » ، فتشاركني في الحكم .

أبوه ملك كندة ، وخالاه كليب والمهلهل ، وهنا أبدي رأياً آخر ، وهو أن العذوبة الشعرية في شعر امرىءالقيس والمهلهل وابن كلثوم متأتية عن هذا النسب ، كما تأتّت الديباجة التي سيأتي الكلام عليها في شعر زهير ومدرسته .

عاش امرؤ القيس كما عاش المهلهل يسكر ويلهو ويقامر وينادم ويلحق بالنساء ويتشبّب بهن . فغضب لذلك أبوه وركب الفتى رأسه ، وانصرف الى الملذّات حتى قُتِلَ أبوه لعسفه في حكمه وارهاقه الرعية وقسوته في الجباية .

فهبّ امرؤ القيس من سكرته عندما القيت التبعة عليه وصار مسؤولاً عن دم أبيه ، فكان في حالته هذه أشبه بخاله المهلهل ، فاستنجد قبائل العرب فلم ينجده الاّ قليل منهم .

قاتل بني أسد قتلة ابيه ،فانجدهم المنذر احد ملوك الحيرة وناهض امرأ القيس لعداوة قديمة بينه وبين الحارث جَدّ امرىء القيس ، فغُلب امرؤ القيس على امره وفرّ من وجههم ، ونزل على السموأل فاودعـــه دروعه وابنته وكل ما له من متاع .

وذهب الى ملك الروم يستنصره على مناوئيه ،شيعة المناذرة التابعين للفرس ،

والفرس ، كما نعلم ، اعداء الروم في جزيرة العرب .

يقال أن قيصر انجده ثم عدل ، ومنهم من ينكر ذهابه الى قيصر الروم ، وحجته ان امرأ القيس لم يصف شيئاً من مظاهر القسطنطينية .

والعالم بنكبته لا ينكر ذهابه الى القسطنطينية لأنه لم يصفها ولم يصف إحدى كنائسها فأظن انه كان في شاغل عنها !

وهب أننا قلنا وصفها ، فكيف يصل الينا ما قاله فيها ونحن نعلم انه مات على الطريق .

امّا قولهم أنه مات بحلّة مسمومة ارسلها اليه قيصر فهو ما لا اصدقه . ولا أظن الا أنه مات بالجدري . هذا أصح تأويل لتلك القروح ، وقد ثبت تاريخياً ان الجدري كان منتشراً في السنة التي مات فيها . ويقولون أنه دفن في انقره حيث لفظ روحه .

شعره : ١ — تشبيب ووصف أيام الصبا ، وذكر حوادث غرامية. شكوى وألم في المحنة ، ويعذره من أنكروا وجوده لأنه رقّق النسيب وأجاد الاستعارة وتفنّن بالتشبيه ، لما تقدّم من الاسباب .

٢ — تصرّف في المعنى الواحد بطرق عديدة ، وهذا تحديد البيان العربي .

٣ — وصف دقيق مطابق للحقيقة والواقع .

٤ — ابتداع اسلوب جديد اتّبع ولا يزال بعضهم يمشي على الطريق التي شقّها لهم .

٥ — في شعره تهتّك وفحش ، الى جانب النبل والسيادة .

٦ — في بعض شعره عبارة جافية ، ألفاظ خشنة ، ومعانٍ قد تغرب عنك ، وإلى جانب كل هذا : ديباجة حسنة ، معنى بديع ، رقة نسيب ، سهولة مأخذ ، وعلى منواله نسج الذين جاؤوا بعده . وبكلمة مختصرة : انه زعيم الشعراء الوصّافين في هذا العصر .

معلقته — موضوعها : ذكر الأطلال والبكاء عليها ، ذكرى عنيزة ويوم دارة جلجل ، وصف الليل وتشكي طوله ، وصف الوادي والمطر والوحوش والفرس

والبرق ، وكاد يكون صادقاً في كل ما قال .

وتفوق معلقته غيرها بما يأتي :

١ – ابتداع طريقة اتبّعها بعده الشعراء ، فكأنها كانت الطريق المعبدة حتى آخر العصر العبّاسي . واستطيع القول ان شعر النهضة الاخيرة لم يخل من التأثر بها .

٢ – وصف صحيح ، تشابيه مبتكرة ، مطابقة للواقع لم يسبق اليها ولم يلحق بها ، فقلما خلا بيت من تشبيه ووصف معاً .

٣ – قوة التصرف بالمعنى الواحد ، فيكون المعنى حسب المقام ، فلا يمل بالإسهاب كطرفة ولبيد بوصف الناقة ، ولا يخل بالايجاز .

٤ – فيها بعض الفاظ ينفر منها السمع ، وقد تجاوز حدود اللياقة والكياسة ببعض تعابير وأوصاف فكان كلامه فيها من نوع الأدب العاري .

٥ – فيها وصف خمسة اشياء : النساء ، الليل ، الخيل ، الصيد ، المطر وما يتخلّله ويعقبه الخ .

وبكلمة مختصرة نقول : لو قام الشعر بالوصف والتشبيه فقط لكانت خير الشعر .

طرفة بن العبد

سيرته : طرفة بن العبد ، شاعر بكري من ربيعة . أقصر فحول الشعراء الجاهليين عمراً ، واجودهم طويلة ، واوصفهم للناقة .

طواه الردى في ميعة الشباب . سمّاه المتقدمون « ابن العشرين » لأنه مات في تلك السن ، او ما يناهزها .

يُروى أنه نادم النعمان ، ومنهم من قال عمرو بن هند ، مع خاله المتلمس . ثم توتّرت العلاقات بينهما لاسباب لا تهمّنا معرفتها ، فسلّم النعمان كلاً منهما رسالة إلى عامله في البحرين ، فأخذا الكتابين معتقدين ان فيهما جائزة او صلة ، فإذا الامر بالعكس ، لأن المتلمّس شك فأقرأ كتابه غلاماً من الحيرة ، فاذا فيه امر بالقتل . فالقى المتلمس كتابه في النهر وهرب الى الشام . وفي صحيفة المتلمّس يضرب المثل ، وقد قال الشاعر فيه :

القى الصحيفة كي يخفف رحله   والزاد ، حتى نعله القاها

وعاش المتلمّس بقيّة عمره يهجو النعمان ، ويدعو العرب الى عصيانه .

امّا طرفة فلم يشك ، وظل سائراً في طريقه الى البحرين حيث قتله عامل النعمان فمات ولما يتمتع بشبابه الا قليلاً .

شعره : على قلته قيّم ، ممتع ، (عموماً) شديد الأسر ، متين النسج ، (احياناً) معقد التركيب ، كثير الغريب ، مبهم المعنى .

جيّد الوصف ، مع عدم تطرّف في الغلو ، يدل شعره على نفسية عاتية جبّارة ، لا تنظر الا إلى الساعة التي هي فيها . يرى الدنيا على حداثته بعين

الحكيم المجرّب .

معلقته – اغراضها : وصف الدار وآثارها ، تغزّل ، وصف الاحباب وسفرهم ، وصف الناقة ، افتخار بالنفس ، زهد بالحياة ، يأس منها ، حكم .

مميزاتها : متينة اللفظ والأسلوب ، يكثر فيها الغريب في مواضع وتسهل في مواضع ، غزيرة المعنى ، دقيقة الوضع والوصف الى حد الاسهاب الممل .

هي من أجود المعلقات السبع ، تمثل حياة صاحبها الخاصة ونفسيته ، والمثل الاعلى في الحياة الجاهلية ، وهذا مكتسب من المحيط وتقاليده .

أسهب من وصف ناقتـه ، فاغرب في الألفاظ والمعاني لاضطراره الى الفاظ وضعية .

أهم ما يلفت النظر في معلقته ، نظره الى الحياة ويأسه منها ، ومعرفته أنه فانٍ . فلماذا لا يتلذذ في حياته ويقابل منيته بكل ما يملك ؟

ثم يعلن رغبته في الحياة لثلاثة أسباب هي لذّاته الثلاث : الحب والشرب والحرب .

وإذا تساءلنا عما جاء به طرفة من فكرة فلسفيّة فلا نجده جاء بالبدع ، ولم يقل الاّ ما يعرفه كل رجـل رأى وسمع . أنصت الى مناقشة اهل قريتك لتصدّقني .

زهير بن ابي سلمى

نسبه : زهير بن ابي سلمى المزنيّ ، نشأ في غطفان، وان كان نسبه في مزينة، فهو شاعر قيسي مضري .

بيته: جلّ أهل بيته شعراء ، رجالاً ونساء ، أخذ الشعر والحكمة عن خال أبيه بشامة بن الغدير احد اشراف غطفان . كان خال ابيه بشامة هذا مقعداً فلزمه زهير فتخلّق باخلاقه .

زهير الراوية : كان أوس بن حَجَر شاعر مضر في زمانه ، فلزمه زهير ، فروى عنه الشعر ، فتأثر به في عمل الشعر ، ثمّ فاقه فأخمله .

المدرسة الشعرية : رأى طه حسين بالاستنتاج من اقوال القدماء ، ورأيه حق ، ان رواية زهير لشعر أوس بن حجر كوّنت مدرسة شعرية ، امتازت بوصف المرئيات والمحسوسات ، مؤسسها أوس بن حَجر زوج ام زهير . اتبع طريقة هذه المدرسة زهير فإبناه : كعب وبجير ، والحطيئة الذي كان راوية زهير ، والنابغة . ثم امتد بهذه المدرسة إلى جميل الذي اخذ عن الحطيئة وتأثر بطريقته ، فكثّير الذي أخذ عن جميل وتأثر به .

إن أهم مميزات هؤلاء الشعراء المأخوذة عن استاذهم الأكبر أوس هي :

١ – الخيال المادي الحسي ، حتى جاء شعر أوس أشبه بالتصوير منه بأي شيء آخر .

٢ – الفن ، أي اتخاذ الشعر صنعة وحرفة فيمحّصه ويتعلمه صاحبه عملياً وينشئه بامعان ورويّة ، ولا يقوله عفو الطبع .

وعلى هذا النمط درج زهير في حولياته وبقيّة شعره ، وهكذا فعل الحطيئة الذي سمّاه الاقدمون **عبد الشعر** ، لكثرة تجويده واطالة النظر فيه .

التكسب بالشعر : كان اشراف العرب يأنفون ان يقولوا الشعر ، فهل الشعر معرّة ؟

لا لعمري ، ولكن تكسّب بعض الشعراء به وجعْلهم إيّاه وسيلة للإرتزاق جعل نبلاء العرب يتجافونه . امّا كيف نشأ التكسب بالشعر فأقول كلمة هي رأي خاص ، وهي أن ميل العرب الى المنافسة في الجاهلية جعلهم يحملون بعض الشعراء على مدحهم واعطوهم مالاً لقاء هذا العمل فشاعت الفكرة واستغلها الشعراء .

امّا تكسب زهير بالشعر فلم يكن مبتذلاً مكروهاً ، ولم يحطّ من قدره كما حطّ من قدر راويته الحطيئة .

مدحه : قال زهير معظم شعره في مدح هرم بن سنان ، وهو سيد غني توسط مع الحارث بن عوف في الإصلاح بين قبيلتي عبس وذبيان في حرب « داحس والغبراء » ودفعا ديّات القتلى من مالهما ، وقد بلغت ٣٠٠٠ بعير .

شخصيته : كان زهير حكيماً طيب النفس ، مؤثراً للخير ، محباً للسلم داعياً اليه ، ولو كانت جائزة نوبل للسلم في زمانه لأخذها واستراح من تعب الفكر .

شعره : عفيف القول ، وجيز اللفظ ، غزير الحكمة ، تهذيب كثير ، لا تعقيد ولا حشو ، مدح صادق ، لا سخف ولا هذر في كلامه ، شديد الاعتماد على الحواس في اخراج صوره الشعرية ، برّز في الحكمة العامة والامثال ، وقد يكون شق الطريق لمن جاؤوا بعده وقالوا الحكمة في شعرهم كأبي العتاهية والمتنبي والمعري .

دقيق التصوير ، يسير اللغة ، منسجم التركيب .

معلقته — موضوعها : ذكر الديار ، وصف رحيل الاحباب ، وصف الحرب وشؤمها ، ذكر حزنه ، مدح هرم والحارث ، وصف زهده في الحياة

وسآمته ، حكم عامة .

صفتها : متينة الألفاظ والتعبير ، اكثر ابياتها صور محسوسة ، اعتمد عليها ليصل الى غايته وهي المدح ، ولذلك لم يبحث في معلقته بحث امرىء القيس وطرفة . ومع ان غرضه وهو المدح لا يمكنه من اظهار شخصيته ، فقد استطاع ان يرينا شخصية انسانية عامة النزعة في عهد لم يكن فيه أثر الَّا أثر القبيلة .

انتقل إلى المدح بلا تخلص ولا حيلة ، ومدح صاحبيه بطريقة قصصية . وقد اصاب ، لان سرد القصة الواقعية عن عمل نبيل كعملهما ، هو اعظم مدح .

وبعد ان امتدح عملهما واصلاحهما بين قبيلتين كبيرتين أخذ يعرض أمامنـــا صوره في تقبيح الحروب ، فجاءت هذه الصور أشبه بصور السينما الناطقة حتى لتكاد تسمعك الضوضاء .

ثم أعاد الكرة على صاحبيه فمدحهما حتى شبع . وبعد أن أخذ قسطاً قليلاً من الراحة وجّه نظره إلى الانسانية جمعاء فقال :

« سئمت تكاليف الحياة الخ ... »

وفي أبياته الأخيرة هذه يتّصل بطرفة من حيث النظر في الحياة .

فكلاهما لم يهتد إلى حل لغز الحياة الا ّكما تراءى له وبما أوحي به اليه ، وبما اعتقد انه خير حل لمعضلة الحياة والعيش .

رأى طرفة الحياة فراح يجني ثمار ملذاتها ، ويلبي من دعاه إلى الجلّى ، امّا زهير فلم يفكر الا بما اخذه عن خال ابيه المقعد ، والمقعد لا يدعو إلى السيف .

لبيد

حياته : ابو عقيل ، لبيد بن ربيعة ، عامري ، من قبيلة قيس ، مضري . عمّر طويلاً بدليل قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد

عاش في الجاهلية عيشة الشعراء الفرسان الاغنياء ، قال أكثر شعره في الجاهلية . دخل الاسلام وشغل عن الشعر بحفظ القرآن وتلاوته . ويقولون إنه لم يقل الا بيتاً واحداً في الاسلام هو احد هذين البيتين :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه   والمرء يصلحه الجليس الصالح

او الحمد لله لمّا يأتني أجلي   حتى لبست من الاسلام سربالا

خصاله : جواد ، شجاع ، فاتك ، ورث الجود عن ابيه الملقب بربيعة المعترّين ، والشجاعة والفتك عن قبيلته ، فعمه ملاعب الاسنة ، فارس مضر .

عاش بعد فتح العراق في الكوفة عيشة وداعة وكرم ، ينفق ماله على الضعفاء الجياع ، حتى كان والي الكوفة يسأل الناس ان يعينوه على مروءته ، وقد ارسل اليه ، كما يروى ، ١٠٠ ناقة بَكْرة ،لأنه ألزم نفسه في الجاهلية « الا تهبّ الصبا إلا أطعم » وبقي على ذلك في الاسلام .

أغراض شعره : لم يقل الشعر الا كما قاله الشعراء الفرسان ، فلم يتكسّب به . قاله بالفخر والفتوة والنجدة والكرم وإيواء الجار وعزة القبيلة . في شعره الحكمة والموعظة .

في رثائه التعزية والحكمة ، وهو احد الرثّائين الثلاثة : المهلهل والخنساء ،

ويزيدهما بما يمزج به رثاءه من الحكم .

ديباجته : جزل الألفاظ ، فخم العبارة ، دقيق المعنى ، لا لغو ولا حشو ، لا غرابة لفظ ولا تعقيد معنى .

معلقته - اغراضها : ذكر الديار ، وصف الناقة ، وصف نفسه لاهياً متغزّلاً ، جواداً في السلم ، باسلاً مخاطراً في الحرب .

الافتخار بنفسه وقومه ووصفهم بخير الخلال الجاهلية التي يتعشّقها العرب وهي تمثل الحياة ومطمح اصحابها .

ديباجتها : متينة لفظاً واسلوباً ، صلابة وفخامة ، حتى في اسهل ابياتها . تشابيهها لطيفة ممتعة وخصوصاً عندما يصف ناقته ، وهو في كل هذا لم يعمد إلى الكذب والغلو .

والخلاصة إنه شاعر قوي يستمد قوته من صدقه وإخلاصه وايمانه الشديد بالمثل العليا الأخلاقية البدوية التي يسمو اليها .

عيب : في معلقته هفوة نحوية في هذا البيت :

ترّاك امكنـــة اذا لم أرضها أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

فلا داع هنا لجزم يرتبط .

عمرو بن كلثوم

حياته : هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي ، زعيم تغلب وفارسها وشاعرها .

أمه بنت المهلهل أخي كليب . نشأ بالجزيرة الفراتية شاعراً خطيباً . قاد قبيلته في « ايام » جمّة كان الظفر حليفه في معظمها .

أما ايّام تغلب فكانت مع اختها قبيلة بكر ، إلى أن كان الصلح على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر .

يقولون انه بعد الصلح بقليل اجتمع وجوه تغلب وبكر في مجلس عمرو بن هند وتلاحوا حتى التشاتم ، واذ ذاك أنشد الحارث بن حلـّزة معلقته « آذنتنا ببينها اسماء » .

وبعد إنشادها خرج عمرو بن كلثوم غاضباً من مجلس عمرو بن هند لأنه رأى ميله مع البكريين .

شخصيته : أبيّ النفس ، عظيم الهوس والنخوة ، جريء النفس عزيزها ، لا يهاب انساناً ولو ملكاً ، لا تستطيع أن تفصل شخصيته عن قبيلته في شعره .

شعره : حسن اللفظ ، منسجم العبارة ، واضح المعنى ، رشيق الاسلوب ، حافل بفخر لا يضاهى ، نبيل القصد والمرمى ، يقول شعره لحاجة في نفسه .

معلقته - أغراضها : غزلية خمرية ، قصصية — أي أنه يصف حادثته مع عمرو بن هند عندما حاول استخدام أمه ، حماسية فخرية بالنفس والقوم ، فيها شيء من ملامح الملاحم .

ديباجتها : كما جاء في وصف شعره ، لا غرابة فيها ، اتفاق تام بين أغراضها وألفاظها ومعانيها ، رنانة طنانة .

محاسنها :

١ – نفس شعري متصل من المطلع حتى ختامها الجميل .
٢ – مملوءة عاطفة وشاعرية .
٣ – شعرها سليقي فطري لا تكلّف فيه .
٤ – حافلة بالطلاوة والرونق والمتانة إلى جانب الحمية والزهو والحماسة .
٥ – جاء فيها على موضوعات شتى جمعها في موضوع واحد وهو هذه القصيدة
٦ – فيها محسّنات الشعر اللفظية كالتشابيه والاستعارات المطابقة للواقع .
٧ – إفناء شخصيته في شخصية قبيلته ، فكأنّ القصيدة قبيلة تتكلّم لا سيدها وزعيمها . وهذا يدلّنا على زعامته الحقيقية في رهطه ، فكأنه يعتبر قبيلته شخصيته نفسها .
٨ – إننا نسمّيها بحق « انشودة الشباب » لإنطباقها على ميوله واهوائه .

عيوبها :

١ – ترديد بعض الأفكار ومراجعتها .
٢ – تنسيقها غير واضح .
٣ – ضعف الارتباط ما بين أغراضها .
٤ – غلو زائد ، على غير ما ألفناه من شعراء الجاهلية ، انما يصيّره مقبولاً حسن الابتكار ، وتوطّىء له الحماسة .

مدرسة أخرى : المهلهل وامرؤ القيس وعمرو بن كلثوم مدرسة واحدة ، منشئها المهلهل ولم يخرج عن منهاجها عمر بن كلثوم ، وإن اختلف عنها امرؤ القيس في معلقته ، كما خرج المهلهل بـ « الداهية » التي عدّها صاحب جمهرة العرب من المنتقيات .

وللوراثة عملها في هذه المدرسة . فهؤلاء الشعراء من سلالة واحدة .

الحارث بن حلزة

نسبه : الحارث بن حلـّزة اليشكري ، البكري كان من اليشكريين كابن كلثوم من التغلبيين .

معلقته : قيلت في مجلس عمرو بن هند كما تقدم . يقولون انه قالهـا ارتجالاً — ولا اظن ذلك — دفاعاً عن قومه .

اغراضها : تغزل ، وصف الناقة ، مدح الملك عمرو بن هند ، الفخر بقومه وذكر كثير من ايام العرب ، تعييب بني تغلب .

ديباجتها : محكمة النسج ، متينة السبك ، وجيزة الوصف ، رشيقة العبارة ، بليغة ، أي انها تجمع معاني كثيرة في قليل من الالفاظ ، كثيرة الغريب ، عديدة الفنون ، شديدة الارتباط .

محاسنها :

١ — التحام شديد وبراهين تدريجية قاطعة لاثبات القضية بجلاء .

٢ — تهكـّم ذو أسلوب خاص في تعييب التغلبيين ، وإلقاء التبعة على التاريخ .

٣ — حجة قوّية ، دفاع بلا اندفاع .

٤ — مخاطبة الملك كما يود الملك ، بخلاف عمرو بن كلثوم فإنه خاطبه كندّ له .

٥ — تبين مناصرة البكريين لعمرو بن هند ، وخذل التغلبيين له .

اما « الخدم » التي بيّنها الحارث فهي : ١ — مساعدتهم اياه . ٢ — تخليص امرىء القيس من السجن واخذهم بثأر أبيه من بني كندة . ٣ — القرابة بين ابن هند والبكريين .

اما عيوبها فهي :

١ — الاقواء ، وهذا وارد في الشعر الجاهلي .

٢ — كان صاحبها خطيباً اكثر منه شاعراً ، ولهذا قلنا انها غير مرتجلة كما زعموا .

بين المعلقتين : الشعراء ، وخصوصاً الشباب ، يفضلون معلقة ابن كلثوم لحماستها ورنتها وسهولة فهمها وقوة نفسها الشعري ، واستيفاء كل معاني الموضوع بلا ضجر ولا ملل .

امّا الخطباء ، فيفضلون معلقة الحارث بن حلـّزة على كل معلقات العرب لحججها وبراهينها القاطعة . وبكلمة نقول : ان الحارث ادهى من عمرو بن كلثوم فاستطاع بمداورته ان يستميل الملك ويوقفه في صف قبيلته ، فكان ما كان بينه وبين عمرو بن كلثوم ، ان صدقت الرواية .

ولا بد من كلمة أُخرى بشأن معلقة الحارث ، فهي أَمتن وارصن من اختها الكلثومية .

عنترة

نسبه : عنترة بن عمرو بن شداد العبسي ، من الشعراء الفرسان ، احـــد اغربة الجاهلية وهم : خفاف بن ندبة ، وابو عمر بن الحبـــاب ، والسليك بن السلكة . ابوه سيد عبسي وأُمُّه أَمَةٌ حبشية . نشأ عبداً كعادة العرب في ابناء الإماء وقد حررته شجاعته كما يروي لنا الرواة . كان بطـــل حرب داحس والغبراء ومات بعد ان عمّر طويلاً .

في شعر عنترة اشارة إلى كل ما يرويه الرواة عنه. ولهذا يُشك في صحـــة نسبة كل هذا الشعر إليه . فهو يخبرنا في هذا الشعر عن عبوديته وعن فروسيته وعن سواده .

إننا إلى الشك اميَل في هذا الشعر ، فهو موضوع مع القصة المعروفة باسم « عنترة » والقصة من إنتاج اقـــلام القرن الرابع كما سنتكلّم عن ذلك حين ندرس القصة في الادب العربي .

شعره : سهل اللفظ بالنسبة للجاهليين ، منسجم التركيب ، فخم ، رنان الاسلوب ، بعيد عن الكلام الوحشي ، جليل الوصف ، رقيق الغزل عفيفه ، وقد قيل ان النبي (صلعم) قال : « ما ذكر لي شاعر واحببت أن أراه الاّ عنترة » . وهو يقصد بهذا القول أن عنترة عفيف القول وعفيف الفعل لم ينزل عن المستوى العربي الرفيع وهو القائل :

واغضّ طرفي ان بدت لي جارتي   حتى يواري جـــارتي مأواها

معلقة عنترة - موضوعها : ١ — ذكر الديار والاحباب . ٢ — الغزل .

٣ — وصف ناقته وجـــواده . ٤ — وصف شربه الخمر . ٥ — فخره بنفسه وسيفه . ٦ — اعتزازه بهما . ٧ — وصف النزال والطعن وتقتيـل الفرسان . ٨ — عزّته بقومه . ٩ — شتم شاتميه .

الكبت : كان معيناً لعنترة على قول الشعر ، لأن العاطفة متى اتقدت يسهل قول الشعر على الشاعر ويدخل قلوب سامعيه ، بعكس الشاعر الذي لا يحسّ شيئاً فإنه لا يوفـّق مهما كان مجيداً .

مركب النقص : « كل ذي عاهة جبّار » هذا ما قالته العرب قبل الوصول إلى معرفة العقل الباطن في علم النفس ، فكل فراغ عند الإنسان لا بـدّ له من املء . فعندما يحسّ الرجـل أنه ينقصه شيء ، يسعى إلى الحصـول عليه من جهة أُخرى .

اسلوب عنترة : هو أقرب الشعراء الجاهليين الينا ، فلسفته سهلة وعبارته هينة ومعانيه سامية ، فهو لم يلهِ نفسه بالسفاسف ومـا عالج الّا كل موضـوع اخلاقي ، فوصف نفسه بأنه متنزه عن كل هذه الاشياء ، وقد عمل بما قال ، كل ذلك بصورة لطيفة ذات تشابيه واستعارات من حياة راقية ، لا كما رأينا عند امرىء القيس مثلاً حين راح يشبّه اصابع عنيزة بالديدان .

لا أثر للكلفة والتعمد في قصيدة عنترة ، ولا عيب فيها الّا الانتقـال من غائب إلى مخاطب ، ولكن بصورة مستحبة ، وهي لا تخلو من ألفـــاظ وان كانت كريهة وقبيحة الوقع في السمع لكنها مفهومة . يتنقـّل سريعاً من موضوع إلى آخر ، فتبدو قصيدته كأنها مفككة ، وقد استعمل هذا العبد الفاظاً جميلة مثل « دار لآنسةٍ » و « حامي الحقيقة » الخ .

فخره : كان عنترة يفخر بنفسه ولا يخرج في شعره عن وصف ذاتـــه ، وسبب ذلك مركب النقص والكبت . فإذا فتـّشنا عن شاعر عربي مغرم بذاته « **نرجسي** » لم نجد له مثيلاً ، ففخره يتناول جميـع ما تفخر به العرب من شجاعة وجود وفروسية ودفاع عن الحوض . وهو في هـــذا يختلف عن شعراء الفخر كالشريف الرضي الذي يفتخر اكثر ما يفتخر بنبل أصله وشرف جدوده ، بينما

عنترة والمتنبي لا يفتخران إلّا بشخصهما كقول المتنبي مثلاً :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي   وبجـدّي سموت لا بجدودي

تأثير سواده : كان عنترة في جهد جهيد من سواده وهو لا يعرف كيف يتخلص من نكبته ، فإذا بإحساسه يجعله يشعر بأن هذا السواد لا بد له من ماحٍ ، فلجأ إلى الصور الشعرية التي لم يوفـّق اليها أسود غيره ، قال :

يعيبون لوني بالسواد جهالة   ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

تعيرني العدى بسواد جلدي   وبيض فعـائلي تمحو السوادا

والمتنبي يلتقي مع عنترة عند كافور فيقول له : « ابا المسك » .

تفضح الشمس متى تطلع الشمس   بشمس منـيرة سوداء

كما شبّه الملوك بكتيبة من الخيل تتسابق في الميـدان وكافور هو المجلـّي: « سوابق خيل يهتدين بأدهمِ » .

شعره الملحمي : نلتقي مع هوميروس بقصّة عنترة عندنا ، وسيأتي الكلام على هوميروس ، ونرى ان قصـة الإلياذة شديدة الشبه بقصة عنترة . والناس مختلفون حول عنترة ، فمنهم من ينكر وجـوده كما أنكر بعضهم وجود هوميروس. وسيّان عندنا أوُجد عنترة أم لم يوجد فنحن ننظر إلى هذا الشخص الذي تعجبنا أخلاقه وفروسيته فنحبه ونعجب به .

وأخيراً أقول في هذا البطل : سيّان عندنا أكان هجينـاً ، أم كان غراباً ، مشقوق الشفة . ومـاذا تهمنا أمّه ، فلتكن زبيبة ، أو زيتونـة ، أو تفاحة . المهم خلق الرجل وشجاعته ، وهـذان لا يشك بهما أحد . وإذا لم يكن قد وجد ، فالفضل للذي أوجده . ولا بأس علينا إذا كرّمناه كما نكرّم الجندي المجهول . هب أنه شخص روائي مثل شخوص سرفنتس وموليير والجاحظ ، أفما صار هـؤلاء كالأشخاص الأكابر الذين عـاشوا على وجـه الأرض ؟ فلينعم عنترة بالاً .

انواع الشعر الاخرى

الرثاء : هو عندي أصدق أغراض الشعر إذا قيل عن عاطفة ، كما كان يقوله المهلهل ، وامرؤ القيس ، ولبيد ، والخنساء ، وكما قالته جليلة . وأرى ابعده عن الشعر ما كان من الرثاء الاصطناعي .

ان الرثاء الاصطناعي لأشبه بقول النوادب في المآتم ، يرددن اقوالا لا يشعرن بما فيها من التأثير والعاطفة .

لم يقل شعراء العرب في الجاهلية الرثاء الا في اخوانهم وابنائهم واحبابهم ، فجاء مؤثراً واتصل بالقلب لانه صادر من القلب .

يقولون ان الرثاء هو مدح الميت ، وهذا بعيد عن الحقيقة ، فليس الرثاء من المديح في شيء اذا كان عاطفياً ، اما اذا كان صناعياً موضوعياً ، فهو المديح المزيّف .

امامك رثاء الشعراء الجاهليين الذي قالوه في ذويهم وآلهم ، كرثاء جرير في زوجته ، ورثاء ابن الرومي في بنيه .

اقرأ قصيدة «واكبدا قد تقطعت كبدي» ترَ العاطفة متدفقة . اقرأ قصيدة «حكم المنية فيالبرية جار»تطلـّععلى برودة عاطفتهاومحاولة الموعظة فيها،والاعتماد على الصناعة الشعرية .

قابل كل هذا الرثاء بغيره من الذي يقال للقيام بالواجب تدرك الفرق .

إن هذا الشعر الذي نطلق عليه في الأدب العربي اسم الرثاء، لهو شعر الصنعة والكلفة ، يقوله كثير من الشعراء حتى يقال أنهم نظموا في كل أغراض الشعر ، وهكذا تتحول الحفلة التأبينيّة مباراة شعرية .

الخنساء

نسبها : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية ، لقبها الخنساء ، — وهي مؤنث الأخنث من صفات الظباء ، وهو تأخر الأنف وارتفاع أرنبته . ودعيت خناس اختزالاً للتحبب ، وهذا كثير حتى في اللغة العاميّة .

كانت جميلة الصورة ،خطبها كثير من أجواد العرب فلم تتزوّج الا ّ في قومها. رُزقت أولاداً أربعة ماتوا في وقعة القادسيّة جملة ، امّا هي فماتت في البادية في خلافة معاوية .

رثاؤها : وهذا ما اشتهرت فيه من ضروب الشعر . قالت معظمه وأجوده في صخر أخيها لابيها ، ثم في شقيقها معاوية ، وكلاهما قتلا .

قتل معاوية أولاً في يوم الحوزة الاول ، وسبب قتله خـــلاف نشأ في سوق عكاظ بينه وبين هاشم بن حرملة المرّي الغطفاني .

أمّا صخر فجرح في يوم كلاب مطالباً بثأر أخيه ومات متأثراً من جراحه.

إن موت أخويّ الخنساء وخصوصاً صخراً أفاض شعورها وأسال قريحتها كينبوع غزير ، تدفق حين انبثق .

ومعظم رثائها قالته في اخيها صخر ، لانه كان يحبها حباً جماً ، ويعطف عليها اشد العطف ، حتى قسم ثروته بينها وبينه مراراً .

شعرها – أغراضه : الرثاء وما يدخل فيه من محامد وفخر .

هي أشعر النساء من حيث المطوّلات والإكثار من الشعر ، والقدماء مجمعون على أنها اشعر النساء في الرثاء .

ديباجته : متين التركيب ، ليّن الالفـاظ ، رقيق التعبير ، سهل الفهم ،

شديد الوقع في النفوس لأنه شعر العاطفة .

في عكاظ : يقولون إنها انشدت النابغة في عكاظ ، ويقولون إن قصيدتها كانت في رثاء أخيها صخر وإنها « قذىً بعينكِ أم بالعين عوّار » .

ثم يخبروننا عن غضب حسان بن ثابت عندما سمع النابغة يقول لها : كنت فضّلتك على شعراء الموسم ، لو لم ينشدني أبو بصير ، أي الاعشى .

ثم مساجلتها مع حسان بن ثابت ، ونقدها شعره « لنا الجفنات الغر الخ . » الى آخر ما هنالك من القصة .

لا ريب أن هذه القصة من تلفيق الرواة ، نأتي لدحضها بدليل واحد نظن أنه كاف وهو : إننا نسأل هل كانت القواعد وخصوصاً قاعدة « الجموع » من حيث القلّة والكثرة معروفة كما هي مدوّنة بالكتب النحوّية اليوم ؟

الجواب لا . لأن اصول النحو وضعت بعد عكاظ بكثير .

امّا قصيدتها « قذىً بعينكِ ام بالعين عوّار » فإنني أرى فيها صنعة ظاهرة وتكلفاً بادياً ، وما سياقها وضخامتها باللذين عرفناهما في شعر شاعرتنا. فقصيدتها هذه أقرب إلى المدح منها إلى الرثاء والتفجّع اللذين نلمسهما في شعر الخنساء. وهي هنا على خلاف عادتها تترك الموضوع ثم تعود اليه ، كأصحابنا شعراء عكاظ .

اسمع ، يا اخي ، الخنساء تقول :

يؤرقني التذكر حين أمسي	الخ ... الى ان تقول :
يذكرني طلوع الشمس صخراً	واذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على اخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكين مثل اخي ولكن	أُعزّي النفس عنه بالتأسّي
فلا والله لا انساك حتى	أفارق مهجتي ويشق رمسي
فقد ودعت يوم فراق صخر	ابي حسان ، لذاتي وأُنسي
فيا لهفي عليه ولهف نفسي	ايصبح فيالضريح وفيه يمسي؟

فيا لها من عاطفة تتجلّى فيها الأخوّة الصادقة بكل قوّتها واخلاصها ، وما أَشد هذا التفجع وما اعظم تأثيره في النفس .

لا أدري اذا كنت تتمثلها معي كما أتمثلها انا حين تهتف : فيا لهفي عليه الخ.

أفلا ترى معي أن كل العاطفة الانسانية والمحبة البشرية متمثلة مجسمة بهذا الاصباح والامساء ؟

أمّا قصيدة « قذى بعينك الخ . » التي قالوا ان النابغة حاول تفضيلها فيها فهذا هو رأيي فيها :

ألفاظها ضخمة غريبة لا تتفق وعاطفة الرثاء ، امّا عيوبها فهي قولها : ترتع ما رتعت الخ . فهذا لم نره في شعر الخنساء . ثم قولها : لم تره جارة الخ. وقولها ايضاً : تبكي لصخر هي العبرى الخ . وقولها : مورث المجد ميمون نقيبته .

وبكلمة مختصرة أقول : انني وجدت هذه القصيدة اكثر قصائـد الشاعرة كلفة . ولا عجب ، فكذلك كانت البضاعة التي تصدّر وتعرض في سوق عكاظ.

أمية بن أبي الصلت

الثقفيّ ، شاعر شهير . واذا قالوا في ابن الرومي انه شاعر يغنّي في غير سربه ، فأميّة هو ذاك الطائر الغريب حقاً . لبس أميّة المسح واطلع على كتب النصارى وشكّ في الاوثان وحرّم الخمر وهو القائل :

كل دينٍ يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زورُ

ومن غرائبه تسمية الله بالتغرور وتسمية السماء صاقورة وحاقورة . وأمعن في الإغراب فجعل للقمر غلافاً سماه الساهور . وإغرابه هذا حمل الرواة على الإغراب في حوادث حياته . فراجعها في كتاب الاغاني اذا شئت .

وكان أمية يظن انه سيكون نبي العرب ، فلما خاب ظنه ، اخذ يحرض مقاومي النبيّ على قتاله .

امّا شعره فغريب اللون في تفكيره وتعبيره ، وسترى شيئاً منه في النصوص المختارة .

الاعشى

حياته : ابو بصير ميمون بن قيس البكري . ولقبه الاعشى الاكبر . ولد باليمامة ، وعاش متشرداً ماجناً ، اي بوهيمياً بلغة هذا الزمان . ادمن شرب الخمر وقامر فافتقر وراح يسعى وراء المال ، فرحل الى جميع البلاد العربية طارقاً ابواب الملوك والامراء طالباً عطاءهم .

حكاية : كان للمحلق الكلابي عدة بنات لم يخطبهن احد ، فاكرم الاعشى فقال فيه قصيدته المشهورة : أرقت الخ . وما انشدها في سوق عكاظ حتى نفقت بنات المحلق جميعهن .

التشخيص : كان الاعشى موهوباً ملكة القصص وتشخيص ما لا يعقل . ومن هذا قوله في مدح النبي مخاطباً ناقته :

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم   تراحي وتلقي من فواصله يدا

شاعر الخمرة : كان الاعشى رائداً للاخطل وابي نواس ، فوصف الخمرة مشخصاً لها ، ووصف النديم والساقي والقنينة ، ورسم صورة السكارى ، وادخل في وصف السكارى الحوار مع بياع الخمرة وساقيها .

فن الاعشى : سموه صناجة العرب لموسيقاه التي يقوم عليها اساس فنه الشعري . وشعره سهل منسجم جلي ذو رنة عجيبة مقرونة بمتانة وشدة ، ولذلك تناقل الناس شعره وطارت شهرته وكسب كثيراً .

كان يتغزل ويمدح ، ويقول خمرياته بمناسبة المدح ، اما اسلوبه في مدحه فهو عادة الاسلوب القديم والخطة القديمة للقصيدة . امتاز بالقص الحسن الحوار

الى ابعد حد ، وحسبنا منه نظمه حكاية امرىء القيس والسموأل وابنه .

آثاره : ديوان كبير فيه جميع اغراض الشعر ، وان كان اكثره في المديح بضاعة ذلك الزمان التي كانت تطعم خبزاً . واشهر قصائده اللاميتان . الاولى: ودع هريرة ، وهي معلقة عند الذين يعدون اصحاب المعلقات عشرة ، وقد ترجمت الى الالمانية والفرنسية والفارسية ، وموضوعها غزل ووصف الخمرة واللهو ووصف السفر والعارض والبرق ، واخيراً تهديد ابن عمه يزيد .

منزلته : له مقام رفيع عند من ينظرون الى الفن،ولهذا عدّوه من اصحاب المعلقات . وهو شاعر خمرة عند هؤلاء لا يجارى ، كما انه شاعر قصصي من الطراز الاول . وهاك واحدة من اروع ما قال :

حكاية السموأل

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به ... في جحفل كسواد الليل جرّارِ
بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجارٌ غير غدّارِ
إذ سامه خطّتي خسفٍ فقال له ... مهما تقلهُ فاني سامعٌ حارِ
فقال : ثكلٌ وغدر انت بينهما ... فاخترْ فما فيهما حظٌّ لمختارِ
فشكَّ غيرَ طويلٍ ثمَّ قال له : ... اقتل اسيرك اني مانعٌ جاري
أنا لهُ خلفٌ ان كنت قاتله ... وان قتلتَ كريماً غير خوّارِ
وسوف يُعقبهُ ان كنتَ قاتلهُ ... ربٌّ كريمٌ وقومٌ ولُدٌ احرارِ
فقال محتدماً إذ قام يقتلهُ ... أشرفْ سموألُ،فانظر للدم الجاري
أأقتل ابنك صبراً ، او تجيء بها ... طوعاً ، فأنكر هذا أيَّ إنكارِ
فشدَّ أوداجه والصدر في مضضٍ ... عليه منطوياً كالدرع بالنارِ
واختار ادرَعه كيلا يسبّ بها ... ولم يكن عهده فيها بختّارِ
وقال لا نشتري عاراً بمكرمة ... واختار مكرمة الدنيا على العارِ
فصان بالصبر عِرْضاً لم يشنه خنا ... وزنده في الوفاء الثاقبُ الواري

الهجاء

الهجاء وليد المدح والفخر ، فقـــد كان العرب في اول عهدهم يمدحون ويفخرون . ومن يمتدح نفسه ويفخر بقومه لا بد ان يتعرض لذم من يفتخر عليه ، وهكذا انبثق هذا النوع من الشعر .

لم يكن شعراء العرب في الجاهلية يتوخّون الهجو فيقولونه محضاً ، اي انهم لم يفردوا له باباً خاصاً .

كان الشعراء في بادىء عهدهم يتكسبون بالمدح حتى ملّ الناس من هذا المدح ورغبوا عنه فقلّت الجوائز والصلات . قد يهمل الممدوح الشاعر وقد لا يكترث له ، وقد ينتظر على باب الامراء مدة . وهذا ما حدث للحطيئة مع الزبرقان ، فانه أهمله ولم يكن شديد الاهتمام به ، حتى جـــاء آل شماس واستمالوه فهجا الزبرقان .

ويشبه هذا ما اصاب المتنبي مع كافور ، فانه ملّ اهمال كافور ووعوده ففر من عنده وهجاه ذاك الهجو الخالد .

اذا ضاق صدر الشاعر يهجو ويذم . وقد يكون الهجاء باباً للرزق ، كما كان يفعل بشار بن برد . وكيف كان الأمر فالشعراء لجأوا إلى هذه الوسيلة اكتساباً للرزق اولاً . ثم قال الشعر بعضهم لغرض سياسي يسعون لتأييده في حزب من الاحزاب ، كما سترى في بحثنا الشعر السياسي .

الهجاؤون : اما الشعراء الهجّاؤون في الجاهلية فليسوا بكثيرين . نذكر منهم اوس بن حجر ، وزهيراً ، والحطيئة الشاعر المخضرم الذي اشتهر بالهجاء في هذا العصر .

الحطيئة

حياته : هو ابو مُلَيكة جَرْوَل ، الحطيئة العبسي ، ولد مغموز النسب في بيت رجل عبسي ، ولكن نسبه لعبس لم يثبت صريحاً ، وهذا ما دعاه إلى هجو امه وابيه ، وهذا ايضاً سهل له الانتماء إلى قبيلة اذا غضب من أُخرى .

كان العرب يحرصون على النسب ويفخرون به فجـــاء الحطيئة لا نسب له فغضب على الانسانية جمعاء ، ولم يسلم من هجوه احد كما يقولون حتى نفسه .

شخصيته : كان قبيـــح المنظر ، رثّ الهيئـــة ، فاسد الدين ، بخيلاً ، قليل الخير ، كثير الشر ، دنيء النفس جشعاً ، يلحف في السؤال ، يتهدد الناس بهجوه ليبتز اموالهم ويستدر عطاياهم ، شبهه اذا شئت ببعض الصحف التي تنال من كرامة الناس طمعاً باموالهم .

كان الحطيئة اذا قدم بلداً تنادى اهلها لجمع الأعطيات له ليشتروا بها كرامتهم واعراضهم . وما زال هذا شأنه حتى هجا الزبرقان بن بـــدر صاحب الرسول وعامل عمر بن الخطاب على الصّدقات ، فسجنه عمر واخرجه من السجن استجابة لاستعطافه . هدده عمر ان يقطع لسانه ان هجا احداً ، ويقولون ان عمر اشترى منه اعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكن الحطيئة نكث عهده بعد موت عمر ، وظل يهجو حتى مات في عهد معاوية سنة ٥٣ .

وصيته : لا اخال وصية الحطيئة المشهورة إلا منتحلة ، واهم ما جاء فيها : جعل عبيده عبيد قنّ ، وأكل اموال اليتامى ، وايصـــاء الفقراء بالسؤال والالحاف الخ .

ولكنها في كل حال تدل على اخلاقه اصدق دلالة .

دينه : كما تقدم الكلام عنه في اخلاقه ، أي انه رقيق الاسلام ضعيف الايمان قليل الدين ، أسلم وارتدّ بعد موت النبي ، وفي ذلك يقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا ويلتي ما بالُ دينِ أبي بكر

اخلاقه : يمثل الجاهلية اصدق تمثيل في الحرية والاباحة وقلة الدين .

غلظة طبع وجفوة خلق وخشونة عيش .

اطواره غريبة ، يضحك منه الناس ويخشونه . جبان ساخط على الدين الجديد ولا يجرؤ على اظهار سخطه لجبنه .

تحاماه فريق من الناس خوفاً من لسانه ، وأقبل عليه فريق آخر يستعين بهجائه على خصومه ، كما وقع للزبرقان وابناء عمه .

شعره — اغراضه : الهجاء ، المدح ، الفخر .

ديباجته : متين التعبير ، رائق الاسلوب ، لا غرابة ولا ركاكة فيه ، ولا تعقيد ، بل تأنق وتحكيك حتى سموه عبد الشعر . متأثر قليلاً بالدين الجديد لفظاً ومعنى .

اما معانيه فصورها حسيّة مادية كما قلنا عن استاذه زهير .

هجاؤه : اذا ذكر الهجاء تبادر الى الذهن اسم الحطيئة ، ويظنون انه شتّام في هجوه ، يتناول الاعراض بكلامه البذيء ، في حين ان شعره بريء من ذلك .

فشعره على شدته ولذعه لا فحش فيه ولا هجر ، ينال الناس بهجوه من قبل منزلتهم الاجتماعية ، ويعيّرهم بما يكرهه العرب ، وكثيراً ما يكون هجاؤه دقيق المعنى خفيّه كما في قوله في هجاء الزبرقان .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

وقوله ايضاً في مدح خصومه والتهكم عليهم :

ما كان ذنبيَ ان فلّت معاولكم من آل لأيٍ صفاةٌ اصلها راسِ

وقد رووا له هجواً بوالدته وابيه ونفسه .

راجع قصيدته السينية التي حبس فيها ، وأولها :

والله ما معشر لاموا امرءاً جُنباً في آل لأي بن شمّاسٍ باكياس

مدحه : كان لا يبالغ في مدحه الا باخلاق العرب المحبوبة ، وكثيراً ما يتعرض لذكر الكرم والجود شأن كل مستعط ، وينزه ممدوحه عن المنّ الذي يشين العطاء ويصيره ممقوتاً عند العرب .

وخير ما قاله من المدح قصيدته الدالية التي مدح فيها آل شماس ، كما ان خير ما قاله في المدح كان فيهم ايضاً .

اما قصيدته الدالية فأذكر لك شيئاً منها وأترك لك التفتيش عن السينية ومطالعتها :

ألا طرقتنا بعدَما هجعوا هندُ	وقد سرن خمساً واتلأبّ بنا نجدُ
الا حبذا هند وأرضٌ بها هند	وهند اتى من دونها النأى والبعدُ
وهند اتى من دونها ذو غوارب	يقمّص بالبوصيّ معرورفٌ وردُ
وان التي نكّبتها عن معاشر	غضابٍ علي ان صددت كما صدوا
اتت آل شماس بن لأي وانما	أتاهم بها الاحلام والحسب العد
فان الشقي من تعادي صدورهم	وذو الجد من لانوا اليه ومن ودوا
يسوسون احلاماً بعيداً أناتها	وان غضبوا جاء الحفيظة والجد
أقلّوا عليهم لا أبا لابيكمُ	من اللوم او سدّوا المكان الذي سدوا
اولئك قوم ان بنوا احسنوا البنا	وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدوا
وان كانت النعمى عليهم جزوا بها	وان انعموا لا كدروها ولا كدوا
وان غاب عن لأي بعيد كفتهم	نواشىء لم تطرر شواربهم مرد
مطاعين في الهيجاء مكاشيف للدجى	بنى لهم آباؤهُم وبنى الجد
فمن مبلغ لأياً بان قد سعى لكم	الى السورة العليا أخ لكم جلد
رأى مجد اقوام أضيع فحشهم	على مجدهم لما رأى انه المجد
وقد لامني أفناء سعد عليهم	وما قلت الا بالذي علمت سعد

وخلاصة الكلام ، ان الصور المادية تسيطر على كل شعره ، فارجع اليه يتضح لك ذلك .

السياسة والمديح

نعلم ان العرب البدو كانوا قليلي التأثر بالدين قبل الاسلام ، ومع ذلك نرى لليهودية والنصرانية تأثيراً في الأدب العربي الجاهلي .

كان العرب في جاهليتهم — كما علمنا — قبائل متعددة متفرقة كل قبيلة تركب رأسها وتتبع هواها ، لا تتأثر الا بالتقاليد التي توارثتها عن الاجداد وتناقلتها كابراً عن كابر دون ان تفكر بتحويرها أو تنكّب عن نهجها .

وكان يجاور هذه القبائل امارتا الحيرة والشام ، كما ان اليهودية والنصرانية احتلتا أماكن كثيرة في جزيرة العرب ، فالمدينة كانت مستعمرة يهودية ، بنى اليهود فيها قلاعهم وحصونهم . وقد تجاوزت اليهودية المدينة إلى اليمن حيث احتلتها وكان لها فيها شأن كبير .

أما النصرانية فقد انتشرت في منـــاذرة الحيرة وفي غساسنة الشام وسائر قبائله ، وقد كان قساوسة النصارى ورهبانهم على جانب كبير من العلم والمعرفة ، وخطيبهم المشهور اسقف نجران ، قس بن ساعدة الايادي، وعظ الناس وخطب فيهم كثيراً وذكّرهم بالجنة والنار والبعث والحساب . وقد شهده النبي (صلعم) في سوق عكاظ يخطب الناس فيها على جمله .

ومتى وجد الاحتكاك الديني وجد التعصب ، وعن هـــذا التعصب تنشأ الاغراض والاهواء والاحزاب ، وهذا ما يعبرون عنه بالسياسة .

فأربعة أمور أوجدت السياسة في جزيرة العرب :

الاول : احتكاك الأديان .

الثاني : مخالطة الامم المختلفة بالتجارة .

الثالث : سوق عكاظ التي كانت أشبه ببؤرة سياسية .

الرابع : نفوذ الفرس والرومان الذي يمثله الغساسنة والمناذرة .

لا أخالك تقول بعد هذا : ومـــاذا يعني البدوي الضارب في صحرائه من السياسة ، وإن قلت ذلك فاسمع :

إن ما بينته لك لسبب قوي لإنتاج شعراء عديدين سياسيين ، يخوضون غمار السياسة .

فلا شك ان السياسة وجدت في ذلك الزمان ، ولو لم تكن موجودة فلماذا يترك امرؤ القيس وطنه طالباً من ينصره على قوم قتلوا أباه وسلبوا ملكه ؟

أجل لقد خاض امرؤ القيس الشاعر الحرب السياسية بسيفه وعـــدته كما خاضها بلسانه . لقد قـــال في قصيدته المشهورة بعد أن وصف لك المتاعب والمشقات التي قاساها :

ولو انـــني اسعى لأدنى معيشة — كفاني ـ ولم أطلب ـ قليل من المال

ولكنما أسعى لمجـــد مؤثـــل — وقـد يدرك المجد المؤثل أمثالي

ومـا المرء مـا دامت حشاشة نفسه — بمدرك أطراف الخطوب ولا آلِ

ثم قوله في قصيدته الرائية :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه — وأيقن أنـّـا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبكِ عينكَ انمـــا — نحـاول ملكاً أو نموت فنعـذرا

ثم مـــا قولك في قصيدة زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان ، وهرم من اجواد العرب ومن كبرائهم ؟

اصلح هرم ذات البين بين عبس وذبيان بمؤازرة الحارث بن عوف ، ودفعا ديات القتلى .

ومعلقة عمرو بن كلثوم أليست من الشعر السياسي أيضاً ؟

ولقد أرسلت النساء الشعر السياسي في الجاهلية كالرجال ، وهـــذا ظاهر جلي في قصة ليلى العفيفة .

فليلى هذه كانت رائعة الجمال غزيرة الأدب ، نزل بها أبوهـــا قرية فارسية

فسمع ملك الفرس بجمالها فاغتصبها من أبيها ، ولكنه لم يتغلّب عليها ، بل ظلت تستثير العرب بشعرها وتحثهم على نجدتها وحفظ عرض العرب من العجم ، وبسببها نشبت حرب ضروس قهر بها العربُ العجمَ ورجعت ليلى إلى مأمنها .

وهناك ادلة كثيرة غير هذه لا حاجة إلى سردها ، ولكنني قبل ان اختم هذه الكلمة في السياسة اذكرك بالمتلمّس ، فماذا فعل بعد ان القى صحيفته وهرب ؟ ألم يجعل كل همّه اثارة الناس على عمرو بن هند فكان يقول الشعر دائماً في تأليب العرب عليه ؟

ولماذا غضب النعمان على النابغة ؟ اليس لانه مدح الغساسنة مناظريه السياسيين ، ومنازعيه النفوذ في الجزيرة العربية ؟

اتظن ان كل سبب غضب النعمان عليه لأنه قال شعراً في وصف المتجردة زوجة النعمان ؟ فهذا الوصف لا يستوجب كل هذه الضغينة ، فالادب العاري كان هفوة لا جريمة في الجاهلية بدليل ما نقرأه من شعرهم ...

المديح : كان الشعر في أول عهده وسيلة لاظهار كوامن الصدور وما تجيش به من عواطف . كان قوامه الوصف : وصف العاطفة ، وصف الطبيعة ، وصف المشقات والاسفار . وصف كل ما تقع عليه العين ويحس به القلب .

ثم دنا من المدح قليلاً ، عندما قيل في الافتخار بالنفس والاعتداد بها ، ثم مدح عزة القبيلة ومنعتها والاعتزاز بها ، حتى توصلوا اخيراً إلى مدح الافراد والافذاذ ، لا لدفع مغرم او لجر مغنم بل للاعتزاز بهم .

ولما اصبح للعرب شبه ملك ، من امارات وغيرها ، اصبح المدح شخصياً يدفع اليه الغرض والميل حتى صار الشاعر لسان حال الامير ، والامير يجيز الشاعر ويثيبه ، فصار المدح المجرد من ابواب الشعر فلجأ اليه كثيرون ، ثم اصبح مورد رزق لهم يعولون عليه .

وانتقل الشعر من مدح الامراء إلى مدح الافراد الذين لم يؤمّروا ، فقيل في مدح كل جواد كريم يجزل العطاء او يثيب .

وإمام المداحين وزعيمهم النابغة الذبياني ، بيد انه لم يمدح الا الملوك .

النابغة الذبياني

نسبه : هو ابو أمامة ، زياد بن معاوية الذبياني . لقبه النابغة ، وبهذا الاسم عرف عند اهل الادب ورجال التاريخ .

منزلته : من اشراف ذبيان ، الا ان تكسبه بالشعر غضّ من منزلته وان لم يتكسب به الا في مدح الملوك .

في قومه : كانت مكانة النابغة في قومه سامية جداً ، له فيهم نفوذ كبير وتأثير عظيم ، وهذه المنزلة العالية جعلت المناذرة والغساسنة يتنافسون في استرضائه ويتسابقون إلى استمالته – شأنه في هذا شأن الاخطل في بني امية – .

فالنابغة كان زعيم قومه النجديين يأمرهم بالحرب وينهاهم عنها . وقد كان في القبائل زعماء ايضاً يعارضونه ويناوئونه ، فكان يدافع في شعره عن سياسته هذه تارة باللين وطوراً بالعنف .

وفي شعره الذي قاله في هذا الباب دليل على ماجريّات السياسة – داخلية وخارجية – في عرب نجد في آخر العصر الجاهلي .

عند الملوك : اتصل النابغة اولاً بملوك الحيرة ومدحهم ، فادناه النعمان بن المنذر ونادمه ، ووصله بجوائز سنية إلى ان وشى به احد بطانته ،فهمّ النعمان بقتله فهرب الى الغساسنة ومدحهم . ولكنه ظل يحنّ إلى النعمان ، وما فتىء يعتذر اليه حتى استعطفه واستعاد منزلته عنده .

اسباب الغضب : يزعم الرواة ان سبب غضب النعمان سيف كان عندالنابغة اراده النعمان فوشي به انه ضنين به على الملك .

وفي رواية أُخرى ، وصفه المتجردة كما تقدم الكلام . والسببان مدحوضان

لا قيمة لها ، ولا يستوجبان هذا الغضب الشديد.

فسبب الغضب هو كما تقدم ، أي مدح النابغة للغساسنة منافسي النعمان ، وهذه المنافسة ناشئة عن تنافس الفرس والروم في جزيرة العرب ، والناس على دين ملوكهم .

اقسام شعره : شعره ثلاثة اقسام :

الاول قاله في ملوك الحيرة مادحاً ومعتذراً .

الثاني قاله في ملوك غسان مادحاً ومستعطفاً .

الثالث قاله في شؤون بدوية جاهلية تمسّ قبائل نجد وما كان بينها من صلات حرب وسلم .

اغراض شعره : مدح ، فخر ، هجاء ، رثاء ، اعتذار .

ديباجته : هو احسن شعراء العصر الجاهلي ديباجة لفظ ، وجلاء معنى ، ولطف اعتذار ، لم يرسل شعره على السجية (كالقول) بل هو فني يتوكأ على التشبيه والاستعارة والمجاز ، بيد ان هذا التكلف لم يعبه .

له صور شعرية جميلة . حبه الكسب جعله يتفنن في هذه الصور ويبتدعها . صوره مادية حسية ، يشبعها درساً وتلويناً حتى تظهر ظهوراً تاماً ، كما هي الحال في صورة ذهاب الحارث الغساني الى الغزو ، اي الحرب .

انت اشعر العرب : تقديمهم اياه في سوق عكاظ اعتراف له بالاسبقية . فقد كانت تضرب له قبة من أدم فيقضي لشاعر على شاعر .

وكثيراً ما كان ينشده شاعر في غير هذه السوق فيقضي له فوراً بهذه الكلمة المأثورة : انت يا ابن اخي أشعر العرب .

وقد يكون سائراً في الطريق فيستوقفه شاعر وينشده شيئاً فيقول له كلمته المأثورة : انت يا ابن اخي اشعر العرب (على الماشي) .

فاحكم انت اذن (يا ابن اخي) على قيمة هذه الكلمة وتصور ما شئت .

ملاحظة : من ينظر الى شعر هذه الفترة ، كشعر النابغة مثلاً ، وخصوصاً شعر الحطيئة يدرك ان الشعر العربي كان يسير بخطوات واسعة في آخر العصر الجاهلي نحو الرّقة الحضرية .

عديّ بن زيد

حياته : هو عديّ بن زيد العبادي ، تعلّم الفارسيّة وصار ترجمان كسرى ابرويز ملك فارس وكتب له بالعربية . فلما قتل عمرو بن هند أشار عديّ على ملك الفرس بتولية النعمان بن المنذر على العرب ، فولاه . وخاف النعمان من عديّ فسجنه ثم قتله ، ولكن العين الساهرة اقتصّت لعديّ فأمات كسرى النعمان تحت أقدام الفيلة .

شعره : نظم الشعر واقتبس حكايات من التوراة ونظمها شعراً ، مثل حكاية حواء والحية . فجاءت بين بين .

وأشهر قصائده قالها في السجن ووجّهها إلى النعمان قبل ان يقتله .

حكمته : مثل حكمة زهير مقتبسة من واقع الحياة واختبارها ، وكلامه بسيط ساذج ، ونظمه ركيك ، لأن فارسيته أخذت من فصاحة عربيته . ولو كانت قصائده من طراز هذه الأبيات لكان شاعراً معدوداً .

قال في الخمرة :

ودعَوا بالصبوح يوماً فجاءتْ   قينة في يمينها إبريقُ
قدّمتْهُ على عقارٍ كعين   الديك صفّى سُلافها الراووقُ
مزّة قبل مزجها فإذا ما   مُزجت لذّ طعمها من يذوقُ
وطفا فوقها فقاقيع كاليا   قوت حمر يزينها التصفيقُ

النثر ـ الامثال

يعلّل القدماء قلة النثر بأن الشعر أيسر حفظاً وأعلق بالأذهان لوزنه ورنته ، ومع اعتبارنا لهذا التعليل نقول :

إن الشعر يسبق النثر في جاهليات الأمم لأنه لغة العاطفة والخيال ، والنثر الفني لغة العقل والتفكير ، وقد كان العرب أميين في كثرتهم ، والشعر يعيش مع الامية . أما النثر الفني فلا يستطيع أن يعيش معها .

لا ننكر ان بعض أفراد العرب كانوا يكتبون في المعاملات في آخر عهد الجاهلية ، ولكن الكتابة لم تكن منتشرة الى حد يمكّن من تدوين الشعر والنثر .

إن في النثر شعراً وفي الشعر نثراً .

فهوميروس وشعراء اسرائيل وأصحاب المعلقات وخطباء العرب لم يكونوا شعراء ولا ناثرين في خطبهم وقصائدهم ، بل كان همهم ان يؤثروا في سامعيهم ، ولا فرق عندهم بين النثر والشعر .

ولم يكن العرب يفرقون بين النثر والشعر . ولذلك اعتقد فريق منهم زمناً ان القرآن الكريم شعر ، او طريقة من الانشاد الذي كانوا يسمعونه فيمنتدياتهم ويسمونه شعراً ، واخذوا يحفظونه وينشدونه بدليل قوله تعالى : « وما علّمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » .

وظلوا ايضاً بعد هذه الآية الكريمة يخلطون بين ابيات الحكم والامثال الجاهلية والآيات القرآنية حتى عصر الامويين . ولم يكن هذا عند الاعراب

بل تعداهم إلى الخطباء كما ذكر ابن عساكر والاغاني : انهم كانوا يوردون الابيات الحكمية والامثال من المنابر في الجوامع ظانين انها آيات منزلة .

وكذلك كان العرب لا يميزون بين سجع الكهان والعرّافين والرجز — الذي صار بحراً — بل كثيراً ما استعملوا الكلمتين على الترادف ، كما تدلنا خطب قس وغيره ، فهي تبدأ بالسجع المنظم القريب الفواصل التي تتسع بعدئذٍ رويداً رويداً .

ومثلها خطبة اكثم بن صيفي ، ففيها بعض اسطر ذات رنة موسيقية اتت عفواً .

وكذلك بعض الامثال ، فان بعضها شعري اللهجة وبعضها موزون ، وفي القرآن بعض آيات موزونة .

اما النثر الفني فلم يكن موجوداً مستقلاً عن الشعر بل كان نوعاً منه للانشاد .

الخطابة

كان للعرب خطباء ، دعت اليهم الحـــال الاجتماعية والسياسية ، وكان لهم خطباء مشهورون نعرف اسماءهم وشيئاً لا يذكر من اقوالهم .

لقد مهدت لتفشي الخطابة في العرب بلاغتهم الفطرية وسرعـــة الخاطر ، والاحتياج اليها للاقناع في الدفاع . وعدم انتشار الكتابة ، وقلة المواصلات من العوامل التي كانت تدفع الامير العربي الى ان ينتدب عنه رجلاً لسناً للتفاهم على قضية . وقد كانت هذه السفارة في آخر الجاهلية لعمر بن الخطاب .

في اخلاق العربي عصبية شديدة التأثير ، تدفعه الى الاهتزاز بسرعة لاجابة مجيب او رد عليه ، وكانوا يتأثرون بموسيقى الالفاظ ، وقوة ذاكرتهم تحملهم على الحفظ .

قد تكون خطابتهم غير فنية على طرق اليونان ، ولكنها كانت موجودة .

غاية الخطابة :

١ — المواعظ الدينية والاخلاقية والعِبَر .
٢ — المفاخرة والمنافرة (حديث السلم) .
٣ — التحريض على اخذ الثأر .
٤ — الحض على الصلح بعد المعارك .
٥ — في عقد الزواج — لتبيين مكارم المخطوب اليه في قبيل المخطوب له .
٦ — التوصية بالمحامد والتبصر والتروي الخ .

سجع الكهان : هو كغيره من الانشاء الجاهلي ويزيـــده في تكلف السجع

والغموض والتلميح .

اشهر كهّانهم سَطيح ، واسمه ربيعة ، مات بعد مولد النبي ، وشقّ أنمار كان كاهناً في عهد كسرى .

اما الخطب فامحى اكثرها ودرس ولم يحفظ لأنه وثني، ولم يبق منه الا الذي له علاقة بالاله الواحد ، ولا يمتّ الى الوثنية بنسب .

الامثال : بعكس ذلك ، فانها بقيت لان لا علاقة لها بوثنيتهم ، ولاسيما ان معظمها اصبح كالمفردات والعبارات التي يستعملها الانسان ، وهي تشبه الانشاء الانشادي .

والامثال : حقيقية وفرضية .

فالحقيقة لها اصل معروف او حادثة قيلت فيها .

اما الفرضية فهي تمثل لسان حيوان او نبات او جماد ، ويكثر هذا النوع منها متى اشتد الضغط السياسي .

اما الامثال فنتيجة رويّة شعب مدة اجيال ، والامثال موجودة عند كل الامم ، وكلها مستمدة من التجاريب ومظاهر الطبيعة والحوادث والطرق التي تتجدد كل يوم .

الحكمة : اشتهر العرب اكثر من سواهم بالحكمة وفاقوا كل الشرقيين بها بدليل قول التوراة في سفر الملوك (ف . ٣) « وفاقت حكمة سليمان جميع اهل المشرق »، ويريد العرب .

وللعرب اهتمام كبير بالامثال والحكم لا نزال نلمس اثره حتى يومنا هذا في انشاء كتابنا .

قيمة الامثال : فالذي نستطيع درسه من النثر الجاهلي هو الامثال .

فللعرب فيجاهليتهم امثال شعبية كثيرة وهي في صورة نثرية غير منظومة . واذا لم نستطع اخذها مقياساً للنثر في ذلك العصر لقصرها ، فعلى كل حال نرى فيها العقلية العربية والخلق العربي . وفيها نرى الجملة العربية القوية، الظريفة التعبير ، المصيبة المعنى ، المتقنة التشبيه ، الحسنة الايجاز .

لقد اجاد العرب في المثل ، وهو يمثلهم اصدق تمثيل لانه ينبع من كل طبقة فيهم ، بخلاف الشعر الذي لا يمثل الشعب كله ، لان الشعراء عادة يكونون أرقى من العامة .

ولكن الامثال الجاهلية اختلطت بالامثال الاسلامية حتى صعب التمييز بينهما ، الا اذا كان المثل قيل في حادثة تاريخية او عرف قائله .

اذن فعلى الذين يرغبون فهم النثر الجاهلي ومكانته العالية وجماله الفني ان يطلبوه من « الحديث الشريف » وخطب الخلفاء والامراء في صدر الاسلام حتى آخر العصر الاموي ، واخيراً في عصر بني العباس حين اصبح صناعة فنية .

جمع الامثال : عني العرب بها كثيراً فجمعوها ، وأول جامع لها : **عبيد بن شرية** ، **وحماد العبدي** في عهد معاوية ، ثم **الضبي** في اول الدولة العباسية ، ثم **ابو عبيد القاسم** ، **والاصمعي** ، **وابو زيد القرشي** ، **وهشام الكلبي** ، **وابن الاعرابي** ، **وابن قتيبة**، **والعسكري** ، **والميداني** ، وهذا جمع ٦٠٠٠ مثل ليست كلها من اصل عربي .

ميزات هذا النثر : لهذا النثر القليل ميزات وان كان قليلاً جداً لا يصلح للحكم عليه ، وابرز ميزاته :

١ ــ قلة التأنق في الالفاظ .

٢ ــ بعد قائليه عن المترادف والمتوارد .

٣ ــ لا تكلف في صوغ العبارة والاساليب .

٤ ــ قِصَر الجمل او توسطها، ويلتزمون ذلك في الحِكَم والامثال والوصايا.

٥ ــ ايجاز من غير اخلال بالمعنى .

٦ ــ استعمال الكناية القريبة المثال ، والابتعاد عن التصريح بما يستهجن .

٧ ــ قلة التعمق في المعاني والافكار .

الرواية والرواة

ما وصل الينا من كلام العرب شعر ونثر مرويّ عن اهل البدو الأميين . ورواته اميون ايضاً ، ولذلك ضاع كثير من الادب الجاهلي ، ولم يصل الينا الا ما بقي على ألسن الرواة ، حتى كان الخط والتدوين .

وما الرواة الا الشعراء والمتأدبون وارباب الاحساب والمجد فهؤلاء يتفانون في حفظ مفاخر الامم في كل عصر .

لقد كان امرؤ القيس **راوية ابي دؤاد الايادي ، وزهير راوية أوس بن حَجَر ، والاعشى راوية المسيّب بن علس الخ .**

واشتهر من قريش اربعة بأنهم من رواة الاشعار وعلماء بالانساب ، وهم :

مخرمة بن نوفل ، وابو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزّى ، وعقيل بن ابي طالب .

الخط العربي

عرف العرب الكتابة من النصارى واليهود . وقــــد كانت بالخط المسند في اليمن ، وهو منفصل الحروف يشبه الخط الحبشي . اما في الشمال فــكانت بالخط النبطي ، وله علاقة بالخط الآرامي اي « الاسطرنجيلي » ويسمونه الجزم ، وهذا تحول بعدئذٍ إلى الكوفي .

والكتابة وصلت إلى الحجاز من بين النهرين على يد السوريين .

قال ابن عبد ربه في العقد الفريد :

حكوا ان ثلاثة من طيء اجتمعوا ببقعة وهم : مرار بن مرة ، وأسلَم بن سدرة ، وغامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربيـــة على هجاء السريانية فتعلمه قوم من الأنبار ، وجاء الاسلام وليس احد يكتب العربية غير بضعة عشر انساناً .

وفي رواية ان العرب تعلموا الخط النبطي من حوران ، والكوفي من العراق ، وعندما جاء الاسلام فرض على الأسرى ان يفتدوا انفسهم بتعليم الكتابة لعشرة من صبيان المسلمين اذا عجزوا عن دفع الفدية . وكذلك فعل المأمون فيما بعد فجعل **اخراج الكتب ونسخها شرطاً من شروط الصلح** ، فنزل الملوك المغلوبون عند هذا الطلب .

اما تحسن الخط وترقيه إلى ما وصل اليه ، وما دخل عليـــه من حركات وضوابط واناقة ، فهنا ليس محل الكلام عنه .

عصر صدر الاسلام

المخضرمون ــ الامويون

معلومات مختصرة عن امتداد ملك العرب

انكر قرشيو مكة بعثة النبي (صلعم) فحاربوه ففر من مكة نهار الجمعة ١٦ تموز سنة ٦٢٢ م ، وفر معه مريدوه . ثم عاد ففتح مكة وحطّم اصنامها ، ووضع اساس الدين الحنيف الذي به وضعت اسس الوحـدة العربية ، فالادب العربي العالمي الذي يشغل علماء اوروبا اليوم .

الفتوحات

الخلفاء الراشدون

ابو بكر : فتح العراق والشام . وقد تم الفتح العراقي على يد خالد، والشامي على يد ابي عبيدة .

عمر بن الخطاب : فتح القدس ومصر وفارس .

عثمان : فتح افريقية وانقرة .

علي : حروب اهلية .

الحسَن : تنازل لمعاوية .

الخلفاء الامويون

معاوية : نزاع بينه وبين علي .

معاوية الثاني : على عهده فتنة ابن الزبير .

الوليد بن عبد الملك : على عهده فتحت الاندلس .

نشأة الامبراطورية العربية

جمع العرب كلمتهم بعد ظهور الاسلام : فهبوا للفتح حتى سيطروا في آخر عهد بني امية ، من ضفاف الكنج شرقاً وشواطىء الاطلنطيك غرباً واواسط افريقية جنوباً وشمـالاً الى اواخر ارمينية في آسيا ، وإلى اللوار في اوروبا . واحتلوا مدن كسرى وقيصر ، وحاولوا الاستيلاء على القسطنطينية ، وكانوا في كل فتوحهم يحملون كتاب الله ، يعلمونه الناس .

وهنا نبدأ كلامنا في الوحدة العربية وكيف تكونت وامتدت في العـالم بأسره .

وحدة الامة العربية

الفتوح : جزيرة العرب ، العراق ، فارس ، الشام ، مصر ، السنـد ، خوارزم ، سمرقند ، الاندلس .

ورث العرب كل هذه المدنيات وهي وارثة عدة حضارات .

لغاتها : كانت عديدة .

اجناسها : ساميّة ، حاميّة ، آريّة .

اديانها : مختلفة : سماوية ، وغير سماوية ، والعقليات مختلفة .

الشام ومصر : كان الشام ومصر ملحقين بمملكة الروم علمـاً وادباً ودينهما النصرانية . والعراق وفارس آدابها فارسية ، ومنها رومية بين نصارى العراق. وكانت الحرب سجالاً بين الدولتين فتغلب عليهما العرب .

ففي مصر والشام كانت الآداب عبارة عن العـــادات اليونانية في عصر الاسكندر .

وقد كانت العلوم اليونانية تطورت عند الفتح الاسلامي وخصوصاً الفلسفة لاختلاطها بالمواد اليهودية والمسيحية ، فتولد منها ما يعرف بالفلسفة الافلاطونية ، والفلسفة الفيثاغورية الحديثتين . وكانت مدرسة الاسكندرية ام المـــدارس بالطب والهندسة والفلك وسائر العلوم الرياضية والخطابة والشعر .

عاصرتها مدارس طرطوس ورودس وانطاكيـــة وبيروت التي اشتهرت بمدرستها الحقوقية .

وفي العراق وفارس كانت الآداب القديمة التي اضافوا اليهـــا آداب الهند والصين واشور وغيرها من امم الشرق .

وفي ايام سابور في الدولة الساسانية انشئت مدرسة جندي سابور ونقلت فلسفة اليونان اليها في عهد كسرى انوشروان العالم سنة ٥٣١ — ٥٧٨ .

ولما اقفل يوستنيانوس الهياكل والمدارس الوثنية جاء فلاسفة اليونان الوثنيون فنقلوا كتباً شتى عن اليونان ، وكانت الفلسفة الافلاطونية قد نضجت .

ففـَتْحُ الاسلام الكبير جعل مدنية الروم والفرس وادبها في حوزة العرب فتسربت الى المسلمين وامتزجت بعاداتهم وآدابهم .

واختلاط هذه الامم الكثيرة بالعرب ولـّد العجمة ، ولم تبق اللغة الفصحى الا في قلب الجزيرة .

ولذلك قال الاصمعي : اربعة لم يلحنوا قط لا في جد ولا في هزل :
الشعبيّ ، عبد الملك بن مروان ، الحجاج بن يوسف ، وابن القريّة .

ولهذا صاروا يحضرون المعلمين للامراء واولياء العهد من افصح العرب ، او يرسلونهم الى البادية .

التمازج : خضعت هـــذه الشعوب كلهـــا للمسلمين فاختلطت بهم في السكنى والجوار والزواج وكل مرافق الحياة فصارت الامة عربية وغير عربية .

العلوم : أخذ المسلمون العلوم عن المغلوبين لأنهم رأوا أنفسهم دونهم علمـــاً

ومعارف . أخذوا فلسفة ونظماً اجتماعية وعلوماً فلسفية واقتصادية ، وصبغوها بصبغتهم الخاصة فاجتاحت اللغة العربية كل لغات البلدان المفتوحة وانتشرت انتشاراً هائلاً حتى في أوروبا . فزادت ثروة اللغة العربية وأصبح الأدب العربي هو الادب الفارسي المصري السامي الغربي الأندلسي .

ادب عالمي : فهذا التكوين جعل الأدب العربي أدباً عالمياً يهتم له الغربيون للاسباب الآتية :

١ – العرب حملوا مصباح التفكير الإنساني أربعة قرون كانت فيها المدنية عندهم ، واشتملت عليها لغتهم . ثم نقلت ولا تزال تنقل إلى أوروبا . فالمستشرقون اليوم أشد اهتماماً بها ، وفي كل يوم يعثرون على كتاب جديد ينشرونه .

٢ – أساس الحركة الفكرية في أوروبا في القرن الثالث عشر يرجع إلى مؤلفات العرب التي درسها الاوروبيون .

٣ – الأمة العربية انتجت حضارة لا تزال قائمة إلى الآن يبحثها المستشرقون بكل اهتمام .

٤ – يدين العرب بدين كبير له تأثيره في عقليات كثيرة تبلغ مئات الملايين من الناس من بدء نشأته حتى يومنا هذا .

المظاهر الدينية : عبادة إله واحد ، إله كل شيء ، عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، الخلود ، الثواب ، العقاب ، قيمة الإنسان بعمله ، خير الناس أتقاهم لا أقواهم .

أما في الجاهلية فكانت العزة للكاثر ، ومنها المال والبنون والأقربون الذين تتولد بهم العصبية .

فالاسلام هدم القبيلة وكوّن الأمة : انما المؤمنون أخوة .

الآداب : عَدّ فضائل الجاهلية رذائل ، كالخمر والميسر والانتقام ، فحل محلها الصفح والمسالمة ومقاومة الظالم بدلاً من نصرته .

دافع عن الضعيف الذي يأكله سيده ، فحرّم الربا وحث على الصَدَقة

وفرض الزكاة .

فلم يكن الانقلاب الاسلامي انقلابـــاً دينياً ليس غير بل انقلاباً سياسياً اجتماعياً اقتصادياً .

إلا ان النزعات الجاهلية لم تمّحِ تماماً ، فالعصبية الجاهلية كانت تظهر في بيئات مختلفة .

ثم نمت أشد النمو في العصر الاموي ، فالشباب الاموي كان يعيش عيشة جاهلية من شراب وصيد وغزل .

الاجتماع والسياسة : بتكوّن أمـــة اسلامية تتكلم لغة واحدة ذات دين واحد ونظام واحد هو الشرع الاسلامي ، تحضّر العرب وصاروا ينتمون إلى المواطن بدلاً من القبائل .

حرّم الاسلام الربا الفاحش والتلاعب بالميزان والكيل وآجال الديون .

كان الزواج غير مقيّد فقيّده، وورّث المرأة وحرّم وأدها، وقسّم الميراث.

العيشة : لمـــا تغلب العرب على الفرس والرومان اكتسبوا مدنية وغنى وخصباً وعاشوا عيشة راضية . فكان الاسلام أشبه ببوتقة: أمة مؤلفة من أمم.

الانظمة : واكتسبوا أيضاً أنظمة سياسية كتدوين الدواين وتنظيم الجيوش .

أما **الفرس والرومان** ، فأخـــذوا عن العرب الدين واللغة ، فتعلموا العربية واسلموا ، وبرز بعضهم في العربية على العرب أنفسهم .

الدين الجديد والادب

للاسباب الآنفة الذكر جاء الادب الاسلامي مغايراً للادب الجاهلي ، فهو لا يصف العقل الاسلامي الذي طبعه الاسلام بطابعه الخاص .

لم يحدث التغير في الادب فجأة كما حدث مرة واحدة في السياسة والاجتماع ، بل ظلّ العرب متمسكين بأدبهم زمناً .

القرآن الكريم : ادهشهم القرآن الكريم اذ رأوا شيئاً لا عهد لهم به ، بل كل ما كان عندهم بعض اشعار وامثال متفرقة .

ادهشهم القرآن إذ حدثهم بشيء لم يتعودوه ، عن الدين ، عن الانـــذار والتبشير والاشتراع ، فانكروا ذلك أولاً ثم بهرهم جماله واحبوه . وما مضى ربع قرن حتى صار هو المثل الأعلى في الدين والادب والاجتماع والسياسة . وكان الناس بين منكر ومقاوم ومؤمن ومدافع .

الشعر السياسي : وظهر إذ ذاك الشعر السياسي : جماعة يدافعون عن النبي محمد ودينه ، وجماعة يناضلون عن دينهم القديم ويعادون النبي .

فهذا الشعر السياسي كان جاهلياً لفظاً ومعنى ، اسلوباً وغرضاً ، الا انـــه تناول شيئاً لم يتناوله الشعر القديم وهو المعاني الدينية . وكثرت فيه الفاظ لم يذكرها السابقون من الشعراء . وهذه الالفاظ وردت في القرآن الكريم ، كالالفاظ الدينية ، فمنهم من يكثر من ذكرها ، كعبدالله بن رواحة من شعراء الانصار ، ومنهم من كان حيناً يذكر وحينـــاً لا يذكر كحسّان بن ثابت . اما شعراء قريش المعارضون للنبي ودينه الجديد فـكانوا يلمّون بها الماماً .

الهجرة : معارضة قريش للنبي دعته للهجرة كما تقـــدم ، وحدثت حروب كثيرة . كل ذلك فتح مجالاً للشعر والاكثار منه ، كالفخر والهجـاء والرثاء ، فكان عصر النبي عصراً نهض فيه الشعر نهضة لم تحدث في الجاهلية ، حتى ان قريش عرفت به وكان قليلا فيها ، لأن القرشيين شعب منصرف للتجـارة وله السيادة على الكعبة .

وبعد موت النبي وحدوث حروب الردّة وظفر الاسلام ، انقطعت المعارضة واشتد الميل للفتح ، وزالت الخصومة الدينية في الحجاز ، وكان عمر يعاقب من يذكر تلك الايام واشعارها حتى نهى حساناً عن انشاد شعره في مسجد النبي ، فضعفت العناية بالشعر وانصرف القوم الى الحروب والفتوح وتأسيس الدولة وتمصير الامصار .

قلّ الاعتناء بالشعر ولكن لم ينصرف عنـــه العرب كل انصراف ، بل بقي منهم من يقوله مدحاً وهجاءً وفخراً .

ومنهم الحطيئة ، وكعب ، والشمّاخ بن ضرار ، والنابغة الجعدي . فهؤلاء ظلوا يقولونه كأنهم في الجاهلية . كما ان البعض منهم انصرفوا عنه او كادوا بعد وفاة النبي ، مثل حسان بن ثابت ، ولبيد .

اما الحطيئة فلم يتأثر بشيء من حيث المبدأ ، بل ظل هجّاء حتى حبسه عمر . وهناك شاعر آخر اسمه ضابىء البرجمي ، اقذع في هجـــوه حتى حبسه عثمان ، ومات في السجن .

هذان الشاعران وامثالهما لم يتركوا جاهليتهم وتفكيرهم ، ولكنهم تأثروا بالتعبير القرآني وبعض معانيه والحياة الاسلامية الجديدة فظهر شيء في شعرهم لم يكن مألوفاً من ذي قبل كقول الحطيئة :

من يفعل الخير لم يعدم جوازيَهُ   لا يذهب العرف بين الله والناس

ففي خلافة عمر وقسم من خلافة عثمان انصرف شباب الامة العربيـة إلى الحروب ، اي تركوا القول ومالوا إلى العمل ، الا بعض رجال البادية فانهم ظلوا محتفظين بعاداتهم خاضعين للنظام الجديد . فهؤلاء كان الشعر حديث مجالسهم .

وبعد تلك الفتوح العظيمة تكونت ناشئة جديدة ونظرية جديدة في الحياة. وأمن العرب شر اعدائهم وأثروا ، فعادوا الى التنافس فيما بينهم ، ومن آثار هذه المنافسة مقتل عثمان وعلي . وحدثت شِيَعٌ واحزاب أُخرى بسبب هذا التنافس ايضاً .

وحصل تنافس شعري بسبب مقتل عثمان وعلي لم يقلّ عن تنافس النبي وقريش ، فقيل شعر كثير .

وظلت الحالة كذلك حتى انقادت السلطة لمعاوية ، فهدأت الاحوال نحو ٢٠ سنة هدوءاً وقتياً ، اشبه بهدنة بين متحاربين ، استعداداً لحرب جديدة .

فما مات معاوية حتى اشتدت الخصومة وشمّرت عن ساقها وعادوا الى ما هو اشبه بأيام الجاهلية من الحروب . فكثرت الاحزاب واشتد النضال بالسيف واللسان .

فظهر الشعر ظهوراً جديداً اشد مما مضى ، وكان مخالفاً للشعر القديم لان الجيل اسلامي ، والجاهليون كانوا انقرضوا تماماً ، وقام جيل جديد متأثر بالاسلام ، وحضارات جديدة ، فتغير عقله تغييراً تاماً .

فالذي يصح ان نسميه ادباً اسلامياً هو ما قاله هؤلاء الذين سمعوا عن الجاهلية الاخبار ولم يروا منها شيئاً . وهؤلاء هم الذين يصح ان يطلق عليهم لقب شعراء اسلاميين .

الحياة الجديدة

فلتفهم الشعر الاسلامي الذي تطور من الشعر الجاهلي وانفصل عنه بعض الانفصال ، عليك ان تفهم ما يلي من الحياة الجديدة التي يصورها هذا الشعر الجديد .

ترك العرب الحياة القديمة ، ولم يعد يكسب العربي قوته من الغزو والغارة ، بل عاش بموارد كانت مجهولة عنده ، كالتجارة ، واستثمار الارض ، والجندية ورواتبها الضخمة ، واعمال الدولة : سياسة وادارة وقضاء .

ثم المهاجرة الى اقطار بعيدة افتتحها الاسلام حيث يكسبون ويعيشون برخاء اصبح العرب سادة الفرس وسادة الروم في الشام . زحفوا الى مصر ، ثم الى افريقيا ، ثم الى اسبانيا ، حيث سادوا وشادوا .

فكل هذه الاسباب غيّرت اخلاق العرب وحياتهم . فلما أمنوا شر الناس عادوا الى انفسهم فاخذوا في الشقاق والنضال والقتال .

فبعد موت معاوية تألّفت عدة احزاب :

١ — حزب بني أُمية وكتلته في الشام . التفت حول بني عبد شمس لتثبت لها الملك .

٢ — حزب عبدالله بن الزبير في الحجاز .

٣ — حزب بني هاشم آل البيت في العراق

٤ — حزب يعارض كل هذه الاحزاب ويرميها بالكفر والشقاق ، وهو حزب الخوارج : فالخوارج يريدون ان يكون الامر شُورى .

وكانت بين هذه الاحزاب حرب من اشأم الحروب وأشدها بعــد موت معاوية وخصوصاً يزيد ابنــه . وكان الأدب نفـير هذا الجهاد ، فلكل حزب شعراء وخطباء .

انتصر حزب الامويين على الزبيريين فمحقهم محقاً ، وانتصر أيضاً على الشيعة نوعاً ما .

كان هذا الحزب يجمد ثم يظهر إذا استجمع قواه وضعفت أعداؤه . ولهذا الحزب أيضاً شعراؤه وخطباؤه .

أما حزب الخوارج فبقي ثابتاً في وجه الامويين يجاهد جهــاداً عنيفاً ، لا يكاد يُغْلب حتى يجدد قواه .

مواطن الأدب الجديد

حفظ الامويون سلطانهم في الأقطار الاسلامية ، وظهرت قوة هذه الوحدة في عهد عبد الملك بن مروان حتى أشبهت ايام معاوية فصارت مراكز القوى العربية ثلاثة :

١ ــ **الشام** : وفيها الخلافة وما لها من بأس وقوة .

٢ ــ **العراق** : وفيهـــا الشيعة والمعارضة ، وفريق من أنصار ابن الزبير وجمهرة من الفرس ، واخلاط من أمم متعددة . ففي العراق أرض خصبة ومال وافر إلى جانبها الاضطراب الدائم ، والمعارضة الدائمــة ، والصراع بين السياسة والدين .

٣ ــ **الحجاز** : منفى الشباب أبناء المهاجرين والانصار يعيشون عيشة ترف وبذخ لا يبرحون الحجاز إلّا بإذن خاص من الخليفة . (اقامة اجبارية) . لهم من بيت المال رواتب ضخمة . أغدق عليهم الخلفاء العطـــاء وهم ورثة آبائهم الفاتحين أصحاب الاسلاب والغنائم التي لا تحصى .

فهذا الشباب يجمع في صدره عدة عواطف ، وفصاحة ، وشعور ، وحس

دقيق ، وأميال متّقدة، وكره للدولة القائمة على أركان وضعها آباؤهم وأجدادهم.

وفي هــذه الأقطار الثلاثة اختلف الأدب باختلاف الشؤون السياسية والطبيعية والاقتصادية .

ادب الشام : لم يكن في الشام شيء من الأدب الا ما ينقل مع الوافدين على الخلفاء من أهل العراق والحجاز ، لأن العرب الذين كانوا في الشام يمانيون ، فليس لهم ما لعرب عدنان من الانتاج الأدبي الذي ورثوه عن الجاهلية .

ادب العراق : كان العراق موطناً لذلك الأدب الذي يغلي كالمرجل ، فهناك معارضة سياسية ، ونضال بين الأحزاب ، وخطب سياسية وشعر سياسي ، وجهاد بين القبائل ، وتنافس بين الأفراد كأنهم في الجاهلية .

فكان هناك الهجاء للأفراد والجماعات ، ثم الفخر والمدح .

الحجاز : أما الحجاز فكان موطناً لشيئين متناقضين : النسك والتقوى والجد في درس العلوم الدينية ، وتحصيلها من جهة ، واللهو والعبث والمجون من جهة أخرى ، لأن هؤلاء الاشراف من قريش والانصار ، لهم ثروتهم وفراغهم .

في الامصار الثـــلاثة تظهر صور الحياة العربية في أواسط القرن الاول الهجري في الشعر ، وتظهر أيضا أغراض الشعر الاسلامي ، فهذا الشعر احتفظ بفنونه الجاهلية كالمدح والهجاء والرثاء والفخر ، وأضاف اليها فنوناً جديدة لم تكن ، وغيّر الفنون القديمة تغييراً عميقاً .

الغزل : قوي في هذا العصر جداً نظراً لرخاء العيش الجديد والترف ورقة مزاج اهل البدو بتأثير القرآن والحياة الجديدة ، ولهذا اصبح الغزل مستقلاً عن انواع الشعر الاخرى ، ولم يعد تابعاً لسواه ، فصار الغرض منه اظهار عواطف الشاعر واهوائه وميوله ، فاختلفت مذاهب الشعراء الحجازيين فيه .

فشعر **اهل البادية** ، عفيف عذري لا اباحية ولا تهتك فيــه ولا تجاوز لما اعتاده الناس، فهو حب طاهر قوي حاد، يملك كل حواس ناظمه وقائله، فيصبح مشتعلا به اشتعالاً . فهذا الشعر هو الشعر الذي تقرأه العذراء ولا يحمرّ وجهها، وزعيم هؤلاء الشعراء **جميل بن معمر** .

اما اهل المدن ـــ مكة والمدينة والطائف ـــ فمنهم ذوو الثروة الكبيرة واللهو العظيم ، وشعرهم يصف حياتهم وصفاً صادقاً بل يصوّرها ادق تصوير ، ولهذا ظهر في شعرهم الاباحية والعبث باختلاف مزاج الشعراء. ومن شعرائهم: **الاحوص ابن محمد** ، فهذا الشاعر اسرف في اللهو والتعرّض لاهل بلده ، حتى عذّب ونفي ايام سليمان بن عبد الملك .

والعرجي ، في الطائف ومكة تعرض لولاة مكة وسخط على خلفاء دمشق ، فعذّب وحبس ومات في سجنه .

وعمر بن ابي ربيعة الذي يعدّ زعيم الغزليين الاباحيين في الشعر العربي.

الغناء : وظهر مع هذا الغزل فن آخر هو فن الغناء . وبالطبع حيث يكثر اللهو يظهر الغناء . ظهر هذا الفن في الحجاز ومنه انتقل الى الاقطار الاخرى . والذين غنوا وتغزلوا في العراق والجزيرة ونجد تأثروا بغزل اهل الحجاز. وكثرة الموالي من الفرس والروم رجالاً ونساء كان لها اثر في نشأة الغناء.

الشعر السياسي : دعا اليه الصراع الحزبي واختلاف آراء الاحزاب في نظام الملك ، وفي الاشخاص الناهضين به من الزعماء ، واتصال هذا النظـــام وهؤلاء الاشخاص بالدين وهو اساس الحكم عند المسلمين .

ومنشأ هـــذا الشعر السياسي يتصل بالشعر القبائلي في الجاهلية . فشعراء القبائل كانوا ينافرون ويفاخرون ويدافعون ويدعون الى القتال والى الصلح والسلام.

اذن فالشعر السياسي تولّد من ذاك كما بيناه سابقاً .

كان اولاً بين القبائل ، ثم صار بين الوثنية والاسلام ، ثم صار بين المسلمين انفسهم بعد مقتل عثمان .

والطور الذى نتكلم عنه الآن هو طور تنظيم الاحزاب السياسية على قواعد معينة .

لم يكن هذا الشعر صورة افراد كما كان من ذي قبل بل صار صورة احزاب منظمة يناضل عنها .

الاحزاب

حزب الشيعة : يرى الحق ان تكون الخلافة في بني هاشم، بل في ابناء علي لأنهم احفاد النبي وابناء عمه ، ولأن النبي أوصى لهم في الحكم .

وما نشأ بعد ذلك حول هذه القضية فليس اساسياً ، انما الاصل هو المبدأ الذي ذكرنا . ولهذا ترى كل شعراء الشيعة يدافعون عن هذا الاصل ، مناصرين كل زعيم ينهض به .

حزب الامويين : يقول بالحكم في بني امية ،لان خليفة امويا هو عثمان وَلِيَ الخلافة شرعاً ، وقتل ولم يؤخذ بثأره (مزعم جاهلي) ، والامويون اولياؤه الشرعيون والمطالبون بدمه والوارثون له . وهم بعد اقوى قريش واشدها بأساً. وناصرهم في ذلك جمع غفير لا يقل عن الجماعة المناصرة خصومهم .

حول هذا المحور يدور شعراء الامويين وعليه يعتمد الامويون في النهوض باعباء الحكم .

حزب الزبيريين: يقول ان الامويين لا يحق لهم القيام بالحكم بدون استشارة الامة ، فالخلافة شورى لا كما يفعل الاكاسرة والقياصرة ، اذن فالامويون مغتصبون وعليهم ان ينزلوا عن الحكم المغتصب ، وللامة أن تنتخب .

حزب الخوارج : يقوم أولاً على انكار التحكيم بين علي ومعاوية ، ويقول ان التحكيم هذا خطأ ، والخصمان اللذان قبلا به تجاوزا حدود الدين فيه .

فمعاوية، ليس بصاحب حق شرعي ، فهو والٍ بغى على الخليفة ، فلما خاف الهزيمة لجأ الى التحكيم ، خدعة وكيداً .

اما علي ، فلأنه قبل في التحكيم شك بحقه الشرعي في الخلافة. وبما انه شك فليس له حق بالخلافة ، بل قد تجاوز الدين وبهذا كفر ، فليعترف ويعتزل ، والا فالخوارج اعداؤه .

على هذه القواعد قامت الاحزاب السياسية ، ومشى الخصام والجهاد، ولعب قميص عثمان دوره ، فكان لكل حزب سياسة خاصة يمتاز بها ، واخـذ الشعراء يدافعون بناءً على الاحوال التي تقدمت .

وسنأتي فيما يلي على ذكر شعراء الاحزاب .

الشعر في صدر الاسلام

شغل القرآن العرب ففتر النظم ، ولكن لمدة قصيرة ، هي التخم الفاصل بين الجاهليين والمخضرمين والأمويين ، ونحن قد ألحقنا المخضرمين بالامويين لأسباب ، منها :

١ – النغمة القرآنية ، وقد أفادتهم كما أفادت الامويين لقرب عهدهم بها . فنفس حسان والفرزدق واحد ، وجرير ككعب بن زهير ، ومثله الاخطل وان كان نصرانياً . وربما علت طبقة الأمويين على المخضرمين في البلاغة .

٢ – لأن الشعراء كانوا أعز نفساً وأرفع شأناً منهم في دولة بني العباس ، لحاجة الأمويين إلى استمالتهم لأن السواد الاعظم الإسلامي كان يكرههم. فحسان مدح النبي حباً بثباته وايماناً بدعوته . وتصح المشابهة بينه وبين الفرزدق إذ مدح هذا زين العابدين ، ولكنها لا تصح بينهما وبين مداحي العباسيين .

٣ – لأن مسحة الفطرة الجاهلية ظاهرة في شعرهم ، فهم والمخضرمون طبقة واحدة ، لا يتخللها فاصل .

الفترة الأولى : كان الشعر ديوان العرب وعليه تقوم العصبية ، فألغاها الإسلام بقوله : المسلم أخو المسلم ، ثم آية : « الشعراء يتبعهم الغاوون الخ » . ولكن بعد مدة أجاز النبي سماع الشعر وأثاب عليه . وكان للدعوة أنصار وأضداد ، فكان في الشعراء معارضون للنبي ومناصرون له .

معارضو النبي : عبدالله بن الزبعرى ، أبو سفيان ، عمرو بن العاص ، طراد ابن الخطاب ، وكلهم قرشيون . ولا تنس أمية بن أبي الصلت ، الذي كان يطمع

بأن يكون نبي الأمة كما يحدثنا صاحب الأغاني .

شعراء النبي : حسان ، كعب بن مالك ، عبدالله بن رواحة .

الفترة الثانية : في أول عصر الراشدين – عصر الفتوح – خمدت القرائح قليلاً ، وذلك ما يحدث في كل الأمم لانشغال النابغين،إلى أن انتظمت الاحزاب السياسية فصار لكل حزب سياسي شعراء ينصرونه . وقد قامت الصحف في عصرنا مقام الشعراء .

ولكن تكوّن الأحزاب ، بعد أن استراحوا من الفتح ، قوّى الشعر وهاج القرائح و كثر الشعراء بكثرة الأحزاب ، فكان لكل حزب من الأحزاب التي ذكرناها شعراء . يكثرون ويقلون بحسب أهمية الحزب ، وقد كان أكثر الشعراء مناصرين للأمويين القابضين على مفاتيح بيت المال .

شعراء علي : النعمان بن بشير الانصاري،ساير بني أميّة لكنه كان متعصباً للانصار وهو الذي رد على الأخطل عندما هجاهم .

ابن مفرغ الحميري ، ساير الأمويين وهجا أهل زياد .

ابو الأسود الدؤلي تحزب لعلي ولم يطعن ببني أميّة .

ابن زيد ساير العلويين والهاشميين .

انصار الخوارج : الطرماح بن حكيم ، واسماعيل بن يسار . والطرماح بن حكيم مر الهجاء .

انصار بني امية : مسكين الدارمي : بث الدعوة بولاية العهد ليزيد بن معاوية .

الراعي .

ابو العباس الاعمى ، مدح الأمويين وهجا ابن الزبير الذي بايعه أهل الحجاز.

أعشى ربيعة وغيرهم .

ومن أشهر شعراء بني أمية : جرير والاخطل والفرزدق .

من هنا ترى ان الشعر تطور لا في أساليبه ، التي ظلت كما كانت اذا استثنينا روح القرآن ، اي التحريض على نيل الشهادة واعلاء كلمة الله في ايام الفتوحات،

بل تطور في غايته . وتقدم هذا التطور بنوع خاص في الهجاءولا سيما السياسي ، ومنه تدرجوا إلى الهجو الادبي .

صفات الشعر :

١ — الايجاز .

٢ — قوة التعبير .

فالقليل من الحضارة الذي توصل اليه هؤلاء الشعراء اضعف فيهم النزعة الفطرية ، فقصروا فيها . ولم يمكنهم التأنق في المعيشة الذي حصل لمن أتوا بعدهم ، ولذلك لم يدركوا شأو العباسيين بالرقة والتصرف بالمعاني ، انما تقدم الهجو فقط في هذا العصر .

اغراضه : ١ً — نشر عقائد الدين . ٢ً — الهجاء . ٣ً — وصف القتال وحصار المدن وفتحها . ٤ً — المدح وليس إلى حد المبالغة . ٥ — الغزل .

كعب بن زهير

كعب : هو ابن بيت كثر فيه أصحاب القرائح الشعرية . أبوه زهير صاحب المعلقة ، أخذ الشعر عن والده ولم يسمح له بقول الشعر الا بعد ان امتحنه طويلاً .

ظهر الاسلام فأسلم أخوه بجير ، فقال فيه كعب شعراً يوبخه ويلومه على اسلامه ويعرض بالصحابة بقوله .

سقاك ابو بكر بكأس روّية   وأنهلك المأمون منها وعلّكا

فاهدر النبي دمه ، ودرى بذلك أخوه بجير فكتب اليه بذلك ، فهام كعب على وجهه يستجير فلم يجره أحد ، فلاذ بابي بكر فأمّنه ، وادخله على النبي وانشده قصيدته التي عرفت بالبردة ، التي يقول كليمان هيار انها قصيدة من أشهر الشعر العربي ، ولا يكاد ناطق بالضاد لا يسمع بها .

آثار كعب : اشهرها « بانت سعاد ... »

اقسامها : التغزل بسعاد ١٣ بيتاً ، وصف الناقة ٢١ ، التخلص إلى مدح النبي ٤ ابيات ، مدح النبي ١٣ بيتاً ، مدح المهاجرين والانصار ٧ .

قيمته : لم يتخلص من الأسلوب الجاهلي كالغزل ووصف الناقة والألفاظ الغريبة غير انه أقدر الجاهليين على التفنن بالمعاني .

ان كعباً عالج مواضيع عديدة في لاميته ، كوصف الناقة والاسد والظهيرة ، اما مطلع قصيدته فقد طبع فيه على غرار من تقدمه من الشعراء ، فسعاد واسمى وغيرهن نساء خياليات .

قال حماد الراوية انه يروي ٧٠٠ قصيدة مطلعها بانت سعاد . ولكن هذا لا يعيب كعباً ففي الغزل ترق عاطفته وينسجم لفظه ويلين ، وفي المدح تشتد الألفاظ وتجزل ، وفي وصف القفار والوحوش الضارية تخشن العاطفة والكلام معاً. ليس في القصيدة ذكر للرسالة الجديدة الا في بيت واحد هو :

مهلاً هداك الذي اعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

حسان بن ثابت

حياته : هو ابو الوليد حسان بن ثابت الانصاري ، من بني النجار من أهل المدينة . شاعر النبي ، بعد المناذرة والغساسنة . أسلم بعد هجرة النبي الى المدينة ودافع عنه بلسانه ، وكان له منبر في مسجد النبي ينشد شعره عليه ، وكان النبي يسمع هجاءه ويقول : « أجب عني . اللهم أيّده بروح القدس » . عاش بعد النبي مرضياً عنه من الخلفاء حتى مات سنة ٥٤ كفيف البصر في آخر حياته .

قيمته : جبان لم يجرد حساماً . أشعر أهل المدر في الجاهلية . حظي عند ملوك غسان ومدحهم بقصائد عديدة ونال اسنى عطاياهم ، وذكر فضلهم حتى آخر عمره . مدح آل جفنة لاهلية النسبة وقرب الجوار مع أهل يثرب .

اسلوبه في مدح النبي : ذكر البعثة ، وصف الشمائل ، تصديق البعثة والنبوة ، التعريض بمنكري النبوة ومكذبيها . كان صادقاً في مدح النبي ، دافع عنه بهجاء مقذع ، لم يشتم الانساب ولم يمزق الاعراض ، بمساعدة أبي بكر العارف بأنساب العرب . ادخل شيئاً جديداً في الهجاء الذي كان قبلاً يقوم بذكر الانكسارات وذكر بعض عيوب خارجية أو داخلية محطة من قيمة الانساب مثل البخل وسواد الجلد . أما الذين هجاهم حسان فانسباء النبي ، وأعداء الإنسان أهل بيته .

أثاره : له ديوان مطبوع .

قيمته : امرؤ القيس يحمل لواء الشعر في النار وحسان في الجنّة .

شعر في الجاهلية ورق في الإسلام ، وعلى كل لا يعد من الطبقة الأولى .

ادخل في الشعر ألفاظاً جديدة : روح القدس ، جبريل .

لشعره صبغة تاريخية ، لذكره غزوات النبي وأسماء الصحابة والمشركين .

شاعر سياسي في هجائه ، ديني في مدح النبي ، تاريخي بذكر الوقائع . قيل فيه : يفضل حسان الشعراء بثلاثة : شاعر الانصار في الجاهليـــة ، والنبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام .

العصر الاموي

٦٤ — ١١٠

في هذا العصر نظم شعراء عديدون وأكثرهم أنصار بني اميّة لانهم، كما قلنا، اصحاب بيت المال .

كلهم تعرضوا للاحزاب ولكن فريقاً بينهم نظم في غير الشعر السياسي ، أي الغزل . أشهرهم الأخطل ورفاقه ، والراعي والأحوص ، واختص بالغزل ابن الخطاب وابن معمر .

الهجاء : نحا الهجاء في هذا العصر نحواً جديداً .

١ — فيه فخر واشادة بفضائل قبيلة الشاعر في الجاهلية والاسلام .

٢ — ذم وتشهير بالمهجو وقبيلته في القديم والجديد .

هذا الشعر، أي النوع الثاني منه، بذيء، انتهك حرمة الدين والعرض، ولكنه مصدر تاريخي لحياة العرب في جاهليتهم ، ومرآة صادقة لحياة فريق منهم .

وهو على وقاحته وبذاءته ، حفظ اللغة ايضاً من الضياع .

شعراء البلاط الاموي

الاخطل

شاعر وقف فنه وحياته على السياسة ، واشترك في فنون أُخرى من الشعر حتى عدّ من زعماء الشعراء السياسيين، ومن فحول الشعراء الاسلاميين بوجهعام.

حياته : ولد في قبيلة تغلب التي تسكن الجزيرة والعراق ، وكانت قوية عزيزة شديدة البأس ، فلم تدخل فيما دخل فيه العرب كافة من الاسلام ، ولم تنزل عن دينها حين دهمتها جيوش المسلمين ، فبقيت على نصرانيتها واقرّها عمر على ذلك ورضي بالجزية وظلت هي تؤديها كل عام .

نشأ بدوياً وقال الشعر طفلاً كما روي انه هجا امرأة ابيه ، وقضى شبابه يقول الشعر في حوادث البادية .

ولما كانت ايام معاوية وظهر الشر بين الامويين والانصار احتاج يزيد الى من يهجوهم ، فَدُلّ على الاخطل ففعل بعد ان نكل غيره عن ذلك ، فطار صيته بشدة هجائه .

ناضل عن بني أمية شاعراً مأجوراً يريد الاتصال ببلاط الخليفة ، وناضل الزبيريين أيام عبد الملك دفاعاً عن قبيلته ومكانتها، فكان في ذلك بالطبع مخلصاً غير مأجور .

فهو تغلبي من ربيعة . وفي الاسلام جاءت قبائل مضرية من قيس ، فزاحمت ربيعة في الجزيرة وشمالي الشام كما زاحمت العرب اليمانية .

فهذه القبائل القيسية المضرية مالت مع ابن الزبير على بني أميـــة فاتفقت بذلـــك مصلحة الأمويين واليمنيين والتغلبيين على محاربة القيسية والمضرية في الشام والجزيرة والعراق حتى انتصر عبد الملك على مصعب بن الزبير .

شعره : لهذا كان شعر الاخطل ذا مظهرين مختلفين :

١ ـ الدفاع عن حزب بني أمية والنضال عن وطنهم .

٢ ـ النضال عن قبيلته تغلب وحلفائها من عرب اليمن المقيمين في الشام ، وألحّ في هجاء القيسيين خاصة والمضريين عامة .

كانت حياته سبباً لتفوقه في فنون الشعر ، فلم يلحقه بها شاعر من معاصريه ، فاتصاله بالقصر وانقطاعه للامراء والخلفاء جعلاه أمدح أهل عصره للملوك ، وبحكم هذا الاتصال كان أمهر الشعراء السياسيين .

وبحكم حياته الخاصة القبائلية واشتراكه الفعلي بما يعرض لهـــا من حرب وسلم كان أقدر أهل عصره على وصف الحرب وتصوير مـــا يعرض فيها من هزيمة وانتصار .

كان شرّيب خمر يسرف في شربها ويستعين بهـــا على قول الشعر ، ولذلك كان أقدر أهل عصره على وصفها وابرعهم فيه .

وأشهر قصائده التي تجمع كل فنون الشعر المتقدم ذكرها ، هي التي مدح بها عبد الملك بعد انتصاره على مصعب . وكان لها في الادب العربي وحياة القبائل العربية شأن عظيم (القصيدة مشهورة ، في نهاية هذا الفصل مقتطفات منها ...)

وخصومة قبيلة الأخطل لقيس اضطرته إلى هجو جرير الذي كان يدافـــع عن قيس بلسانه ، فاصبح الأخطل بهذا من شعراء النقائض ، ونبـــه شأنه في الهجاء .

اما هَجوه فمعتدل أكثر من هجاء صاحبيه .

ثم مـــات الأخطل في ايام الوليد شيخاً ، واستطاع ان يكسب مركز الزعيم السياسي في قومه وعند الخلفاء الذين نادوا به شاعر بني أمية .

آثاره : لا يسهل عليه النظم الا إذا سكر .

ومن آثاره **الهجاء** : هجا كعب بن جعيد شاعر تغلب وصار هو شاعرها .
هجا جريراً والانصار والفرزدق وبني تميم .

المدح : مدح بني أمية فصار شاعرهم وبخاصة عبد الملك .

الوصف : وصف الخمرة والسكران والحرب .

قيمته : كثير الاعتناء بشعره ، يختار أجود ما نظم ، يبقي الثلاثين من التسعين . يمعن في اخراج صوره حتى تأتي كاملة .

بقي سنة على نظم « خفّ القطين » ... تلك القصيدة الجامعة التي تفوق المعلقات تماسكاً وتسلسلاً .

قال فيه حماد : شعره حبب اليّ النصرانية .

وقال جرير : أدركته وله ناب ، ولو أدركته وله نابان لأكلني .

الثلاث : الأخطل وجرير والفرزدق ، شغلوا العصر الأموي فاهتم الناس بتفضيل أحدهم على صاحبيه ، وكان لكل شاعر حزب يفضله ... وكثيرون قالوا في حياتهم : هم طبقة واحدة . اما بعد موت الاحزاب ، ففضل العلماء عامة والنحاة خاصة ، الأخطل للاسباب الآتية : جزالة لفظ ، فخامة عبارة ، صحة تراكيب ، وطول النفَس . اما استمراره على المتانة في القصيدة كلها فيذكرنا بالنابغة وزهير .

اشعر العرب : أعجب العرب المعاصرون للأخطل بأبياته في مدح بني أمية « حُشُدٌ على الحق » وعدّوه فيها أشعر العرب .

وفي هذه القصيدة يمتن الاخطل على الخليفة بنصر قبيلته له فيقول :

ولقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر

اما نصرانيته : فلا أدري ما مقدار عمقها ، وأرى عمله فيها لا يتفق مع ما يروى عن تأثير الكهنة .

يروون أنه كان عرضة للقصاص الديني اذا اذنب ، ومن جهة أُخرى نقرأ انه فعل ما لا يجوز للنصراني فعله من سكر وطلاق ، فأين كان القسس ؟ ثم أيّ مسيحي هو ذاك الذي يحلف بالصليب والقربان تارةً ، وحيناً باللاتِ والعزّى وربّ الراقصات .

مقتطفات الاخطل

رائيته المشهورة المتضمنة كل اغراض الشعر :

خفّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتْهم نوىً في صُرْفها غِيَرُ
كانـني شارب يوم استبـد بي من قرقفٍ ضمّنتها حصُ او جُدُرُ
لقد اصابت حميّاهـا مقاتـله فلم تكد تنجـلي عن قلبهـا الخمر
كأنـني ذاك او ذو لوعـة خبلت اوصاله أو اصابت قلبـه النشر
شوقاً اليهم ووجـداً يوم اتبعهم طرفي ومنهـم بجنبي كوكب زمر
يا قاتل الله وصل الغانيـات اذا ايقن انك ممن قد زها الكـبر
اعرضن لمـا حنى قوسي موتّرها وابيض بعـد سواد اللمـة الشعر
مـا يرعوين إلى داع لحاجتـه ولا لهـن إلى ذي شيبه وطر
حتى هبطن إلى الوادي لغضبتـه ارضاً تحل بهـا شيبان او غـبر
حتى اذا هن ورّكن القضيم وقـد اشرقن او قلن هذا الخندق الحفر
وقعن اصلا وعجنـا من نجائبنـا وقد تحين من ذي حاجـة سفر
إلى امرىء لا تعرينا نوافـله اظفره الله فليهنـأ له الظفر
الخائـض الغمر والميمون طائره خليفـة الله يستسقى به المطر
وما الفرات اذا جاشت حوالبـه في حافتيه وفي اوساطه العشر
وزعزعتـه رياح الصيف واضطربت فوق الجـآجىء من آذيّـه غدر
مُسْحنْفِرٌ من جبـال الروم يستره منها اكافيف فيها دونـه زور
يوماً باجـود منه حين تسأله ولا باجهر منـه حين يجتهر

يغشى القناطر يطويها ويهدمها مسوّمٌ فوقه الرايات والقتر
حتى يكون لهم بالطفّ ملحمة وبالثوية لم ينبض بها وتر
وتستبين لاقوام ضلالتهم ويستقيم الذي في خده صعر
ثم استقل باثقال العراق وقد كانت له نقمة فيهم ومدخر
من نبعة من قريش يعصبون بها ما ان يوازي باعلى نبتها الشجر
تعلو الهضاب وحلوا في ارومتها اهل الرباء واهل الفخر ان فخروا
حشد على الحق عيافو الخنا انف اذا المتّت بهم مكروهة صبروا
وان تدجّت على الافاق مظلمة كان لهم مخرج منها ومعتمر
اعطاهم الله جداً ينصرون به لا جد الا صغير بعد محتقر
لم يأشروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكون لقوم غيرهم أشروا
شُمس العداوة حتى يستقاد لهم واعظم الناس احلاماً اذا قدروا
لا يستقل ذوو الاضغان حربهم ولا يبيّن في عيدانهم خور
هم الذين يبارون الرياح اذا قل الطعام على العافين او فتروا
بني امية نعماكم مجللة تمت فلا منّة فيها ولا كدر
بني امية قد ناضلت دونكم ابناء قوم هم آووا وهم نصروا
افحمت عنكم بني النجار قد علمت عليا معد وكانوا طالما هدروا
حتى استكانوا وهم مني على مضضٍ والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر
بني امية اني ناصح لكم فلا يبيتن فيكم آمناً زفر
ان الضغينة نلقاها وان قدمت كالعرّ يكمن حيناً ثم ينتشر
وقد نُصرتَ امير المؤمنين بنا لما اتاك ببطن الغوطة الخبر
يعرفونك راس ابن الحباب وقد اضحى وللسيف في خيشومه اثر
لا يسمع الصوت مستكا مسامعه وليس ينطق حتى ينطق الحجر
امست إلى جانب الحشّاك جيفته ورأسه دونه اليحموم والصور
وقيس عيلان حتى اقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم ولا لعاً لبني ذكوان إذ عثروا
ضجوا من الحرب اذ عضت غواربهم وقيس عيلان في اخلاقها الضجر

كانوا ذوي امـــة حتى اذا علقت ... بهـــا حبائل للشيطان وابتهروا
صكوا على شارف صعب مراكبها ... حصاء ليس لهـــا هلب ولا وبر
ولم يزل بسليم أمـر جاهلهـــا ... حتى تعايا بها الايراد والصـــدر
امـــا كليب بن يربوع فليس لهم ... عند التفارط ايراد ولا صـــدر
مخلفـــون ويقضي النـــاس أمرهم ... وهم بغيب وفي عميـــاء ما شعروا
ملطمون باعقار الحياض فمـــا ... ينفـــك من دارمي فيهـم أثر
بئس الصحاة وبئس الشرب شربهـم ... اذا جرى فيهـم العـزاء والسكر
قوم انابت اليهـــم كل مخزية ... وكل فاحشة سبت بهـــا مضر
الآكلون خبيث الزاد وحـــدهم ... والسائلون بظهر الغيب ما الخـــبر
واقسم المجدُ حقـاً لا يحالفهم ... حتى يحالفَ بطنَ الراحةِ الشَّعَر

وصف الخمرة من قصيدته وهي من الملحمات :

وشاربٍ مربحٍ بالكأس ناديني ... لا بالحصور ولا فيها بسوّارِ
نازعته طيّب الراح الشمول وقد ... صاح الدجاج وحانت وقعة السارى
من خمر عانة ينصاع الفؤاد لها ... بجدولٍ صَخِبِ الآذيّ مرّارِ
كمت ثلاثـة احوال بطينتهـــا ... حتى اذا صرحت من بعد تهدار
آلت إلى النصف من كلفاء اترعها ... علج ولثمها بالجفن والغـــار
ليست بسوداء من ميثاء مظلمة ... ولم تعذّب بادناء من النـــار
لها رداءان نسج العنكبوت وقد ... حفت بآخر من ليف ومن قـــار
صهباء قد كلفت من طول ما حبست ... في مخدع بين جنات وأنهار
عذراء لم يجتل الخطاب بهجتها ... حتى اجتلاها عباديّ بدينار
لمـــا أتوهـــا بمصباح ومبزلهم ... سارت اليهم سؤور الابجل الضاري
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة ... فوق الزجاج عتيق غير مسطار
كأنما المسك نهبى بين أرحلنا ... مما تضوع من ناجودها الجاري

الأثر الديني :

اني حلفت برب الراقصات وما ... أضحى بمكة من حجب وأستار

ومــــا بزمزم من شمط محلقة   ومــــا بيثرب من عون وابكار
لألجأتني قريش خائفاً وجــــلاً   ومولتني قريش بعد اقتـــــار

الحرية الدينية :

ولست بصائمٍ رمضانَ عمري   ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عنسا بكورا   إلى بطحاء مكة للنجــــاح
ولست بقـــــائم أبداً أنادي   كمثـــل العير حيّ على الفـــلاح
ولكني سأشربهـــا شمـــــولاً   وأسجد عند منبلج الصباح

هجو الانصار :

لعن الإله من اليهـــود عصابـــة   بالجزع بين جلاجــل وصرار
قـــوم إذا هـــدر العصير رأيتهم   حمرا عيـــونهم كجمر النـــار
ذهبت قريش بالمكارم والعـــلى   واللؤم تحت عمـــائم الانصـــار
فـــذروا المكارم لستم من أهلها   وخذوا مساحيكم بني النجـــار

الفرزدق

قلنا ان الشعر تطور في هذا العصر ، عصر صدر الاسلام ، ونُهج فيه مناهج جديدة .

الا ان ثلاثة من الشعراء كانوا محتفظين بالسنة الجاهلية القديمة ، فيقصدون الى أنواع الشعر كلها خاضعين للتطور الجديد فيها ، وهم الاخطل وجرير والفرزدق.

الفرزدق : سمّي بذلك لجهومة في وجهه ، ومعناها الرغيف .

حياته : أبو فراس همام بن غالب ، دارمي تميمي قال الشعر صغيراً ، عندما كان طفلاً يرعى الغنم .

نشأ بالبصرة بين فصحاء العرب فلم تشب لغته عجمة ولا لحن .

نشأ كالاخطل من قبيلة عديدة عزيزة مثرية ، اسرته الخاصة اقوى التميميين كريمة الى حد الاسراف ، فورث الفرزدق عنها البأس والعزة والنفور من كل سلطة .

كان شكساً محباً للخصومة يهجو الافراد والجماعات . رفع أمره لزياد ففر تاركاً العراق لاجئاً الى الجزيرة حيث مدح عمرو بن العاص فأجاره عمرو . ولما مات زياد عاد الى وطنه وظل فيه حتى مات معاوية ويزيد واشتدّ الاضطراب وفسدت الدولة ، فكان الفرزدق شكساً شديد الشكيمة عجزت السلطات عن تقويمه وامالته الى الاعتدال .

ولكن ظهور جرير اضطره الى التفكر قبل القول ، وأجبره على تجويد الشعر والعناية به .

وفاؤه : ثابت الرأي، لا يميل مع الاهواء، وفى لآ ل البيت حتى مات. طبع ديوانه في بيروت عام ١٩١٠ نقل الى الافرنسية بعناية المستشرق « بوشه » .

اغراض شعره : المديح ، الهجاء ، الوصف .

المديح : مدح آل البيت ، خاصة زين العابدين ، ومدح عمر بن عبد العزيز، وكان ينتجع الخلفاء الامويين فيمدحهم وينال جوائزهم .

الهجاء : هجا عبد الملك وزياداً والحجاج وقبائل عديدة ، والهجاء موضوعه الخاص ، وأشهر مهاجاته مع جرير .

الوصف : قليل ولكنه تام ، وهو في مواضيع مبتذلة كالخمر . أما قصيدته في وصف الذئب فرائعة على صغرها ، وهو يجيد القصص في شعره كما نرى في هجو ابليس .

قيمة شعره : فخم العبارة، جزل اللفظ. كثير الغريب ، وله تعابير خاصة. فيه تعقيد بسبب التقديم والتأخير والفصل والوصل ، أساليب كثيرة متنوعة وتراكيب مختلفة ، ومعانٍ دقيقة اشغلت العلماء اللغويين والنحاة فأعجبوا بها ، وقاسوا عليها في علمهم .

يكاد يشغل الفخر كل عواطفه ، فيفتخر بين يدي الملوك ولو حرم عطاياهم واحالوه على آبائه وأجداده ، كما حدث حين أنشد سليمان بن عبد الملك :

اذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم ، نار غالب

فغضب سليمان بن عبد الملك ، وأحاله على أبيه وألحقه بناره .

ومن جيد مدحه : « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... »

وقصارى الكلام ، ان شعر الفرزدق بعيد عن العواطف الرقيقة بعكس صاحبه جرير .

فنه في الألفاظ . أكثر من استعمال الجوازات والاغلاط النحوية ، فصارت عبئاً ثقيلاً على عاتقنا .

ميال إلى القصائد الصغيرة لسرعة تداولها .

وكثيراً ما سرق شعراً وادعاه ، وفي هذا روايات عديدة .

منتخبات الفرزدق

من شعره القصصي :

مطلعها

الا من لشوق انت بالليل ذاكره وانسان عين مـــا يغمض عائره

الى ان قال :

فجاءت باسباب طوال واشرفت قسيمة ذي زور مخوف تواتره
اخذت باطراف الحبال وانمـــا على الله من عوص الامور مياسره
فقلت اقعدا ان القيام مذلة وشدا معـــا بالحبل اني مخاصره
اذا قلت قد نلت البلاط تذبذبت حبالي في نيق مخوف مخاصره
منيف ترى العنبان تقصر دونه ودون كبيدات السماء منـاظره
فلما استوت رجلاي في الأرض نادتا احيّ يُرجّى أم قتيل نحـــاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لايشعروا بنا ووليت في اعجاز ليل احاذره
هما دلتاني من ثمانين قامـــة كما انقض باز أقتم الريش كاسره

مدحه لسليمان بن عبد الملك :

فلا تجزعي اني ساجعل رحلتي الى الله والباني له وهو غامله
سليمان غوث الممحلين ومن بـــه عن البائس المسكين حلت سلاسله
وما قام مذ مـات النبي محمد وعثمان فوق الارض راح يعادله

أرى كل بحر غير بحرك اصبحت تشقق عن يبس المعين سواحله
كأن الفرات الجون يجري حبابه مفجرة بين البيوت جـــداوله
ارى الله في تسعين عاماً مضت له وست مع التسعين عادت فواضله
علينا ولا بلوى كما قد اصابنــــا لدهر علينا قــد الحت كلاكله
فاصبح صلب الدين بعد التوائه على الناس بالمهدي قوّم مائله

ميميته السياسية المدحية :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحـل والحرم
هذا ابن خـــير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله بجـده انبياء الله قـــد ختموا
وليس قولـك من هــذا بضـائره العرب تعرف من انكرت والعجم
اذا رأتــــه قريش قــال قائلهــا الي مكارم هــذا ينتهي الكرم
يغضي حيــاء ويغضى من مهابتــه ولا يكلم الا حـــين يبتسم
يكــاد يمسكه عرفان راحتــه ركن الحطيم اذا ما جاء يستلم
من يشكر الله يشكرْ اوليّــة ذا فالدين من بيت هذا ناله الأمم
مشتقة من رسول الله نبعتـــه طابت مغـارسه والخيم والشيم
ينشق ثوب الدجى عن نور غرتــه كالشمس تنجاب عن اشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصم
ان عُدّ اهــل التقى كانوا ائمتهم او قيل من خير أهل الأرض قيل هم

فخره :

اذا اغبرّ أفاق السماء وكشفت بيوتا وراء الحي نكباء حرجف
واصبح مبيَضّ الصقيع كأنه على سروات النيب قطن مندف
ترى جارنا فينا بخير وان جنى فلا هو مما ينطف الجـار ينطف
وكنا اذا قامت كليب عن القرى الى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف
لنا العزة القعساء والعـدد الذي عليه اذا عـد الحصى يتخلف

ترى الناس ان سرنا يسيرون خلفنا وان نحن أومأنا الى الناس وقفوا
وانك اذ تسعى لتدرك شاونا لانت المعنى يا جرير المخالف

وقوله :

واني سفيه النار للمبتغي القرى واني حليم الكلب للضيف يطرق
اذا مت فابكيني بما انا اهله فكل جميل قلت فيّ يصدق
وكم قائل مات الفرزدق والندى وقائله مات الندى والفرزدق

ومن فخره :

وكنا اذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الاخادع
احلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً اذا ما نجهل

وصف الذئب :

واطلس عسال ، وما كان صاحبا دعوت لناري موهنا فاتاني
فلما اتى قلت ادن ، دونك انني واياك في زادي لمشتركان
فبت اقدّ الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكا وقائم سيفي من يدي بمكان
تعشّ ، فان عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وانت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما اخيّين كانا ارضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى رماك بسهم أو شباه سنان
وكل رفيقي كل رحل وان هما تعاطى القنا قوماهما اخوان

جرير

نسبه وحياته : ابو حرزة جرير بن عطية بن الخطفى التميمي اليربوعي ، ولد باليمامة من بيت شعر ، ونشأ بالبادية ، وكان ينزل على من في البصرة من قومه حين يؤمّها .

رأى منزلة الفرزدق وما كسبه من الشعر فودّ لو جاراه . وحمّسه قومه على ذلك اعلاءً لشأنهم ، فوقعت بينهما المهاجاة عشر سنوات ، كان في أثناءها جرير في البادية ، فما زال بنو يربوع بشاعرهم حتى أقدموه البصرة ، فاتصل بالحجاج فأكرمه ، وطار صيته حتى حسد عبد الملك الحجاج عليه .

وحرش الفرزدق بين جرير والشعراء كلهم واغراهم عليه بالمال ، فنصب له منهم ثمانون شاعراً ، فأخرسهم جرير كلهم ، ولم يثبت له إلّا الفرزدق والأخطل. ثم مات الأخطل وظل الفرزدق وجرير يتسابّان طوال حياتهما ، إلّا مدة قليلة تنسك فيها الفرزدق وتاب . ثم مات وجريراً في عام واحد سنة ١١٤٠ ، وليس بينهما إلّا ستة أشهر .

اخلاقه : عفيف ، ديّن ، فخور ، رقيق الطبع ، أنوف ، متعنّت يحب الخصام .

آثاره : ديوانه . فيه المديح ، يمدح ممدوحه مدحاً دينياً أكثر منه دنيوياً ، والعاطفة الدينية قوية في كل شعره .

الهجاء : شديد الهجاء خبيثه ، سفيهه . وقائعه كثيرة مع شعراء عصره . غضب على الأخطل لحكمه ، وعلى الراعي لتفضيله الفرزدق عليه ، فهجاه وهجا

قومه بني نمير ، فكان ذلك سبباً لطرد الراعي من بلاده ، ومهاجرة أهله للبصرة.

قد تفوق في هذا الباب ولم يكن تعففه يمنعه عن الفحش والاقذاع .

اسلوبه : غير أسلوب الفرزدق ، فالفرزدق يعلي نفسه ويوطي خصمه ، اما جرير فيتبع مثالب خصمه واحدة فواحدة ، وان لم تكن ، خلقها ، كهجوه الفرزدق : يعيره بالجبن ، يذكره بطرده من المدينة ، يتهمه بالنصرانية . ولنشأته التي نلخصها لك تأثير في تكوين هذه الصفات .

محيطه : أصغر من الفرزدق سناً ، وقبيلته دون قبيلة الفرزدق عزة ، اسرته فقيرة ، لا شهرة لها ولا حسب بالنسبة للفرزدق ، كان ابوه معدماً فقيراً فنشأ بائساً ضعيفاً ، فاعانه ذلك على التفوق والنبوغ ، فاشتد في الخصام على مقارعيه ، فغلبهم .

كان الهجاء اولاً بينه وبين البعيث من رهط الفرزدق . دافع الفرزدق عن البعيث فانبرى له جرير ، وانصرفا لبعضها .

تجاوزت خصومتهما حدود الاخلاق والدين والأدب ، وعجزت كل السلطات عن ايقافها واهتم لها الناس كثيراً ، فدامت اربعين سنة ، وهي تتناول كل مناحي الشعر العربي واغراضه ، ولا سيما الهجاء .

اقوال المعاصرين في جرير

الاصمعي : لعل جريراً اول الثلاثة في الهجاء المر .

الفرزدق : قاتله الله ، ما احسن ناحيته واشرد قافيته ، والله ، لو تركوه لابكى العجوز على شبابها ، والشابة على احبابها ، ولكنهم هرّوه فوجدوه عند الهراج ناجحاً ، وعند الجد قادحاً .

الحجاج : « انه لجرو هواش » . فلو لم ينصرف إلى مقارعة الشعراء لما ترك باباً من الشعر الا قرعه لما عنده من النزعات الشعرية التي ظهرت في شعره .

قيمة شعره : أسهل الفاظاً من مناظريه ، اكثر تلاعباً بفنون الشعر ، متأثر

بالدين ، ولذلك قال فيه الاخطل :

« جرير يغرف من بحر ».ميله غريب إلى الهجو بدليل ما قاله فيه الحجاج .

قال الفخر بكبرياء ونظم فيه .

انسب صاحبيه وارقهما عاطفة ، وهما يعترفان بهذه الميزة .

أقلهم كلفة ، وارقهم ديباجة ولفظاً ، وأكثرهم فنون شعر . يتفرّد بالرثاء الذي لم يحسنه الاخطل والفرزدق .

المقارنـــة

الناس مختلفون على تقديم احد هؤلاء الشعراء الثلاثة على الآخر ، ولكنهم متفقون على ان الفرزدق انفرد في الفخر ، وجرير تفـوق في الهجاء ، وحـظ الفرزدق دون حظ جرير من الغزل ، والرثاء لجرير . والاخطل تفوق بالمدح ووصف الخمرة .

فشعر الفرزدق صلب خشن الالفاظ ، غليظ المعاني في اكثر الاحيان ، لفظه ثقيل في الاذن ، معانيه بدوية جافية . وفي شعر جرير رقة وعذوبة ومعانيه محبوبة . الفرزدق فاجر ، صافي الغزل . جرير عفيف حلو النسيب . الفرزدق يميل بهجوه إلى الفخر ، وجرير مائل بهجوه للذع والعبث والسخر . الفرزدق ينظر الى نفسه فيكبرها ويحقر خصمه . وجرير يستقصي عيوب خصمه وان لم يجد اخترع .

ابو عمرو العلاء – رأيـــه في الثلاثة : يشبّه جريراً بالاعشى ، والفرزدق بزهير ، والاخطل بالنابغة . اما الفقرة الحكيمة فهي في قول الشاعر :

ذهب الفرزدق بالفخار وانمـــا   حـــلو الكلام ومرّه لجرير
ولقد هجا فامضّ شاعر تغلبٍ   وحوى اللّهى بمديحهِ المشهورِ

منتخبات جرير

المدح (يقدمون للمدح بالنسيب او بتذكر الاحباب الخ ..)

دعا الحجاج مثل دعاء نوح ... فاسمع ذا المعارج فاستجابا
صبرت النفس يا ابن ابي عقيل ... محافظة فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزّل ... مع النصر الملائكة الغضابا
اذا سَعَرَ الخليفة نارَ حرب ... راى الحجاج اثقبَها شَهابا
ترى نصر الامام عليك حقاً ... اذا لبسوا بدينهم ارتيابا
تشد فلم تكذّب يوم زحفٍ ... اذا الغمَرات زعزَعت العقابا
عفاريت العراق شفيت منهم ... فامسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا لن تجامِعَنا امير ... اقام الحد واتبع الكتابا
اذا اخذوا وكيدُهم ضعيف ... بباب يمكرون فتحت بابا
واشمطَ قد تردد في عماه ... جعلت لشيب لحيته خضابا
اذا علقت حبالك حبل عاص ... راى العاصي من الاجل اقترابا

وقال في الحجاج ايضاً :

قل للجبان اذا تأخر سرجه ... هل انت من شرك المنية ناج
فتعلّقَنْ ببنات نعش هارباً ... او بالبحور وشدة الامواج
من سد مضطلع النفاق عليكم ... او ما يصول كصولة الحجاج
ام من يغار على النساء حفيظةً ... اذ لا يتقن بغيره الازواج

ان ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضحِ المنهاج
ماضٍ على الغمَرات يُمضي همه ... والليل مختلف الطرائق داجِ
منع الرشا واراكم سبل الهدى ... واللصّ نكله عن الادلاج
ولقد كسرت سنان كل منافق ... ولقد منعت حقائب الحجاج

المدح في عبد الملك :

اتصحو ام فوادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح
يقول العاذلات علاك شيب ... اهذا الشيب يمنعني رواحي
تعزت ام حرزة ثم قالت ... رايت الواردين ذوي امتناح
تعلل وهي ساغبة بنيها ... بانفاس من الشبم القراح
سامتاح البحور فجنبيني ... اذاة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريك ... ومن عند الخليفة بالنجاح
ساشكر ان رددت علي ريشي ... وانبتّ القوادم في جناحي
الستم خير من ركب المطايا ... واندى العالمين بطون راح
لكم شم الجبال من الرواسي ... واعظم سيل معتلج البطاح

في عمر بن عبد العزيز :

لجت امامة في لومي وما علمت ... عرض السماوة روحاني ومبتكري
قد طال قولي اذا ما قمت مبتهلا ... يا رب اصلح قوام الدين والبشر
خليفة الله تم الله يحفظه ... والله يصحبك الرحمن في السفر
انـّا لنرجو اذا ما الغيث اخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
اذكـّر الجهد والبلوى التي نزلت ... ام قد كفاني الذي بلـّغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تعرقني ... قد عيّ بالحي اصعادي ومنحدري
كم بالمواسم من شعثاء ارملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كان به ... خبلاً من الجن او مساً من البشر
فان تدعهم فمن يرجون بعدكمُ ... او تنح منها فقد انجيت من ضرر

خليفة الله مــاذا تأمرون بنــا   لسنا اليـكم ولا في دار منتظر
انت المبارك والمهدي سيرتــه   تعصى الهوى وتقيم الليل بالسور
نال الخلافـة اذ كانت له قـدراً   كما اتى ربـه موسى على قـدر
فلن نزال لهـذا الذين مـا عمروا   منكم عمارة ملك واضح الغرر

الرثاء

في رثاء زوجته وهجو الفرزدق والبعيث ، وتسمى الحوساء :

لولا الحياء لهاجني استعبار   ولزرت قبرك والحبيب يزار
ولقد نظرت وما تمتّع نظرة   في اللحد حيث تمكّن الاحفار
ولـهّت قلبي اذ علتـني كبرة   وذوو التمائم من بنيـك صغار
ارعى النجوم وقد مضت غورية   عصب النجوم كأنهن صرار
فسقى ثرى جدث ببرقه ضاحك   هزم أجش وديعـة مـدرار
متراكم زجـل يضيء وميضه   كالبلق تحت بطونهـا الامهـار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر   ومع الجمـال سكينة ووقـار
وإذا سريت رأيت نارك نورت   وجـه أغر يزينـه الاسفار
صلى الملائكة الذين تخيروا   والطيبون عليـك والأبرار
يا نظرة لك يوم هاجت عبرة   من أم حرزة بالنميرة دار
وكأن منزلة لهـا بجلاجـل   وحي الزبور تجدّه الأحبار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا   ليـل يكر عليهـم ونهـار
أفـأم حرزة يا فرزدق عبتم   غضب المليـك عليكم القهـار

في رثاء ابنه سوادة :

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم   من للعرين إذا فارقت اشبالي
لكن سوادة يجـلو مقلتي لحـم   باز يصرصر فوق المرقب العالي
قد كنت أعرفه مني إذا غلقت   رهن الجياد ومد الغـاية الغـالي
ألا تكن لك بالديرين باكية   فرب باكية بالرمل معوال

زدنا على وجدها وجدا وان رجعت ... في القلب منها خطوب ذات بلبال
فارقتني حين كف الدهر من بصري ... وحين صرت كعظم الرمة البالي

غزله :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا ... وقطّعوا من حبال الوصل اقرانا
لو تعلمين الذي نلقى أويت لنا ... او تسمعين الى ذي العرش شكوانا
كصاحب الموج اذ مالت سفينته ... يدعو الى الله اسرارا واعلانا
يا ليت ذا القلب لاقى من يعلله ... او ساقيا فسقاه اليوم سلوانا
وا ليتها لم تعلقنا علاقتها ... ولم يكن داخل الحب الذي كانا
هلا تحرجت مما تفعلين بنا ... يا اطيب الناس يوم الدجن اردانا
يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردي إليّ فؤادي كالذي كانا
ألست أحسن من يمشي على قدم ... يا أملح الناس كل الناس انسانا
كاد الهوى يوم سلمانين يقتلني ... وكاد يقتلني يوماً ببيدانا
يا أم عثمان ان الحب عن عرض ... يصبي الحليم ويبكي العين احيانا
كيف التلاقي ولا بالقيظ محضركم ... منا قريباً ولا مبداك مبدانا
ان العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لا يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله انسانا
يا حبذا جبل الريان من جبل ... وحبذا ساكن الريان من كانا

ومنه

ما للمنازل لا يجبن حزينا ... اصممن أم قدم المدى فبلينا
ان الذين غدوا بلبك غادروا ... وشلا بعينك ما يزال معينا
غيّضن من عبراتهن وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا
ولقد تسقطني الوشاة فصادفوا ... حصراً بسرك يا اميم ضنينا
كلّفت حاجة ما اكلف ضمرا ... مثل القسي من السراء برينا
راحوا العشية روحة منكورة ... ان حرن حرنا او هدين هدينا

لمناصفٍ خردٍ يطُفنَ بهــا مثــل الظباءِ يكدن بالسدر
هــذا الذي يسبي الفؤاد ولا يُكنَى ولكن راحَ في الشمر
ان الرجــالَ على تآلفهم طُبعوث على الاخلافِ والغدر

وقوله :

يا رب انك قد علمتَ بأنها أهوى عبــادك كلهم إنسانا
والذّهمْ نعمٌ الينا واحــداً واحب من نائي ومن حيانا
فاجز المحب تحيّةً واجزِ الذي يبغي قطيعةَ حبــهِ هجرانا
آمين يا ذا العرشِ فاسمع واستجب لمــا نقولُ ولا تخيبَ دعانا

ومن قوله :

وأرى شوقي سيقتلُني وحبيبُ النفسِ ان هجرا
ان نومي ما يلائمُني من أجلهِ يا أختُ ان ذُكِرَا
فأجابتْ في ملاطفــةٍ اسرعَتْ فيه له الحوَرا
انني ان لم امت عجــلاً ارتجي ان راح أو بكرا
فإذا مــا راحَ فاستلِمي ان دنا في طوافــهِ الحجرا
وأشقّي البردَ عنــكِ لهُ كي تشوقيــهِ اذا نظرا
فأرتــني مسفراً حسناً خُلتُــهُ اذ اسفرت قمرا
لشقائي قــادني بصري ولحينٍ وافق القــدرا
ثم قالت للتي معهــا لا تديمي نحوهَ النظرا
خالسيه اخت في خفرٍ فوعيت القول اذ وقرا
انــه يا اختُ يصرمُنا ان قضى من حاجة وطرا
قلت قد اعطيتِ منزلةُ ما أرى عندي لها خطرا
فانيلي عاشقاً دنفــا ثم اخزى اللهُ من كفرا

ابن عتيق

يقول عتيقٌ اذ شكوتُ صبابتي وبيَّن داءَ في فؤادي مخامرُ

النقائض

سميت كذلك من النقض ، اي انه على الشاعر ان يرد على خصمه بقصيدة من وزن قصيدته وقافيتها . وهذا النوع شاع كثيراً في العصر الأموي ، وقد كان قبله ولكن قليلا ، وغير مطرد ، فكان يعرض الشاعر لمعاني خصمه فيقلبها أو يفسدها أو ينفيها .

فأول قصيدة عرض فيها الفرزدق لجرير يائية أولها :

ألم ترَ أني يوم جَوّ سويقـة بكيت فنادتني هنيدة مـا ليا
فقلت لها ان البكاء لراحـــة به يشتفي من ظن ان لا تلاقيا

ثم يذكر حبه ولوعته لفراقها ، ثم يستطرد الى البعيث الذي استعان به على جرير فهجاه هجواً مراً مقذعاً ، ووصفه بالضعف والجبن وسوء النسب .

ثم انتقل الى جرير فشتمه ووصفه بالذل والقلة ، وفخر عليه بحسبه ونسبه ، فرد عليه جرير بيائية من الوزن والقافية مطلعها :

الا حيِّ رهبى ثم حيِّ المطاليا فقد كان مأنوساً فاصبح خاليا

فيها غزل طويل يصور نفساً معذبة بالحب. ثم عاتب اسرته الأدنين لاساءتهم اليه وخذلهم اياه . ثم عرض لاسرة الفرزدق وهجاها لأنها اسرة صناع قيون ، لا شرف لهم ولا بلاء ، وفخر بقومه قليلاً وبنفسه كثيراً ، ووصف خصومـه بالغدر واسلام الجار .

كل تهاجي الاخطل وجرير والفرزدق على هذا النحو. ففي هذا الشعر جناية على الأدب والأخلاق والأعراض والدين ، الا انه مصدر تاريخي لحيـاة العرب يوثق به وله فضل حفظ اللغة من الضياع ، آه .

شذرات من النقائض

قال الفرزدق ، وهي أول قصيدة تعرض فيها لجرير وقومه بَني الخطَفى :

الم ترَ أني يومَ جوِّ سويقـةٍ بكيتُ فنادتني هنيدة ما بيا
فقلت لها ان البـكاء لراحة به يشتفي مَن ظَنّ انلا تلاقيا

الى ان يقول هاجياً :

فان يدعني باسمي البعيث فلم يجد لئيماً كفى في الحرب من كان جانيا
عجبت لحين ابن المراغة ان رأى له غنماً اهدى اليّ القوافيـا
بأيّ ابٍ يا ابن المراغـة تبتغي رهـاني الى غايات عمي وخاليا
هلمّ ابنماً كابنَي عقال تعـده وواديهما يا ابن المراغـة واديا
تجد مجـده عند السماء ، ودارم من المجد قدماً اترعت لي حياضيا
بنى لي به الشيخان من آل دارمٍ بناء يُرَى عند المجرة عاليـا

فرد عليه جرير :

الا حيِّ رهبى ثم حيِّ المطاليا فقـد كان مأنوساً فاصبح خاليا

الى ان يقول :

واني لعفّ الفقر مشترك الغنى سريـع اذا لم ارض داري احتماليا
جريء الجنان لا أُهال من الردى اذا ما جعلت السيف من عن شماليا
اذا سركم ان تمسحوا وجه سابق جواد فمدّوا وابسطوا من عنانيا
وليس لسيفي في العظام بقيـة ولا السيف أشوى وقعةً من لسانيا
أبالموت خشّتني قيونُ مجاشع وما زلت مجنيّاً عليّ وجانيـا

تراغيتم يوم الزبير كأنكم ضباعٌ بذي قار تمنّى الامانيا
وآب ابن ذيال بأسلاب جاركم فسُمّيتم بعد الزُبَير الزوانيا

ميميتها . قال الفرزدق :

اذا ما وزنا بالجبال رايتنا نميل بانضاد الجبال الاضاخمِ
ولو سئلت مَن كفؤُنا الشمسُ أومأتْ الى ابنَي مناف ٍ عبد شمس وهاشم
وكيف تلاقي دارما حين نلتقي ذراها الى سقف النجوم القوائم
عجبت الى قيس وما قد تكلّفت من الشقوة الحمقاء ذات النقائم
يلوذون مني بالمراغة وابنها وما منهما مني لقيس بعاصم
فيا عجباً حتى كليب تسبني وكانت كليب مدرجاً للشتائم

فأجابه جرير :

لقد ولدت ام الفرزدق مُقْرفاً فجاءت بوزّار ٍ قصيرِ القوائمِ
وما كان جار للفرزدق مسلمٌ لِيأمنَ قرداً ليلهُ غيرُ نائم
يوصّل حَبْلَيهِ اذا جُنّ ليلهُ ليرقى الى جاراتهِ بالسلالم
هو الرجسُ يا أهلَ المدينة فاحذروا مداخلَ رجس ٍ بالخبيثاتِ عالم
لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكم طَهوراً لما بين المصلّى وراقم
تدلّيت تزني من ثمانين قامةً وقصّرت عن باع العلا والمكارم
وانك يا ابنَ القينِ لست بنافخٍ بكيرك الا قاعداً غيرَ قائم

فائيتها . قال الفرزدق :

فانك اذ تسعى لتدرك دارماً فانت المعنّى يا جرير المكلّفُ
أبى لجرير رهطُ سوءٍ أذلةٌ وعرضٌ لئيمٌ للمخازي موقّف
اذا ما احتبتْ لي دارمٌ عند غايةٍ جريتُ اليها جريَ من يتغطرف
همُ يعدلون الأرض لولاهمُ التقتْ على الناس،او كادت تميل فتنسف

فقال جرير :

لحى اللهُ من ينبو الحسام بكفهِ ومن يلج الماخورَ في الحجلِ يرسف

ترفقتَ بالكيرين قينَ مجاشع وانت بعزّ المشرفية أعنف
ويومَ منىً نادتْ قريشٌ بغدركم ويومَ الهدايا في المشاعر عكّف
تعضُّ الملوكَ الدارعين سيوفنا ودفّك فيِ نفّاخة الكيرِ أجنفُ

نونية الثلاثة .

قال الاخطل :

أجريرُ انك والذي تسمو لهُ كأسيفةٍ فخرتْ بحِدجِ حصانِ
أتعدُّ مأثرةً لغيرِك ذكرُها وسناؤها في غابر الازمان
في دارمٍ تاجُ الملوك وصهرها أيامَ يربوعٌ مع الرعيانِ
فاذا رأيت مجاشعاً قد اقبلت فاهربْ اليك مخافة الطوفانِ
فاخسأ اليك كليب ، إنّ مجاشعاً وأبا الفوارس نهشلاً أخوَان
قوم اذا خطرت اليك فحولهم جعلوك بين كلاكل وجِرانِ
واذا وضعت اباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزان

وقال الفرزدق :

يا ابن المراغةِ والهجاء اذا التقت أعناقه وتماحكَ الخصمان
ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتها أم بُلتَ حيث تناطح البحرانِ
وأسأل بتغلب كيف كان قديمها وقديم قومك أوّل الازمان
قوم هم قتلوا ابن هند عَنوة عمْراً وهم قسَطوا على النعمان
ان الأراقمَ لن ينال قديمَها كلبٌ عوى متهتّم الأسنانِ
قوم اذا وُزنوا بقومك أفضلوا مِثلَي موازنهم على الميزانِ

فاجابهما جرير :

لا يخفينّ عليك ان مجاشعاً من نسل كل ضِفنّةٍ مِبطانِ
يا ذا العباءة ان بشراً قد قضى أن لا تجوز حكومةُ النشوانِ
فدعوا الحكومة لستم من أهلها يا خُزْرَ تغلب لستم بهجانِ

كذب الأُخيطلُ ان قومي فيهـم ... تاجُ الملوكِ ورايـــة النعمان
تلقى الكرام اذا خُطِبنَ غواليـاً ... والتغلبيـــة مهرها فلسان
ما في ديارِ مقامِ تغلبَ مسجدٌ ... وترى مـــكاسرَ حنْتمٍ ودنان
تغشى الملائكةُ الكرام وفاتَنـا ... والتغلبيُّ جنازة الشيطان
ايصدّقون بمار سرجس وابنــهِ ... ويكذبون محمـــد الفُرْقانِ
قبح الاله سِبالَ تغلبَ إنهـــا ... ضربت بكلّ مخففٍ جِنّان

رائيتها ، قال جرير :

يا خزر تغلب إني قـــد وسمتكمُ ... على الانوف وسوماً ذاتَ احبارِ
لا تفخرنّ فان الله أنزلـــكم ... يا خزر تغلبَ دار الذل والعــار
ما فيكم حَكَمٌ ترضي حكومته ... للمسلمين ولا مستشهدٌ سار
قوم اذا حاولوا حجـــاً لبيعتهم ... صرّوا الفلوس وحجّوا غير أبرار
لم تدر أمك ما الحكم الذي حكمت ... إذ مسّها سكرٌ من دَنّها الضاري
أمّ الأخيطل امّ غير منجبـــة ... أدت لاشهب وسط البقّ نخّار
تضفو الخنانيص والفول الذي أكلت ... في حاوياتٍ ردوم الليل مجعــار

فأجابه الاخطل :

ما زال فينا رباطُ الخيل معلمةً ... وفي كليب رباطُ الذل والعارِ
النازلين بـــدار الذل ان نزلوا ... وتستبيح كليب محرم الجـــار
بمُعْرضٍ أو معيدٍ من بني الخطفَى ... ترجو جريرُ مساماتي وإخطاري
قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم ... قالوا لامهم بُولي على النـــار
فتمسكُ البولَ شحّاً لا تجود به ... ولا تبولُ لهم الا بمقـــدارِ
أمٌ لئيمة نجلِ الفحل مقرفـــةٌ ... أدّتْ لفحلٍ لئيم النجل شخّارِ

لاميتها ، قال جرير :

حيّ الغداة برامةَ الاطلالا ... رسماً تحمّل اهـــله فاحالا

طرق الخيال لأمّ حزرةَ مَوْهِناً   والحبّ بالطيفِ الملمّ خيـــالا

الى ان يقول :

قبح الاله وجوهَ تغلبَ انهـــا   هانت علي معاطساً وسبالا
قبح الاله وجوهَ تغلبَ كلما   شبَح الحجيج وكبّروا إهلالا
عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد   وبجبرئيل وكذبوا ميـــكالا
أنسيت يومك بالجزيرة بعدمـــا   كانت عواقبه عليـــك وبالا
زُفَرُ الرئيسُ أبو الهذيل أبادكم   فسبى النساء وأحرز الأموالا
قـــال الاخيطل إذ رأى راياتهم   يا مار سرجس لا أريد قتـــالا
ترك الاخيطل أمـــه وكأنها   منحاةُ سانيةٍ تريـــد محالا
ولو ان تغلب جمعت انسابهـــا   يوم التفاخر لم تزن مثقـــالا
لا تطلـــبنّ خؤولةً في تغلبٍ   فالزنج أكرم منهم أخوالا
هل تملكون من المشاعر مشعراً   أو تنزلون من الأراك ظـــلالا
لولا الجزى قسِمَ السوادُ وتغلبٌ   في المسلمين فكنتم انفـــالا

فاجابه الاخطل :

ولقد علمت اذا العشارُ تروّحت   هـــدج الرئال تكبّهن شمالا
انا نعجل بالعبيط لضيفنـــا   قبل العيال ونقتل الابطـــالا
ابني كليب ان عمّيّ الـــلذا   قتلا الملوك وفككا الاغـــلالا
وبنو غدانة شاخص ابصارهم   يسعون تحت بطونهنّ رجالا
ينقلنهم نقل الكلاب جراءها   حتى وردن عراعرا وجلالا
ان العرارة والنبـــوح لدارم   والمستخف أخوهم الاثقالا
وابن المراغـــة حابس أعياره   قذف الغريبة ما يذقن بلالا

عمر بن أبي ربيعة

أنال عمر بن أبي ربيعة هذه الشهرة الواسعة طريقه الخاص الذي شقه لنفسه فاستمال الناس ، والناس ميالون إلى محاكاة الطبيعة وتمثيلها ، ان كان في الشعر أو في التصوير أو في غير ذلك من الفنون .

فبين شعراء العرب من يفوقونه ديباجة ورقة ومتانة ، ولكن أسلوبه الذي اهتدى اليه خلع عليه هذا الخلود الفني في الأدب العربي ولا سيما انه جعل الغزل فناً مستقلاً بل قل « مهنة » ، ولم لا يكون ذلك وقد اجتمعت بعمر المفاسد الثلاث : الفراغ والشباب والجده .

فهو في شعره يمثل لنا دوراً يمثل كل يوم . ومما جعل لعمر هذه القيمة الفنية انه ممثل غير متكلف على غير ما تراه عند سواه من الشعراء الغزليين الذين جاؤوا بعده فانهم يتكلفون فيما يصورونه لنا من عواطفهم .

فشعره يمثل لنا السذاجة البدوية ولون الحضارة الجديدة ، ذلك اللون الجديد (الخفيف) الذي لا يبهر العين فتكرهه ككل لون « غامق » شديد .

يمثل حياة المترفين في الحجاز بل حياة الطبقة العليا الهادئة الفارغة ، وهو لم يتعرض للسياسة . ساعده على اختيار هذا الباب من الشعر غناه ، فهو غني وابن غني ، ولابيه ضلع في الحكم على عهد أبي بكر وعمر ، عنده مال كثير ورقيق عديد ورثه . فاحد المسلمين عرض على النبي ان يستعين باحباش ابن أبي ربيعه في إحدى غزواته .

ان شعر عمر يمثل لنا صلة الرجل والمرأة الثريّين في ذلك الزمان أصدق

تمثيل ، وهذه الصلة لا تخلو في كل زمان من لهو ودعـــابة وعبث وفكاهة . ان مداعبته العابثة لثريا بنت علي بن عبدالله كانت السبب في تسويد سنّيه ، بعد صفعة كفّ أكلها من يدها المباركة خواتمها ...

كان لا يهمه من المرأة إلا جمالها ، فما رأيناه يذكر لنا نفسها ولا جمالهـــا المعنوي ، ولا عجب في ذلك فقد كان ، على ما يظهر من شعره ، سطحي الحب ينتقل من زهرة إلى زهرة . ولذا لم يصف في شعره الا الجمال الجسدي الذى كان يراه المثل الاعلى للانثى. وهو لم يحدثنا إلا عن الميول والاهواء الطبيعية والاشياء التي يعرفها الانسان بالغريزة ، فكل بحثه تقريباً يحوم حول العلاقة الجنسية التي هي في نظره – على ما أظن – كل الغاية من وجود الانثى .

لقد وصف المرأة وتغنى بجمالها وتأثيرها فيه وفي حياته ، وكان يفهم ان موسم الحج معرض للجمال – كما يفهم أكثر شبابنـــا اليوم بعض الاجتماعات الدينية – فيتزين عند بدء الموسم كما يتزينون ، ويترصد كما يترصدون ، ويلقي في آذان المارات كما يلقون .

ان عمر حسي صادق مع تنقل دائم . واما شعره فتطور بدليل ما قاله فيه جرير : « ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر » .

يختلف شعر عمر عن شعر المحرومين القليلي الحظ ، فهو غير شقي في حبه ولا تاعس الجد ولا بكـّاء ، فتقرأ في سطوره دلائل المسرة والابتهاج ، وكأني أرى الابتسامة على فمه حين يصف لنا ما يصف ، ثم لم يشعر بفناء ما عشقه إلا في آخر العمر .

يتكلم كمن يشعر بقوة وسلطان على النساء ، ونستطيع ان نقول ان آثار الابتهار بادية في شعره . ولماذا لا يبتهر وهو القرشي نسباً ، ماله كثير وشبابه رائع ومنطقه فصيح ، وشعره خلاب . منصرف إلى عمله ... كل الانصراف ، هذا العمل الذي اسميناه « مهنته » ؟

والذي أذاع شعره وحفظه من الضياع – بخلاف شعر جميل – مصادفته هوى النفوس وموافقته ميول الناس ، والحب حديث البشرية منذ وجـــدت

وسيظل ، ولذلك وضعوا له النظم الاجتماعية والدينية التي قلما رأينا شاعرنا هذا يحترمها .

اما حظ شعره من الخيال فاراه قليلاً لانه لم يتعرض الا لما هو ماديواقعي ، وتلك حالة الشعر في زمانه ، فانهم لم يكونوا يعولون على الخيال إلا لاخراج بعض صور للتشبيه . اما هفواته اللغوية والنحوية فكثيرة .

رائيته الشهيرة

أمن آل « نعمٍ »أنت غادٍ فمُبكِرُ ... غداة غــدٍ أم رائح فمهجّرُ

بحاجــة نفس لم تقل في جوابها ... فتبلغَ عذراً والمقالة تُعذِرُ

تهيم إلى نعم فـلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا القلب مقصِر

ولا قربُ نعم ان دنت لك نافع ... ولا نأيها يُسلي ولا أنت تصبر

وأُخرى اتت من دون نعم ومثلُها ... نهى ذا النهى لو ترعوي أو تفكـّر

إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابة ... لهــا كلّما لاقيتهــا يتنمّر

عزيز عليه ان أُلمّ ببيتهــا ... يسّرُ لي الشحناءَ والبغض مُظهَر

أَلِكـْني اليها بالسلام فانــه ... يشهَّر المامي بهــا ويُنَكـّر

بآية ما قالت غداةَ لقيتهــا ... بمدفَع أكنانٍ أهــذا المشهّر

قفي فانظري أسماء هل تعرفينه ... أهذا المـُغيريّ الّذي كان يذكر

أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن ... وعيشِك انساهُ إلى يومَ أقبرُ

فقالت نعمْ لا شك غيّر لونـَه ... سُرى الليل يحيي نصَّه والتهجّر

لئن كان اياه لقد حــال بعدنا ... عن العهد والإنسان قــد يتغير

رأت رجلاً أمّا اذا الشمس عارضت ... فيضحَى واما في العشي فيَخْصَر

اخا سفرٍ جوّاب ارض تقاذفت ... بــه فلوات فهو أشعث أغبرُ

قليـل على ظهر المطية ظلــه ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبّرُ

واعجبها من عيشِها ظِلُّ غرفةٍ ... وريانُ ملتفُّ الحدائقِ اخضرُ

ووالٍ كفاها كلَّ شيء يَهمُّها فليست لشيء آخِرَ الليل تسهَرُ

* * *

وليلة ذي دورانَ جشمني السرى وقد يجشم الهول المحب المغررِ
فبت رقيباً للرفاق على شَفا احاذر منهم من يطوف وانظر
اليهم متى يستمكنُ النومُ منهم ولي مجلِس لولا اللُبانةُ أوعرُ
وباتت قلوصي بالعُراء ورحلُها لطارق ليلٍ أو لمن جاء مُعورِ
وبت أُناجي النفسَ أين خِباؤها وكيف لما آتي من الأمر مصدر
فدل عليها القلب ريّا عرفتها لها وهوى النفس الذي كاد يظهَر
فلما فقَدتُ الصوتَ منهم واطفئت مصابيحُ شُبت بالعِشاء وأنور
وغاب قمير كنت أهوى غيوبه وروّح رعيانٌ ونوّم سُمّرُ
وخُفضَ عني الصوتُ اقبلت مشيةَ الُحباب وشخصي خشية الحي أزور
فحييت إذ فاجأتها فتولّهت وكادت بمخفوض التحية تجهَر
وقالت وعضت بالبنان فضحتني وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أريتك اذ هنّا عليك ألم تخف وقيت وحولي من عدوك حضّر
فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجة سرت بك أم قد نام من كنت تحذَر
فقلت لها بل قادني الشوق والهوى اليك وما نفس بذلك تشعُر
فقالت وقد لانت وافرخ روعها كلاك بحفظ ربي المتكبرُ
فأنت أبا الخطاب غيرَ مُدافَع عليَّ أميرٌ ما مكثتَ مؤمّر
فيا لك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلي قبل ذلك يقصُر
فيا لك من ملهى هناك ومجلِسٍ لنا لم يكدره علينا مكدِر
يمج ذكي المسك منها مفلّج نقيُّ الثنايا ذو غُرُوبٍ مؤشّرُ
تراه إذا ما افتر عنه كأنه حصى بَردٍ أو أُقحوان منوِّر
وترنو بعينيها إليَّ كما رنا إلى ظبية وسط الخميلة جُؤذَرُ

* * *

فلما تقضى الليلُ إلّا اقلّه وكادت توالي نجمه تتغوّر

أشارت بأن الحي قد حان منهم هبوب ولكن موعِد لك عَزْوَر
فما راعني إلّا منادٍ ترحلوا وقد لاح مفتوق من الصبح اشقر
فلما رأت ان قد تنبه منهم وايقاظهُم قالت أشِرْ كيف تأمر
فقلت اباديهم فإما أفوتهم وإما ينال السيف ثارا فيثارُ
فقالت اتحقيقاً لما قال كاشح علينا وتصديقاً لما كان يؤثر
فان كان ما لا بد منه فغيرُه من الأمر أدنى للخَفاء واستر
اقص على أختيّ بدءَ حديثنا وما لي من أن تعلما متأخّر
لعلهما ان تطلُبا لي مخرجا وان ترُحبا سرباً بما كنتُ احصَر
فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ من الحزن تُذري عبرة تتحدر
فقامت اليها حرتان عليهما كساءان من خز دمقس واخضر
فقالت لاختيها اعينا على فتى اتى زائراً والأمر للامر يُقدَر
فاقبلتا فارتاعتا ثم قالتا اقلي عليك اللومَ فالخطبُ ايسر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهَرُ
فكان مجني دون من كنت اتقي ثلاثُ شخوصٍ كاعبان ومُعصِرُ
وقلن اهذا دأبُك الدهرَ سادراً اما تستحي او ترعوي أو تفكر
فان جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
فآخر عهد لي بها حين اعرضت ولاح لها خد نقي ومَحجِرُ
سوى انني قد قلت يا نعم قولة لها والعتاق الارحبيّات تزجر
هنيئاً لاهل العامرية نشرُها اللذيذ وريّاها التي اتذكر
فقمت إلى عنسٍ تخوّن نيّها سرى الليل حتى لحمها متحسّر
وحبسي على الحاجات حتى كأنها بقية لوح او شجار مؤشّر

* * *

وماء بموماة قليل انيسه بسابس لم يحدث بها الليل محضر
به مبتنى للعنكبوت كأنه على طرف الارجاء خامٌ منشّر
فقمت إلى مفلاة أرض كأنها اذا نظرت مجنونة حين تنظر

تنازعني حرصاً على الماء رأسها ومن دون ما تهوى قليبٌ معوّر
محاولة للماء لولا زمامها وجذبي لها كادت مراراً تكسر
فلما رأيت الضر منهـا وانني ببلدة ارض ليس فيها معصّر
قصرت لهامن جانب الحوض منشأ جديداً كقاب الشبر او هو أصغر
اذا شرعت فيـه فليس لملتقى مشافرها منه فدى الكف مسأر
ولا دلو الا القعب كان رشاءه إلى الماء نسع والاديم المضفر
فسافت وما عافت وما رد شربها عن الري مطروق من الماء اكدر

الدالية :

ليت هند انجزتنا مـا تعد وشفت انفسنا ممـا تجـد
واستبدت مرة واحـدة انما العـاجز من لا يستبد
زعموها سألت جارتهـا وتعرت ذات يوم تبترد
أكما ينعتـني تبصرنني عمركن الله ام لا يقتصد
فتضاحكن وقد قلن لهـا حسن في كل عين من تود
حسدٌ حملنه من شانها وقديماً كان في الناس الحسد
غـادة تفترُ عن اشنبها حين تجلوه اقاحاً وبرد
ولها عينان في طرفيهـما حَورٌ منها وفي الخد غَيد
طفلةٌ باردة القيظ اذا معمعانُ الصيف اضحى يتقد
ولقد اذكر اذ قيل لهـا ودموعي فوق خدي تطرد
قلت من انت فقالت انا من شفـّه الوجدَ وابلاهُ الكمد
نحن اهل الخيفِ من اهلِ منى ما لمقتولِ قتلناهُ قـود
قلت اهلاً انتم بغيتـُنـا فتسمينَ فقالت انا هند
انما ضلـلَ قلبي فاجتوى صعدةً من سابريّ تطـّرد
انما اهلـَك جيرانُ لنـا انمـا نحنُ وهم شيءٌ احد
حدثوني انها لي نفثت عُقداً يا حبذا تلك العُقَد
كلما قلتُ متى ميعـادُنا ضحكت هند وقالت بعدغد

ردوا التحية ايهـــا السَفْرُ وقفوا فان وقوفــكم اجرُ
ماذا عليــكم في وقوفكُـم ريثُ السؤالِ سقاكم المطر
بالله ربكُـم امـــا لــكم بالمشعرين واهلــهُ خَبَرُ
مكية هامَ الفؤادُ بهـــا نسي العزاء فما له صــبر
مكيــة الردفين بهكنة رود الشباب كانها قضر
قدرت له حينـــاً لتقتله ولكل ما هو كائنٍ قَدَرُ
الشهرُ مثــلُ اليومِ إن رضيت واليومُ ان غضبت بــه شهرُ

ومن قوله :

مَنْ رسولي الى الـــثريا باني ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتاب
ابرزوها مثل المهاةِ تهادَى بين خمسٍ كواعبٍ اتراب
فاجابت عند الدعاءِ كما لبَّى رجالٌ يرجونَ حسنُ الثواب
وهي مكتوفةٌ تحيَّر منهـــا في اديم الخدين مـــاءُ الشباب
ذكرتني من بهجةَ الشمسِ لما طلعت في دجنّــــةٍ وسحاب
فارجحنّتْ في حسنِ خلقٍ عميمٍ تتهادى في مشيها كالحُباب

وهذه صورة أخرى :

أبكيتَ من طربٍ أبا بشِر وذكرت عثمةَ أيّمـــا ذكر
وهي التي لمـــا مررتَ بهـــا في الطوفِ بين الركنِ والحجرِ
قالت حَصانٌ غيرُ فاحشةٍ فسمعتَ ما قالت ولم تَدر
زعِ القلبَ واستبقِ الحياءَ فانما تباعدُ او تدني الرباب المقادرُ

على مذهب الاقدمين

قف بالديار عفا من اهلها الأثرُ عفـّى معالمها الارواحُ والمطرُ
بالعرصتين فمجرى السيل بينهما الى القرين الى ما دونه الاثر

منازل الحيّ اقوتْ بعد ساكبها   امستْ ترودُ بها الغزلان والبقر
تبدلوا بعدها دارا غيرها   صرفُ الزمانِ وفي تكرارهِ غيَرُ
وقفتُ فيها طويلاً كي أُسائلها   والدارُ ليس لها علمٌ ولا خبر
دار التي قادني حَينٌ لرؤيتها   وقد يقود الى الحَيْن الفتى القدر
هيفاءُ لقاءُ مصقولٌ عوارضُها   تكاد من ثَقل الارداب تنبتر

جميل بن معمر

حياته : ولد في وادي القرى بالحجاز وشب على حب بنت عمه بثينة ، فعرف بجميل بثينة . وهام بها وهامت به وقال فيها شعراً فغضب أهلها ولم يزوجوه اياها ، فهجاهم ، فاستعدوا عليه مروان بن الحكم والي المدينة فاهدر دمه ، فذهب إلى اليمن والشام فمصر ، وهناك مات .

شعره : صادق ، من أرق الشعر العربي القديم ، فهو صورة لعاطفته القوية وحبه العنيف . يصف المشاهد والمواقف المؤثرة ، ويذكر ما كان يدور بينه وبين بثينة من حديث عفيف :

وأول ما هاج المحبة بيننا   بوادي بغيض يا بثينَ سبابُ
فقالت لنا قولاً فقلت بمثله   لكل حديث يا بثينَ جوابُ

واذا كان عمر يمثل الغزل الاباحي ، فجميل يمثل الغزل العذري العفيف .

بقية الشعراء

من اشتهر بالمدح والهجاء في هذا العصر :

غسان البعيث : الملقب بالراعي .

زياد الاعجم : مر الهجاء ، أخاف الفرزدق .

الكميت بن زيد : أثر سياسياً . هاشمي النزعة .

الأحوص : (عبدالله محمد بن الانصاري) حطيئة الامويين . لقب الاحوص لضيق في مؤخر عينيه . جميل الاخلاق والافعال، هجّاء، ضربه سليمان بن عبد الملك مائة سوط ، ونفاه إلى جزيرة ذهلك في بحر اليمن .

آثاره : أكثرها هجاء قومه ونفسه . يتعرض للناس فيخافونه . شعره سهل رقيق ، لطيف الالفاظ ، الا في الهجاء فكان بذيئاً . لم يتوصل إلى مستوى الشعراء المجيدين بسمو الأفكار والتصورات .

الرقيّات : ابن قيس الرقيّات ، قرشي معتز بقرشيته محب لها ، يريد كل شيء لقريش . مذهبه لا يعتمد على دين بل على العصبية القومية . تألم لمصاب القرشيين وتشتتهم ، وتمنى لو ظلت أيام أبي بكر وعمر .

كره الامويين وهجاهم لاعتزازهم باليمنية على المضرية ، فناصر الزبيريين عليهم **لاعتقاده ان الامويين يعتزون بالاجنبي** ، وظل يناصر مصعباً حتى قتل مصعب ، ففر إلى الكوفة واختفى عند امرأة انصارية ، وهي لا تعرفه .

أمنه عبد الملك ودخل عليه ومدحه فلم يسر به ، فلزم عبد العزيز بن مروان والي مصر حتى مات .

قيمته : شاعر مبتكر في الشعر السياسي ، أثر شعره كثيراً من جهة السياسة . محب للنساء ، يكاد يشبب بهن جميعاً . تغزل بنساء خصومه ولم يسىء اليهن لانهن قرشيات . تغزل بام البنين وام الوليد ، فغاظ عبد الملك وابنه وارضاها لانه لم يسىء اليها ، فشفعت به عند عبد الملك ونالت ما تمنت .

ديباجته : شعره سهل رقيق جداً ، متأثر بمعاشرة النساء . لاحظ هذه الرقة عبد الملك ونسبها إلى الخنوثة ، فادعى انه يتأثر بالقرآن الكريم .

اما عيوبه فهي شذوذه عن مألوف النحو وقلة المعاني .

شعراء الرثاء – متمّم بن نُويرة : يربوعي ، أسلم اخوه وارتد ، فقتله خالد بن الوليد ، فرثاه بقصيدة هي اشهر آثاره .

مالك بن الري التميمي : كان لصاً يقطع الطرق ، شعر بدنو اجله فنظم قصيدة يرثي نفسه ، وذلك في اثناء عوده من خراسان حيث كان يعاون معاوية ، فلدغته أفعى برجوعه .

قصيدته هذه رقيقة العاطفة والتصور والالفاظ ، غير انها قليلة الخيال .

الانشاء الخطابي والخطباء

دواعي الخطابة : العربي فصيح ، ذرب اللسان يحب الكلام ، معجب بلغته فيطيل الكلام ويحب سماعه ، يدلـك على ذلك حوار العرب ومجادلاتهم واختصامهم . ولذلك عولوا على القول واعتنـوا به ليؤثروا كما يتأثرون هم ، واتخذوا الكلام سلاحاً للفوز .

ومن اسباب عنايتهم ان الدين الاسلامي اجتماعي قبل كل شيء ، عني بالجماعة اشد اعتناء فجمعها في الصلاة والحج والاعياد والشورى ، فاضطر الحاكم لمحادثة المحكومين وبالعكس .

وعندما ظهر الاسلام ظهر له خصوم وانصار ، فاشتد الجدال في المجتمعات ، وعني بالكلام سلاح الحجة والاقناع .

وبعد موت النبي كثرت مصـالح الاسلام بتكاثر الفتوح ، واختلفت الآراء واحتاجوا إلى التشاور والتناظر . ثم كانت الفتن والاحزاب السياسية والخصومة والجهاد ، واحتاج الزعماء إلى مشاورة انصارهم ومجادلتهم في الآراء وتدبـير الخطط .

ولما ضعف أمر الاحزاب واغمدت السيوف ، سُلّت الالسنة مكانها فكان المعارضون الاذكياء . فاضطر الخلفاء ان يدافعوا عن سياستهم حيناً باللسان واحياناً بالسيف .

كل هذه الظروف جعلت حظ العرب من الخطابة في هذا العصر وافراً ، ولم تبلغ امة قديمة هذا المبلغ الا اليونان والرومان . واسبابها عندهما تشبه اسبابها

عند العرب . فالخطابة لا تقوى الا في البيئات التي يعظم حظها من الحياة الاجتماعية من جهة ، ويعترف فيها بحرية الفرد من جهة ثانية . وهذان الامران ضمنهما الاسلام للعرب ، فكرامة الفرد كانت فيه موفورة وقد لاءم بين حرية الفرد وسلطة الحكومة .

وحدة طباع العرب ومزاجهم وفصاحتهم وخصب شعورهم ، اظهرت فيهم خطباء مفوّهين . ولم يضعف امر الخطابة الا عندما فسد هذا النظام في العصر العباسي فتجاوز سلطان الدولة حد الاعتدال وقضى على حرية الفرد او كاد .

لغة الخطابة : كانت اولاً ساذجة لا تمتاز عن لغة التخاطب الا بعناية يبذلها كل من يحاول الاقناع والتأثير . ولما كثر النزاع والجدال اشتدت العناية باختيار الالفاظ والاساليب التي تساعد على الاقناع والفوز .

وكان مثلهم الاعلى القرآن الكريم الاجتماعي بكل معنى الكلمة ، فكله موجه إلى الجماعة .

وكانوا قد شاهدوا تأثيره واختبروه في نفوسهم ونفوس من تقدمهم ، فتأثروا به واقتبسوا منه ، فاكسبهم قوة وليناً لم يكونا في خطابة من تقدمهم .

فالخطابة العربية الاسلامية تمتاز بروعة القرآن وجاذبيته التي تحبب اليك السماع ، واذا قرأت خطيباً من هؤلاء الخطباء المعدودين تحسب انك تسمعه فتحبه ، او تخافه فتفزع منه ، ولكنك في الحالين تحب سماعه . فاذا بحثت عن السبب وجدت اكثره من تأثر الخطباء بالقرآن واخذهم عنه واقتباس معانيه واستعارة الفاظه .

عادات الخطباء : الوقوف على نشز ، او صخرة ، او منبر ، او ناقة . الاعتماد على السيف او القوس او المخصرة . لا يكثرون من تحريك اجسامهم ولا يسرفون بالاشارة . لا يترددون في القول . يكرهون الاضطراب وفساد مخارج الحروف ، والتنحنح والسعال .

أول من خطب جالساً الوليد بن عبد الملك ، ولكن القيام سنّة مطردة حتى اليوم .

ميزات الخطابة الاسلامية :

١ – روح قرآني ديناً واجتماعاً .

٢ – مضاهاته بالسجع والجمل المتوازنة .

٣ – الابتداء بالحمدلة .

٤ – كثرة الآيات ، وقد تكون مجموعة آيات ، كخطبة مصعب في العراق حين دعا لمبايعة أخيه طلحة .

وهذه الخطب ، منها خطب طويلة مسهبة ومنها قصيرة موجزة . وفي كل حال لم تكن على الطريقة اليونانية والرومانية براهين وادلة ، لان العربي يفهم من الاشارة ويكلم القلب أكثر من العقل .

الخطباء : عديدون ، دعت إلى كثرتهم الظروف الآنفة الذكر . كان المطنب منهم يخطب طول النهار ، والموجز لا يتجاوز الساعة ، ومنهم من لا يتكلم إلا بضع دقائق .

اما خطباء العرب في صدر الاسلام والعصر الاموي فهم :

ابو بكر الصديق

أعلم العرب بالانساب والايام والمفاخر ، صاحب النبي وأول مؤمن به .

ولي الخلافة بعده ، وأول خطبه خطبة السقيفة عندما دبّ الشقاق باهل المدينة ، حتى كادت تنشب ثورة أهلية .

سمتها : قصيرة ، قوية اللفظ ، تامة المعنى . وكذلك كان انشاء ذلك العصر ، وخصوصاً الرسائل ، وهي منتهى البلاغة .

الامام علي

أشهر خطباء هذه الفترة ، وهو وزياد والحجاج طبعوا الخطابة العربية بطابعهم الخاص .

المامه بالاسلام: ولدقبل الاسلام بسبع سنوات. أدركه الاسلام صبياً فنشأ فيه. اتصل بالنبي طفلاً وشب في كنفه ، فرأينا فيه ما رأينا من قوة الايمان . شهد مع النبي كل الوقعات العظيمة ، فكان قوي النفس شديد البأس . شارك النبي في حلو الحياة ومرها لانه ابن عمه وصهره ونابغة عالم .

حيل بينه وبين الخلافة بعد موت النبي فصبر وظل يخلص النصح للخلفاء حتى كانت الفتنة وقتل عثمان ، فتألبوا عليه : عائشة أم المؤمنين ، ومعها طلحة والزبير . وناصبه معاوية العداء ، فانفق آخر حياته في حرب سوداء ، وظل يكافح حتى قتله ابن ملجم سنة ٤٠ .

حياته : أيام النبي كانت حياة جهاد ورجاء ، وفي ايام الخلفاء الثلاثة كانت حياة اذعان ورضاء بقضاء الله في نصح للخلفاء ، اما في آخر عمره فكانت حياة نضال ويأس وحزن .

صفاته : علم ، جودة رأي ، خطيب ، بأس ، شجاعة ، اقدام ، تضحية ، تسامح ، صبر .

خطبه : احتاج الامام إلى القول والخطابة في آخر ايامه — أي ايام خلافته — فقال وهو ناضج العقل والفكر واللسان .

نسب اليه طائفة كبيرة من الخطب ، يظهر في بعضها التكلف والصنعة لانه منحول ، والبعض الآخر تظهر فيه شخصية بارزة حلوة جذابة شديدة الايمان بالدين والاقتناع بالحق ، لا تتحول عن رأيها إلا مكرهة ، فتنصرف عنه صابرة راضية بقضاء الله ، واثقة بان ما عند الله خير مما عند الناس .

وأكثر خطبه متصل بالسياسة ، يتحدث فيه الى أصحابه محرضاً إياهم على قتال عدوهم ، مظهراً حقه في السلطان ، مبيناً ضلال خصومه عن سواء السبيل ، فوفق خطابياً دائماً ، وقلما وفق عملياً ، لان ظروف حياته كانت اقوى من الخطابة واقوى من الحق واقوى من الصواب . وكانت الناس قد تغيرت ، ومثلهم العليا في الحياة قد تغيرت ايضاً ، واصبح نظام الخلافة ، كما كان يريده علي وكما كان يريده الخلفاء الثلاثة من قبله ، مغايراً لما كان الناس يرجون ويأملون .

زياد ابن ابيه

ابن ابيه أو ابن سمية أو ابن ابي سفيان ، نشأ نشأة اسلامية محضة . كان ذكي القلب واسع الحيلة حازماً حاد اللسان ميالاً الى العنف يطغى في اكثر الأحيان .

عمل مع أبي موسى الأشعري في البصرة فظهر واعجب به الناس ، حتى عمر نفسه . خاف عمر من دهائه فحال بينه وبين العمل السياسي الدائم . ثم استعان

به الامام علي ، فاخمد ثورة فارسية ووفى لعلي حتى قتل . واستماله بعده معاوية والحقه بنسبه وولاه البصرة والكوفة ، وكان يطمع بالحجاز ، وقد مات بالطاعون سنة ٥٣ هـ.

ظهرت قوة شخصيته في العراق فاشتد على حزب المعارضة فاذعنت وهدأت ، وبطش بالمعتدين المفسدين حتى أقرّ الأمن وثبت النظام .

وقد حفظت له خطبته البتراء ، سميت بذلك لانه لم يبتدئها بذكر الله. القاها في البصرة فوجم الناس ، فمنهم من خاف ومنهم من مدح متملقاً ، ومنهم من انكر ما جاء فيها لانه مخالف لشرع الله والحدود المعروفة ، ولكن السياسة العملية بينت لهم انه كان جاداً غير هازل فيما انذر .

خطبته البتراء : بدأها بانكار ما كان عليه البصريون من معصية الله والفسق في الدين وطاعة السلطان ، واعلن ان أمور المسلمين لا تصلح الا بما صلحت به من قبل ، أي لين بغير ضعف ، وشدة بغير عنف . وذكر ان العراقيين استحدثوا آثاماً لم تكن من قبل ، وانه سيحدث عقوبة تلائمها . واعلن عقوبات فاذا بها مجاوزة حدود الله كما تقدم : من نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً.. ثم جعل القتل عقوبة لمن ظهر بعد ساعة معينة في الليل (حكم عرفي).

ثم الغى في آخر خطابه ما كان بينه وبين الناس من عداوة ، ثم اثبت حق بني أمية وسأل الناس الإذعان لهم فذلك انفع .

شخصيته : فصاحة لسان ، شدة وعنف ، دهاء ومكر .

الحجاج

نشأ نشأة اسلامية في الطائف ، وشب في خلافة معاوية ، وعرف ما كانت تقوم عليه من دهاء وعنف ، وشهد شدة زياد وقسوته . وكأنه أحب زياداً فتمثل به ، فنشأ بعيد المطامع والأمل ، جريئاً ، شديداً لا يتردد .

كان في حرس رَوح بن زِنباع ثم صار منظما للعسكر في عهد عبد الملك ،

فجد وجزم فرفعت مرتبته ، فصار قائداً للجيش الذي ارسله عبـــد الملك لمحاربة ابن الزبير في الحجاز ، فحصر مكة وهـــدم الكعبة ، وقتل ابن الزبير ومثّل به . ثم ولّاه عبـــد الملك على العراق ، فاسكت المعارضة وأقر النظـــام وأخاف الناس ، وبسط سلطانه على الشرق الإسلامي كله ، فكسر الخوارج وبسط سلطان المسلمين على بلاد لم تكن لهم .

صفاته : لسانه كقلبه جرأة ، أشد من زياد تعطشاً للدماء ، ولسانه أحدّ من سيفه ، وخطبه تنمّ عن أكبر طاغية .

خطبه : تمتاز بشدة الفاظها ومعانيها ، وكثرة الاقتباس من القرآن والشعر (لأنه كان معلماً) . جمله متقطعة ، يلقيهـــا على الناس كصخور تقذف من المنجنيق ، فأذهلهم وأفسد عليهم عقولهم ، فصوّر لهم الحق باطـــلاً والباطل حقاً ، واقتادهم فسيّرهم حيث شاء . وهكذا وطد سلطان الامويين حتى مات في آخر أيام الوليد بن عبد الملك .

بعد الحجاج : وظلت الخطابة بعد الحجاج كما كانت في عهده . واتخذوه مع زياد وعلي مثلاً أعلى لاجادة القول والاتقان ، فتحداهم من جـــاء بعدهم ، ومن هذا التحدي تقرر بعض أصول الخطابة .

ثم كثرت المقالات الدينية والسياسية وكثرت المنـــاظرة ، واستحالت الخطابة آخر عهد بني أمية فصارت أقرب إلى الخطابة السياسية ، واشتد هـــذا الجدل حتى قام مقام الخطابة أيام العباسيين .

منتخبات من خطب الحجاج

سمع الحجاج – وهو في قصر الكوفة – تكبيراً في السوق ، فراعه ذلك ، فصعد المنبر وبعد ان حمد وأثنى قال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، وبني اللكيعة وعبيد العصا واولاد الإماء والنقع بالقرقرة، اني سمعت تكبيراً لا يراد به الله وانما يراد به الشيطان ، وانما مَثَلي ومثلكم ما قال ابن براق الهمداني :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا بالهمَدَاني ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حمياً تجَنَّبتك المظالم .

اما والله لا تُقرع عصا بعصا إلَّا جعلتها كأمس الدابر .

ومن خطبة بالبصرة : ان الله كفانا مؤونة الدنيا وأمرنا بطلب الآخرة فليته كفانا أمر الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون وشراركم لا يتوبون ، ما لي أراكم تحرصون على ما كفيتم وتضيعون ما به أُمِرتم ، ان العلم يوشِك ان يُرْفَع ، ورفعه ذهاب العلماء ، ألا واني أعلم بشراركم من البيطار بالفرس ، الذين لا يقرأون القرآن إلا هجراً ولا يأتون الصلاة الا دبرا ، الا وان الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، الا وان الاخرة داجل مستأخر يحكم فيها ملك قادر ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر واعلموا انكم ملاقوه ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ألا وان الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وان الشر كله بحذافيره في النار ، ألا وان من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ،

واستغفر الله لي ولـكم .

خطبة اخرى : يا أهل العراق اني لم أجـد دواء أدوأ لدائكم من هـذه المغازي والبعوث لولا طيب ليلة الاياب وفرحة القفل ، فإنها تعقب راحة واني لا أريد الفرح عندكم ولا الراحة بكم مـا أراكم إلا كارهين لمقالتي أنا والله لرؤيتكم أكره ، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعـة أمير المؤمنين فيكم مـا حملت نفسي مقاساتكم والصبر على النظر اليكم، والله أسأل حُسْنَ العون عليكم .

وشاع ان الحجاج مريض ففرح اهل العراق وقالوا مات الحجاج فلما بلغه ذلك، تحامل حتى صعد المنبر وقال : يا اهل الشقاق والنفاق ، نفخ ابليس في مناخركم فقلتم مات الحجاج ومات الحجاج، فمه والله ما احب ان لا أموت وما أرجو الخير كله الا بعد الموت وما رأيت الله عز وجل رضي الخلود لاحـــد من خلقه الا لاهونهم عليه ابليس .

وخطب الحجاج فقال: سوطي سيفي ونجاده في عنقي، وقائمه في يدي، وبابه قلادة لمن اغتر بي. وخطب ايضاً فقال: اللهم ارني الغي غيا فاجتنبه، وارني الهدى فاتبعه ولا تكلني الى نفسي فاضل ضلالا بعيدا، والله ما أحب ان ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه ولما بقي منها بما مضى .

خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فبدأ بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء فقال عليّ بالناس، حتى اذا اجتمعوا بالمسجد قام ثم كشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا	متى أضع العمامة تعرفوني
صليب العود من سلفي نزار	كنصل السيف وضاح الجبين
وماذا تبتغي الشعراء مني	وقد جاوزت حد الاربعين
أخو خمسين مجتمع أشدي	وتنجدني مداورة الشؤون
واني لا يعـــود الي قرني	غداة العِبِّ إلا أي حين

أما والله اني لا أحمل الشر بحمله واحذوه بنعله وأجزيه بمثله ، واني لأرى

رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها ، واني لانظر الدماء بين العمائم واللحى تترقرق .

قد شمرت عن ساقها فشمّري   هذا أوان الشد فاشتدي زِيَم

قد لفها الليل بسواق حُطَم

لست براعي ابل ولا غنم   ولا بجزار على ظهر وَضَمَ

قد لفها الليل بعصلبيّ

اروع جراح من الدوي   مهاجر ليس باعرابي

قد شمرت عن ساقها فشدوا

ما علتّي وانا شيخ إدٌّ   والقرس فيها وتر عُرُدُ

مثل ذراع البكر أو أشد

اني والله يا أهل العراق ،ومعدن الشقاق والنفاق ومساوىء الاخلاق ، لا يغمز جانبي كغماز التين ولا يقعقع لي بالشِنان ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة واجريت مع الغاية . وان امير المؤمنين قد نكب كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً واشدها مكسراً فوجهني اليكم ورماكم بي . فانه قد طالما اوضعتم في الفتن وسننتم سنن الغي وايم الله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولاعصبنكم عصب السلَمة ولاضربنكم ضرب غرائب الابل . اما والله لأعد الا وفيت ولا اخلف الا فريت ، واياي وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم انتم ، والله لتستقيمُنّ على طريق الحق او لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، من وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله وهدمت منزله .

خطبة الحجاج بعد دير الجماجم : يا اهل العراق ان الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والاطراف والاعضاد والشغاف ، ثم امضى إلى الامخاخ والاصماخ ثم ارتفع فعشش ثم باض وفرخ فحشاكم شقاقاً ونفاقاً ، وان اشعركم احد خلافاً اتخذتموه دليلاً تتبعونه وقائداً تطيعونه ومؤمراً تستشيرونه ، وكيف تنفعكم تجربة او تعظكم وقعة او يحجزكم اسلام ، او

يردكم ايمان ، الستم اصحابي بالاهواز حيث رمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر ، وظننتم ان الله يخذل دينه وخلافته . وانا ارميكم بطرفي تتسللون لواذا وتنهزمون سرعا يوم الزاوية . وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم اذ وليتم كالابل الشوارد الى أوطانها النوازع الى اعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوي الشيخ عن بنيه ، حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح يوم دير الجماجم . وما دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقبله ، ويذهل الخليل عن خليله. يا اهل العراق والكفرات الفجرات ، والغدرات بعد الخترات ، والثورة بعد الثورات ان ابعثكم الى ثغوركم ، عللتم وخفتم وان امنتم ارجفتم وان خفتم نافقتم ، لا تذكرون خشية ، ولا تشكرون نعمة ، يا اهل العراق هل استخفكم ناكث ، واستغواكم غاو ، واستفزكم عاص ، واستنصركم ظالم ، واستعضكم خالع الا وثقتموه واويتموه وغررتموه ونصرتموه ورضيتموه ، يا اهل العراق ، هل شغب شاغب ، او نعب ناعب ، او نعق ناعق ، او زفر زافر ، الا كنتم اتباعه وانصاره ؟ يا أهل العراق ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟

ثم التفت الى اهل الشام فقال : يا أهل الشام ، انما انا لكم كالظليم الذاب عن فراخه ينفي عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب ، يا اهل الشام ، انتم الجبة والرداء ، والعدة والحذاء .

النثر الفني

لم يكن للجاهليين نثر فني بالمعنى الدقيق ، انما كانت لهم لغـــة غنية عذبة في آخر الجاهليـــة وأول الاسلام . وكانت كتاباتهم شبه مقتصرة على أعمالهم التجارية ، وربما كتبوا رسائل قصيرة في حاجاتهم . ولم تكن لغة التراسل إلّا لغة التخاطب .

اما الكتابة فشاعت وعمت بعد هجرة النبي، كما قلنا سابقاً . حث النبي على تعلم الكتابة ، وصدرت عنه وعن أصحابه كتب مثلت فصاحتهم وطريقتهم الخاصة في التعبير ، وما هي إلّا لغة حديثهم الخاصة والعـامة ، أي انه لم يكن فرق ظاهر بين لغة الكتابة ولغة الخطابة ولغة الحديث .

فكثرة المصالح واختلاف الآراء والتنـافس بين الأحزاب رقّى الخطابـة وطوّرها . وهذه الأسباب أيضاً جعلت حاجة الدولة إلى الكتابة قوية شديدة لبعد المسافات والحاجة إلى الاتصال بالولاة والعمال. على ان بين الخطابة والكتابة في هذا العصر فرقاً لا بد من ملاحظته .

فالخطابة عربية خالصة نشأة وتطوراً في القرن الاول ، **اما الكتابة** فظلت عربية خالصة حتى كثرت المصالح وتعقدت ، وكانت الفتوح ، فاضطر المسلمون إلى تنظيم الدولة ووضع الاصول والقواعـد التي تجري عليهـا الادارة وأمـور الجيش ، والخراج .

كان العرب يجهلون هذه الادارات فاستعانوا بالامم المغلوبة واستعاروا لذلك نظمها بادىء بدء ، فكان النظام فارسياً في العراق وفارس ، ويونانياً أو قبطياً

في الشام ومصر، حتى انقضى الجيـل الاول . فعرف العرب اللغات الأجنبية ، وأحسن الاجانب اللغة العربية فنقلت الدواوين إلى اللغة العربية في جميع أقطار الدولة .

بدا ذلك في أيام عبد الملك وتم رويداً رويداً . وكان الأجانب الذين تعلموا اللغة العربية أكثر من العرب الذين تعلموا اللغات الاجنبية ، فاستمر الخلفـاء يستعينون بالكتاب والعمال من الموالي ، وعني هؤلاء بكتابة الدواوين عناية عظمى واتخذوها وسيلة يحفظون بها لانفسهم شيئا من المكانة ويرقون بهـا الى استرضاء الخلفاء والولاة .

فاتقان هؤلاء الموالي صناعتهم الفنية ، وخدمتهم اللغة العربية ، ومعرفتهم العرب وحرصهم على جودة القول والبراعة فيه ، أظهرت في الأدب العربي هذه الظاهرة التي لا نجدها الا قليلاً في تاريخ الأمم القديمة الأخرى ، وهي :

ان الرسائل الرسمية الفنية أصبحت مظهراً للجمال الفني الأدبي ، يجد قارئها لذة فيها كأنه يستمع لشاعر مجيد أو خطيب حاذق .

ففي هذا النوع ينحصر النثر الفني، وما عداه فبعض أمثال جرت على ألسنة الفصحاء أو ما كان ينشئه القصاص والعلماء كالتي نجدها في كتب التاريخ والادب.

سالم وعبد الحميد : وأول من تفوق في صناعة الكتابة الرسميـة سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، ثم تلميـذه عبد الحميد بن يحيى ، كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الملقب بالحمار لعظم جلده . وقد دعوه زعيم الكتاب لان من بعده اقتفى أثره حتى قالوا ساجعين كعادتهم : بدأت الكتابة بعبـد الحميد ، وختمت بابن العميد .

فعبد الحميد هو أول من طوّل الرسائل ونظمها فجعل لها مقدمة وخاتمـة وجعلها ذات تسلسل منطقي ، واستعمل التحميدات وأضفى على رسائله روحاً دينية . ولعل تأثر ابن العميد به هو الذي حملهم على قول تلك السجعة الآنفـة الذكر . وهذه رسالة من رسائله وجيزة جداً ، ذكرناها لان الكتّاب بعدهـا تحدّوها . واليكها :

« حقّ موصل كتابي اليك عليك كحقه عليّ إذ رآك موضعاً لأمله أهــــلا لحاجته ، وقد أنجزت الحاجة فصدق أمله » .

ولا تظن إن جميع رسائله من هذا الطراز فهناك رسائل أطــــول من يوم الجوع .

انصح جميع الأدباء والمتأدبين ان يفتشوا عن رسالة عبد الحميد إلى الكتّاب..

فهذا النوع ، ظهر واضحاً جلياً قوياً في آخر العصر الأموي ولم يبلغ أشده إلا حين تقدم القرن الثاني ايام بني العباس .

وهذا النثر ، وان يكن عربي اللهجة والأسلوب ، فللأجانب فيه يد طولى .

منتخبات عبد الحميد الكاتب

كتب عبد الحميد إلى أهله وهو منهزم مع مروان : اما بعـــد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره، فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت اذاقتنا أفاويق استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمقتنا مولِيّة فملُح عذبها وخشن لينهـــا ، فابعدتنا عن الاوطان وفرقتنا عن الاخوان. فالدار نازحة والطير بارحة . وقد كتبت والايام تزيدنا منكم بعداً واليـكم وجداً ، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن اخر العهد بـكم وبنا ، وان يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع اليـكم بذل الأسار ، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ان يهب لنا ولـكم الفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الابدان والاديان ، فانه رب العالمين وارحم الراحمين .

مما كتبه موصياً بشخص : حق موصِل كتابي عليك كحقه علي ، إذ جعلك موضع لأمله ورآني أهلاً لحاجته ، وقد انجزت حاجته فصدق أمله .

من وصيته للكتاب. واياكم والكبر والسخف والعظمة ، فانها عداوة مجتلبَة من غير احنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصوا عليهـا بالتي هي أليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم، وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويقرُب اليه أمره ، وان أقعد أحـداً منـكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته .

من وصفه للمطر والصيد :

وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً فروّت منه الارض وأزهر البقل وسكن القتام من مثـار السنابك ومتشعبات الأعاصير مهلة ان سرنا غلوات ثم برزت الشمس طالعة من الحجـاب وانكشفت من السحاب مسفرة فتلألأت الاشجار وضحك النوار وانجلت الابصار فلم نر منظراً حسناً ولا مرموقاً أشبه شكلاً من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض والخيل تمرح بنا نشاطاً وتجتذبنا اعنتها انبساطاً ثم لم نلبث ان علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر وتخفي سبل السلام تغشانا تارة وتنكشف أخرى ونحن بارض دمثة التراب أشبة الاطراف مغدقة الفجاج مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب فأدانا المسير إلى غابة دونها مألف الصيد ومجتمع الوحش ونهاية الطلب ، — إلى ان يقول إذ عنت لهم الظباء — تحف حفيف الريح عند هبوبها تسف الأرض سفاً كاشفة عن آثارها طالبة لخيارها حارشة باظفارها قد مزقتها تمزيق الرياح الجراد فمن صائح بها وناعر وهاتف بها وناعق يدعو الكلب باسمه ويفديه بابيه وامه وراكض تحت مفره وخافق بطلبه الرمح وطامع بمنعه وسانح قد عارضه بارح . قد حيّرتنا الكثرة والهجتنا القدرة حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد والله المنعم الوهاب .

وكتب هذه الرسالة عن مروان بن محمد لولده عبدالله وكان أرسله لقتال الضحاك :

أما بعد ، فان أمير المؤمنين عندما علم من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافي الاعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ورعاعة الذين عاثوا في الارض فساداً وانتهكوا حرمة الاسلام استخفافاً وبدلوا نعمة الله كفراً واستحلوا دماء أهل سلمه جهلاً ، أحب ان يُعهِدَ اليك في لطائف امورك ودخائل أحوالك عهداً يحملك فيه أربه وان كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لحمتك وبني أبيـك . — ويفيض بالمواعظ حتى يقول :

من ذلك ان تملك أمورك بالقصد وتداوي جندك بالاحسان وتصون سرك بالكتمان وتداوي حقدك بالانصاف وتذلل نفسك بالعدل وتحصن عيوبك بتقويم

اودك وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المرْدي واناتك فوقّها الملال وفوت العمل ، وخلوتك فاحرسها من الغفلة .

إلى ان يقول : وامنع أهل بطانتك وخاصة خدامك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب اليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض والنميمة اليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك .

ثم يذكر له عيب الملوك ويحثه على اجتناب بيئتهم فيقول عن أدب مجلس الملوك :

كثرة التنخُّم والتبصق والتنخع والتؤباء والتمطي والجشاء وتحريك القدم وتنقيص الأصابع والعبث بالوجه واللحية والشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الايماض بالنظر أو الاشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمران أردنه أو السرار في مجلسك أو الاستعجال في طعمك وشربك الخ ..

ويختمها بالدعاء بقوله : أيدك الله بالنصر وغلب لك على القوة وعصمك من الزّيْغ الخ ...

اسلوب كتابة هذا العصر

في عهد الخلفاء الراشدين كان الخليفة بنفسه يتولى أمر الرسائل إلى ان تعددت الشؤون وكثرت ، فاضطروا إلى الدواوين فدوّنها عمر بن الخطاب . ثم عهد الخلفاء بعده إلى الكتاب من العرب والموالي والمستعربين ، ثم على توالي الأيام أصبحت الكتابة آلة للوزراء ، أي أصبح هؤلاء الكتاب يلقبون بالوزراء.

كانت الكتابة في الاقطار بلغة اهلها إلى أن أصبحت اللغة العربية لغة الدولة كلها ، وذلك في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد .

اسلوب الكتابة وميزاتها :

١ — الاقتصار في الإغراض على القدر الكافي لدولة عربية .

٢ — الاقتصار في المعاني على الالمام بالحقائق وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل.

٣ — استعمال الألفاظ الفحلة الفخمة والعبارات الجزلة والاساليب البليغة في مخاطبة العرب الفصحاء ، وكان البيان هدفهم يكتبون إلى الرجل بقدر ما يسيغ .

٤ — مراعاة الايجاز حيث لا تدعو الحال إلى الاطناب .

٥ — قلة التفنن في انواع البدء والختام .

٦ — استعمال الضمائر بما وضعت له في الاصل ، إلى ان ولي الوليد ففخم المكاتبات .

العلوم والتدوين والتصنيف

تنحصر العلوم في هذا العصر بثلاثة انواع :

الدينية : اقبل كثيرون من الصحابة على القرآن الكريم يتدارسونه ويتفهمونه ، ومن أشهرهم عمر وعلي وزيد بن ثابت وعائشة ، ومن هؤلاء تفرق فريق في الامصار ، فاخذوا عنهم وعرفوا بـ « التابعين » .

ثم اشتغل في هذا العلم الموالي ، فكان شغلهم على نمط قومهم ، ومن اشهرهم الحسن البصري ، ومحمد بن سيرين بالكوفة .

التاريخية : بدأت الحركة التاريخية تمتد لان الداخلين في الاسلام من الاجانب بدأوا يذكرون تاريخ اممهم بين المسلمين . فانتشرت أخبار اليهود والفرس ، فعني المسلمون بالسيرة النبوية وصحابة الرسول ، وفتوحات عمر وابي بكر وأعمالها ، وغير ذلك مما كان اساساً للتاريخ الذي كتب في العصر العباسي .

الفلسفة : بثتها المدارس السريانية المثقفة بالثقافة اليونانية ، ومن هذه المدارس أكثر الاطباء الذين كانوا في قصور بني أمية . وقد كانت الفلسفة متصلة كل الاتصال بالطب كما ظلت عليه الحالة في الاندلس، ومن اشهر هؤلاء « ابن اثال » طبيب معاوية ، وهو نصراني ، وطبيب آخر يهودي اسمه ماسرجويه ، طبيب عمر بن عبد العزيز .

كل هذه العلوم كانت ساذجة بسيطة في هذا العهد ، ولم تنضج ولم يكثر التأليف فيها إلا في العصر العباسي .

التدوين والتصنيف

لم يدوّن المسلمون شيئاً في بادىء امرهم . أحجموا عن التدوين خوفاً من الاعتماد على الكتب وترك الحفظ ، ولما استفحل الأمر تداركوا البلبلة فدونوا :

١ — القرآن الكريم ، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين .

٢ — النحو ، في عهد الراشدين أيضاً . أول من كتب فيه ابو الاسود الدؤلي آخذاً عن علي ، وعن نمط النحو السرياني .

٣ — الحديث الشريف ، على عهد عمر بن عبد العزيز .

هذا كل ما دوّن وصنّف . أما بقية العلوم فعرفوها كما تقدم ، إلّا انه لم يصل الينا شيء مما كتبوه فيها .

الخلاصة : نشط الامويون الآداب وخصوصاً الشعر والخطابة ، وراجت سوق الأدب في البصرة والكوفة ، وكثر الشعراء فنظموا في كل باب ، وفقد كثير مما نظموا .

ففي العصر الأموي تكوّن الفقه والتفسير والنحو وضبط الخط والإعجام والحركات .

وفيه رسخت اللغة العربية في المملكة الاسلامية بنقل الدواوين اليها .

وفيه أيضاً نقلت بعض العلوم الطبيعية .

أما ما خلا الشعر والخطابة فلم يصلنا كتاب في علم من العلوم ، وكل ما بين أيدينا من كتب ومؤلفات شرعية لسانية أدبية في التاريخ والجغرافيا ، أو في علم من العلوم ، انما هو من ثمار العصر العباسي .

حتى ان الشعر الأموي وصل الينا من رواة العصر العباسي .

الرواة : هم عمدة العرب في جاهليتهم وصدر الإسلام ، في ضبط علومهم وآدابهم . أما تدوين الكتاب الحكيم والحديث فقد تقدم ذكره ، وأما الشعر فبقي على ما كان عليه في الجاهلية ، لكل شاعر راوية ، أو عدة رواة . فهدبة ابن خشرم راوية الحطيئة ، وجميل راوية هدبة ، وكثّير راوية جميل ، وأبو شفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راويتا الفرزدق ، ومربع راوية جرير والفرزدق معاً ، الخ .

وظل الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر ، فاشتغل العلماء بالرواية ، وصار الراوية منهم يروي لمئات من الشعراء والشواعر .

ومع تشدد الناس في تصحيح الرواية سنّة وادباً، حدث في الحديث والشعر والخطب كثير من التحريف والتصحيف والنقص والزيادة والانتحال .

حماد الراوية

سيرته : أبو ليلى حماد بن ميسرة ، اعلم الناس بأيام العرب واخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها .

كان في أول أمره لصاً صعلوكاً ، ترك ما كان عليه وانصرف الى الأدب ، وهو الذي جمع المعلقات السبع .

قربه الامويون وآثروه ، وكثيراً ما كانوا يستزيرونه ، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها ويجزلون صلته . ادرك العباسيين فلم يكن له كبير حظ عندهم .

يؤخذ عليه في روايته قلة الأمانة ، فإنه كان ينحل من يروي لهم ما لم يقولوه فيفسد شعر القدماء .

دفعه إلى ذلك الطمع وميل العرب إلى التنافس بالمجد القديم ، فاختلق لهم ما لم يُقَلْ لاسترضائهم ، وطمعاً بجوائزهم ، فالحق أناساً بغير انسابهم وأيّد مزاعمه بأقوال انتحلها .

وكذا فعل خلف الاحمر ، الراوية أيضاً ، وقصته مع أبي نواس مشهورة .

القرآن الكريم وتأثيره

نزل القرآن على الرسول الكريم في أوقات مختلفة ، ولم يكتب دفعة واحدة ، بل كتب على سعف النخل ورَق الغزال والحجارة والواح العظام .

حفظه علي وعبيد بن كعب وخصوصاً زيد بن ثابت .

نزوله وجمعه : جمعه زيد بن ثابت بامر ابي بكر ، ولم يحفظ الا السورة التي يتفق على روايتها شاهدان ، فنتج عن ذلك ان سوراً عديدة لم تحفظ . فوقع خلاف بين مسلمي الاقطار البعيدة ، فقام عثمان وجمع السور كلها في كتاب واحد سمي « قانوني » واتلف كل النسخ .

جمعه الحاضر صورة طبق الأصل عن جمع عثمان .

تقسيمه : يقسم إلى سور (والسورة كلمة عبرانية معناها المدماك) . اما سوره فعددها ١١٥ ، منها ٩٣ مكية و ٢٢ مدنيّة . نسبت إلى المكان الذي نزلت فيه ، أي مكة والمدينة .

اما ترتيبه فعلى نظام خارجي ، أطول سورة في الاول وهلم جرا دون مراعاة المعنى والتاريخ ، ما خلا سورة الفاتحة لانها فاتحة الكتاب .

أول ما نزل منه « اقرأ باسم ربك الذي خلق الخ . » وآخر ما نزل منه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت نعمتي عليكم ، الخ . »

تركيب السور : تقسم إلى آيات يختلف عددها باختلاف السُوَر ، فبينا سور البقرة ٢٨٦ آية نرى السورة الاخيرة ٦ آيات ، وسورة النصر ثلاث آيات فقط .

وقد قسم القرآن الكريم ٣٠ جزءاً .

من حيث المعنى : ثلاثة اقسام :

القسم الاول : يخاطَب به شعب غير مؤمن بالتوحيد والبعث . والقرآن كلام الله . الجنة للصالحين والنار للهالكين . يدعو إلى عبادة الله الواحد ، ويظهر قدرته الفائقة ووحدانيته من النظر إلى مخلوقاته ، والعالم والاجرام العظيمة ، الخ .

وتذكير بما حل بمن كفروا به ، وفي أكثر هذه السور يتكلم الخالق . وهذا القسم من السور المكية القصيرة .

القسم الثاني : يخاطب به شعب مؤمن ولكنه غير عارف بطرق العبادة . ففيها فرض الصلاة والصوم والحج والزكاة . ففي هذا القسم تنظيم طرق العبادة لله ، وسور هذا القسم مكية ومدنية .

القسم الثالث: الكلام موجه إلى شعب مؤمن يؤلف الهيئة الاجتماعية . ففيه تنظيم القضاء، والشرائع المدنية من زواج وطلاق ومعاملات الخ . فلذلك طالت السور وتغيرت لهجتها .

اسلوبه : يخالف أساليب العرب في نظمها ونثرها : تأليف حسن ، كلمات ملتئمة ، ايجاز وجودة مقاطع ، انسجام ، قصص ، امثال بديعة ، موسيقى لا نهاية لها ، سهولة في اللفظ مع شدة ارتباط في التعبير . كل هذا جعله في اعلى درجات البلاغة ، وجعل لاسلوبه من القوة ما يملأ النفس روعة ، فلا تمل ترديده وقراءته .

يسجع احياناً ولا يلتزم السجع ، ويوازن ولا يلتزم الموازنة . الفاظه سهلة ، قلّ ان تجد فيها غريباً ، وهي مع سهولتها جزلة عذبة ، وهي بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا نبوّ بينها . **فاذا اضفت الى ذلك سموّ معانيه ادركت سر بلاغته واعجازه** (المجمل : لطه حسين ورفاقه) .

هو في السور المدنية غيره في الغزوات ، طويل الآيات هادىء المقاطع يفيض ليناً ورحمة .

تأثيره : سحر العقول بيـــانه ، فعكفوا عليه يحفظونه ويقتبسون منه ويحاكونه ، ويتأثرون بألفاظه وتركيبه .

فللقرآن أعظم فضل على اللغـــة في وحدتها وانتشارها ، واحداث علوم جديدة فيها ، وتخليدها .

له في وحدة اللغة أثر بيّن ، باحكام تركيبها وتهذيب عبارتها ، ونشره اياها بانتشار الدين ، وحفظه لها على فصاحتها الأولية . فمن حيث هو كتاب سماوي منزل ضمن لها الحياة على مدى الأجيال ، ما دام في الكون عربي متمسك بدينه ، وصانها من كل ما يشوّه خلقها ، فأصبحت وهي اللغة الوحيدة الحية بين اللغات القديمة التي اختفت آثارها .

وقد أحدث القرآن علوماً شتى ، وجمع كلمة العرب عموماً والمسلمين خصوصاً حيث كانوا ، وألف منهم عيلة واحدة على نمط واحد .

وتأثيره في النثر أكثر من تأثيره في الشعر ، أي ان أثره في الخطابة واضح جلي. والخلاصة ، مهما قلنا عن شدة تأثير القرآن في العقلية العربية فلا نغالي .

خلاصة :

١ ــ ربط اللغة العربية وجعلها لهجة واحدة ، فصارت اللغة السائدة في الجزيرة ، وتحددت معاني الكلمات كما جاءت فيه .

٢ ــ توحيد العرب . بتوحيد اللغة توحدت الأمة ، وبواسطة القرآن فرضت على شعوب كثيرة فصارت لغتهم .

٣ ــ ادخال كلمات جديدة وتعابير خاصة ، منهـــا عربية فتغير معناها للدين ، ومنها غير عربية كمنبر الخ . وبعض اسماء علم عربت .

٤ ــ قواعد الوقف ، وضبط الألفاظ ، بسبب تعلمه غيباً بالشكل الكامل .

٥ ــ النثر ــ أوصله الينا وهو لم يكن موجوداً في الجاهلية ــ كما كان يحكى في ذلك العهد ، فجعل العربية أقدم لغة حية .

العصور العباسية

سقوط الامويين وقيام العباسيين

تحدثنا فيما سبق عن تكون الاحزاب في الأمة العربية وكيف استقام الأمر للامويين، ولكن هذه الهدنة كانت على دخَن ، فالعرب كانوا احزاباً ، بينما كان الشعب الفارسي متربصاً بهم الدوائر لانهم غلبوه على أمره واستولوا على ملكه ، فظل يحاربهم سراً ، ويحاول قلب الملك الجديد . واذ لم يستطع ذلك مباشرة لجأ الى مبدإ « فرّق تسد » ، فانتصر للعباسيين ووقف يرمي سهامه على الأمة العربية ، متحصناً وراء رجل من آل البيت . وهذا ملخص ما حدث :

اتخذ الفرس مأساة الحسين سلماً كما اتخذ معاوية مقتل عثمان . وهناك رجل آخر هو جحدر الكندي بن عدي ، قتله معاوية في نفر من اصحابه ، فكان للقيسيين كالشهيد .

فنشأت جمعيات سرية « التقيّة » مبدأها جواز التكتم حتى في العقائدالدينية اذا كان هناك من خوف. اضف الى ذلك ان الاعاجم حقدوا على العرب الامويين المتمسكين بالعصبية العربية العاملين على احتكار المناصب لنبلاء العرب وعلى احتقار الدخلاء . ومن تلك النقمة تولدت « الشعوبية » .

كانت هذه الاحزاب تنفق الاموال وتضحي بكل غال في سبيل النجاح ، وخصوصاً الفرس . أما الأمويون فكانوا لاهين باثارة روح العصبية بين اليمانية والمضرية ، يستميلون هذا حيناً وذاك آونة ، فضعف شأنهم .

كان زمام المعارضين بيد ابي مسلم الخراساني الذي راح يعمل بـلا هوادة ، والامويون لاهون لا يباشرون الادارة بانفسهم ، بل يكلونها الى أرباب اللهو والمجون . وتنازعوا على الخلافة ، فاثاروا القلاقل والبلبلة في البلاد فضعفت همتهم ولعب الفساد بهم .

لم يكن النزاع بين العرب والفرس نزاعاً سياسياً فقط بل دينياً ايضاً ، اراد الفرس ان يدخلوا في الاسلام شيئاً جديداً حتى الاباحية ، فمهدوا السبيل لشيع عديدة منها « الاباضية » ، زعيمها عبدالله بن اباض ، مبدأها قتل الخليفة الاموي لانه أموي ، لأنه خليفة باغ مسيطر على الاسلام بغير حق .

الحركة العباسية: كانت تدعمها سيوف الفرس وأموالهم ويدعو لها رجالهم ، همها القضاء على الامويين ونقل الخلافة الى آل البيت . فأسسوا الجمعيات القوية في العراق وخراسان ، وجمعوا زكاتهم وسلموها لمحمد بن علي « محمد الحنفيّة » مرشحهم للخلافة ، فسار معهم سراً في الأمر . ولما مات ولي ابنه عبدالله من بعده ، ثم عقبه محمد بن علي بن عبدالله بن العباس فاستسلم للفرس وأقـام في خراسان لاعتقاده انهم مخلصون وهو الذي قال : « أبى الله ان تكون شيعتنا إلا أهل خراسان ، ولا ننصر الا بهم . »

ان بعد خراسان عن الشام جعلها ارضاً خصبة صادفت فيها الدعوة العباسية نمواً سريعاً ، فاخذ امر دعاتها يشتد ، فتعقبهم الامويون فلم يقفوا لهم على أثر .

وأهم رجالهم بكير بن مـاهان ، وهو شاب فارسي غني وخطيب مفوّه ، وغيره ممن التفّوا حوله من الفرس والشيعة ، فضحوا بالمال والراحة والوقت .

ثم عقب محمد بن علي ابنه ابراهيم المعروف بالامـام ، يعضده شاب فارسي داهية هو ابو مسلم الخراساني ، **رجل الدولة العباسية .**

قدمه ابراهيم الامام واسند اليـه زعامة النقباء في خراسان واوصاه بالتكتم ، فاظهر براعة في نشر الدعوة . أرسل الدعاة من خراسان بزي التجار إلى النواحي ، فعظم امره واحبه الجميع ، وصار أعز الناس مـنزلة وارفعهم مقامـاً .

سياسته « فرّقْ تسدْ » . أضرم نار الخلاف بين الامويين باذلاً الاموال في سبيل اشعالها ، فوقعت العصبية بين المضرية واليمنية بخراسان لان الحكومة كانت على عهد مروان بن محمد الخليفة الاخير لا توظف احداً من اليمنية . فوالي خراسان ، نصر بن سيار ، كان متعصباً على اليمانية لبغضهم .

فغضب زعيمهم الكرماني واعتزل الحكومة ونصب لهم العداء ، فأخذ ابو مسلم يتقرب من الزعيمين الكرماني وابن سيار وينفذ اليهما الكتب ويساعدهما مالياً ، حتى استمال الكرماني لانه كان اختلف مع نصر الذي سجنه .

فلما اشتد الخلاف بين الزعيمين ، حاول العقلاء من العرب اصلاح ذات البين، فابى الكرماني لعدم ثقته بنصر . وهكذا ظل العرب يقتتلون نحو عشرين شهراً في خراسان ، وابو مسلم يضرم النار ليوهن قوتهم ويتحين الفرصة لضربهم ضربة قاضية تهلكهم .

فتألـّم نصر بن سيّار لما اصاب العرب ، فاستنجد بمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ليدرأ خطر العباسيين قبل ان يهاجموه ويجبروه على الانسحاب الى العراق ، او ليضعف شأن ابي مسلم قبل استفحاله . فكتب الى الخليفة مروان رسالة جاء فيها :

« قد بايعه — اي أبا مسلم — ٢٠٠٠٠٠ رجل، فتدارك الامر يا اميرالمؤمنين، وابعث الي بجنود من قِبَلك يقوى بهم ركني واستعين بهم على محاربة من خالفني» . وختمها بهذه الابيات المشهورة :

اری خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرام
فقلت من التعجب : ليت شعري أأيقاظ امية ام نيام ؟

فاجابه الخليفة ! « احسم انت الداء الذي ظهر عندك » .

فاجابه نصر بابيات منها :

والثوب ان انهج فيه البلى اعيى على ذي الحيلة الصانع
كنا نداركها فقد فرقت واتسع الخرق على الراقع

وماذا جرى بعد ذلك ؟ قبض مروان على ابراهيم الامام واحضره الى حرّان لما كثرت شيعته ، وامر به فأعدم .

فخاف اخواه السفاح والمنصور فهربا الى الكوفة . واظهر السفاح بها الدعوة وخطب الناس في المسجد الجامع وبويع بالخلافة سنة ١٢٢ فوفدت عليه الناس من اطراف العراق مبايعين خاضعين . وعهد الى عمــه عبدالله بقتال مروان : فجهز مروان جيشاً من ١٢٩ الفاً والتقى جيش الشام على الزاب،فانكسر مروان لان جنوده كانوا تأثروا بالذهب الفارسي، حتى لم يعد يستطيـع مروان ان ينفذ امراً فيهم فوضع المال بين ايديهم وقال!خذوا وقاتلوا.فأخذوا المال ولم يقاتلوا.

فوقعة الزاب هذه تقابل وقعة القادسية التي انتصر فيها العرب على الفرس .

كانت العصبية سبب سقوط الامويين . ولم تقف الـكارثة عند حد سقوط الدولة الاموية فقط بل امعن اعداؤهم الفرس والشيعة في التنكيل فاعملوا السيف في رقابهم حتى افنوا معظمهم ولم يفلت منهم الا عبد الرحمن الداخل المعروف بصقر قريش ، لأنه فرّ الى الاندلس .

كان الشعراء اكبر المحرضين على ابادة الامويين ، وهاك ما قاله سديف احد موالي بني العباس في حضرة السفاح :

لا يغرّنك ما ترى من رجال ان تحت الضلوع داءً دويّا

جردالسيف وارفع العفوحتى لا ترى فوق ظهرها امويّـــا

استعمل العباسيون الحيلة في استقدام بني اميـــة . فامنوهم على ارواحهم وأموالهم وأملاكهم حتى قدموا على السفاح مطمئنين ، فنكث عهده وتفنن في تعذيبهم واختلاس أموالهم .

قتلهم ومدّ البسط فوقهم وجلس للطعام . وما فرغوا من الوليمة حتى أمر بجرهم فجروا الى الخارج والقوا في الطريق ، وظلوا حتى انتنوا ودفنوا جميعاً في بئر .

ثم صدرت الأوامر بمطاردة من بقي منهم حتى أُبيدوا .

أما أبو مسلم الخراساني ، فاشتد أمره بعد ذلك حتى خاف الخليفة المنصور منه لأنه طمح إلى الخلافة ، فاستقدمه المنصور وأمر بقتـــله فقتل . ثم أصاب البرامكة ما أصاب أبا مسلم ، فقتلوا في عهد الرشيد ، لأنهم طمحوا الى الخلافة . وكذلك فعل المأمون فقتل وزيره الفضل .

النفوذ الاجنبي

فهمت مما تقدم تأثير الفرس ونفوذهم . شاء العرب التخلص منهم فكان ان قتل المنصور أبا مسلم الخراساني ، ومع ذلك بقي نفوذهم كما كان ، يقوى حيناً ويضعف تارة .

كان العصر الأموي عصر تطور خضعت له الأمة العربية من جهة والأمم المغلوبة من جهة ثانية . وسبب هذا التطور الاسلام وامتزاج العرب بغيرهم من الأمم .

فالعصر الاول مظهر صادق لتغير النفس العربية وتأثرها بالحياة الجديدة التي تلت الإسلام ، والعصر الثاني مظهر صادق لتغير النفس الأعجمية الأجنبية بهذه الحياة ، أي ان جوهر الأدب العربي ظل في القرن الأول عربياً ، وتأثر بالإسلام ، وهو دين الدولة ، تأثراً قوياً ، ولم يؤثر فيه اختلاط العرب بغيرهم إلّا قليلا .

أما في القرن الثاني فقد أصبح الأدب العربي أجنبياً في الجملة ، لغته العربية . ثم أخذ تأثير العرب يضعف فيه رويداً رويداً لأن منشئيه من الاجانب الذين تعلموا العربية وبرعوا فيها ، فما مرّ العصر الاول حتى دخل كثير من الاجانب في الاسلام ليظفروا بالمساواة في الحقوق السياسية ، والاجتماعية ، واتقنوا اللغة فخدموا الفاتحين وتولوا مناصب خطيرة في الدولة كما تقدم وقلنا في الكلام عن النثر الفني .

وكان ظهور هذا مؤذناً بما سيؤول اليه أمر العرب اذا لم يجدّدوا ويشدّوا

لينقذوا سلطانهم من الفناء والاضمحلال . ما عجز العرب عن المحافظة على سلطانهم بل تعادوا وتقسّموا في سبيل العصبية فضعفوا وقوي الأجنبي لأن الثورة التي كانت على العرب كانت أجنبية ، انتصر فيها الأعجمي على العربي ، واستأثر بالسلطان والسيادة . ولا يستغرب ان تظهر هذه البادرة في شرق البلاد الاسلامية ،وتفوز فيها الامة الفارسية ، وتظل بقية الامم هادئة في الشام ومصر ، ذلك لان الفرس حين ظهور الاسلام كانت لهم دولة ذات سلطان ، ولذلك كان الصراع شديداً بينهم وبين العرب ، ضعيفاً بينهم وبين الأمم الأخرى . وهذا الصراع كان في العراق ، حيث التقى الشعبان ، وبينهما اختلاف في كل شيء ، في الأهواء والمنافع والأغراض ، وفي الدين ايضاً الخ ...

فلهذا كان العراق موطن المعارضة الشديدة ، ومهد الحركة الأدبية والفكرية ، ومن هذه البيئة شبت الثورة كما رأينا ، وسقط الأمويون وساد العباسيون .

حرية الفكر : كان القرن الأول الهجري عصر احتكاك بالأمم التي شاعت فيها فلسفة الاقدمين ، فتعرف العرب المسلمون على الفلسفة ، من كتب ارسطو وافلاطون بواسطة الترجمة .

وكان مسلمو سوريا مختمرين بالعلوم اليونانية وغيرها فلم يقبلوا الدين على علاته ، كما قبله الأعراب ، فأخذوا يتفلسفون ويتمنطقون ويبحثون ويجادلون ليبنوا معتقدهم على أساس علمي راسخ . فدب الشك الى قلوبهم فاخذوا يبحثون ويشكّون .

فمنهم من انكروا العجائب وقالوا بخلق القرآن ولم يعتبروا الصحابة ولا الحديث فسموا بالمعتزلة ، وكل هذا مسبب عن تعلمهم المنطق والفلسفة ، ولذلك شاع بينهم « من تمنطق فقد تزندق » . فاطلقت الافكار من سجونها وصار كل واحد يجاهر بمبدإ ولا يخاف .

وتساهل الخلفاء بذلك ولم يبالوا بتقليد ما لم يكن فيه ما يمس الدولة . وأخذت هذه الحالة تنمو وتشتد بتقدم العصر العباسي الأول حتى عصر

المأمون . وكان المأمون محباً للفلسفة والمنطق (ونظن ان للوراثة عملها فيه لأن امه فارسية) ، فراجت هذه الابحاث في عهده ايما رواج .

وقد كان هو أشد الخلفاء تسامحاً . كان هو شيعياً ، ووزيره يحيى بن أكثم سنياً ، ووزيره احمد بن داود معتزلياً . وأكبر دليـــل على تسامحه انتصاره للمعتزلة .

وهكذا كان الرجل في هذا العصر لا يكره على دينه ، فقد يكون في بيت واحد عدة اخوة لكل منهم مذهب . فاولاد أبي الجعـد كانوا ستة : اثنان شيعيان ، واثنان خارجيّان ، واثنان مُرجئان .

فتقريب الموالي واعزازهم في الدولة العباسية وكلهم من امم غير عربيـة لهم دين قديم ، ساعد على نشر حرية الدين .

تقريب الموالي – سببه : تعلم ان دولة العباسيين قامت على اكتاف هؤلاء الموالي ، فالعباسيون كانوا قليلي الثقة بالعرب ، لانهم يعلمون انهم آل البيت وان العرب تخلوا عنهم ونصروا الأمويين ، ولذلك كانوا يكرهون العنصر العربي ، فقربوا الفرس لثقتهم بهم . وقد ظهر تعصب العرب عندما كانت الفتنة بـــين الامين والمأمون ولدَي الرشيد ، فالعرب نصروا الأمين ، (لان امه عربيـة ، فأضمرها لهم المأمون) .

ومن اشهر الموالي الذين قبضوا على الحـكم آل برمك وآل الفضل ، ولا أرى هؤلاء الا متلبسين بالاسلام تلبساً .

نعم قد أسلموا ولكنهم صبغوا الدين الاسلامي بصبغة فارسية ولم يتجردوا من عقائدهم القديمة وتقاليدهم ، فعن يد هؤلاء دخـــل التشيع والتصوف في الاسلام .

وفي هذه الآونة ظهرت بادرة جديدة هي التطرف الشديد في الدين وحرية الفكر ، وهي ناتجة عن احتكاكهم بالامم الغريبة ، فاخذوا يزدرون كل شيء قديم من دين وخلق وسياسة وأدب .

فانتشرت الزندقة انتشاراً عظيماً ، وصاروا يزدرون الامة العربية ودينها

وسياستها وادبها ، حتى فضلوا الفارسية عليها ، وهذا ما يعرف بـ « الشعوبية ».

ولم يكن مصدر كل هذا إلا الفرس الذين كانوا يكيدون للعرب . فلما اشتد هذا الأمر في عهد المأمون ، وآلت الخلافة بعد وفاته إلى المتوكل قام وضرب الزنادقة بعصا من حديد ، وجلد العلماء واضطهد الفلاسفة والمناطقة .

وظل هذا الانتقام منتشراً ، يكون بالسيف عندما يتعرض الدين أو الحكم للخطر ، وباللسان عندما لا يتعرض لهذا الخطر إلا الادب .

وهاك مثلاً عن شدة تهكمهم ومجونهم حتى في أقدس الاشياء : كان أبو نواس واصحابه ، على فسقهم ومجونهم ، يتدينون ويقيمون الصلاة . ولكنهم كانوا يعبثون بها عبثهم بغيرها . وربما كانوا يسكرون وتدنو الصلاة فتكف الأيدي عن الكؤوس وتقام الصلاة .

أقاموا الصلاة مرة فأمّهم أحد الندماء واسمه يحيى ، فغلط وهو يقرأ « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة إلى استهزاء به فقال ابو نواس :

اكثر يحيى غلطاً في قلْ هو الله أحد

فقال العباس الاحنف : قام طويلاً ساهياً حتى اذا أعيا سجد

وقال الحسين الخليع : يزحر في محرابه زحير حبلى بولَد

فقال مسلم بن الوليد : كأنما لسانهُ شُدَّ بحبلٍ من مَسَد

ويشبه هذا ما حكاه الجاحظ عن خمسة أمّوا ديراً ، فجاءتهم الدلّالة التي تبيع الخمر ، فقالت : كم انتم ؟ فأجابوا : أربعة ، وأهملوا صاحبهم الذي كان يصلي . فقال المصلي بصوت عال : سبحانَ الله ، فعرفتْ إذ ذاك انهم خمسة .

ولم يكن بعض الخلفاء أقل ترفاً في قصورهم من هؤلاء ، فبعضهم كان يعيش عيشتين : عيشة اسلامية لعامة الامة ، وعيشة ترف ملوكية فارسية في قصره .

الشعر وتأثير الترف فيه

الادب عامة : الادب لسان حال العصر وترجمان المحيط ، فاذا شئنا ان ندرس درساً واضحاً ادب هذا العصر العباسي علينا ان نوطىء له بدرس حضارة هذا العصر .

لم يكن شعب هذا العصر عربياً قحاً ولا فارسياً خالصاً ، بل مزيجاً من الشعبين وغيرهما من الشعوب التي كانت تسكن العراق وتعمل في ارضه ، وهي مكونة من العقلية العربية والفارسية والسامية القديمة ، متأثرة بالديانة المسيحية وثقافة اليونانيين ، ولذلك كانت مخالفة كل المخالفة لحياة العرب في عهد بني أمية فكان الفرق عظيماً جداً بين الحياتين .

فلذلك ضعف أثر الحياة البدوية الخالصة في هذا الجيل من اهل العراق ، وتأثر جداً بالحضارة الفارسية القديمة ، فنشأ عن ذلك وعن ذهاب سلطة العرب ، تمتع اهل هذا الجيل الجديد بكل ما كان لا يتمتع فيه العربي في العهد الماضي ، فاستوى فيه الغالب والمغلوب في كل شيء . فتضاءلت سلطة الدين الاسلامي ، لحداثة القوم فيه ولتأثير ديانتهم القديمة الموروثة عليهم .

وكانت لغتهم ايضاً بين الفصاحة الخالصة والرطانة الاعجمية .

والفرق بين هذا الجيل والجيل الذي تقدمه ، ان هذا ظهر فيه ميل شديد للحياة العلمية . فانتشر العلم وتنوع ، فمنه ما حدث ومنه ما نما وارتقى ، ومنه ما نقل ، فمحّصوه ودرسوه حتى هضموه وطبعوه بطابع عربي خاص .

كان في العصر الاموي علم ، ولكنه كان اسلامياً محضاً ، وهو يسير ساذج .

اما في هذا الجيل فكثرت فروعه وتشعبت .

وبعُدَ هذا الجيل عن عهد الادب بالبداوة العربية ،فقلّ حظه من السذاجة، فتكلف وتعقد ، وظهرت آثار التعمل فيه ، بعدما كان ساذجاً ، وبعد الطبع ، والسجية الحرة الخالصة . ونشأت في الادب فروع وفنون ، لم تكن معروفة من قبل الا قليلاً .

الخلاصة : قد تطور كل شيء تطوراً يلائم البيئة والعقل والدين .

الشعر خاصة : لم يضعف الشعر في هذا العصر بل قوي ونما وتطور في الفاظه ومعانيه واوزانه وقوافيه واغراضه وفنونه .

الفاظه : رقت وسهلت فبعدت جداً عن الفاظ الشعراء في العصر الاسلامي ايام جرير والفرزدق والاخطل . فاذا قرأت شعر بعضهم كمسلم ابن الوليد ، وابي العتاهية ، والعباس بن الاحنف ، فكأنك تقرأ كلاماً منثوراً ، لولا الوزن والقافية .

معانيه : تطورت معاني الشعر فانصرفوا عن المعاني البدوية ، او المعاني البدوية المتأثرة بالحضارة ، الى المعاني الحضرية الصرف . فبعد ان كان الشعر الاسلامي يصدر عن الطبع بلا تكلف ، اصبح متحضراً يسيطر عليه العقل ، ويرده الى ميدان **الخيال الفسيح** ، واذا عدا الشاعر ذلك عدّوه منه تقصيراً عن **الاتقان الفني** .

اوزانه : ورغب الشعراءعن الاوزان الطويلة ، وفضلوا عليها الخفيفة السهلة القصيرة،ولاءموا بينها وبين موضوعاتهم فاختاروا للغزل والمجون اوزاناً تلائمها، واذا مدحوا الخلفاء والوزراء أو رثوا أو جدوا في أمر ، فضلوا الاوزانالطويلة. ويسروا على انفسهم في القوافي واختاروا اسهل الالفاظ واحبها للسمع ، وتجنبوا عيوب الشعر : كالإيطاء والإقواء والإكفاء والسناد .

اغراضه : لم يطل عهد الشعر السياسي في هذا العصر اذ لم تبق حاجة اليه . ورغب الخلفاء عنه فاصبح الشاعر لدى الخليفة كالنديم له ، وذلك بعد انحلال الاحزاب ، فضعف الشعر السياسي حتى اصبح كنوع من الهجاء يقوله الشاعر

متقياً ، عند سنوح الفرصة .

الغزل : اما الغزل العذري ، فامحى الا قليلا لأن العفة والطهارة لم تكونا من مميزات هذا العصر ، فالجواري والغلمان كانت تباع في الاسواق بيع السلع .

اما الغزل العادي، فتطور ولم يعد صورة صادقة للعاطفة وميل النفس،وبقي محفوظاً كفنّ موروث لا ينبغي ان يضيع .

بدعة جديدة : وظهرت بدعة جديدة في الغزل ، استنبطها فساد البيئة وكثرة الرقيق ، وهذا الغزل هو المعروف بغزل المذكر ، وهو وصمة في جبين أدبنا .

الهجاء : اما الهجاء فازداد قبحاً واقذاعاً وفحشاً،يبحث فيه عن السيئات.

المدح : واما المدح فتجاوزت فيه المبالغة الحد ، وبعد فيه الشعراء عن الاعتدال الذي هو من مميزات الطبع العربي الخالص ، فانحط به بعض الشعراء واتخذوه اداة لكسبهم بلا حياء ولا كرامة .

المجون : واشد الشعر نمواً في هذا العصر ، شعر المجون ووصف الخمر ، وهو ما نسميه بشعر القصور . فتهالك الناس عليه لفساد اخلاقهم وانحلال روابطهم الاجتماعية ، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية واستئثارهن بمكان الحرائر،واتقانهن العربية وآدابها ، وبروزهن للناس ، واشتراكهن في حياة العبث واللهو جهراً ، وتسلط الرقيق من غلمان الترك والروم على نفوس الزعماء والسادة ، حتى صاروا يدبرون القصور والثروة كما يرغبون .

وساعد ايضاً على اشتداد هذا النوع من الشعر ، ظهور المذاهب الفلسفية والمقالات الدينية وتسلط الشك على النفوس .

الزهد : وظهر فن جديد ، وهو الزهد ، دعا اليه اتصال العرب بالفرس وانتشار الحكمة الفلسفية الفارسية والهندية . ظهر في شعر ابي العتاهية ، كما ظهر في نثر ابن المقفع .

الشعر التعليمي : وظهر نوع جديد من الشعر هو الشعر التعليمي ، اي نظم فنون العلم شعراً ليسهل حفظها ، كنظم كليلة ودمنة ، وقصائد في الفقه .

الوصف : أما الشعر الوصفي فتبدل واشتد ، فبعد ان كان البدوي يصف ناقته وخيله وصحراءه ، وصفوا الحضارة وقصورهـــا والبساتين والخمارات والكؤوس والصيد ، فوصفوا هذا الاخير كما كان يفعل الفِرْس ، فـدققوا في وصف الكلاب والجوارح ، وكان الرجز اداة لهذا الوصف .

وشعراء هذا العصر طبقات يتبع بعضها بعضاً ، ولكل طبقة زعماء. وزعماء أولى هذه الطبقات ثلاثـــة : بشار بن برد ، والسيد الِحمْيَري ، ومروان بن أبي حَفْصة .

بشار بن برد

نسبه : بشار بن برد بن يرجوخ ، كنيته أبو معاذ ، لقبه المرعث ، أبوه مولى امرأة عقيلية ، حرفة ابيه طيان . فبشار عربي عجمي ، من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، كثير التبرم بالناس لعماه ، متلون في ولائه ، يكره العرب ويحث الشعوب على كرههم ، ويتعصب لهم احياناً ويتشيع للعلويين. كان الناس يزدرونه حتى يخرج عن طوره ، ولولا خوفهم لسانه ما انفكوا عنه .

شخصيته : ضخم مجدور طويل جاحظ العينين يغشاهما لحم احمر ، فكان اقبح الناس منظرا وعمى وفيه يقول حماد عجرد :

واعمى يشبه القرد   اذا ما عمي القرد

لم ير الدنيا قط ، وقال والده انه لم ير مولوداً اعظم بركة منه .

كان متوقد الذهن ذكي القلب ، وقد زعم ان العمى يقوي الذكاء فيتوافر الحس وتذكو القريحة . قال الشعر ابن عشر سنوات ، وما بلغ الحلم حتى هابه الناس للسانه . هجا جريراً فلم يردّ جرير عليه .

زعامة الشعر : قلده اياها رجال عصره لاسباب : هجوه العلماء ، واتباع اسلوب البادية والفاظ ابنائها ، وتحضير الشعر ، وكثرة المعلمين عليه ، وغزله الرقيق الذي احبه الظرفاء والخالعون ورووه فهبت ريحه ، اضف الى ذلك ما لبشار من صنعة وفن .

قال الجاحظ : « كان بشار يدين بالرجعة ، ويكفّر الأمة ، ويقدّم النار على الطين حيث قال :

الأرض مظلمة والنـــار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار.»
وكان الأصمعي يشبهه بالنابغة والأعشى ويقول انه خاتمة الشعراء.

ادعاؤه: معتدّ بنفسه يرى فيهـــا كل ذكاء، يرى نفسه أشعر الناس وعلى الناس ان يقولوا ذلك ويعترفوا به. وقد قال عن نفسه: «من أين يأتيني الخطأ وقد نشأت في حجر ٨٠ شيخاً من بني عقيل الفصحاء، ونساؤهم أفصح منهم».
ومع هذا نرى لبشار شعراً ركيكاً مبتذلاً لا يقوله فصحاء العرب، كقوله:

ربابة ربــة البيت   تصب الخلّ في الزيت
لها عشر دجاجات   وديك حسن الصوت

وقوله:

انما عظم سليمى قصب   قصب السكر لا عظم الجمل
فاذا ادنيت منها بصلاً   غلب المسك على ريح البصل

وقوله: «غنني للقريض يا ابن قنان». فقـــالوا له: «منو ابن قنان؟» فقال: «ألكم قبله دين أو ثار؟»
وقوله: «وهلال السماء في البردانـ». فسئل: «أين البردان؟» فقال: «هو بيت في بيتي».
وقوله، بلسان حماره: «سيدي خذ بي أتاناً   عند باب الاصبهاني
ولها خـــد أثيل   مثل خد الشيفران
فسئل: «ما الشيفران؟» فقال: «هذا من غريب حماري، فاذا لقيتموه فاسألوه».

بشار والنحاة: انتقده الاخفش فهجاه، فاسترضاه الأخفش فسكت عنه وصار يحتج بشعره، وكذلك فعل بسيبويه.

استهتاره: كان مستهتراً في شعره خالعاً فاحشاً فنهاه الخليفة المهـدي عن الغزل والتشبب بالنساء واغرائهن على الفحشاء. وكان قليل الدين لا يصلي وقـد امتحن ذلك أصحابه بوضعهم تراباً على ثيابه فيرونه لم يقم. وقد سئل في ذلك فقال: الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة.

نباهته : جاءه رجل يسأله عن بيت فجعل يفهمه فلم يفهم، فقاده إلى السبيل حتى أوصله وقال له هذا البيت :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم   قد ضل من كانت العميان تهديه

صدقه : كان بشار يقول الشعر عن غير عاطفة . فهو غير صادق في لهجته . قال ابن الصياح : دخلت على بشار وهو منبطح في دهليزه كأنه جاموس، فقلت له : يا أبا معاذ من القائل :

في حلتي جسم فتى ناحل   لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا . قلت : ما الذي حملك على هذا الكذب ؟ وانني لارى ان لو بعث الله الرياح الاربع التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من مدخلك . وقس على هذا من شعر بشار .

كيف مات : هجا المهدي لأنه لم يجزه، ولانه لا يرعى حرمة محسن أو مسيء بل يهجو اياً كان بسبب وبلا سبب ، وكان هجا المهدي ووزيره يعقوب بن داود معاً بقوله :

بني أمية هبوا طال نومكم   ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا   خليفة الله بين الزقّ والعود

فلما أخبره يعقوب بالهجاء ، انحدر إلى البصرة للنظر في أمرها فسمع آذاناً في وقت ضحى النهار ، فقال : انظروا ما هذا الآذان ، فقالوا له : بشار يؤذن وهو سكران ، فأمر بجلده ٧٠ سوطاً ، فكان اذا أوجعه السوط قال : حسّ ، فقالوا : يا امير المؤمنين أنظر إلى زندقته فانه لا يسمّي ، فقال بشار : ويحكم أطعام هو فأسمّي عليه . فلما ضرب ٧٠ سوطاً بان الموت فيه ، فالقي في سفينة حتى مات ، ثم رمي في البطيحة .

بغض الناس له : فلما علم أهل البصرة بموته هنأ بعضهم بعضاً . وفي حياته كان السعيد منهم من لا يعرف بشاراً . ولم يمش في جنازته غير جارية له . وفيه يقول شاعر من قصيدة :

بل زعموا ان أهله فرحاً   لما أتاهم نعيه سجدوا

سخريته : أنشد المهدي قصيدة ، وكان خال المهدي ضعيف العقل فأقبل على بشار يسأله : ما صناعتك ؟ فأجابه بشار : أثقب اللؤلؤ . فضحك المهدي وقال له : أتتنادر على خالي ؟ فقال بشار : وماذا أصنع به ؟ ألم يرني رجلاً أعمى ؟

رمحت رجلاً بغلة ، فقال الحمد لله شكراً . فقال له بشار : استزده يزدكَ .

ومرّ قوم يحملون جنازة مسرعين بها ، فقال بشار : ما لهم مسرعين ، أتراهم سرقوه ؟

انفق غلامه عشرة دراهم على جلاء مرآته ، فتعجب بشار من جلاء مرآة لأعمى . فقال : لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ، ما دفعت أجرة من يجلوها ١٠ دراهم .

سرعة خاطر : قالت له زوجته : لماذا يهابك الناس على قبح وجهك ؟ فقال : ليس من حسنه يُهاب الاسد .

كان جالساً أمام بيته وبيده مخصرة وامامه طبق تفاح ، فحاول أحدهم سرقته ، فضربه بالقضيب . فقال له الرجل : اوَانت أعمى ؟ فاجابه : يا أحمق ، واين الحس ؟

نفسيته: مجان مازح وانما مزحه مؤلم . كان في السبعين كأنه في ريعان صباه ، والدليل آذانه وهو سكران . كان خليعاً شهوانياً ، شَرِهاً في الملذات ، هائج العاطفة ابداً ، تدل على ذلك اشعاره . جريء جسور لا يستحي ، (الحيا في النظر) غير صبور وغير متقن لعمله . والدليل على ذلك ادخاله في شعره الفاظاً لا أصل لها . جبان ثقيل الظل يخاف على روحه ايما خوف لانانيته وحبه لذاته .

كان يهجو ليعيش ، لا لانه يحب الهجاء ، وهجاؤه مجموعة عيوب يضعها فيمن ينقم عليه أو يطمع بماله .

شعره : وصف وقائع حال تأتي عفواً بلا تفكير وكد ذهن . غزله وصف اشياء ظاهرة كالألوان والمحسوسات وبعض الحركات . لا يفهم من الحب الا المادة فقط ، فغزله لا يمثل عاطفة بل التهالك على اللذات والاستقتال في سبيلها . غزير المادة ، غير متكلف في الفاظه ومعانيه . شعره كله ترغيب في الفجور ، كل هجائه

فحش ، ونكتته تضحك وتؤلم معاً .

جمع جزالة العرب إلى فن المحدثين ، ليّن اذا تغزل أو هزل ، متين اذامدح، مدحه لا يخلو من هجاء .

نعجة بشار

أهدى اليه صديق من بني منقر أضحية هزيلة فقال :

وهبتَ لنا يا فتى منقر وعجلٍ وأكرمهم أوّلا
عجوزاً قد أوردها عمرها وأسكنها الدهرُ دار البلى
سلوحاً توهمت ان الرعاء سقوها ليسهلها الحنظلا
وضعت يميني على ظهرها فخلتُ حراقفها الجندلا
وأهوت شمالي لعرقوبها فخلت عراقيبها مغزلا
وقلّبت أليتها بعد ذا فشبّهت عصعصها منجلا
فقلتُ أبيع فلا مشترى أرجّي لديها ولا مأكلا
أم اشوي وأطبخ من لحمها وأطيب من ذاك مضغ السلا
إذا ما أُمرّتْ على مجلس من العجب سبّح أو هللا
رأوا آيةً خلفَها سائق يحثُّ وان هرولت هرولا
وكنتَ أمرتَ بها ضخمة بشحم ولحم قد استكملا
ولكن (روْحاً) عدا طوره وما كنت أحسب أن يفعلا
فجاءتك حتى ترى حالها فتعلم اني بها مبتلى
سألتك لحماً لصبياننا فقد زدتني فيهم عيّلا
فخذها وأنت بها محسنٌ وما زلت بي محسناً مجملا

منتخبات بشار بن برد

سخرية وهجو

ربما يقل الجليس وان كان　　خفيفاً في كفة الميزان
كيف لاتحمل الامانة ارض　　حملت فوقها أبا سفيان

قال في مصلوب أخذ في خزية فصلب :

لعمري لئن أصبحت فوق مشذب　　طويل تعفيك الرياح من القطر
فقد عشت مبسوط اليدين مبرزاً　　وعوفيت عند الموت من ضغطة القبر
وافلت من ضيق التراب وغمه　　ولم تفقد الدنيا فهل لك من شكر

ومن وصفه :

ودعجاء المحاجر من معد　　كأن حديثها ثمر الجنان
اذا قامت لحاجتها تثنت　　كأن عظامها من خيزران

وقوله :

ابى طلل بالجزع ان يتكلما　　وماذا عليه لو اجاب متيما
وبالجزع آثار حسانٌ وباللوى　　ملاعب لا يعرفن الا توهما
ويومٍ كتنور الاماء سجرته　　وأوقدت فيه الجزل حتى تضرما

ومنها :

اذا ما غضبنا غضبة مضرية　　هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

اذا مـــا أعرنا سيداً في قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلمـــا
خلقنـــا سماءً فوقنا بنجومهـــا سيوفاً ونقعاً يقبضُ الطرف اقـــتما

وقوله :

نرجو غداً وغداً كحاملة في الحي لا يدرون ما تضع

وقوله :

ربما سرك البعيد واصلاك القريب النسب ناراً وعارا

وقوله في خياط أعور يدعى عمرواً ، وهذا القول من النوع الذي لا يُعرف أمدح هو أو هجاء :

خاط لي عمرو قبـــاء ليـــت عينيـــه سواء
قلت شعراً ليس يدرى امديح أم هجـــاء

وقوله :

زودينا يا عبد قبل الفراق بتلاق ، وكيف لي بالتلاقي
انا والله اشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشاق

وقوله :

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً اوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبـــه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

إلى قوله :

وليل كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطي حمر تعـالبه
غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنـــا والظل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ويدرك من نجى الفرار مثالبه

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
اذا الملك الجبار صعر خده ... مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

وقوله :

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... بحزم نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فريش الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف امسك الغل اختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
اذا كنت فرداً هرك القوم مقبلا ... وان كنت اوفى لم تفز بالعزائم

وقوله :

ان عمراً فاعرفوه ... عربي من زجاج
مظلم النسبة لا ... يعرف إلّا بالسراج

وقوله :

دينار آل سليمان ودرهمهم ... كبابليين حفا بالعفاريت
لا يبصران ولا يرجى لقاؤهما ... كما سمعت بهاروت وماروت

ومن غزله :

م يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيف ألمْ
نفسّي يا عبد عني واعلمي ... انني يا عبد من لحم ودم
ان في بردي جسماً ناحلا ... لو توكأت عليه لانهدم
ختم الله لكم في عنقي ... موضع الخاتم من أهل الذمم

وقوله :

ونبئت قوماً بهم جنة ... يقولون من ذا وكنت العلم
الا ايها السائلي جاهلا ... ليعرفني انا انف الكرم
نمت في الكرام بني عامر ... فروعي واصلي قريش العجم
واني لاغني مقام الفتى ... واصبي الفتاة فلا تعتصم

فقل للخليفة ان جئته   نصيحا ولا خير في المتهم
اذا ايقظتك صروف العدى   فنبه لها عمرا ثم نَم
فتى لا يبيت على دمنة   ولا يشرب الماء الا بدم
اذا ما غزا بشرت طيره   بفخ وبشرنا بالنعم
دعاني الى عمر جوده   وقول العشيرة بحر خصم
ولولا الذي خبروا لم اكن   لامدح ريحانة قبل شم

وقوله :

ابا خالد ما زلت سابح غمرة   صغيراً فلما شبت خيمت في الشاطي
كسنور عبدالله بيع بدرهم   صغيراً فلما شب بيع بقيراط

وقوله :

أبا عمر ما في طلابيك حاجة   ولا في الذي منيتنا ثم اضجرا
وعدت فلم تصدق وقلت غدا غدا   كما وعد الكمون شرباً مؤخراً

ومن قوله :

افنيت عمري ، وتقضّى الشباب   بين الحميا والجواري الاواب
والان شفعت أمام الهدى   وربما طبت لحب وطاب
لهوت حتى راعني داعيا   صوت أمير المؤمنين المجاب
لبيك لبيك هجرت الصبا   ونام عذولي ومات العتاب
ابصرت رشدي وتركت المنى   وربما ذلت لهن الرقاب

وقوله :

وبيضاء يضحك ماء الشباب   في وجهها لك اذ تبتسم
جارية خلقت وحدها   كأن النساء لديها خدم
حسان العذارى اذا جئنها   اطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن اركانها   كما يمسح الحجر المستلم
ظميت اليها فلم تسقني   برى ، ولم تشفني من سقم

السيد الحميري

نشأ في العصر الأموي ، وقـال الشعر وأجاده في العصر العباسي . شيعي المذهب . قال أكثر شعره في الإمام علي وبنية ، ومدح العباسيين وأخذ جوائزهم وكان يجاهر بحضرة العباسيين بحب علي وبنيه ، بيد انه يكره اعداءهم الامويين ويفضلهم عليهم ويستبشر بعهدهم .

صفاته : كان ضعيف العقل ، مضطرب النفس ، شعره سهل ، ومعانيه منها الجيد والمبتذل ، مات عام ١٧٣ .

مروان بن ابي حفصة

فارسي الأصل ، نشأ في العصر الأموي ، إلا أن تفوقه في الشعر لم يظهر إلا أيام العباسيين . لم يترك اليامة التي نشأ فيها ، فظل بعيداً عن التأثير الفارسي ، ولذلك تظهر في شعره الرصانة والمتانة ، فهو جزل اللفظ صلب المعنى كشعراء المسلمين الكبار .

مدح في أول عهده معن بن زائدة ، فأجزل عطاءه .

هدفه : ولما طار صيته ، ذهب إلى العراق ومدح الخلفاء العباسيين ، ووجه هذا المدح نحو الدفاع عن الخلافة العباسية ، وانكار حق العلويين فيها ، فاجزلوا له العطاء، وكانوا يشترون منه البيت بألف درهم، وقد كان يجوّد شعره ويبطىء في قوله ، وأشهر بيت قاله في الدفاع عن حق العباسيين بالخلافة :

أنـّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمـام

لقد كان تأثير الفرس في هؤلاء قوياً وخصوصاً بشار بن برد والحِميَري . أما تأثرهم باليونان فكان ضئيلاً بالنسبة للطبقة التي جاءت بعدهم، وزعماؤها أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد .

ابو نواس

هو الحسن بن هانىء ، تلميذ والبة الحباب .

كنيته : الاولى ابو علي ، انما قال له خلف الاحمر الذي كان شديد الميـــل اليه : انت من اشراف اليمن فتكنّ بالذوين ، فتكنى بذي نواس .

تربيته : لسوء حظ الادب ، لم ينشأ نشأة صالحة ، بل ربي في كنف والبة وامثاله من الفسّاق ، فكان من شخصيته ما ارانا اياها أدبه وشعره واخباره .

شخصيته : جميل الصورة ، خفيف الروح ، فصيح اللسان ، هازل ، سكير ، مستخفّ في الدين .

لغته : قال الجاحظ : ما رأيت احداً أعلم باللغة من ابي نواس ، ولا افصح لهجة منه مع حلاوة ومجانبة استكراه .

هو وبشار : قال الجاحظ : « بشار وابو نواس معناهما واحد والعـــدة اثنان » ، ولكن كان بشار قليل الجلد لا ينقّح ، وابو نواس كثير التنقيح .

اثره في الادب : احسن بالخروج على خطة الشعر الجاهلي ، وترك البـكاء على الاطلال ، وجعل الشعر شعراً مصدره الشعور ، وأساء إلى الادب العربي بنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر ، وتلك جناية ووصمة لا تغتفران له .

امتيازه : تفوّق بوصف الخمرة والمجون والغزل والمداعبة ، غرامية او غير غرامية .

الخمرة : وصفها كثيرون في كل العصور ، ففي الجاهلية وصفها وأجاد عدي

ابن زيد العبادي ، وكانت ابياته تغنى للوليد بن يزيد ، وأجاد وصفها الأعشى والاخطل .

اما ابو نواس فلم يصفها وصفاً سبق فيه من تقدمه وحسب بل قدسها تقديساً :

اثن على الخمر بآلائها   وسمها احسن اسمائها

شعوبيته : عد النقاد له ما سنرويه لك ، خروجاً على الاسلوب القديم ، ثم عادوا فعدوه « شعوبية » . اما الحقيقة فهي ان ابا نواس مستهزىء بكل شيء ، فاسمع ما يقول :

عاج الشقي على رسم يسائله   وعجت اسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد   لا درّ درك قل لي من بنو اسد
ومن تميم ومن قيس ولفّهما   ليس الاعاريب عند الله من احد
لا خفّ دمع الذي يبكي على حجر   ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

تهتكه : كان خليعاً متهتكاً لا يبالي بحدود الادب والدين ولا يراعي شيئاً من هذا ، قال :

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر   ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر
فعيش الفتى في سكرة اثر سكرة   فان طال هذا عنده قصر الدهر
فبح باسم من اهوى ودعني من الكنى   فلا خير في اللذات من دونها ستر
ولا خير في فتك بدون مجانة   ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وقوله في الخمرة :

عتقت في الدّنّ حتى   هي في رقة ديني

ومن قوله يخاطب أحمد بن أبي صالح :

ناديته بعدما مال النجوم وقد   صاح الدجاج ببشرى الصبح مرّات
فقلت والليل يجلوه الصباح كما   يجلو التبسم عن غر الثنيّاتِ
يا احمد المرتجى من كل نائبة   قم سيدي نعص جبار السماوات

من مجونهم : لم يبرع ابو نواس هذه البراعة الا لأنه صادف ارضاً خصبة وندماء لا ينفكون عن معاقرة الخمرة . ففي ذات ليلة قالوا اين نجلس الليلة ؟ فقال ابو نواس : فلتكن الدعوة شعراً ، والجيد منا تقبل دعوته . فنظموا في ذلك ، وكانوا ستة ، فاجادوا جميعاً ، فكانت الجلسة في المقهى .

ومن مجون ابي نواس ، ما رواه ، ابن منظور ، قال : كان ابو نواس مع المصلين في المسجد فاذا بالامام يقول : قل يا أيها الكافرون . . فصاح ابو نواس من وراء : لبيك ، فاخرج .

رجاؤه : كان رجاؤه بعفو الله عظيماً كما يقولون ، ولذلك اكثر من المعاصي معتمداً على عفو الله ، حتى ختم همزيته المشهورة بهذين البيتين وهما موجهان الى « النظام » زعيم المعتزلة الذي كان يقول : لا يغفر الله لاصحاب الكبائر :

قولوا لمن يدعي بالعلم فلسفة ً   عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء
لا تحظر العفو ان كنت امرءاً حرجاً   فان حظركه بالدين ازراء

مدحه : كان عربياً خالصاً اذا مدح أو رثى . وقد مدح الامين وكان نديمه ، ومدح البرامكة .

هجوه : وقد هجا بظرف فقال :

خبز المفضل مكتوب عليه ألا   لا بارك الله في ضيف اذا شبعا

وقال :

خان عهدي عمرو وما خنت عهده   وجفاني وما تغيرت بعده
ليس لي مذ حييت ذنب اليه   غير اني يوماً تغديت عنده

وقال :

ابو جعفر رجل عالم   بما يصلح المعدة الفاسده
تخوف تخمة اضيافه   فعودهم اكلة واحده

مع الجارية جنان : أحب هذه الانثى حباً صادقاً، وقال فيها شعراً كثيراً. ويروون انه ذهب فحج عندما حجت جنان .

وفي ذلك يقول :

حججت وقلت قد حجت جنان فيجمعني واياها المسير

زهده : ويقال انه زهد في آخر عمره . ومما قاله في الزهد :

من اتقى الله فذاك الذي سِيقَ اليه المتجر الرابح
شمّر فما في الدين اغلوطة ورح لما انت له رائح

ما قيل فيه : قال ابو تمام : ابو نواس ومسلم بن الوليد ، اللاتِ والعزّى وأنا اعبدهما .

قال النظام : كأنما جمع الكلام له فاختار احسنه .

قال ابرهيم بن العباس : اذا رأيتُ الرجل يحفظ شعر ابي نواس ، علمتُ ان ذلك عنوان أدبه .

قال العتبي : عندي اشعر الناس ابو نواس ، وعند الناس امرؤ القيس .

قال ابن السكيت : اروِ من المحدثين لابي نواس فحسبك .

خلاصة : متقن اللغة قولاً وعملاً ، عربي خالص اذا جد ، ظريف اذا هزل . اخذ عن العرب قوافيهم ولفظهم المتين الجزل . اخذ عن الفرس اوصافهم المادية للحياة المتحضرة . اخذ عن اليونان معانيهم الدقيقة واصطلاحاتهم الفلسفية .

اشد شعراء عصره ثورة على القديم . يفضل الحضارة على البداوة .

يريد الشعر حضرياً بالفاظه ومعانيه واغراضه .

كان فاسقاً عاصياً لله معتمداً على عفوه ومغفرته .

وقصارى الكلام ، كان شعره صورة لعصره تمثل الحياة فيه .

ابو العتاهية

حياته : ابو اسحق اسماعيل بن كيسان ، ولقبه ابو العتاهية . ولد بالانبار وكان يبيع الجرار بالكوفة . كان في شبابه عشيراً للخالعين مستهتراً ، ثم ظهرت مقدرته الشعرية ، فقال الشعر ، وطرق ابواب الخلفاء ، ونال جوائز المهدي ، وأحب جارية للخليفة اسمها عُتبة ، فخاب في حبه وتنسك ، وصار يقول الشعر في الزهد ويحث على ترك الدنيا وملاذها .

ولكنه ظل محباً للمال ، وعلى زهده بقي يمدح الخليفة ورجال دولته . ثم امتنع عن الشعر ، فحبسه الرشيد لانه لم يلبّ طلبه ، وما اطلقه حتى قال الشعر الذي طلبه منه .

وادرك المأمون وكان من شعرائه وبطانته ينال جوائزه .

آثاره : ديوانه وليس فيه كل شعره .

اغراض شعره : غزل ومدح ورثاء وهجاء وعتاب واستعطاف ، ثم ترك هذه كلها ووقف شعره على الزهد والوعظ والحكمة والمثل .

زهده : روي انه كان يلبس المسح ويقضي الليالي ساهراً مصلياً ، ثم يدع المسح ويعود سيرته الاولى لاهياً . اما مذهبه في زهدياته فمواعظ ادبية ونظرات في الحياة والموت :

الدنيا زائلة فلنحتقرها ، ولنقنع بما يقيتنا . وزهدياته تخاطب العقل لا العاطفة والقلب .

زهديات ابي نواس صادرة من قلب محترق طافح بحب الحياة ، اما زهديات

ابي العتاهية فكثيرة التكلف ، صادرة عن العقل ، وقد اشتهرت بما فيهـا من حكمة جامعة

قريحته : سيالة ، وقد قال عن نفسه : لو اردت ان اتكلم شعراً لتكلمت . ولكن هذه الدعوى ليست بذات بال فالشعر غير النظم .

وهو لو قال نظماً لـكان اصدق .

ساحة الملوك : ولاجل كثرة الساقط في شعره ، قال احد النقاد القدماء : شعره ساحة الملوك ، في كناستها التراب والذهب .

فنه : شعره سهل جداً ، ولولا الوزن والقافية لكاد ان يكون نثراً . وله في فنه سيرة بخلاف شعراء عصره الخلعاء ، وهذا ما جعل له هذه الشهرة . ولكن لابي العتاهية وثبات لا يستهان بها ، الا انها قليلة بالنسبة لشعره الكثير .

ابو تمام

نسبه : حبيب بن أوس الطائي ، نشأ بجاسم وهي قرية من ناحية منبج في جوار حلب . كان يخدم اباه الحيّاك ، ثم ذهب إلى مصر وصار يسقي الماء في جامع عمر . لم يعمّر كثيراً ، وقد توّفي بالموصل وقبره فيها خارج باب الميدان على حافة الخندق .

صفاته : شاعر مطبوع ، فطن ذكي ، دقيق المعاني ، سبق الشعراء إلى المطابقة . السليم من شعره لا يعلق به احد ، ورديئه رذل جداً .

الرأي فيه : مريدوه يفضلونه على كل سابق ولاحق ، وكارهوه يحطون من قدره جداً ، وينسبون اليه سرقة شعر غيره .

دعبل : كان من ألد اعدائه ، ويقول : ان ابا تمام كان متبعاً معانيه يسرقها . روى له محمد بن صابر الازدي من شعر ابي تمام وقال له : كيف تراه يا دعبل ؟ فقال : احسن من عافية بعد يأس . فاخبره انه لابي تمام فأجاب : ولعله سرقه .

ابراهيم بن العباس : كان يقول له : امراء الكلام رعية لاحسانك .
وقال فيه ايضاً : ابو تمام اخترم ولم يستمتع بخاطره .

روايتان متناقضتان : روى صاحب الاغاني أن أبا تمام مدح الأمير عبدالله ابن ظاهر في خراسان بقصيدة يائية هائية ، فنثر عليه الأمير الف دينار ، فلم يلتقط منها ابو تمام شيئا ، بل تركها للخدم . وروي ايضاً أنه أنشد أبا دلف القاسم بن عيسى قصيدة يائية ايضاً فاعطاه خمسين الف درهم واعتذر له .

الحسن بن رجاء : انشده أبو تمام قصيدته اللامية فسمعها واقفاً ، وأحسن صلته على بخله .

معانيه : كان يأخذ كثيراً منها مما يسمعه ، ومنها البيت المشهور :

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً   ان السماء ترجّى حين تحتجب

اخذه من مخنث يعاتب صديقاً له .

واتهمه دعبل انه أخذ قصيدته التي مطلعها : « كذا فليجل الخطب » من مكنف ابي سلمى قالها في رثاء زفافة العبسي .

محفوظاته : كثيرة جداً ، يقال انه كان ينشد اربعة آلاف ارجوزة للعرب غير القصائد والمقطعات .

كتاب الحماسة: حبسته الثلوج في همذان عند رجوعه من عند الأمير عبدالله بن طاهر من خراسان ، فنزل على ابي الوفاء بن سلامة الذي كان له خزانة كتب نادره ، فطالع فيها كثيراً وجمع كتابه « الحماسة » الذي قيل في ابي تمام بسببه : « انه في انتقاء شعر الحماسة أشعر منه في شعره » .

شعره : يفضل تجويد المعنى على تسهيل العبارة . ولما رأى السلاسة تنقصه عمد الى الجناس والمطابقة والاستعارة ، فأثر ذلك في شعره وكان ظاهر التكلف .

ديوانه : ديوانه جمعه ابو بكر الطولي مرتباً على الحروف الهجائية ، وجمعه علي بن حمزة الأصبهاني مرتباً على الأنواع .

هو والبحتري – قال عنه : مدّاحة نواحة . وكان يقول ايضاً : جيد ابي تمام خير من جيدي ورديئي خير من رديئه ، أرضي تنخفض عند سمائه ، والله ما أكلت خبزاً الا به . (لانه استاذه) .

ذاكرته : غريبة جداً . قال البحتري : انشدت سعيد بن اسلم الطائي قصيدتي : « أأفاق صب في الهوى فأفيقا » وكان عنده رجل لا أعرفه ، فلما انتهيت ، قال لي ذلك الرجل: اما تستحي ان تنتحل شعري وتنشده بحضوري؟ وانشد القصيدة برمتها ، فتغير وجه سعيد وخرجتُ من عنده كاسف البال .

وبينا انا كذلك اذا برجل يدعوني ضاحكاً ، فاذا هو ابو تمام فقال : الشعر لك وانما هذه عادتي احفظ القصيدة من مرة .

المتمثل به من شعره ١٥٠ بيتاً .

ومن قصائده المشهورة في المدح قوله في المعتصم : « هو البحر من اي النواحي الخ . » وفي هذه الابيات يلتقي بزهير .

بائيته المشهورة : قالها بالمناسبة الآتية : زحف توفيل بن مخائيل ملك الروم على البلاد الاسلامية ، حتى بلغ زبرطة ، مولد المعتصم ، واغار على ملطية وغيرها ، فقتل وسبى كثيرين . ومن جملة السبايا كانت امرأة هاشمية لطمها روميٌّ على وجهها ، فصاحت : « وامعتصماه » . فلما بلغ المعتصم الخبر كانت بيده كأس فطرح الكأس وصاح لبيك لبيك . ثم جهز جيشاً عرمرماً زحف به على بلاد الروم حتى بلغ عمّورية ، فحاصرها ورماها بالمنجنيق ودخلها وقتل نحو ٩٠ الفا منها .

وهنا لا بد من هذه الحكاية ، فنوردها ملخصة جدا ، قالوا :

عندما طال الحصار على عمورية ، جمع المعتصم المنجمين فقالوا : انها لا تفتح الا في زمن نضج التين والعنب . وظهر في ذلك العام نجم مذنَّب تقوّل المنجمون فيه ، وزعموا مزاعم كثيرة . اما عمورية ففتحت قبل الزمان الذي حدده المنجمون ، فقال ابو تمام قصيدته الرائعة ، وفيها ردّ على المنجمين وغيرهم. واليك منها ما يشير إلى الحوادث :

السيف اصدق انباءً من الكتبِ	في حده الحد بين الجد واللعبِ
والعلم في شهب الأرماح لامعة	بين الخميسين لا في السبعة الشهب
اين الرواية بل اين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
عجائباً زعموا الأيام مجفلة	عنهن في صفر الاصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة	اذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة	ما كان منقلباً او غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة	ما دار في فلك منها وفي قطب

لبيت صوتاً زبرطيـــاً هرقت له　　كأس الكرى ورضاب الخرّد العرب
اجبته معلنـــاً بالسيف منصلتاً　　ولو اجبت بغير السيف لم تجب
تسعون الفاً كآساد الشرى نضجت　　جلودهم قبـل نضج التين والعنب

إلى ان يقول :

فبين ايامك اللائي نصرت بهـــا　　وبـــين ايام بدر اقرب النسب
ابقت بني الاصفر المصفر كاسمهم　　صفر الوجوه، وجلّت أوجه العرب

خلاصة : يعدونه رأس الطبقة الثالثة :

يدقق في المعاني كثيرا ، تارة يهمل الديباجة حتى تبتذل ، وطورا ينمقهـا حتى يظهر أثر التكلف فتعيب .

جعل الشعر صناعة كغيره من الصناعات التي يتكلفها البشر ، حتى لم يـترك للسجية اثرا . متأثر بالفلسفة اليونانية الاسلامية .

استغل حكمة اليونان في شعره، فزاد في ثروة اللغة العربية من حيث المعنى.

فتح طريق الحكمة والفلسفة للمتنبي والمعري ، اللذين فاقاه .

تعمده المعاني جعل كثيراً في شعره غامضاً ، وقلة اهتمامـــه جعل في شعره ابياتاً غير قليلة لا يسيغها العربي المعجب بفصاحة لغته .

تعمد الشعر الجاهلي فجاء بالغريب المكروه لفظاً وتركيبا .

يبدع في وصف المرئيات ، يشخّص كل شيء ، ومتى اتقدت عاطفته اختفى التكلف الذي يظهر في اكثر شعره . وقد اشتد الاعجاب به من اجل قصيدته الأولى : « السيف اصدق الخ . » التي سبق ذكر بعضها ، والثانيـــة في حرق الافشين ومطلعها : « الحق أبلج والسيوف عوارِ » .

ولعلّ أبا تمام هو أوّل الذين دخلوا موضوعهم رأساً ، بدون « مقبّلات » حتى قال فيه احدهم :

يا نـــبي الله في الشعر　　ويا عيسى ابن مـــريم
انت من أفصح خلق　　الله ما لم تتكـــلم

قال فيه هذا لانه كان يفأفىء ويتمتم متى تكلم .

منتخبات أبي تمام

في مدح خالد بن يزيد الشيباني :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد ... وعاد قتادا عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت انه ... وداع فراق لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعاً موردا ... من الدم يجري فوق خد مورد
هي البدر يغنيها تودّد وجهها ... الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكنني لم أحو وفراً مجمعا ... ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا ... الذ به الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة ... الى الناس اذ ليست عليهم بسرمد
حلفت برب البيض تدمع متونها ... ورب القنا المناذ والمتقصد
لقد كف سيف الصامتيّ محمد ... تباريح نار الصامتي محمد
رمى الله منه بابكا وجيوشه ... بقاصمة الاصلاب في كل مشهد
باسمح من صوب الغمام سماحة ... واشجع من صرف الزمان وانجد
رأى بابك منك التي طلعت له ... بنحس وللدين الحنيف باسعد

في المعتصم :

اجل ايها الربع الذي خف آهله ... لقد ادركت فيك النوى ما تحاله
وقفت واحشائي منازل للاسى ... به وهو قفر قد تعفت منازله
اسائلكم ما باله حكم البلى ... عليه ، والا فاتركوني اسائله

الى ان يقول :

بمعتصم بالله قد عصمت بـــه   عرى الدين والتفت عليه وسائله
فان باشر الاصحار فالبيض والقنا   قراه واحواض المنايا مناهـــله .
وان يبن حيطانا عليه فانما   اولئـك عقـّالاته لا معاقله
هو البحر من أي النواحي اتيته   فلجـّتـــه المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنــه   ثناها لقبض لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجـــاد بها فليتق الله سائله
اذا آملٌ ساماه قرطس في المنى   مواهبه حتى يؤمل آمله
عطاء لو استطاع الذي يستميحه   لأصبح ما بين الورى وهو عاذله
لهى تستثير القلب لولا اتصالهـــا   بحسن دفاع الله وَسوسَ سائـــله

في الحسن بن رجا :

يكفي وغـــاك فانني لك قال   ليست هوادي عزمتي بتـــوال
انا ذو عرفت فان عرتك جهالة   فـأنا المقيم قيـــامة العذال
عطفت ملامتهـــا على ابن ملمة   كالسيف جاب الصبر شخت الال
عـــادت له ايامـــه مسودة   حتى توهم انهـــن ليـــال
لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العـــالي
وتنظري خبب الركاب ينصها   محيي القريض الى مميت المـــال
قد قلت وهي تنال من عرض الفلا   بملاطس في الوخـد غير أوال
احوامل الأثقال انك في غـــد   بفناء احمل منـــك للأثقـال
لما وردنا ساحة الحسن انقضى   عنـــا تعجرف دولة الأمحال
اغلى عذارى الشعر ان مهورها   عنـــد الكريم اذا رخصن غوال
ترد الظنون بنا على تصديقها   ويحكم الآمـــال في الاموال
اضحى سمي ابيك فيك مصدقاً   بأجل فائدة وأصدق فـــال
ورأيتني فسألت نفسك سيبها   لي ثم جدت وما انتظرت سؤالي
كالغيث ليس له اريـــد نواله   او لم يرد يد من التهطـــال

وقال يرثي محمدا الطوسي :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمــال بعد محمــد واصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلّا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
الا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيــلة دما ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصر ان فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده اليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تخاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
فاثبت في مستنقع الروع رجله وقال لها من تحت اخمصك الحشر

دعبل الخزاعي

حياته : ابو علي دعبل بن علي الخزاعي ، ولد بالكوفة وأقام ببغداد . من متقدمي الشعراء ومجيديهم ، إلا انه كان هجّاء خبيث اللسان لم يسلم من لسانه أحد ، أحسن اليه أم أساء ، ولم يفلت منه خليفة أو وزير او نبيه شأن . فهو عندي الشاعر السياسي حقاً وان تقدمه ابن برد .

قضى حياته كلها شريداً هارباً خائفاً . وقد قال عن نفسه : انا احمل خشبتي منذ خمسين عاماً ، ولا اجد من يصلبني عليها .

اخلاقه : ناكر الجميل ، ينسى العطايا ، وقد هجا الرشيد على احسانه اليه . وزاد على كل هذا اللصوصية ، فكان يكمن للناس ليلاً ، وقد رصد صيرفياً يهودياً طمعاً بما معه ، فقتله ، ولم يكن معه غير ثلاث رمانات في خرقة ، فاشتد عليه الطلب فاختفى في الكوفة .

قيمته : مرّ الهجاء ، جرت بينه وبين الشاعر أبي اسعد المخزومي مهاجاة شديدة . والفرق بينه وبين بشار ، ان بشاراً كان اسفل لفظاً واضيق نفساً وأضعف تأثيراً ، إذ لم يكن لبشار حزب سياسي يحميه ويؤيده .

أما دعبل فكان يدافع عن العلويين ويحتمي عند أهل اليمن .

لغته : هي بالاجمال اصح من لغة بشار ، والكثيرين من معاصريه ، حتى فضّله البحتري على مسلم بن الوليد .

امثلة في هجائه : قال يهجو الرشيد لما مات وقبر في الريّ ، وهناك قبر الرضا من ولد علي بن ابي طالب :

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبر شرهم ، هـذا من العبر
ماينفع الرجس من قرب الزكي وما على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت له يداه ، فخذ ما شئت او فـذر

في المأمون :

ايسومني المأمون خطـة جاهل او مـا رأى بالامس رأس محمد
اني من القـوم الذين سيوفهم قتلت اخاك وشرّفتك بمقعـد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد

في المعتصم :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنـا عن ثامن لهم كتب
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة خيار اذا عـدوا ، وثامنهم كلب
واني لأعلي كلبهم عنك رفعـة لانـك ذو ذنب وليس له ذنب

وقال في قيام الواثق بالله وموت المعتصم :

الحمد لله لا صـبر ولا جـلدُ ولا عزاء اذا اهل البـلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احـد وآخر قـام لم يفرح به احـد

العصر العباسي الاول

النثر : تقدم النثر خطوات في آخر العصر الاموي على يد عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر بني امية .

كان الانشاء في العصر الاموي آلة الخطابة التي كان لها الشأن العظيم في سياسة الدولة . فلما ضعف أمر الخطابة في العباسيين بانحلال الاحزاب وضعف الحياة السياسية ، وتسلط العجم واعتماد الدولة على الاقناع بالسيف ، أصبحت بضاعة الخطابة كاسدة لا يلجأ اليها الا في الحفلات الكبرى . بيد انه حل محل النثر الخطابي نثر آخر ، وهو :

١ ــ نثر الدواوين الذي يصدر عن الخلفاء والوزراء .

٢ ــ نثر الترسل بين الناس ، الذي حل محل الشعر ، فصار يعبر فيه عن جميع أغراض الشعر .

٣ ــ نثر التأليف وقد شمل الموضوعات الادبية والوعظ والارشاد والعلم والسياسة وكل فن .

٤ ــ النثر الذي عُبّر عنه بـ « الادب الوصفي » ، وبه تناولوا الشعر والنثر القديمين بالنقد .

وكما تنوع النثر تنوعت اساليب الكتّاب فيه . فمنهم من كان يوجز ، ومنهم من كان يطنب ، ومنهم من كان وسَطاً بين الإيجاز والاطناب ، ومنهم من كان ينمّق ويسجع ، ومنهم من كان يرسله على السجية .

وفي كل حال اصطبغت الرسائل بالصبغة المدنية الحضرية ، فسهل الانشاء

ولان فجاء منمقاً كالطراز الموشّى .

طاهر بن حسين : وممن اشتهروا بالرسائل : طاهر بن حسين . له مجموعة رسائل ضاعت ، الا رسالة واحدة كتبها لابنه عندما ولاه المأمون مصر ، فيها وصايا بجميع ما يحتاج اليه ديناً وخلقا وسياسة ، وهي مدونـة في مقدمة ابن خلدون .

اما اشهر من عرف في هذا العصر من الكتّاب فهو ابن المقفع .

ابن المقفع

نشأ أبوه المقفع ، واسمه دازويه ، في ولاء آل الاهتم ، وهم بيت فصحة ولسَن في الجاهلية ، فنشأ المقفع وابنه مستعربين فصيحين . كان المقفع عاملاً للخراج زمن يوسف بن عمر والي العراق ، فظهرت عليه خيانة في مال الدولة ، فضربه الأمير ضرباً تقفّعت منه يده، فسمي المقفع . أما ابنه روزبة «ابن المقفع» فنشأ في البصرة يتكسب ببضاعة أبيه ، فخدم في دواوين العراق ، آخر زمن بني أمية ، وجمع بين ثقافتي العرب والعجم .

قرأ آداب الفرس والهنود، وكتب الحكمة التي ترجمها كسرى أنوشروان من اليونانية ، فجعله كل هذا واحد زمانه .

اتصل في العصر العباسي بواليي البصرة والاهواز وكتب لهما ، وهما عمّا ابي جعفر المنصور .

وكان اذ ذاك لا يزال مجوسياً على دين زرادشت. فكتب وترجم لهما وللخليفة المنصور بعض كتب الادب وكتب الفلسفة المنقولة عن اليونانية ، ثم أسلم على أيديهما وسمي بعبدالله .

أما سبب موته فمختلف فيه . فمنهم من قال ان والي البصرة قتله لاتهامه بالزندقة والكيد للاسلام ، ومنهم من قال ان المنصور عبدالله بن علي خرج عليه فهزمته الجيوش فاستجار بأخويّ المنصور سليمان وعيسى. فطلبه المنصور منهما، فأبيا تسليمه الا بأمان خطي . فكلفهما المنصور ان يكتبا الأمان ليوقعه، فأمرا ابن المقفع ، فاحتاط في كتابة الأمان كثيراً حتى لا يجد فيه المنصور مخرجاً

للاخلال بعهده . فأغضب ذلك المنصور ، فأغرى بـه والي البصرة سفيان بن معاوية فقتله .

ولد ابن المقفع سنة ١٠٦ ومات في الأربعين .

كان ابن المقفع كثير الاستهزاء بهذا الوالي ، ويقولون ان هذا الوالي كان ذا أنف طويل وان ابن المقفع كان اذا دخل عليه قال : السلام عليكما ، وهـذه رواية لا تصدّق .

ثقافته : كان ابن المقفع نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة لقّحت بلقاح عربي ، فكان من هذا وذاك أدب جمّ ، فهو مدين في أكثر معانيه للفرس ، وفي اساليبه والفاظه للعربية . عاش في العصر العباسي عشر سنوات وشاهد ، كما شاهد غيره من الموالي ، اضطهاد العرب واحتقارهم لهم .

شخصيته : ابن المقفع قويّ في خلقه وعقله وعلمه ولسانه . كان نبيلاً كريماً يحافظ على الصداقة جداً ، ويوصي باختيار الاصدقاء ، يدفع نفسه الى المثـل الأعلى ، يرغب جداً في اصلاح الراعي والرعية ، متمسك بآداب اللياقة ، دقيق فيما يتطلبه الذوق .

وصفه الجاحظ فقال : « كان فارساً جواداً كريماً جميلاً » .

واسع الاطلاع ، متضلع من اللسانين العربي والفارسي ، نقل خير ما كتب باللغة الفهلوية ، غزير المعاني اذا كتب ، وليست كتابته جوفاء . يمعن في اختيار المعنى ثم يمعن في اختيار اللفظ .

قال محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة اذكى من الخليل ولا أجمع ، ولا كان في العجم اذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

قال جعفر بن يحيى : عبد الحميد وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمَر ، واحمد بن يوسف زهر .

تآليفه : الأدب الكبير والأدب الصغير ، اليتيمة ، رسالة الصحابة ، كليلة ودمنة .

اليتيمة والادَبان : ترجمة وتأليف ، جمع فيهـا المأثور عن ذوي العقول

الراجحة من كل الأمم .

اليتيمة : مفقودة ، وغلطاً اطلقوا اسم اليتيمة على الادب الكبير .

الادب الصغير : كلمات حكمية في الاخلاق اشبه بالمأثور من كلام علي . من أمثلته : أربعة اشياء لا يُستقل منهـا القليل : النـار والمرض والعدو والدّين . وبسبب هذا العدد قالوا : أسلوبه رياضي . ولكنــه غير مرتب ، توضع فيه الفكرة حين تسنح او ترد ، احياناً تسند ، مثل قوله: «قالت الحكماء ، وقال » ، واحياناً لا تسند .

الادب الكبير : كالأدب الصغير ، كلمات ولكن مجموعهـا أطول ، مرتبة غالباً. أهم ما جاء فيه موضوعان : **الكلام عن السلطان والولاة ومن يتصل بهما.** أجاد الكتابة في هذا الموضوع لأنه اتصل بالولاة فلاحظ مـا لاحظ ، اتصل بالخلاف بين المنصور وأعمامه ، وكان ركناً من أركانه ومحرراً لوقائعه ومستشاراً في أمره وقارناً لمثل هذه الأحداث في سير ملوك الفرس .

والموضوع الثاني منه : **في الصديق والصداقة** . وقد أجـاد أيضاً في هذا الموضوع لتأثره به خلقياً كما سبق . فهو يرى في الاصدقاء عمـاد الحياة ومرآة النفس ، ولا عجب ان احتاج الى الصديق الوفي وهو منقطع لا رحم له . شهد ديناً جديداً ، ودولة تسقط ودولة تقوم ، متصل بالخلفـاء والولاة ، نزّاع الى الاصلاح ، لا يـدري متى يفتكون به . لا يخفي النصيحة ولا يسكت عن ضعف ، يصف العلاج بلا حذر . فمن كان في مثل هذا الموقف يحتاج الى صديق يخلص له الارشاد .

فهذان الكتابان أثر من الثقافة الفارسية ، فيهما حكم كثيرة ونظم عديدة ، لا يخلوان من الثقافة اليونانية ولكنها ضعيفة الأثر فيهما .

رسالة الصحابة : ويعني بالصحابة الولاة والخلفاء . يرجح انه كتبهـا للمنصور ، وهي كتقرير في نقد نظام الحكم إذ ذاك ، ووجوه اصلاحه .

ذكر فيها اولاً غفلة الولاة وعجزهم عن القيام بالاصلاح ، ووصف الحـالة الاجتماعية بقوله : « وأمة إن أُخذت بالشدة حميت ، وإن أُخذت باللين طغت».

ثم ابتدأ بشرح حال الجند الذين لم يكن لهم نظام يتقيدون به . ونصح أمير المؤمنين ان يحول بين الجند وبين ادارة الشؤون المالية . وأشار بمراعاة الكفاءة بالقيادة وتعليم الجند الكتابة والتفقـّه بالدين ، ودفع رواتبهم في حينها ، ثم تقصّي احوال الجنود ومعرفة اخبارهم الخ .

وتعرّض لفوضى القضاء الذي لا يرجع لقانون معروف انما هو متروك لرأي القضاة واجتهادهم ، وبذلك تتناقض الأحكام حتى في بلدة واحدة . وارتأى ان ترفع المسائل التي يقع فيها الخلاف إلى أمير المؤمنين . وفي الكتاب تعطيف المنصور على أهل الشام لأن العباسيين نظروا اليهم كأعداء للدولة . وتكلم عن الحجاز واليمن واليمامة . وكانت موضع نقمة المنصور ، إذ خرجت عليه . وسأله ان يولي الصالحين من أهل بيته ، وان تسخو نفسه عن أموالها ، إذا لم يمدها بمال من عنده .

وختم هذا التقرير ، ببيان تأثير الخليفة اذا صلح ، لأن العامة لا تصلح إلا بصلاح الخاصة ، والخاصة لا تصلح إلا بصلاح الإمام .

كليلة ودمنة : أقدم كتاب خيالي أدبي في لغة العرب ، هندي الأصل ، عثر المستشرقون على أبواب كثيرة منه في كتب متفرقة . نقله الفرس الى لغتهم وزادوا عليه باب بعثة برزويه ، وباب ملك الجرذان ، (هذا ترجيح) . ويرجحون ان ابن المقفع نفسه زاد عليه باب عرض الكتاب ، وباب الفحص عن أمر دمنة ، وباب الناسك والضيف ، وباب البطة ومالك الحزين .

دفع ابن المقفع الى ترجمة هذا الكتاب ميله الى الاصلاح الاجتماعي ، كما رأينا في الادبين ورسالة الصحابة . ففي كتاب كليلة ودمنة يشرح بعض النواحي الاجتماعية شرحا وافيا . ينصح بعدم الاصغاء إلى الحاسد النمام ، والحذر من العدو ، والاعتماد على الصداقة ، ويحث الضعفاء على الاتحاد ليتغلبوا على القوي البطـّاش ، وينصح باستعمال الحيلة لبلوغ القصد .

عاش ابن المقفع في زمنٍ لم تكن الحرية متوافرة فيه ، وهو ميال للنقد ، ولا يستطيع نقد الخليفة بصراحة لانه نضج في زمان ابي جعفر المنصور الشديد

البأس والبطش والسريع إلى إعمال السيف يقطـــع به رأس كل مخالف . قتل كثيرين بالظنة ، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة . وكان ابن المقفع نفسه احد هذه الضحايا .

ولعل ابن المقفع رأى موقفه مع المنصور كموقف بيدبا مع دبشليم ، فوصف دبشليم الملك بما يتصف به المنصور من العتوّ والاستبداد بالرعية والاستهانة بها ، وان بيدبا الفيلسوف وعظه ورده الى العدل والانصاف .

لم يستطع ابن المقفع ان يصارح المنصور باكثر مماصارحه به في رسالةالصحابة خوفاً منه على رأسه فعمد إلى ترجمة كتاب كليلة ودمنة — وامثال هذه الكتب تظهر ايام الاستبداد ، كما فعل لافونتين .

ويظهر ما يرمي اليه ابن المقفع في مقدمة الكتاب ، اذ اخفى الغرض الرابع فقال عنه ما يأتي : « والغرض الرابع وهو الاقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف نفسه خاصة » . ويظهر بالاستنتاج ان هــذا الغرض هو النصح للخلفاء حتى لا يحيدوا عن طرق الصواب ، وتفتيح عين الرعيــة حتى يعرفوا الحق ويطالبــوا بتحقيقه . ولعل هذه النزعة كانت من اسباب الايعاز بقتله .

لم يترجم ابن المقفع الكتاب ترجمة حرفية ، بل عدّله ليتفق والذوق العربي الاسلامي ، وجعل فيه شيئا جديداً من روح الدين الجديد ، كمجازاة الله بالخير خيرا وذكر جهنم والاخلاص لله تعالى . وقد ظهرت زيادة ابن المقفع من الاطلاع على النسخة السريانية التي ترجمت سنــة ٥٧٠ م ووجدت في احــد اديار ماردين ونشرت سنة ١٨٧٦ م .

وعلى توالي العصور ، دخل على ترجمة ابن المقفع شيء كثير لان النسخ التي بين ايدينا تختلف عنها اختلافا كثيرا . وفي كتاب « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » لابن الهبّاريّة ، اختلاف في ترتيب الابواب ، وليس فيه باب الحمامة ومالك الحزين ، وسمى فيه ايلاذ وبلاذ وهيلار وبيلار .

تاثير الكتاب : لقد أثر هذا الكتاب في اللغة العربية جدا . فمنهم من نسج

على منوال لغته واسلوبه وعبارته ، ومنهم من حذا حذوه ، وكثيرون نظموه شعرا . ولعل اسلوب الف ليلة وليلة في تعليق القصص ببعضها قد أتى من هنا .

ناظموه : أبان اللاحقي ، ابن الهبّارية ، وله منظوم ثالث أكمله عبد المؤمن ابن الحسن الصاغاني .

مقلدوه : ابن الهبارية بكتاب « الصادح والباغم » ، وابن ظفر بكتاب « سلوان المطاع في عدوان الطباع » ، وابن عربشاه بكتاب « فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء » ، وترجم كتاب « مرزبان نامه » . واخوان الصفاء لهم في رسائلهم مناظرة بين الانسان والحيوان من لون كليلة ودمنة . ويظن جولد زيهر ان اسم اخوان الصفاء مقتبس من كتاب كليلة ودمنة ، لانه ورد في اول فصل « الحمامة المطوقة » .

فضل الكتاب : ادخاله القصص المفصلة على الادب العربي . للفرس والعرب فيه فضل المحسّن ، وللهند فيه فضل صاحب الفكرة وواضع الاساس .

زندقته : قال الجاحظ : « ابن المقفع ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون في دينهم » . وقال المهدي : « ما وجدت كتاب زندقة الا وأصله ابن المقفع » .

خلاصة : ان مؤونة ابن المقفع في كتبه من الثقافة الفارسية ، وقلّ فيها أثر الثقافة العربية الاسلامية ، لأنه غير متأثر بدين. فحكمه مستمدة من تجارب دنيوية حتى ما يتصل منها بالدين .

لا يعمد الى السجع الا ما جاء عفواً ، كلامه من السهل الممتنع . أديب مثقف ، فارسي النزعة ، مخلص لأصله ، نشر آداب أمته وسياستها وتاريخها . نبيل سام ، وقد جاءه هذا النبل والسمو عن طريق الفلسفة والعلم لا الدين . يصدق ، لان الصدق شرف ورفعة ، لا لان الدين يأمر به . رجل مَدَني ، لم يستند الى آية أو حديث ، أشبه بباسكال في أفكاره .

أسلوبه : جيد ، وان ظهرت فيه العجمة ، رصين القول شريف المعاني ، سهل

بيّن رشيق ، يختار الكلمة السهلة الصحيحة الفصيحة ، وربما فتش عنها . جمله خالية من أساليب التفنن في كتاب كليلة ودمنة ، أما أسلوبه في الأدبين فمنطقي ولذلك صعبت جملته .

أخذ شيئاً من اسلوب عبد الحميد . وقد اتّبع اسلوب ابن المقفع كثيرون حتى ظهر الجاحظ .

العلوم اللغوية

علم اللغة : هو البحث في ألفاظ اللغة من حيث وضعها وأصولها واشتقاقها ، وغايته وضع المعاجم ، فلم يتم الا في العصر العباسي الثالث ، غير أنهم انتبهوا اليه في أوائل الدولة الأموية فابتدأوا به ، وكان من أشهر علمائه الخليل .

الخليل : حليم وقور ، طاف في البلاد العربية فوقف على الفاظهم . استاذه ابو عمرو بن العلاء . كان الخليل زاهداً ، مات في خراسان قبل ان ينهي كتاب العين ، فأتمّه تلميذه الليث .

كتاب العين : انتقده كثيرون ، منهم بن مريد . وبقي معروفا حتى القرن الرابع عشر ، فضاع ولم يصلنا منه الا ما نقله سيبويه والسيوطي ، غير ان مختصر الزبيدي له موجود منه نسخة في برلين واسكرباد .

ومن كتبه : كتاب النغم ، وآلات الطرب ، وكتاب العروض .

قيمته : الخليل هو أول من ضبط اللغة ووزن الشعر. له فضل المستنبط لأنه مهد لأصحاب المعاجم والنحاة . وقد كان واسع العلم ، عنده من كل فنٍّ خبر .

علم النحو

النحو : خوف العرب من فساد اللغة واللفظ المؤدي الى فساد المعاني،دفعهم الى ضبط اعراب الكلمات وتصوير الحركات وتحسينها واعجامها ، ومن ذلك توصلوا الى وضع القواعد .

يقال انهم اتبعوا في ذلك السريان والكلدان في كتابتهم . ويرى رِنان ان كتب اليونان المعربة دفعت العرب الى استعمال قياس لغتهم .

ابو الأسود واضع الحركات بشكل النقط . أخذ طريقته عن الكلدان ، وهو أول من الف في النحو ، على نهج السريان ، وأول فصل وضعه « التعجب ».

قيمته : ان لم يستوعب النحو كله فقد أسس علماً كان شغل العلماء الشاغل ، في العصر الأول والثاني العباسيين . فانقسموا إلى مذهبين : البصري والكوفي ، وزادوا في المناقضات والتعليلات حتى صيّروا كل خطأٍ صوابا .

علماء البصرة أصح حجة وأشد تعقلاً بايراد البراهين . اما علماء الكوفة فمتعصبون لعصبية البدو ، وقد فازوا على البصريين لاسباب سياسية .

علماء البصرة : سيبويه ، وهو من أصل فارسي . لزم الخليل واخذ عنه . قصد بغداد وناظر الكسائي فيها ، إلا ان الخلفاء نصروا الكوفيين عليه ، فنفرَ منهم وعاد إلى بلاد الفرس ومات في قرية اسمها البيضاء .

الكتاب : هذا أثر سيبويه الخالد . قال فيه ابو عثمان المزني : من أراد ان يعمل كتاباً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحِ .

يقع الكتاب في ٨٢٠ فصلاً،في ألف صفحة. طبع في باريس بمجلدين مع شروح

ومقدمة بالافرنسية بعناية المستشرق داريمبورغ ، وطُبع في برلين ومصر .

الجزء الأول يحتوي على الكلم واقسامه والفاعل والمفعول الخ .

الجزء الثاني يبتدىء بما ينصرف وما لا ينصرف والنسبة والاضافة الخ . وفيه باب الوقف وشروطه ، والكلمات الفارسية الأصل .

قيمته : كان لكتابه أعظم أثر ، وهو أساس مؤلفات النحو من ذلك الزمان حتى يومنا هذا . واشتهر من علماء البصرة اليزيدي والاخفش .

علماء الكوفة – الكسائي : أشهر نحاة الكوفة . ولد فيها وخرج إلى البصرة فأخذ عن الخليل ، وقدم بغداد فاقامه الرشيد مؤدباً لابنه المأمون . فارتفعت منزلته عند الخلفاء وتعصبوا له ضد سيبويه ، وهو فارسي الأصل ايضاً . طاف البادية حتى قويت لغته .

آثاره : ألّف في النحو والقراءة والادب والنوادر ، ولم يصل الينا إلا رسالة في لحن العامة ، كتبها إجابة لطلب الرشيد .

قيمته : بانتصاره على سيبويه علا قدر الكوفيين .

ومن مشاهير علماء الكوفة : معاذ الهرّاء ، الفراء ، ابن السِكّيت .

ابن السكّيت : علّم ابن المتوكل « المعتز » ، ثم قتله المعتز لانه كان متعصباً للشيعة ، وأرسل إلى ابيه ديّته عشرة آلاف درهم قائلاً : « هذه ديّة ولدك رحمه الله » .

قيمته : قصير النظر في النحو . أشهر تآليفه : اصلاح المنطق ، تهذيب الالفاظ ، شرح ديوان الخنساء وديوان طرفة . وله شعر حكمي الا انه جافّ .

المذهبان : البصري والكوفي : البصرة والكوفة مدينتان أُسّستا على عهد عمر بن الخطاب . اختلط فيهما العرب والموالي ثم صارتاأهم مركز علمي ، فاشتهرتا بعلم النحو واللغة . ثم تفوقت البصرة، ولا يزال مذهبها فائزاً يعوّل عليه النحاة.

الكوفيون أكثر استعمالاً للقياس ، والبصريون أكثر استعمالاً للسماع ، أي كما يلفظ الأعراب البدو .

العلوم الاسلامية

سميت كذلك لانها نشأت عن القرآن الكريم وبسببه . اولها الحديث والسنّة ، وهو ما ورد عن النبي وأقواله وأفعاله وغير مدوّن في القرآن .

الحديث : لما كان القرآن كتاباً دينياً منزّلاً لا يحسن شرحه الا بمعنى واحد يتفق عليه الجميع ، ولما كان من الصعب الاتفاق على هذا المعنى ، أخذ المسلمون يتذكّرون سلفاً عن خلف شرح النبي آيات الكتاب وما قاله في كل معنى من المعاني . فحفظ الصحابة ذلك واخذه التابعون ، ولم ينتبهوا إلى هذا العلم الا في العصر الثالث . وقد هلك معظم الصحابة ومن تبعهم ، وكثرت الاحاديث الكاذبة التي كان يصنفها ذوو الاغراض .

اول مصنف: أول من صنف في الحديث مالك بن أنَس، اعتمد على الحديث المتسلسل وعلى اخلاص المحدّثين وأمانتهم .

لقد لعبت الشعوبية دوراً عظيماً في تصنيف الاحاديث واسنادها للنبي ، وغاية هؤلاء إفساد الدين بما يدخلون عليه من بهتانهم .

الفقه : هو تطبيق احكام الشريعة على اعمال البشر لتمييز الحلال من الحرام ويعرف بعلم الدين او الفروع . هذا العلم يقوم به العارفون بامور الدين والقرآن وشرحه وناسخه ومنسوخه كالصحابة والتابعين .

سمي علماء الدين في أول أمرهم « قرّاء » ثم لما انتشرت القراءة سُمّوا فقهاء . اما استنباط هذه الاحكام فعائد إلى إعمال العقل ودرس الكتاب ، وهذا كان سبب اختلاف الشرّاح في الشرح ، والتأويل — التأويل ضد المعنى الحرفي —

والاستنتاج . ولهذا كانت غاية الجميع واحدة ، وهي غرض الشارح في احكامه .

فكان من نتيجة هذا الخلاف ان قسم الشرح قسمين : طريقة أهل الحجاز في الحديث وطريقة أهل الرأي . وعن هاتين الطريقتين تفرقت المذاهب الأربعة :

١ — الحنفي : طريقته الدليل العقلي .

٢ — المالكي : طريقته الحديث .

٣ — الشافعي : مزيج من المذهبين .

٤ — الحنبلي : طريقته التثبّت في الحديث وطرح كل قياس عقلي . وهذه المذاهب الاربعة تكاد تكون واحداً ، وكل الدروب تؤدي الى الطاحون .

البدَع : لم يكد يترجم العرب الفلاسفة الاعجام وتبدأ مدنيتهم بالازدهار ، حتى أخذ علماء الدين يطبقون أحكام العقل على القرآن منتقدين ما جاء فيه مخالفاً للعقل ، فنشأت البدَع .

البدعة : هي كل مقالة مبتكرة جديدة في الدين مخالفة للأصول المرعيّة فيه ، وهي كالبروتستانية في المسيحية .

ومن البِدَع الإسلامية : المعتزلة ، الخوارج ، المرجئة .

الفِرَق : كما تفرعت البروتستانية إلى فِرَق مختلفة ، كذلك تفرّعت البدَع الإسلامية .

فالشيعة المعتدلة مثلاً تكتفي بتكريم الإمام علي وذريته ، أما الشيعة المغالية ، وهي مجموعة فِرَق ، فتدّعي الحلول في علي وسائر أُمته .

علم الكلام

علم الكلام : هو السلاح ضد البدع ، وهو البرهان على العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، للرد على المبتدعة . موضوعه : معرفة عقائد الدين ، وتطبيق حقائق الدين على أعمال البشر . واضعه أبو موسى الأشعري .

العلوم الدخيلة : كالهندسة والموسيقى والفلسفة ، وهي نتيجة ابحاث المسلمين من رجال العلم بالمدنيات القديمة التي وجدوها أول نهضتهم ، فنقلوها الى لغتهم ، وحفظوا خلاصة علم اليونان والكلدان والسريان والهنود والاقباط ، فدرسوها وأتمّوها وبنوا عليها مدنيتهم وبهذا مهدوا السبيل للنهضة العربية في القرون الوسطى .

ومما يجدر ذكره ان الغزاة العرب كانوا أوفر تساهلاً من جميع غزاة الشعوب الأخرى عن قصد أو عن غير قصد ، لأن هؤلاء اذا احتاجوا الى علوم مغلوبيهم طلبوا اليهم فكتبوا المؤلفات بلغتهم الخاصة دون لغة الغالب . أما العرب فكانوا يحضّون المغلوبين على اتباع دينهم وشريعتهم ولغتهم .

النقل : ابتدأ مع المنصور ، وخفّ قليلاً على زمان المهدي ، وهبّ في زمن الرشيد ، وبلغ شأوه في عهد المأمون . فنقل العرب **عن اليونان** : الفلسفة ، الطب ، الهندسة ، الموسيقى ، المنطق ، علم النجوم .

عن الفرس : السِيَر ، الآداب ، الحِكم ، التاريخ ، الموسيقى ، علم الفلك .

عن الهنود : الطب ، العقاقير ، الحساب ، النجوم ، الموسيقى ، الاقاصيص .

عن المصريين : الكيمياء .

عن الكلدان : الزراعة ، الفلاحة ، التنجيم ، السحر ، الطلاسم .

ولم ياخذوا شيئاً عن آداب اليونان ولا عن تاريخهم .

تأثير النقل

الالفاظ : اجبر النقلة على ادخال الكثير من المفردات العلمية في تراجمهم ، واكثرها في الطب والفلسفة . فاضطروا إلى اشتقاق الفاظ كثيرة من العربية واستعمالها في غير معناها الوضعي الحقيقي ، وخصوصاً في علم الفقه والبدع الاسلامية وصفات الأدوية ومفاعيلها .

ولم يخلُ تركيب اللغة من هذا التأثر كما سبق فقلنا . وكان تعبير الكتب العلمية وخصوصاً الفلسفية لا يضاهي تعبير الكتب الأدبية متانة بسبب استعمال **فعل الكون ، يوجد ، وكثرة الجمل الاعتراضية ، واستعمال الفعل المجهول ، وادخال هو بين المبتدأ والخبر .**

وكان من التعبيرات الجديدة : اللانهاية واللأدرية واللاضرورة ، الكيفية ، الكمية ، الماهيّة ، الهويّة ، ثم بنقل الألفاظ الوضعية او الاسمية : ماني، ماسية.

الفلسفة : تقسم الفلسفة العربية الى شرقية : ومشاهيرها الكندي، الرازي، ابن سينا .

وغربية أي اندلسية : ومشاهيرها ابن باجه ، ابن طفيل ، ابن رشد .

أما أصلها فواحد تقريباً ، يتفرع منها الافلاطونية المستحدثة التي اشتهرت بأنها توفق بين ارسطو وافلاطون ، وقد زاد عليها العرب التوفيق بين العقائد الدينية والمبادىء الفلسفية — كما فعل المسيحيون قبلهم — . والفضل في هذه النهضة للنقلة ، وهم :

حنين ابن اسحاق : ترجم جمهورية افلاطون ، ومنطق ارسطو ، وما وراء

الطبيعة ، واخلاق أرسطو . هذا الرجل عهد اليه المأمون برئاسة بيت الحكمة ، فعمل ما لا تستطيع ان تعمله الجامع . ولم يكتف بما أحضر له من الترجمة بل كان يطوف بنفسه في البلاد ويحضر الكتب النفيسة ويترجمها .

يوحنا ابن البطريق : ترجم سياسة ارسطو .

يوحنا ابن ماسويه : عرّب كتباً عديدة . غير ان الفلاسفة المشهورين لم ينبغوا الا في القرن الثاني .

التاريخ : ان العناية بانتقاء الحديث والرغبة في جمع الكتب وترجمتها ، وخصوصاً الفارسية منها ، دفعت العرب إلى هذا الفن .

المغازي : لما اطلع العرب على ترجمة الكتب التاريخية الفارسية اندفعوا فألفوا في علم التاريخ ، فجمعوا حوادث دولتهم حادثاً فحادثاً ، ومنها تألف تاريخهم .

ابن عقبة : وأول المؤلفين في هذا ، موسى بن عقبة . وهو الملقّب بامام المغازي لانه دوّن مغازي النبي اي حروبه مع المشركين .

ابن اسحق : ابو عبدالله محمد بن اسحق ، كان له كثير من الاعداء فهرب إلى اقطار عديدة ، ثم التقى ابا المنصور ، فدعاه إلى بغداد وفيها مات .

من آثاره : سيرة الرسول ، ضاعت الا بعض اقسام منها استخرجها أحد المستشرقين الالمان .

قيمته : أول من كتب تاريخ الرسول ، ولا يزال العلماء ينتقون مما جاء في هذه السيرة ومما نقله ابن هشام من الحوادث أو النوادر ، فيمحّصونها ويدرسون تاريخها كي يتوصلوا إلى تأليف تاريخ عن النبي محمد ، ومنهم من قضوا الحياة جادّين وراء هذه الغاية .

الموسيقى : طبيعي تقدم الغناء عند العرب ، لانه كان في الجاهلية يزدهر أوان الأسواق في عكاظ وغيرها .

اما نظرية الموسيقى فلم يتوسع فيها العرب الا بعد ازدهار الترجمة عن اليونان، فبحثوا في ذلك بحثاً ملياً، وكان اكثر البارعين فيها من العلماء والفلاسفة ،

وهم يذكرونها كاليونان بين الرياضيات ويجعلون مقامها بعد الهندسة .

وأشهر من الـّف بذلـــك : الفارابي ، والكندي ، وابن سينا ، وثابت بن قرّة .

وقد اشتهر الغناء مع الموسيقى الوترية ، فكان للمغنين مراكز رفيعة في عين الخاصة والاعتبار عند الخلفاء . وقد جمع اخبـــارهم وحوادثهم وبعض طرق صناعاتهم ، ابو الفرج الاصبهاني في كتاب الاغاني .

وأشهر المغنين : ابرهيم ابن المهدي، وابرهيم الموصلي ، وابن اسحق ،وغيرهم.

الطب : أول اطباء العرب الحارث بن كلدة الثقفي ، معاصر النبي . أخذ الطب عن الفرس ، وابنه النضر بن خالة النبي ، وقـــد شايع خصومه فقتله الإمام علي .

وبقي هذا العلم محصوراً ببعض وصفات حتى ترجم العلماء العباسيون كتب ابقراط وجالينوس ، فاصبح للطب مصدران أُضِف اليهما كثير من معلومات العرب .

اشهر الاطباء : آل بختيشوع ، نصارى نساطرة ، نبغوا في الطب وخدموا الخلفاء العباسيين ٣٠٠ سنة .

جرجس بن بختيشوع ؛ وبختيشوع بن جرجس طبيب الرشيد. اما اشهرهم فجبريل بن بختيشوع. ومن مشهوري اطباء النصارى المقربين: يوحنا بن ماسويه، وحنين بن اسحق . فحنين هذا ترجم كتباً فلسفية وطبية . وكان تأثيره اقوى مجرى الفلسفة .

الكيمياء : منبع التفتيش عن حجر الفلاسفة (معنى ذلك ، الحجر الذي يحوّل المعدن ذهباً) . أول من اهتم بهذا ، الأمير خالد بن يزيد بن معاويـــة الأموي . وأشهر علماء هذا العصر جابر بن حيان .

جابر بن حيان

عاش في الكوفة صابئياً . أما الكتب المنسوبة اليه عند الغربيين في القرون الوسطى فأكثر من ٢٠٠ كتاب ، المعروف منها ٢١ في مكاتب اوروبا . اكثرها قد ترجم الى اللاتينية والالمانية وطبع في مدن عديدة. نشر منها برتلو الكيماوي المشهور ، خمسة كتب مع ترجمتها للافرنسية .

آراؤه : الجمادات كالحيوانات ، تولد ثم تنمو وتكبر وتموت . في الاجسام مواد خفيفة وثقيلة طيّارة ، الاولى مائية والثانية حية ، وكل هذه الصفات نسبية .

فالكبريت والزرنيخ حيان بالنسبة للطَلْق ، ميّتان بالنسبة للزئبق .

وفي كل التحام كيماوي جسم وروح .

غاية الكيماوي ان يجد روحاً حياً ، واكسيراً قادراً على تحويل الاجسام ، وهذا الاكسير هو حجر الفلاسفة ، وهذا الحجر ينتج عن كائن حيّ . وهنا يختلف الكيماويون في حقيقته ، فالبعض يقولون دم أو شعر أو بيض أو مفرزات . فاذا وجد هذا الحجر وسحق وجبل بالماء مع بعض العقاقير يتحول الى اكسير .

الاجسام الأوّلية سبعة : الزئبق ، الذهب ، الفضة ، النحاس ، الحديد ، الرصاص ، الطلق .

وهي تختلف كمالاً ، فالذهب اكملها. فعلى الكيماوي ان يربي الباقية ، ويقودها الى الكمال شيئاً فشيئاً .

اختلف العرب في امكان الوصول الى هذه النتيجة، فالرازي يعتقد بصحتها، والكندي وابن سينا ينكران .

قيمته : الرأي الشائع ان كل المشتغلين في الكيمياء منذ القدم إلى اليوم يخرقون ويشعوذون .

اما علماء عصرنا فرأوا بعد الاختبارات أن مبادىء القدماء لم تكن كلها فاسدة ، وان كانت اعمالهم قريبة من المحال . فنرى مثلاً تحويل المعادن الذي ذكره جابر منذ اكثر من ألف سنة يشتغل به كيماويو القرن العشرين ، وقد توصل بعضهم الى شيء منه . ويعتقد ان أصل المعادن الاورجانوس ، وانه بفضل ما توصل اليه من العلوم الكهربائية عن الذريرات الدقيقة التي تتركب منها المعادن ، وكيفية التحامها ببعضها ، قد يكون لآراء جابر قيمة تذكر .

فالاختبارات التي اجراها هذا العالم بخصوص المغناطيس وقيمته ، والتمغنط به ، وفقدان القوة المغناطيسية ، مما كان يعد جديداً في ذلك الزمان ، فهو محدد المغناطيس . (حجر يجذب الحديد بقوة روحية لا تلمس ولا ترى . وقد يعرض لهذا الحجر ما يفقده تلك القوة دون أن ينقصه شيء من وزنه) .

ونسب اليه علماء الغرب اكتشاف الماء الملوكي ، وهو مزيج من حامض الاكلور والحامض النتروني .

ونسبوا اليه الحامض الكبريتي والنتروني ونترات الفضة . وعلى كلّ ، فقد فتح جابر باباً واسعاً لكيماويي العرب وغيرهم من بعده .

الرياضيات

الحساب والجبر – أصل الارقام – . ينسب الغربيون أصل الارقام للعرب ، والعرب ينسبونه للهنود ويدعونها الارقام الهندية .

الخوارزمي : هو أبو عبـــدالله محمد بن موسى الخوارزمي ، لا نعرف من حياته إلا انه كان في بغداد على عهد المأمون .

آثاره : له في الحساب كتاب طلبـــه المأمون فاختصره عن كتاب الحساب الهندي المعروف بسند هند .

ألـّف كتاباً خاصاً بالحساب ترجم إلى اللاتينية . وله أيضاً كتاب في الجبر .

قيمته : للخوارزمي قيمة ثمينة لأنه أخرج الجبر والهندسة من الغشاوة القديمة التي تغطي العلوم الهندسية القديمـــة ، وألبسها الصراحة العربية ، كما يقول المستشرق كرالوفا . ومما اتحف به الخوارزمي عـــلم الرياضيات ، بعض قواعد وطرق اكتشفها وحسّنها . منها قاعدة الخطأين ، ومنها الطريقة الهندسية لحل المربّعات المجهولة ، وهي اليوم تسمى بالمعادلة من الدرجة الثانية .

الهندسة : يونانية الأصل ، أول من كتب فيهـــا الحجاج الحسين من نقلة الرشيد ، فترجم أصول اقليدس ، ثم صلـّحها على عهد المأمون . طبعت هـــذه الترجمة في لندن . أما مهندسو العرب المشهورون فسيأتي ذكرهم .

الفلك والنجامة : ترجم الحسين المذكور كتاب بطليموس ، وكان أول عالم في هذا الفن ابراهيم بن حبيب الزاري . ألـّف جداول حساب العرب وصنع اسطرلابا . وخلفه ابن محمد فدرس طريقة النجامة الهندية .

ومن علماء هذا الفنّ يعقوب بن طارق ، كان يعاصر هؤلاء وهو مذكور بين المهندسين الذين خططوا بغداد .

الفيزياء : استفاد العرب في أول عهد العباسيين اشياء من علم الحيل في اثناء نقلهم عن اليونان . ولم يشتهر هذا العلم مع علمَي الهندسة والنجامة الا عندما نبغ ابناء موسى وابناء شاكر وقسطا بن لوقا والفيلسوف الكندي ، وسيأتي الكلام عنهم .

الادب في العصر الاول

الرواة : الاديب عند العرب هو العارف ببعض العلوم أو بها كلها .

وعلومهم : النحو واللغة والتصريف والعروض واخبار العرب وانسابهم .

وقالوا : الأديب ، هو كل من يلمّ باحسن كل علم ، اما العالم فهو من يتقن فناً من العلم .

وعلى كلٍّ ، المراد بالادب جمع اقوال العرب واشعارهم وامثالهم واخبارهم ، مع النظر في صحتها للاستعانة بها على تفسير القرآن وضبط الفاظه وتفهم اساليبه اخذاً بقول ابن العباس : « اذا قرأتم شيئاً من كتاب الله لم تعرفوه ، فاطلبوه من اشعار العرب لان الشعر ديوانهم » .

ظهر هذا الفن في الدولة الأموية ، لحاجة الفقهاء إلى معرفة عادات العرب القديمة وأقوالهم وطرق تعبيرهم ، ليتمكنوا من فهم القرآن وشرحه . فاختص رجال عديدون بدرس الشعر القديم مع حفظه ، ودرس الأمثال وأخبار العرب وغير ذلك . وعلى هذه الطريقة أخذ الأدب العربي ينمو رويداً ، فلما توطدت اركان الدولة العباسية حتى نضج هذا العلم وأُلّفت فيه الكتب . على انه لا يسع الباحث الا أن يتساءل : هل هؤلاء الرواة صادقون فيما قالوا ؟ وهل نقلوا رواياتهم عن رجال ثقة ؟

الجواب : كثيرون من الرواة شكّ الاقدمون في صدقهم ، ومنهم حماد وابن الكلبي وخلف الأحمر .

غير ان المحققين من رواة العصر العباسي الثاني ، مثل ابي الفرج الاصبهاني وابن عبد ربه ، وابن قتيبة ، وابي القاسم البصري ، اشتهروا بنقد هذه الروايات وتبيين مواضع الضعف منها ، وقد نجحوا في أكثر اعمالهم . ويمكننا القول ان اكثر الاقوال عن شعر العرب مقبولة صحته ، ما لم يظهر لنا برهان واضح مقنع على انكاره .

اما اشهر ادباء او رواة هذا العصر فهم :

ابو عبيدة

حياته : هو معمر بن المثنى ، يهودي الأصل . ولد بالبصرة ونشأ على بغض العرب . كان شعوبياً خارجياً ، مرهوب الجانب ، خبيث اللسان ، ألثغ. يلحن عمداً اذا قرأ أو تحـدث . واذا أنشد الشعر لم يقم وزنه . ومن قوله : النحو شؤم كله .

كان قذر الثياب . درس على عمر ابي العلاء ، ودرّس ابا نواس . استقدمـه الوزير ابن الفضل الى بغداد ، فكان يؤلف ويجيد . غير انه جرح العرب اجمع بكتابه « المثالب » ، فكثر اعداؤه ، وسمّ بموز فمات . ولم يسر بجنازته أحد لكرههم له . وكان بينه وبين الأصمعي مساماة ومفاخرة .

آثاره : مؤلفاته بلغت المئتين في النحو واللغة واخبار العرب وأيامها ، لم يبق منها الا القليل ككتاب نقائض الفرزدق وجرير . طبـع في لندن بثلاث مجلدات سنة ١٩٠٥ .

قيمته : عليم خبير بالانساب والاخبار، يروي شعراً كثيراً. أجمع الكثيرون على انه مخلص امين فيما كان يذكره ، ولاسيما فيما يتعلق بمفاخر العرب . له الفضل بفتح الطريق لكثير من جامعي أخبار العرب ، كصاحب الاغاني الذي استفاد كثيراً من كتابه ، أيام العرب .

ركيك العبارة ، بخلاف الاصمعي الذي قلّ عنه علماً ، وكان يفوقه تعبيراً . ولهذا قال ابو نواس : الاصمعي بلبـــل في قفص ، وابو عبيدة جلد قديم طُوي على عِلم .

الاصمعي

حياته : الأصمعي هو عبد الملك بن قريب الباهلي . ولد بالبصرة ، ودرس على عمر بن العلاء ، وتعلم نقد الشعر عن خَلَف . استدعاه هرون الرشيد وألحقه بمجلسه . كان شديد التدين حتى تجاوز الحد . رجع في شيخوخته للبصرة ومات فيها . اشتهر بقوة ذاكرته حتى قيل انه حفظ ١٦٠٠٠ ارجوزة .

آثاره : ذكر ابن النديم اربعين كتاباً ، نعرف منها الاصمعيات ، مجموعة شعرية . ورجز العجّاج ، وهو كتاب له في اللغة ، فيه اسماء الوحوش. وكتاب الابل ، وكتاب خلق الانسان ، وكتاب الخيل ، وكتاب الشاء ، وكتاب الدارات ، وكتاب النبات والشجر .

قيمته : حاز شهرة بعيدة في حياته ومماته ، فاصبح اسمه مرادفاً للفظة عالم واديب ومطّلع ولهذه الشهرة سبب ، وهو كثرة اشتغاله بدرس محالّ العرب كما في كتاب الدارات ، وأصل مفردات اللغة ومعانيها، واسماء اعضاء الحيوانات والنبات وغير ذلك . وقد انتصر على خصمه أبي عبيدة بحادثة الفرَس المشهورة.

محمد بن سلام

اسمه ابو عبدالله بن سلام الجمحي . كان عالماً بالشعر والاخبار . ذكر له ابن النديم كتاباً في بيوتات العرب وآخر في مدح الاشعار .

أشهر تآليفه : طبقات الشعراء ، طبع في لندن . بدأ فيه بنقد الشعر وطرق روايته وتاريخه والمنحول منه . ثم قسم الشعراء طبقتين : جاهليين واسلاميين ، وكل طائفة عشر طبقات ، في كل طبقة اربعة شعراء . وألحق بشعراء الجاهليين طبقة لاصحاب المراثي ، ثم الحق بهم شعراء القرى وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين .

قيمته : مع محمد بن سلام يبدأ دور تمحيص الشعر . كان الأدباء قبله يروون الشعر عن غيرهم ، اما هو فابتدأ بنقد الرواة ، واخذ يقابل بين الروايات ويفاضل بين الشعراء ، وتبعه الادباء بعده في ذلك . ولكتابه قيمة تذكر وشأن كبير ، ذكره الكثيرون واستشهدوا به ، وكان اول من قسم الشعراء إلى طبقات .

غير ان انتقاده يكاد ينحصر بايراد احاديث واحكام من تقدمه . ثم لا يخفى ان تقسيمه هذا ووضعه اربعة شعراء في كل طبقة لما يؤيد الانتقاد .

ابو زيد القرشي

حياته : محمد بن الخطاب ، بصري ، اشتهر بالنحو ودعاه سيبويه بـ «الثقة». صار من مشاهير الرواة في النوادر واللغة .

آثاره : جمهرة العرب : جمع فيه ٤٩ قصيدة ، قسمها إلى سبع طبقات ، كل طبقة ٧ قصائد . صدّره بمقدمة انتقادية في الشعر واللغة ، وأقوال الشعراء ، واختلاف الناس في قيمته ، والمفاضلة بينهم ، وصفاتهم وبعض اخبارهم .

قيمته : كان لهذا الكتاب تأثير لما فيه من نقد الشعراء ، والمقابلة بين لغته ولغة القرآن واقوال الادباء في الشعر والشعراء . غير اننا نرى فيه ما في كتاب ابن سلاّم من عدم الشخصية ، اي لا آراء خاصة .

نقل أحكام الادباء دون ان يرتبها ، ولم يردّها إلى احكام عامة ومبادىء نقدية ليستخلص منها حكماً خاصاً به ، كما هو شأن نقاد اليوم .

وعلى كلٍّ ، فهو قد خطا خطوة وان قصيرة ، ككل شيء في اول نشأته .

العصر العباسي الثاني

العهد التركي

يبدأ العصر التركي العباسي بخلافة المتوكل ، وينتهي بدخول الديلم وتأليفهم الدولة البويهية .

نفوذ الاتراك : امتاز هذا العصر بنفوذ الاتراك فيه وتسلطهم على الخلفاء . أدخلهم المعتصم ، لان امه تركية ، ليقاوم بهم نفوذ الفرس وعززهم المتوكل لكرهه الشيعة والفرس ، (أمر بهدم قبر علي بن الحسين كرهاً)

لقد بلغ من امر الاتراك ان استبدوا بالخلفاء ، فكانوا يقتلونهم وينصبون من شاؤوا منهم ،(فالمتوكل قتله غلام تركي).وعلى عهد ابن المعتزّ بن المتوكل استفحل أمرهم واستبدادهم .

فلما تولى المعتز أحضروا المنجمين وقالوا لهم: انظروا كم يعيش الخليفة . فقال من كان بالمجلس : مهما أراد الأتراك . وهكذا كان ، فانهم قتلوا المعتزّ شر قتلة ، وسملوا عيني المستكفي ، وصار القاهر فقيراً فحبسوه ، فكان يلتف بقطن جبة ، وفي رجله قبقاب خشب .

واخيراً صار الخليفة آلة بيد الاتراك يحلف يمين الطاعة لهم .

نفوذ الخدم : ثم جاء نفوذ الخدم في هذا العصر ، ففيهم كان يحتمي الخلفاء من الاتراك . وقد كان للمقتدر من الخدم ١١ الفاً .

وفي هذا العصر انتشرت الرشوة والفساد ، فاصبح كل حاكم يهمه ان يحتفظ لنفسه بما يستطيع الوصول اليه من المال . **وكثر الاغتيال ، فالخليفة يخاف على نفسه من جنده وحشمه ، والحاكم يخاف على نفسه من الخليفـــة ، والوزير يخاف على نفسه من الجميع . وكان كل هؤلاء معرضـــين لتصفية الاموال وحجز الممتلكات** . وقد تقيدت الأفــكار بداعي الاستبداد والقتل .

مميزات هذا العصر الادبية

١ — أثـّر الفساد السياسي في الآداب ، ولا سيما ما كان فيها نفسياً كالشعر والانشاء ، وقيدت الافـكار ، وقلّ النابغون . وكان للعلوم السبق على الآثار النفسية .

٢ — ظهر انقلاب في الفاظ اللغة ، فتوسعت معاني بعضها حتى خرجت عما وضعت له في الأصل .

٣ — استقرّ الخط العربي على ما وصل الينا . وكان أول من وضع هـذه القاعدة ، ابن مقلة سنة ٢٨٣ . مات في السجن بعد ان صودرت امواله وقطعت يده ثم لسانه .

مميزات الشعر :

١ — توسع الشعراء في البديع والزخرفة ، وكان قد ابتدأ بذلك بشار وأبو تمام ، فأتمه في هذا العصر البحتري ، وزاد عليه ابن المعتزّ .

٢ — كان شعراء العصر الأول قد ابتدأوا مع ابي نواس بوصف مجالس الانس والزهريات ، فتوسع نظامها في هذا العصر ، ولطفت تشابيهها مع ابن المعتز .

٣ — اخذت العلوم الفلسفية تؤثر بالشعر ، فظهر التلميح اليها في هذا العصر . على انها لم تزدهر إلا في العصر الثالث ايام المتنبي ثم المعرّي .

٤ — ان التضييق على الحرية ، وعـدم التبسط في الاغراض السياسية ، وضعف شوكة الاحزاب المختلفة ، أثرت في الآداب النفسية ، فقلّ عدد الشعراء

ولم يشتهر منهم إلا اصحاب الشاعرية القوية .

٥ ــ كان من نتيجة ذلك انهم بـــدأوا يتذمرون ويتشكون من ذهاب من يعرفون قدر الشعر ، على حدّ قول ابن الرومي :

ذهب الذين تهزهم مدّاحهم هــزّ الكلام عـوالي المران

٦ ــ نبغت طبقة من الكتّاب الذين انتقدوا الشعر وروايته ، فـكانوا في العصر السابق ينظرون فيه بلا تمحيص ، فصاروا بهذا العصر يتدبرون معانيـه واساليبه بعين النقد ، حتى أخذ هذا الفنّ يستقل عن بقية الفنون .

ابن الرومي

اصله : من اسمه تعرف انه رومي الأصل غير عربي ، وهو من السوقة . غالى الذين ترجموا له ودرسوه فنسبوا إلى أصله أشياء كثيرة رأوها في شعره .

خاصياته :

١ – طول قصائده ، وهذا دليل على كثرة أفكاره .
٢ – هجوه مر بذيء احياناً ، يخرجه بشكل صورة هزلية .
٣ – خلّاق للمعاني النادرة ، يأخذ الافكار المبتذلة فيأتي بصور ووجوه جديدة لم يسبقه اليها شاعر .
٤ – تهافته على المعاني جعل شعره غير منقّى .
٥ – مبتدع لا متبع .
٦ – أطول الشعراء نفساً .
٧ – مضطرب المزاج حاد الشعور .
٨ – قصيدته ليست ذات موضوعات متعددة كغيره من الشعراء .

شراهته : تظهر شراهته وحبه للطّعام من نظمه في الطعام والشراب على مختلف أنواعه .

تطيّره : كان كثير التطيّر ، يحبس نفسه اياماً في بيته بلا طعام ولا شراب ، اذا تشاءم .

هجاؤه : كان هجّاء لا يخاف أحداً . وقد قتل بسبب هجائه ، كما حصل لغيره من شعراء عديدين .

اجاد العتاب والهجاء لأنه تأثّر بمعاملة أهل عصره له ، وإعراضهم عنه ، حتى كان يجوع ويعرى احيـــاناً ، وقد طلب الكسوة والرغيف ، كما نقرأ في شعره .

خموله : من أسباب خموله تطويله القصائد إلى حـــدّ يمل ، وقلة حيلته ، وهجوه الأمراء ، وبعده عن الناس لتطيّره ، واسلوبه الذي لم يألفوه .

عبقريته : كان يختلف عن شعراء العرب بفكره وأدبـــه ، ولعلّ لأصله الرومي يداً في ذلك .

نظره للطبيعة : كان يعشقها كأنها من لحم ودم ، وهــذا ظاهر في شعره . ينظر اليها نظرة طبيعية كأنها أنثى حقاً . وهذا بعض ما قاله فيها :

فهي في زينة البغيّ ولكن ‏ ‏ ‏ هي في عفة الحصان الرزان

وقوله :

تبرجت بعد حياء وخفر ‏ ‏ ‏ تبرج الأنثى تصدّت للذكر

الالوان : كان محباً للألوان ، يكثر من ذكرها .

حظه : ولد في خـــلافة المعتصم ، وأدرك الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد ، فلم يؤاسه احد منهم ولا وهبوه شيئاً ، فكان فقيراً . يسمعون قوله في وصف مأكولاتهم ولا يجودون عليـــه بفضلاتهم ، بل كانت توصَد الابواب دونه .

خصاصته : يدل عليها طلبه الثياب ليتقي البرد ، ومنهـــا قوله لأبي جعفر النوبختي :

جعلت فداك لم اسألك ‏ ‏ ‏ ذاك الثـــوب للكفن
سألتكـــه ‏ ‏ ‏ لالبسه ‏ ‏ ‏ وروحي بعد في البدن

ضعفه : اغتصبت داره انثى ، فقال يخاطب الوزير عبدالله بن سليمان :

تهَضّمني انثى وتغصب جهرة ‏ ‏ ‏ عقاري ،وفي هاتيك اعجب معجب
فلا تسلـّمني للاعادي وقولهم ‏ ‏ ‏ إلا من رأى صقراً فريسة ارنب

أصله : لم يكن هذا الشاعر يتبرأ من أصله كغيره من الشعراء المولّدين ، بل يشير الى أنه مولى بني العباس بقوله :

أنا منهم بقضاء من ختمت رسل الإله بـــه وهم اهلي
مولاهم وغـــذيّ نعمتهم والروم حين تنصّني اصلي

لم يكن كأبي نواس تارة نزارياً وطوراً يمنياً ، واحياناً عجمياً . وقد هجـا اسمعيل بن بلبل لانتسابه إلى شيبان زوراً ، حيث قال فيه :

تشيبن حين همّ بأن يشيبا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً

شخصيته : ساخط على الحياة ، ناقم على العصر وابنائه ، نفسه متألمة جداً من فقره ، قال :

شرُطٌ خولوا عقائل بيضا لا باحسابهم بـــل الانساب
فإذا ما تعجب الناس قالوا هل يصيد الظباء غير الكلاب
لم أكن دون مالكي هذه الاملاك لو أنصف الزمان المحابي

شكله : قد وصفه لنا في هذا البيت :

انا من خفّ واستدقّ فما يثقل أرضاً ولا يسدّ فضاء
ان لي مشية اغربل فيها ...

ومع هذا فقد شاخ قبل الأوان .

سخره : قد كان على حظٍّ كبير من السخر والاستخفاف ، قال :

اطلق الجرذان في الليل وصِحْ هـــل من مبارز

وقوله في بخيل :

فلو يستطيــــع لتقتيره تنفّس من منخر واحـد

هجوه : قال يهجو طبيباً :

افنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكحله الأحيـــاء والبصراء

فاذا مررت رأيت من عميانه أُمَماً على امواتـــه قرّاء

اسباب هجائه :

١ – سبّ الناس شعره وانتقادهم له .

٢ – قيام الكتّاب والحجّاب في سبيل رزقه ومنعهم اياه من الوصول إلى من يرجو عطاءه .

٣ – رد الناس مدحه وحرمانه العطاء كما يتضح لنا من هذه الابيات :

رددت إلي مدحي بعـــد مطل وقد دنّست ملبسه الجـــديدا
وقلت امدح به من شئت غيري ومن ذا يقبل المـــدح الرديدا
ولا سيّما وقـــد أعقبت فيـــه مخازيك اللواتي لن تبيـــدا
ومـــا للحي في اكفان ميت لبوس بعدما امتلأت صديـــدا

عتابه : كان يحاول اولاً الاستمالة باللطف ، ثم بالتذلل ، ثم التذكير بواجب الصداقة ، والمحافظة عليها لانها نادرة الوجود كقوله :

ثم يخفى عليك اني صديق ربمـــا عزّ مثله في الغلاء

وهناك اصدقاء يتكبرون عليه يعاتبهم بشدة وقسوة عظيمتين ، ويتهددهم بهجائه المر المقذع ، وهذا عتابه للقاسم :

لاقيتني ساعـــة لاقيتني اثقل خلق الله اجفـــانا
كأنما كنت تضمنت لي رد شبابي كالذي كانا
او كل ما لم يستطع فعله عيسى ولا موسى بن عمرانا
أنت حلول حائـــل عهده تصبغك الساعـات الوانا

هو وابن المعتز – قيل له : لماذا لا تشبه مثل ابن المعتز ؟ فقال : انشدوني ما استعجزتموني عنه .

فأنشدوه قول ابن المعتز في الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قـــد اثقلته حمولة من عنبر

فصاح : واغوثاه ! هو ابن خليفة يصف ما في بيته ، وانا أي شيء اصف ؟
وانشدهم قوله في وصف قوس قزح :

وقـــد نشرت أيدي الجنوب غمائما من الجو دكنا والحواشي على الارض
يطرّزهـــا قوس السحاب باخضر على احمـــر في اصفر اثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائـــل مصبّغة والبعض اقصر من بعض

وله في وصف قالي الزلابية وخباز الرقاق ، شعر نفيس .

وله في هجو الورد بيتان مشهوران يدلان على دقة تصوير ولكن بلا ذوق .

خلاصة : اطول الشعراء نفساً ، طبعه حادّ ، كثير الانتاج ، حاد الشعور حتى الهوج . مشوش المزاج إلى حد التطيّر . شعره سلس ، سهل الالفاظ حتى الركاكة . بارع في عتابه ، لسانه مرّ في هجـــائه . هجّاء في معرض الرثاء . قصيدته ذات موضوع واحد ، لا تنقّل فيها .

ادعى انه عباسي كما مرّ بك ، وفي إحدى قصائـده برهن على انه متشيّع ومتعصب لهم . ولو حظي بمن ينقّي له شعره ، لـكان له أروع ديوان .

البحتري

نسبه : هو الوليد بن عبدالله، وينتهي بطيء بن أدد بن يعرب بن قحطان.

كنيته : ابو عبادة ، ولقبه البحتري .

منزلته : شاعر فصيح ، حسن المذهب ، نقي الكـــلام ، مطبوع . حسن التصرف في جميع انواع الشعر إلّا الهجاء .

هجاؤه : عندما دنت وفاته أمر ابنه بحرق كل ما قاله في الهجاء .

تشبيهه : كان يتشبه بأبي تمام وينحو نحوه في البديع ، ويتخذه إماماً . وقد قال عن نفسه انه تابع له .

ابو تمام : ساعد البحتري لما رآه بحمص ، فكتب لأهـل المعرة يوصيهم بـه خيراً فوظّفوا له بأربعة آلاف درهم فكان أول مال أصابه ، وهذا كتاب أبي تمام لأهل المعرة : « يصل كتابي هذا على يد الوليد بن عبادة الطائي ، وهو على بذاذته شاعر فأكرموه » .

قذارته : كان من أوسخ خلق الله ثوباً وآلة .

بخله : كان أبخل الناس على كل شيء . وكان له أخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً . فإذا بلغ جوعهما أشده ، جاءا يبكيّين فيرمي اليهما بثمن قوتهما مضيّقاً مقتّراً ويقول : « كُلا ، أجاع الله أكبادكما وأطال إجهادكما » .

من أمثلة بخله : قال أبو مسلم الأصفهاني : دخلت على البحتري فاحتبسني عنده ، ودعا بطعام ودعاني اليه فامتنعت من أكله . وكان عنده شيخ شآم لا اعرفه فدعاه الى الطعام ، فتقدم وأكل معه أكلاً عنيفاً . فغاظه ذلك فالتفت

إلي وقال : أتعرف هذا الشيخ ؟ هذا شيخ من بني الهجيم الذين يقولون فيهم :

وبني الهجيم قبيـــلة ملعونة حصّ اللحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة بعُمـان اصبح جمعهم بعمان

فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك .

ارتجاله : مرت بالمتوكل صبية بديعة جداً ومعها كوز ماء، (اسمها برهان). فسألوها لمن هذا الماء ؟ فقالت لستّي . فقال المتوكل : صبّيه في حلقي ، فشربه وقال للبحتري : قل في هذا شيئاً ، فقال :

ما شربة من رحيق كأسها ذهب جاءت بها الحور من جنات رضوان
يوماً بأطيب من ماء بلا عطش شربته عبثاً من كف برهان

الانشاد : أنشد البحتري المتوكل قصيدة ، أولها :

عن أي ثغر تبتسم وبأيّ طرف تحتكم
قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم
أسلم لدين محمـد فإذا سلمت له سلم

وكان البحتري من أكره النـــاس انشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه ومنكبيه ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت قائلا : أحسنت والله ، لماذا لا تقولون لي أحسنت ؟

فضجر المتوكل من هذه الحالة ، فقال للصيمري الذي كان حاضراً : أمـا تسمع ؟ بحياتي تهجوه . فقال الصيمري :

في أي سلح ترتطم وبأي كف تلتقم ؟

والقصيدة طويلة يختمها بقوله : وعلمت انك تنهزم .

ففرّ البحتري من الديوان ، وضحك المتوكل كثيراً وأمر للصيمري بالجائزة المعدة للبحتري .

امتيازه: يمتاز في المدح.له مقدرة على تصوير اخلاق الممدوح.أبدع في وصف

القصور البديعة وما فيها من مشاهد كالبرك وغيرها، واشتهر بوصف بركة المتوكل وقصر المعتز بالله .

واشهر قصائده في الوصف ، وصف الايوان بقصيدته السينية .

كتبه — ديوانه : جمعه أبو بكر الصولي على الحروف .

حماسته : له ديوان حماسة . وحماسته كحماسة ابي تمام . الا انها أكثر ابواباً ، تخلو مما تنبو السماع عنه . وله ايضاً كتاب معاني الشعر .

مدحه : من قصائده المشهورة ، تهنئة بعيد الفطر رائية القافية .

ومن قوله في الوصف :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل

وقال في الطيف :

اذا ما الكرى ابدى الي خياله   شفى قربه التبريح او نقع الصدى
إذا انتزعته من يديّ انتباهة   حسبت حبيباً راح مني او غدا
ولم ارَ مثلينا ولا مثل شأننا   نعذب ايقاظاً وننعم هجدا

من حكمه :

اقوى العواقب يأس قبله أمل   واعضل الداء نكس بعد ابلال
والمرء طاعة ايام تنقله   تنقّل الظل من حال الى حال

شعره : يجيد سبك الالفاظ أكثر من المعنى . معانيه من وحي الخيال، لا من العلم والمنطق كالمتنبي وابي تمام. فأعاد بذلك للشعر ما فقده من روعة وبهجة ديباجة . شعره عذب جزل فصيح . امتاز بذلك على ابي تمام استاذه ، ونهج طريقته هذه معاصروه ومن جاؤوا بعده ، فعرف باسلوبه هذا الذي دعي بالطريقة الشامية .

خلاصة : جرب أولاً ان يتعرض للشعر السياسي فلم ينجح به لفوات الأوان. فسلك مسلك أبي تمام ، ولكنه توسط بعض الشيء ، فمال الى الناحية العربية الخالصة ، فقلل من البديع ودقق في المعاني .

وصّاف ماهر يميل الى وصف الحضارة المادية أكثر من ميله الى وصف المعاني.

مصور ماهر للعواطف الانسانية ، يرثي فيُبكي ، ويستعطف فيستميل ، ويبلغ ذلك بلا عناء . خفيف الروح اذا تغزل ، موفق اذا مدح ، شعره رنان حتى قالوا فيه : أراد ان يشعِر فغنّى . وقال هو : من الوفاء اجادة الرثاء .

ومع كل ما تقدم من جمال الوصف ، كان مغروراً بنفسه معجباً بها ، ثقيل الظل ، مبغوضاً . في شعره غثّ ساقط ، الا ان القسم الاكبر منه على جانب عظيم من الطلاوة والدقة ، أو براعة التصرف في المعاني والالفاظ ، ينتقل بفكره الى آخر منطقة .

ابن المعتز

اسمه : عبد الله بن المعتز بن المتوكل .

لقبه : المرتضي بالله .

خلافته : كانت يوماً وليلة ، ولذلك لم يعدّ من الخلفاء .

أوصى المكتفي بالله لابن اخيه جعفر بن المعتضد ، ولقبه المقتدر بالله ، وكان عمره ١٣ سنة ، فسادَ الخدم والنساء واستولوا على الأمور ، فصعب ذلك على القضاة والقواد فأوصوا الوزير العباس بن حسن في خلعه ومبايعة ابن المعتز ، فقتلوا الوزير وخلعوا المقتدر سنة ٢٩٦ .

بايعوه بالخلافة مرغماً ، وطلبوا من المقتدر ان يخلي دار الخلافة لينتقل اليها ابن المعتز ، فاطاع واستمهلهم للغد ، وفي تلك الليلة فرّ إلى الموصل ولم يبق في الدار الّا خادمه مؤنس ، وخازنه موسى . فبلغ ذلك ابن المعتز ، فسار ومعه وزيره محمد بن داود وظن ان الجند يتبعه فخذل ، واختفى مع وزيره خوفاً من الغوغاء التي انتشرت في بغداد ثلاثة ايام .

مقتله : فلما رأى المقتدر ضعف خصمه ، عاد إلى بغداد في العسكر وقبض على خصومه فقتلهم ، اما ابن المعتز فاختفى عند ابن الجصّاص ، فعرف المقتدر مكمنه وقبض عليه ، وقتل خنقاً ، ولُفّ في كيس وسلّم لأهله هكذا .

صفاته : حسن الاخلاق واسع الاطلاع على زبدة العلوم وفنون الادب ، كثير المطالعة ، مولع بالشطرنج ، حسن المذاكرة ، شريف الهيئة يحب الطيب والتضمخ به ، جذل طروب . جواد على أهل الأدب بماله ، كان لا يخرج من

عنده أديب او نديم إلا بصلة وطيب . وكان يشرب معتمداً على عفو الله :

واشربهـــا وازعمها حرام   وارجو عفو رب ذي امتنان

البديع : مغرم به لدرجة قصوى ، وخصوصاً في الاستعارة والتشبيه . وهو أول من ألـّف في البديع ، جمع منه ١٧ باباً ثم عقبه قدامة فزاد ١٣ باباً ،وجاء بعدهم كثيرون فزادوا عليه حتى بلغ ما بلغ .

البلاغة : حددها بقوله : هي البلوغ إلى المعنى ولم يطل سفر الكلام .

في نديم : قال في نديم ُجدّر ولم يؤثر به الجدري :

لي قمر ُجدّر لمـــا استوى   فزاده حسناً فزادت همومي

أظنه غنـّى لشمس الضحى   فنقـّطته طربـــاً بالنجوم

النميري : صلـّى النميري صلاة خفيفة وسجد سجدة طويلة جداً فقال فيه :

صلاتك بـين الورى نقرة   كما اختلس الجرعـة الوالغ

وتسجد من بعدها حسرة   كما ختم المزود الفـــارغ

عطفه : قال في مغنية محسنة ولكنها قبيحة :

قلـــبي وثاب إلى ذا وذا   ليس يرى شيئـــاً فيأباه

يهـــيم بالحسن كما ينبغي   ويرحم القبح فيهـــواه

وصفه : كان مولعاً في الوصف الى حد بعيد يتقنه جـــداً . وأكثر شعره قوامه الوصف الدقيق في أشياء كثيرة ، وخصوصاً مجالس الأنس وما اليها .

القمر : هجا القمر ، مخالفاً بذلك شعراء الزمن ، فقال :

يا سارق الانوار من شمس الضحى   يا مثكلي طيب الكرى ومنغصي

أما ضياء الشمس فيـــك فناقص   وأرى حرارة نارهـــا لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائـــل   متسلخ بهقـــاً كلون الأبرص

الخلافة : الابيات التالية تدل اصدق دلالة على ابن المعتز وميوله :

قليـــل هموم القلب إلا للذة   ينعـّم نفساً اذنت بالتنقـــل

فان تطّلبه تقتنصه بحانــة والا ببستان وظل مظلل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قائلاً من يعزلون ومن يلي
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان او علي

سخطه :

كن جاهلاً أو فتجاهل تفز للجهل من ذا الدهر جاه عريض
والعقل محروم يرى ما يرى كما ترى الوارث عين المريض

من رائع شعره قوله :

عجباً للزمان في حالتيه وبلاء وقعت منه اليــه
رب يوم بكيت فيه فلمــا صرت في غيره بكيت عليه

وهذا وصفه موكب الصلاة على المعتصم :

قضوا ما قضوا من حقه ثم قدّموا إماماً يؤمّ الخلق بين يــديه
وصلوا عليه خـــاشعين كأنهم صفوف قيام للسلام عليــه

ومن بديع وصفه ، وهو يدل على حبه السَمَر :

وأبكي اذا ما غاب نجم كأنني فقدت صديقاً أو رزئت حميما
فلو شقّ من طرف الليالي كواكب شققت له من ناظري نجومــا

وقد نُسب اليه موشح لطيف جداً أطلبه في موضعه . ولا نستطيع ان نقول عن الاسبقية ، ألهُ هي أم لغيره من الاندلسيين .

في غلام :

رشأ يتيه بحسن صورتــه عبث الفتور بلحظ مقلتــه
وكأن عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنتــه

في الهلال :

أنظر الى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الدجى نرجسا

زهده :

ولقــد قضت نفسي مآربها وقضيت غيّــاً تارة ورَشد
ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان في ليل الشباب رقد

وقال : أعاذل قد كبرت على العتاب وقدضحكالمشيبمن الشباب
رددت الى التقى نفسي فقرت كما رد الحسام الى القــراب

آخر ما نظم :

يا نفسُ صبراً لعل الخير عقباكِ خانتك من بعد طول الأمر دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتــني اياك طوباك
ورُبَّ آمنــةٍ كانت شبيهتها ورُبَّ مطلقة من بين اشراك
أظنه آخر الايام من عمري ويوشك اليومَ ان يبكي لي الباكي

مذهبه : يظهر انه حنفي بدلالة قوله في الخمر المطبوخة وهو معنى بديـع :

خليلي قد طاب الشراب المورّدُ وقد عدتبعد النسك والعود احمد
فهاتا عقــاراً في قميص زجاجة كياقوتة في درة تتوقـدُ
يصوغ عليها الماء شبّــاك فضةٍ له حلق بيض تحــل وتعقد
وقتني من نار الجحيم بجرهـــا وذلك من احسانها ليس يجحد

الطرديات : وله في الطرديات شعر كثير جيد لا محل لذكره هنا .

آثاره : ديوانه ، كتاب البديـع ، مختصر طبقات الشعراء ، أشعار الملوك ، كتاب الشراب .

حياته : ملاهٍ وانس — حياة ملوك — شعره مرآة حياته .

خلاصة : رجل عربي قحّ ، ترفّع عن بذيء اللفظ ومبتذل المعنى . جميل الأفكار ، مختــار اللفظ ، دقيق التعبير . شعره خالٍ من الزلفى ، يحب الفنّ للفنّ . ألهى عقله بالشعر ، كما التهى بالصيد والشراب والزينــة . هو في

العباسيين كالوليد في الأمويين ، والفرق بينهما أن ابن المعتز شاعر الصنعة ، والوليد شاعر السليقة ، وكل منهما اجاد في ناحيته .

ميزة شعره : رقة وانسجام ، وسهولة لفظ وتعبير ، وهذا ناتج عن أخلاقه وتربيته .

لم يمدح إلا نادراً وعن اقتناع بوجوب المدح . معظم شعره في وصف الجنائن ومجالس الخلان ، وأنديسة الطرب وجمال الطبيعة ، والصيد والكلاب ، والبواشق والبئزان .

أبرع شعراء العرب استعارة وتشبيهاً ووصفاً . فإذا صح قولهم : كلام الملوك ملوك الكلام ، فذلك ينطبق على ابن المعتزّ في زمانه .

الخلاصة : ان في شعره رقة الملوك ، وغزل الظرفاء ، وهلهلة المحدثين .

خلاصة عامة

شعراء هذا العصر يمتازون عن الذين تقدموهم بأنهم جمعوا بين الغزل والعلم ، فكانوا شعراء ومؤلفين ، إلّا ابن الرومي فإنه كان شاعراً فقط .

النثر

الانشاء : إمام الانشاء في العصر العباسي الاول ابن المقفع . اطال الجملة وصرفها عن ايجاز الراشدين إلى تنميق عبد الحميد . واشتهر أسلوبه في انشاء كليلة ودمنة ، وهو أسلوب الكتاب أي الانشاء المرسل ، بلا تسجيع ولاتقطيع ، فتبعه الكثيرون ، حتى ظهر الجاحظ في هذا العصر ، فقصر الاسلوب القديم وجعل الجملة قطعاً صغيرة ، وادخل في الدعاء الجمل الاعتراضية ، فتبعه كثيرون حتى أطالوها فأضحت غامضة .

كانت الافكار في صدر الاسلام وما قبله ، جامعة مختصرة عامة غيرمفصلة، فجاء التعبير موجزاً بليغاً . فلما توسع الفكر وفصلت معانيه ، طال الانشاء واتسع . فابتدأ هذا الاسلوب بعبد الحميد ، ثم جاء ابن المقفع فخلا نثره من التسجيع والتقطيع ، لاتصال المعاني بالافكار وخروجها من بعضها البعض ، فكان الانشاء المرسل .

ثم جاء الجاحظ ، وادخل أسلوبه المعروف ، أي عبارات قصيرة كالشعر ولكن دون قافية ووزن . وكان هذا الانشاء عنوان التفكير المفصل غاية التفصيل ، والرجوع إلى الذات .

العلوم اللغوية : عرفنا فيما تقدم كيف نشأ علم اللغة وتوسع ، وذكرنا من مشاهيره الخليل . اما في هذا العصر ، فاتسع هذا العلم توسعاً كبيراً ، وظهرت الكتب المطولة التي مهدت السبيل للمعاجم اللغوية التي نضجت في العصر الثالث . وكان من أشهر اللغويين في هذا العصر : المبرّد .

المبرّد : أشهر تآليفه : « الكامل » ، وهو كتاب أمالي ولغة ونحو . المبرّد يمثل الثقافة العربية في العصور العباسية ، لأنه لم يعتمد على ادب اجنبي ، وهو شديد النزعة إلى العروبة ، وخصوصاً ابناء قومه الذين أشاد بذكرهم في كتابه هذا ، وروى ما له علاقة بامجادهم .

ابن دريد : صاحب المقصورة الدريدية . وله كتاب جمهرة العرب ، وهو معجم مرتب على حروف الهجاء ، وكتاب الاشتقاق ، وهو قاموس في اسماء القبائل العربية .

عبد الرحمن الهمذاني : من تآليفه : الالفاظ الكتابية ، وهو كتاب فيه مترادفات ، والفاظ وجمل يستعملها الكتّاب .

علم النحو : فساد ملكة اللسان أدى إلى وضع القواعد . وكان الخليل اسبق الناس إلى ذلك . وسبب فساد اللغة الامتزاج بالاعاجم ومخالطتهم بالسكنى والزواج .

وقد رأيت فيما مضى مذهبي البصريين والكوفيين وغلوهما . أما في هذا العصر فنشأ مذهب بين بين ، وهو مذهب البغداديين . أشهر أركانه **المازني** ، وهو أول من دوّن علم الصرف منفرداً عن النحو .

ثعلب ابو العباس : ألّف كتاب الفصيح المعروف باسمه ، «فصيح ثعلب» . وله ايضاً قواعد الشعر وشرح ديوان زهير ، وديوان الأعشى ، وكتاب الامالي المعروف باسم : « مجالس ثعلب » .

فهؤلاء الكتّاب لم ينصرفوا الى اللغة وحدها بل كتبوا في الأدب كما رأيت .

العلوم الدخيلة

النقل : رأينا في العصر العباسي الأول أن جلّ همّ الخلفاء كان لنقل الكتب العلمية الى العربية ، وظلّ هذا العمل موضوع الاهتمام في أوائل العصر الثاني ، فكان خير تمهيد للتآليف العلمية . أما نقلة هذا العصر فمنهم :

اسحق بن حنين : كان طبيباً ايضاً . أكثر منقولاته في الفلسفة عن ارسطو. ونقل كتاب اقليدس .

قسطا بن لوقا : نصراني بعلبكي ، اتقن اليونانية والعربية والسريانية ، واتصفت ترجماته باناقة العبارة ورشاقة التعبير .

متى ابو بشر : ابن يونس ، ترجم كتاب ارسطو في الشعر .

يحي ابو زكريا : ابن عدي ، نصراني من اليعاقبة .

العلوم الطبيعية

أشهر فروع علم الطبيعة التي اشتغل فيها العرب في هذا العصر هي : الطب ، الكيمياء ، الطبيعيات .

الطب: اشتهر به **ابو بكر الرازي**، جالينوس العرب، ويسميه الافرنج Rases.

آثاره : كتاب « الحاوي » : ملخص الطب ، كتاب « الجامع » ، برء الساعة . « الطب المنصوري » : يحتوي على عشرة كتب منها : « الجدري والحصبة » ، وهو ما الّف في هذا الموضوع ، وقد بقي زماناً طويلاً الكتاب

الوحيد من نوعه . طبع في المطبعة الاميركية . وينسب للرازي طريقة استحضار الحامض الكبريتي (زيت الزاج) باستحضار كبريتات الحديد ، وينسب اليه اكتشاف الكحول .

سنان بن ثابت : له عدة رسائل في الطب والهندسة والهيئة والتاريخ ، منها كتاب « التاجي » ، قدمه الى تاج الله عضد الدولة بن بويه .

الكيمياء والتاريخ الطبيعي : أشهر من يذكر في هذا العلم أبو بكر بن وحشية . اشهر تآليفه كتاب « الفلاحة النبطية » ، كتبه زاعماً أنه نقله من النبطية . والراجح اليوم انه تأليفه ، ولم يترجمه . أدخل فيه بعض مغامز ضد الاسلام ، يقصد من ذلك أن يظهر بطريقة فنية ما للكلدان من السبق في المدنية وما في ديانة البابليين من الميزة على الاسلام .

الهندسة : للعرب فضل يذكر في علم الهندسة . نقلوا علوم اليونان واوصلوها الى أوروبا في القرون الوسطى مع شروحهم عليها وتعاليقهم . وكان من آثارهم المشهورة أصول أقليدس ، وكتاب المجيسطي لبطليموس ، والكتاب الخامس والرابع من مخروطات فولمبوس .

ثابت بن قرة : أما المشهورون في الرياضيات فهم : ثابت بن قرة ، ترك نحواً من ١٥٩ تأليفاً في العربية و١٦ في السريانية ، أهمها ترجمة المجيسطي لبطليموس .

شرح كتاب ارسطو ، وكتب مقدمة أصول اقليدس . وله رسالة في حل الصعوبات الموجودة في جمهورية افلاطون .

كان صابئي المذهب ، قطع من مجمع قومه لآراء انكروها عليه . عاش بين منجمي المعتضد مقرباً منه ، يقبل اليه دون وزرائه وخاصته . وكان ايضاً من المبرزين في الطب والفلسفة ، ومن القلة المشهورين .

ابناء موسى شاكر : محمد واحمد والحسن . كان أبوهم في حداثته حرامياً ثم تاب .

اشتهر ابو جعفر محمد في الهندسة والنجوم ، واشتهر احمد في علم الحيل ، واشتهر الحسن في الهندسة ، وكان وافر المقدرة في الاستنتاج .

فالحسن هذا لم يقرأ في كتاب اقليدس الا قليلاً ، اما بقية العلم فاخترعه من عند نفسه . كان له مرصد على جسر بغداد ، أكثر به الأرصاد والتحقيقات في سير النجوم ، وألّف فيها ، هو وسواه ، رسالات عديدة ، وكذلك في الموازين والأشكال المخروطة ، وقياس الدائرة ، وخواص الزوايا .

وقد ترجم كتابه في قياس الأشكال المسطحة إلى اللغة اللاتينية .

مساحة المثلثات : لم يعرف اليونان علم مساحة المثلثات بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، أي تلك الطريقة التي تحول الاعمال الحسابية إلى مثلثات وحلّ زواياها . فهذه الطريقة السهلة كان الفضل للعرب في اكتشافها ، فكان علم الرياضيات .

البتاني : ابو عبدالله بن جابر البتّاني ، نسبة إلى بتّان ، ناحية من حرّان . كان اصله صابئياً ، اشتغل برصد الكواكب في الرقّة على الفرات مدة ٤٨ سنة . وكان مرصده كثير الآلات الفلكية ، بعضها من مخترعاته .

آثاره : أشهرها الزيج الصابي ، نسبة إلى دينه . والزيج اسم كل كتاب تعرف به أحوال الكواكب وحركاتها ، ويؤخذ منه التقويم . وهو قسمان ، ذكر فيه خلاصة ارصاده ومراقباته ومعلوماته عن النجوم ومجاريها والفلك وطبقاته . ترجم إلى اللاتينية وطبع مرات . في الجزء الثالث منه يستعين المؤلف بالمثلثات في قياس ابعاد الكواكب .

قيمته : قال ابن العبري : لا يُعرف أحد في الاسلام بلغ مبلغه بتصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها . وانتا نتحقق ذلك اذا عرفنا التأثير الذي أحدثته ترجمة كتابه في اوروبا ، حتى كان أعظم الفلكيين يعجب به في أواخر القرن الثامن عشر . وكفى البتاني فخراً استبداله اوتاد الدائرة بالجنوب ، ووضعه لهذه الطريقة علماً اسمه علم المثلثات .

ابو معشر الفلكي : تعلم علم النجوم بعد بلوغه السابعة والاربعين من عمره ،

وكان مدمناً الخمرة .

الفلسفة : اختص العصر العباسي الأول ، من حيث الفلسفة ، بنقل الكتب ، فانتشرت بين المفكرين وطالعوها . فما ظهر العصر العباسي الثاني حتى بدأوا بالتأليف من عندياتهم ، فكان من فلاسفة العرب الاولين : الكندي والفارابي .

الكندي : فيلسوف العرب لانه عربي الاصل ، وهو أمر يستحق الذكر ، فاكثر الفلاسفة الذين كتبوا في العربية كانوا من شعوب غير عربية .

ذُكر له مؤلفات بلغ بها بعضهم المئتين ، ولم يصلنا منها الا بعض مقاطع في العلوم مع أربع رسائل فلسفية بترجمتها للاتينية ، واحدة منها في العقل والمعقول ، وأُخرى في العناصر الخمسة : المادة والهيئة والحركة والزمان والمكان .

الفارابي : « المعلم الثاني » ، (الاول ارسطو) ، تركي الاصل ، أتى بغداد وتعلم العربية ، ثم جاء الشام ، وقصد سيف الدولة بحلب وصحبه حتى مات .

آثاره : في جميع العلوم المعروفة في عصره ، أشهرها : « كتاب المدينة الفاضلة » و « السياسة المدنية » ، « وإحصاء العلوم » .

الجغرافيا والتاريخ : هما من العلوم الدخيلة عند العرب . قبل الاسلام ، كان العرب يعرفون مساكن الجزيرة ومحلاتها ، مهتدين بالكواكب بسبب النجعة والقوافل . فهذه معلوماتهم قبل الاسلام . اما بعده ، فشعروا بالحاجة إلى الجغرافيا ، وقد فرض الحج على الجميع فاضطروا إلى معرفة موقع المدينة ومكة وطرقاتها والقبلة ، لاتجاههم اليها وقت الصلاة .

والفتوحات جعلت البلدان تحت سلطة الخلفاء ، فكان من اللازم معرفة مواقعها وبُعد بعضها عن بعض ومحصولاتها ، ليسنّوا عليها الخراج ، وليتمكن اصحاب البريد من الوصول اليها بلا تردد ، فتسهل المواصلات .

كان النقلة قد ترجموا كتاب الجغرافيا لبطليموس فدرسه الناس وتوسعوا فيه ، وكان أول عملهم شرح هذا الكتاب ، حتى كان العصر العباسي الثاني ، فألّفوا

الكتب الخاصة في الجغرافيا العربية . وأهم المؤلفين في هذا العصر همـــا : ابن خرداذبة واليعقوبي .

ابن خرداذبة : فارسي الأصل ، نشأ ببغداد ، واشتهر بكتاب « المسالك والممالك » ، طبع في مجلة اسيوية . منه فوائد كثيرة تاريخية ، فضلاً عن تقاسيم المملكة وطول المسافات بين البلاد .

اليعقوبي : تآليفه : « كتاب البلدان » ، و « تاريخ الخلفاء العباسيين » .

التاريخ

ولد في عصر الامويين ونضج في العصر العباسي

لم يكن للعرب تاريخ سوى شعرهم في جاهليتهم . اما في صدر الاسلام ، فكان من التاريخ سيرة النبي ومغازيه ، والحوادث التي وقعت في ايامه وايام الصحابة .

نزع العرب إلى تدوين التاريخ في العصر الاموي ، فكتبوا أولاً تاريخ الامم الأخرى ، لرغبة الخلفاء والقواد في الاطلاع على أحوالهم عبرة واقتداء . وعلى هذا الأساس بنيت أسس التاريخ الاسلامي . فقبل الاسلام كان تاريخهم في الشعر . وفي صدر الاسلام كان مؤرخوهم الرواة والعارفون بعلم الانساب الذي تتوقف عليه منزلة القبائل والافراد .

اما أول من دوّن في التاريخ فهو عبيد بن سارية .

عبيد بن سارية : الّف كتاب « الملوك وأخبار الماضين » لمعاوية . وذكر ابن خلكان تأليفاً لابن منبه ، المتوفي عام ١١٦ ، في ملوك حِميَر وأخبارهم .

اذاً بدء التاريخ يكون حقاً في العصر الأموي ، بالاطراد من مدح المشاهير في تحقيق الانساب لاجل العطاء . انما كل هذا ذهب ضياعاً .

وفي العصر العباسي الأول ، مُهِّد السبيل لتأليف التواريخ العامة والخاصة . فكتب ابن هشام سيرة النبي والمغازي والفتوحات .

كتب الواقعي في الفتوحات والمغازي ، ثم وضع ابن سلام طبقات الشعراء ،

ووضع ابن سعد طبقات الصحابة .

وفي العصر العباسي الثاني ، ظهر التاريخ بمعناه الحقيقي . وامتاز هذا العصر بكتابة التاريخ العام الشامل لأخبار القدماء والمحدثين . فانقسم المؤرخون في هذا العصر أربعة اقسام :

مؤرخو الفتوح : وفي مقدمتهم البلاذري – « فتوح البلدان » .

مؤرخو أخبار العرب وشعرائهم وطبقاتهم .

مؤرخو التاريخ الخاص : تاريخ كل بلد وامة على حدة .

مؤرخو التاريخ العام : وابرزهم الطبَري .

الطبَري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، فارسي الاصل ، ولد بآمل من أعمال طبرستان . سافر إلى مصر وسوريا والعراق . اقام ببغداد يعلّم الحديث والفقه ، وفيها كتب تأليفه الكبير . كان في أول عهده شافعي المذهب ، ثم اختار مذهباً خاصاً فلم ينجح . اشتهر بقدرته على التأليف . قيل انه كان كل يوم يسوّد أربعين صحيفة على مدة أربعين سنة . وقد توفي ببغداد .

آثاره : أشهر كتبه « **تاريخ الرسل والملوك** » ، طبع بعد تعب كثير وعناية عجيبة باحد عشر مجلداً ، في لندن . وهو تاريخ عام يبتدىء بآدم وينتهي بالطبري صاحبه .

وله كتاب « **تهذيب الآثار** » ، في الفقه على مذهب جديد اختطه لنفسه ، تكلم فيه عن اختلاف الفقهاء الاربعة ، فقال في ابن حنبل : « لم يكن فقيهاً لكن محدّثاً » ، فنقم عليه الحنابلة فضايقوه . ولما مات دفن ليلاً في داره خوفاً منهم .

وله « **التفسير الكبير** » ، طبع في القاهرة .

قيمته : أعظم مؤرخي هذا العصر ، بل العرب في كل عصر ، لانه جمع في كتابه أخباراً عديدة لولاه لخسرناها .

وتاريخه الفريد في بابه هو مختصر تاريخه الأكبر . تراجع تلاميذه عن نسخه فاختصروه .

وهو ، فوق كل هذا ، مفسر وفقيه ضليــع يفوق غيره من المفسرين .

البلاذري : من تآليفه : « فتوح البلدان » . كان شاعراً وكاتباً ومترجماً ، ينقل من الفارسية إلى العربية .

نشأ ببغداد وتقرب من المتوكل والمستعين والمعتز . ذكر في كتابه « فتوح البلدان » أخبار المسلمين خبراً خبراً ، وأنساب الاشراف منهم .

ابو بكر الصولي : ألـّف تاريخاً للشعراء ، رتب اسماءهم على احرف الهجاء. ويعرف بالشطرنجي لانه كان ألعب أهل زمانه فيه . أصله من ملوك جرجان . كان نديم الخلفاء . جمع اشعاراً كثيرة كما فعل السكـّري بالقدماء .

وله تآليف أُخر في أخبار آل عباس واشعارهم ، ولكنه لم يتمـّه .

الادب

تحوّل الادب في هذا العصر عما كان فيه في العصر السابق ، فتقدم لاسباب ، منها تغيّر عقلية الخلفاء والولاة ، ومعيشة الشعب ، والتأثر بالعلوم المنقولة .

لم تبقَ في الخلفاء تلك الرغبة القوية في الاطلاع على أخبار العرب ومنازعاتهم وأمثالهم وحوادثهم الشعرية التي كانت تدفع الأدباء السالفين ، كالأصمعي وخلف الأحمر وحماد ، الى قطع البراري وتعرُّف القبائل ، لجمع أخبار الشعراء والمتاجرة بها . فانصرف من كان من هذا النوع عن غاية التجارة الى غاية العلم ، فدققوا في صناعتهم ، وأخذوا يشتغلون اشغالاً أخرى الى جانب عملهم الأدبي ، فندر وجود أدباء لم يشتغلوا الا بالادب .

أما الأسباب فلأن البيئة اصبحت غير عربية . فالحكام اعاجم لا تهمهم اخبار العرب وحكاياتهم ، والشعب كأمرائه لا يكترث للعربية . فاعتاض رواته عن الشعر العربي وأخبار العرب ، بالقصص من مصدر غريب ، مثل الف ليلة وليلة.

وكان ان فساد الحكومة ، والنزاع الدائم على الخلافة ، ومصائب الخلفاء وكبار القوم ، دفعت الأدباء الى تعزية جمهور المصابين وتخفيف وقع النكبات بالاقوال الحكمية ، ومبادىء الزهد ، وأخبار رجال الدنيا وأصحاب الفضيلة . فكثرت هذه الأنواع ، واحتلت من كتب العرب مقاماً فسيحاً .

اما ما استفاده أدباء العرب في هذا العصر من كتب الاقدمين ، فهو روح التقسيم والترتيب ، وجمع اطراف الموضوع في مقام واحد ، وفصل كل موضوع عن غيره . فقاموا يميزون بين الادب والنحو واللغة ، يجمعون مظاهر كل فن في

كتب مستقلة ، يبوّبونها بطرق مرتبة سهلة المأخذ .

السكّري : كان من النحاة ، وكان راوية العصر بين جميع الشعراء . وأهم ما بين ايدينا من أشعار الجاهليين وصدر الاسلام الى أيامه ، هو من جمعه .

من تآليفه : شعر القبائل ، ديوان الهزليين ، أخبار اللصوص ، شعر الافراد. جمع اشعار الكثيرين من الجاهليين كامرىء القيس والنابغة الخ ...

قدامة بن جعفر : كاتب بغدادي ،كان أبوه نصرانياً وأسلم في أيام المستكفي.

آثاره : ألّف كتبا عديدة لم يصل الينا منها الّا كتاب الخراج في الجغرافية ، وكتاب نقد الشعر ، ونقد النثر. وهذان الكتابان الأخيران من خير ما كتب في ذلك الزمان .

الوشّاء : عاش في أواخر القرن الثالث للهجرة . أديب ظريف نحوي ، له تآليف لم يصل الينا منها الا كتاب الموشّى ، الفريد في بابه ، وهو يمثل ذلك العصر ، ولاسيما وصف الأدباء ، على اختلاف الطبقات ، بما كانوا يكتبونه من الاشعار عن الشباب والعصائب .

ابن قتيبة : اديب نحوي قاضٍ ، ولد في الدينور فنسب اليها. علّم ببغداد. جمّ المعارف ، واسع الاطلاع ، جريء في قول الحق . ألّف بالحديث والأدب واللغة والتاريخ .

آثاره : كتاب الشعر والشعراء ، فيه تراجم الشعراء والمشهورين الذين يعرفهم جلّ اهل الأدب ، ويحتج باشعارهم في النحو وكتاب الله ، وهم المشهورون من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام في زمن المؤلف ، وقد أورد أمثلة من أشعارهم ونظر فيها وانتقدها .

أدب الكاتب : يحتوي على ما يحتاج اليه الكاتب الأديب في صناعة الكتابة من الاطلاع على الآداب والعلوم ، مع اصلاح ما كان يقع فيه الكتاب من الغلط والوهم في معاني الكلمات والتركيب . وقسمه ثلاثة اقسام : ١ — إقامة الهجاء أي الاملاء . ٢ — تقويم اللسان . ٣ — الأبنية .

لُخص هذا الكتاب وشُرح ثلاث مرات . وله كتاب الشعر الكبير ،

خطّ بالقسطنطينية . وكتاب عيون الأخبار ، عشرة كتب ، طبع حديثاً في مصر .

وله في غير الأدب كتب عديدة ، منها :

كتاب المعارف : وهو خلاصة تاريخ الخلفاء والصحابة ، ومغازي النبي ، وأحاديث القراء ، وأهل العاهات ، وأخبار ملوك العجم .

الامامة والسياسة: تاريخ الخلافة من وفاة النبي إلى عهد المأمون مع شروطها.

التسوية بين العرب والعجم : فيه تفضيل العرب على العجم .

كتاب الرحّل والنزّل : في اللغة .

قيمته : عالم باللغة والنحو ، والتاريخ والفقه والأدب . وهو أول أديب اشتغل بالأدب إلى جانب غيره من العلوم . أما ما يهمنا الآن فهو قيمته في الأدب .

لقد استفاد كثيراً من علومه المختلفة ، فأدخل روحاً جديداً في الانتقاد . أي انه كان جريئاً تجاوز نقد الظاهر الى المعنى ، ففند كثيراً من مصطلحات الأدباء .

ومن اطلع على كتابه : « عيون الأخبار » ، يرى فيه شيئاً من كل آداب الأمم .

الجاحظ

ترجمته : اسمه ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب . جده عبد أسود كان جمّالاً لعمرو بن الكناني .

ولد في البصرة ، وكان في أول عهده بيـــاع خبز وسمك . لقب الجاحظ لدمامة خلقه ، وجحوظ عينيـــه . استدعاه المتوكل لتهذيب ولده ، فاستبشع سحنته ، فصرفه بعد ان أمر له بشيءٍ من المال .

انتحاله : كتب في أول عهده ، ونسب ما كتبه الى الأقدمـــين كابن المقفع وسهل بن هرون .

سجنه : سجن في عهد المتوكل ، عـــدو المعتزلة . وسبب سجنه طريقته « الجاحظية » المعروفة باسمه ، وهي تخالف آراء السنّة والمعتزلة .

دينه : قال ابن أبي دؤاد : « أثق بظرفه ، ولا أثق بدينه » .

مرضه : أُصيب في آخر حياته بالفالج ، وفي ذلك قال :

عليل في مكانين من الأسقام والدّين

وكان يقول : « وماذا تصنع بلعاب سائل ، وشقٍّ مائل ، ولون حائل ؟ » ومما قاله لابن اخته : « لم يبقَ لي من مـــلاذ الدنيا إلا ثلاث : ذمّ البخلاء ، وحكّ الجرَب ، وأكل الحديد » .

مع المبرّد : قال المبرّد : « زرت الجاحظ في آخر ايامـــه ، فقلت : كيف أنت ؟ فاجاب : كيف يكون من نصفه مفلوج لو نشر بالمناشير لما أحس به ،

ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، والامرّ في ذلك اني قد جزت التسعين !

أترجو ان تكون وانت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب خليق كالجديد من الثياب ».

الجاحظية : كان بادىء أمره تلميذاً للنّظام ، والنظام كان يسير على مبادىء ارسطو وتلامذته ، محكّماً العقل في الوحي . اما الجاحظ فرأى جفاف تلك الفلسفة « اليونانية المنطقية » ، فلجأ إلى تطبيق مبادئه على التاريخ والاختبار . فانفرد عن المعتزلة وأسّس مذهباً جديداً في الفلسفة اللاهوتية ، عرف بـ « الجاحظية » .

المعتزلة

مبادئها :

١ – القول بالمنزلة بين المنزلتين ، (كقضية المطهر في الكثلكة) .
٢ – القول بالقدَر ، وان الله لا يخلق افعال الناس بل هم يخلقون اعمالهم ، ومن اجل ذلك يثابون ويعاقبون .
٣ – التوحيد ، اي ان الله ليس له صفات أزلية زائدة على ذاته .
٤ – القول بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ولم يرد بهما شرع . اي ان الشرع لم يجعل الشيء حسناً بأمره به .

الجاحظية

اما الجاحظية فتخالف المعتزلة فيما يأتي :
١ – ليس للعباد كسب سوى الارادة ، اما الافعال فجبرية يأتيها العباد طبيعة .

فيستنتج من هذا ان لا فضل لهم بالعمل ، ثم يتخطّى إلى انه لا ثواب ولا عقاب ، كما لا يثاب الانسان ولا يعاقب على تركيب بدنه ولونه .

٢ – أهل النار يصيرون إلى طبيعة النار ولا يدخلون فيها .

٣ – الجاهل بالله معذور والعالم محجوج .

٤ – خلق القرآن .

شكله : كان شنيع الشكل بشع الصورة ، وقد قيل فيه :

لو يخلق الخنزير خلقاً ثانياً   ما كان الّا دون قبح الجاحظ

ثقافته : أخذ العربية من المربد ومن الاصمعي وابي زيد ، واليونانية من مناظرة علماء الكلام ومشافهة حنين بن اسحق وابن سلمويه . وحذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وأخذه عن أبي عبيدة . وتوسع في الثقافات كلها من مطالعة الكتب ، فعرف المسيحية كما فهم اليهودية والمانوية ، فجاءت ثقافته مجموعة ثقافات .

ولقد كان الزمان أكبر مثقف للجاحظ . فولد في خلافة المهدي ، ونشأ في خلافة الهادي ، وشبّ في عهد الرشيد ، وشهد صراع الامين والمأمون ، ونضج في عهد ازدهار المعتزلة ، واشترك في جميع الابحاث العلمية والفلسفية . رأى الفرس وغلبتهم ، والترك وسطوتهم وحلولهم محل الفرس . كما عاين دولة الواثق تنهج نهج المعتصم ، والمأمون يناصر المعتزلة والمتوكل يشرد اصحابها . ومرت عليه دولة المنتصر والمستعين والمعتز ، وهو يعاني الفالج والنقرس ، حتى مات في عهد المهتدي بالله .

فحياة الجاحظ تاريخ قرن بكامله ، وهو زهرة القرون العباسية ، وقد مر في كل اطوار الحياة : من ولد يبيع خبزاً وسمكا بسيحان ، الى رجل يخالط العلماء ، الى كاتب مثقف يعتني بما ألّف ، ويمتلك ضيعة تنسب اليه ، ويبني قصراً ، ويقتني عبيداً خدموا في قصور الملوك .

رحل الى بغداد زمناً ، ثم الى دمشق وانطاكية ، وهذه ثقافة جديدة اكتسبها من غير الكتب بدرس طبائع الناس واخلاقهم ومعرفة دخائلهم .

ولهذا ترى في كتبه شيئاً ملموساً عن الحياة . فكأنك تراها وتذوقهـــا من وصفه ، وهـــذا لا تراه الا في كتبه . فكامل المبرد ، وامالي القالي ، وعيون ابن قتيبة ، لا تريك شيئاً مما يريك ، مما يجعل كتبه أغزر مصدر لدرس الحياة الاجتماعية في هذا العصر .

كتبه : كتب الجـــاحظ في كل شيء ، من صفات الله الى القيان والحُول والعُور ، والحيوانات والدبابات والحشرات مزج العـــلم بالأدب ، نظريات وتجاريب ، اخبار وحوادث واقعية . مزج الشعر الجاهلي بالاسلامي ، بعـــلم ارسطو ، بطب جالينوس ، وآي القرآن بالحديث ، ورأي الطبيعيين والدهريين ، واليهودية والنصرانية والزردشتيين والمانويين .

اسلوبه : مزج كل هذه الاشياء ببعضها والقارىء يقبلها منه لخلطه الجـــد بالهزل ، ومزج اللقمة بكثير من الحلوى ، حتى اذا أعدك للبكاء ، رماك بنادرة تمعن منها في الضحك . واضح البرهان ، جزل اللفظ ، سريع التنقل من حكمة بليغة الى نادرة ظريفة . غلبت عليه النزعة الأدبية في كل مـــا كتب ، حتى في كتاب الحيوان . يتخير خير الالفاظ وأحسن التعبيرات ، ويفرّ سريعـــاً من الأسلوب العلمي الى مناحي الأدب ، من شعر أو حكمة أو نادرة .

البيان والتبيين : آخر ما ألـّف الجاحظ ، بدأ بالتعوذ من العي ، وساق الشعر في ذمه ، وانتقل الى مدح فصاحة اللسان ، ثم الى اختلاف لغات العرب . وتكلم عن اللثغة ، ومنها انتقل الى عيوب اللسان ، فنحنحة الخطباء ، وعدّد كثيراً منهم ، ثم تكلم عن الالفاظ المتنافرة ، وتوصّل منها الى اللكنة .

هذا في الباب الأول ؛ ثم عقد باباً للبيان ، وذكر بلغاء وخطباء وأنبيـــاء وفقهاء وأمراء . ثم تكلم عن البلاغة واللسان والصمت ، وأسماء كهّان قحطان وعلمائهم وأمرائهم الخ .

أما الجزء الثاني ، ففيه يقول : انه ردّ على الشعوبية . ولكنه روى الاحاديث والخطب والالغاز والحكم ، وتكلم عن اللحن والحمقى والمجانـين ، وكتب وصايا ونوادر لبعض الاعراب . حتى اذا أتمّ الجزء الثاني جـــاء الجزء الثالث ، وأوله

كتاب العصا في الردّ على الشعوبية . ثم كتاب في الزهد ، تكلم فيه عن النساك وكلامهم واخلاقهم ومواعظهم . ثم باب في دعاء السلف الصالحين والمتقدمين ، ودعاء الاعراب ، ثم مقطعات في نوادر الأعراب وأشعارهم .

الحيوان : كتاب الجاحظ الشهير ، ألّفه لبيان الحجج على حكمة اللهالسامية وقدرته العجيبة الخ ... ومما قاله : ان أهمية الحيوانات جعلت سُوراً من القرآن الكريم مسماة باسمها ، كسورة البقرة ، وغيرها . وهذا الكتاب مزيج ايضاً من جدّ وهزل وحكمة وتاريخ وعلم ، الى لذع واحماض ومجون مكشوف .

ويخبر الجاحظ انه في هذا الانتقال العجيب ، يصادف عناءً ما كان يصادفه لو كتب في موضوع واحد .

أما مصادر هذا الكتاب فكثيرة . القرآن ، التوراة ، الانجيل ، حديث ، أخبار ، أشعار ، أمثال مضروبة . كتب قرأها في فنون شتى ، محادثة أطباء وتجّار وذوي حرَف ، وتجارب جربها بنفسه في الحيوان والنبات ، وسفر وسماع لمن مارس الأسفار وركب البحار وسكن الصحاري وسلك الاودية .

وفي كل ما حدث لم يقبل عقله خرافة ، بل يهزأ بمن يقبلها . وهو يشكّ ، حتى يجرب وتثبت النظرية . وهو يلاحظ في ابحاثه ملاحظات كأنه فيها من علماء هذا الزمان .

إن الثقافات التي وصفنا الجاحظ بها تظهر في كتابه هذا أكثر منها في كتابه الأول .

فمن أهم العناصر التي اعتمد عليها في كتاب الحيوان ، ما كتبه ارسطو في هذا الموضوع ، فنقله ابن البطريق الى العربية ، كما يقول ابن النديم في فهرسته صفحة ٢٥١ .

قد ذكر الجاحظ ارسطو في كتابه باسم صاحب المنطق ، وصرح باسمه أيضاً . إن موقف الجاحظ منه كان موقف العالم الجريء ، فلم يصب امامه بشلل الفكر – كما أصيب ابن سينا وغيره من الفلاسفة في الشرق والغرب ، فلم

يقدموا على مناقشته — بل كان يضع أرسطو في مخبره يمتحنه ويجربه ، ويخطئه أحياناً ، ثم يقارن بين قوله وقول شاعر جاهلي أو اسلامي ، ويفاضل بينهما ، فيكون طوراً مع ارسطو وحيناً عليه .

واليك برهاناً هذه الحكاية . قال الجاحظ : زعم صاحب المنطق ان قد ظهرت حية لها رأسان . فسألت اعرابياً عن ذلك ، فزعم ان ذلك حق . فقلت له : فمن أي جهة الرأسين تسعى ؟ ومن أيهما تأكل وتعضّ ؟ فقال : اما السعي ، فلا تسعى ، ولكنها تسعى الى حاجتها بالتقلب ، كما يتقلب الصبيان على الرمل ؛ واما الأكل ، فانها تتعشّى بفم وتتغدى بفم ؛ وأما العضّ ، فانها تعض برأسيها معاً . وختم القصة بقوله عن الاعرابي : « فاذا به أكذب البرية » .

فلا يظنن أحد ان كتاب الحيوان لا يتناول إلّا الحيوان فقط ، فالجاحظ فيه كثير التنقل من موضوع إلى آخر ، ففيه شيء من علم الفراسة عن اقليمون ، ومن الطب عن جالينوس ، وكلام عن الفرس واديانهم ، وعن اليهودية والمسيحية ، واشياء لا تخطر ببال .

وقصارى القول، ان كتاب الحيوان معرض لكل الثقافات : عربية ويونانية وفارسية وهندية ، ومعرض أيضاً لثقافات دينية : مانوية وزردشتية ودهرية ويهودية ونصرانية واسلامية .

وقد أثّر اسلوب الجاحظ هذا فيمن كتب بعده ، فجاءت كل كتب الأدب تقريباً غير مبوبة ، يكثر فيها الاستطراد .

كتاب البخلاء : لم يكتب كاتب في مواضيع مختلفة كما كتب الجاحظ . وقد اعرب في كل موضوع عن مقدرة لا يضارعه فيها احد . فهو في كل موضوع من موضوعاته يعرب عن شخصية جديدة ، وانه في بخلائه غيره في الحيوان والبيان والتبيين . ولعله اول من عني بالاسلوب العلمي في كتاب الحيوان ، وان كان يستطرد إلى حكايات تنفي الملل عن القارىء . وهو اول من عني بالالفاظ الوضعية التي تؤدي الفكرة على حقها ، بالفاظها الوضعية ، وقد صارت هذه الالفاظ أداة للاسلوب الذي ابتدعه .

يخال للقارىء ان كتاب البخلاء حكايات ونوادر مضحكة ، مع انها اعمق

دراسة للنفس البشرية ، تحلل الاعمال وبواعثها واغراضها . فالجاحظ هنا عالم نفساني قبل ان وجد هذا العلم ، ويقارن بلباقة لا توصف بين النظرية والتطبيق ، فيجلو لنا الاشخاص ايما جلاء .

كتاب البخلاء تناول ناحية واحدة من النفس ، هي البخل ، فقلبها على جميع وجوهها ونظر اليها من كل جانب . ولو عني في جميع مناحي النفس لجاء عمله تاماً ، ولكنه وضع اساساً لهذا العلم وشقّ طريقه للناس ، فلو طلبنا اليوم إلى اكبر علماء النفس ان يحلل نفسية البخيل ، ما استطاع ان يكتب مثل كتاب البخلاء ، لا من حيث التحليل الدقيق ، ولا من حيث الفن الرائع . واذا ضاهاه احد في فن القص قصر عنه في الفكاهةوالسخر العميق .

ولئن كتب موليير واصفاً بخيلاً واحداً ، فالجاحظ لم يدع بخيلاً يفلت منه ، وكل ذلك بروح مرحة ونفسية فكهة ساخرة . مزج الجد بالهزل ، والفلسفة بالفن ، والتفكير بالاطلاع الواسع .

استطاع ان يكون مصوراً يحسن رسم الشخوص ومزج الالوان . يروح ويجيء بخفة الطير . هو قصصي ماهر يجيد سوق قصته إلى غرضه . واني لأخال الجاحظ قد عرف هؤلاء الاشخاص الذين تحدث عنهم وعايشهم ، فأحسن تصويرهم ولم يدع منهم خطّاً واحداً .

لست اظن ان احداً يستطيع ان يكتب بمثل هذا التفصيل قصة بخيل كالكندي ، صاحب بيوت الكراء في البصرة . ان الجاحظ مطبوع على الجدل ، ولهذا نرى في بخلائه هذه الصفة بارزة جداً .

خذ مثلاً لذلك عبد الرحمن آكل الرؤوس ، لترى كيف يغوص الجاحظ في الاعماق ، فينتقد ويجادل حتى يشبع نفسه المتعطشة إلى مثل هذا الكلام .

من عادة القصصي ان يعرّفك بمن يتحدث عنه بوصفه لك ظاهرياً ، أما الجاحظ فما عمل شيئاً من هذا ، ولكنه رسمه لك نفسياً فتتخيل انت ظاهره .

ان كتاب البخلاء اثر فني فيه روح القصص وحكمة الفيلسوف الناقد الاجتماعي .

خلاصة : الجاحظ اقدر الناس حجة ، يستهزىء بكل أمر ، حاضر النكتة. شخصيته بارزة في كل شيء . ففي حياته شخصية بارزة لا تمتزج بغيرها من الشخصيات ، وفي آرائه متكلم شخصي ، وفي انشائه اديب شخصي . هو الرجل الذي يكوّن نفسه ويطبعها على غرار خاص . وكلمة « نسيج وحده » كأنما كتبت لتقال في الجاحظ .

واذا كان الأدب هو الالمام بكل فن ، فالجاحظ هو الأديب ، هو الكاتب الفريد الذي يأسر قارئه ، وان حدثه عن اتفه الأشياء .

الترتيب : لا ترتيب ولا نظام عنده ولا تبويب فيما يكتب ، فاسلوبه هو انه لا اسلوب له ، ان طريقته منبثقة من شخصيته . هو أشبه بديكارت القائل لخادمه : لا تخربط عدم نظام مكتبي .

الجاحظ في الشرق ، كفولتير في الغرب . هو مزيج من كل ما عرفه العرب من ثقافات .

عود الى ابن قتيبة : صاحب عيون الأخبار هذا ، هو بالجاحظ اشبه من حيث امتزاج الثقافات ، وقد الف مثله ، إنما كان أكثر ترتيباً . عاصر الجاحظ وانتقده بأنه يعبث بالدين وبكل شيء .

فهذا رجل جدّ ودين من رؤساء أهل السنة ، مطلع كل الاطلاع على التوراة والانجيل ، وقد أكثر النقل عنهما . وبكلمة مختصرة ، نقول : ان ثقافته واسعة دينياً ومدنياً ، ولكن ليس في اسلوبه طلاوة الجاحظ .

تطور اللغة

في العصر الاموي ، كانت الدولة عربية في كل شيء ، خليفة وجنوداً وقواداً وعمالا . كانت العصبية شديدة للعرب ، وسيادتهم على الشعوب قوية . احتقار وامتهان لكل ما هو غير عربي .

لم يحدث تغير جوهري في اللغة ، فما فتئت تجري مجراها وترتقي رقيها

الطبيعي ، حسب العمران الجديد ، دون ان تنتقص او تزيد في افكارها ومعانيها .

في ذلك الوقت تعربت الشعوب الخاضعة لسلطة العرب : فدانت بدينهم وتكلمت بلغتهم ، وان كان بلحن . ثم تحركت الشعوب المغلوبة ، وانتشر روح الشعوبية بينهم ، وازدادوا يقظة للنهوض عندما رأوا ان الفاتحين الذين غلبوهم لا يفوقونهم بشيء .

وكان الفرس في مقدمة الشعوب الثائرة على العرب . أوجدوا دولة جديدة ، عربية برئيسها وأجنبية بدولتها ،أي برجال الحكومة الذين كانوا من غير العرب، الفرس والموالي . فضعفت العصبية العربية ، وتمكنت الشعوبية ، وتكونت دولة جديدة ، قوامها الفرس وأركانها السريان والترك والبربر ، الخ ... فأخذ كل واحد من هؤلاء الشعوب يخرج من خزائن آدابه ذخائر علومه التي طابت للخلفاء ، وما امتازت به امته ، فحصلت ثروة عظيمة للغة ، فزادت ألفاظها الوضعية من ترجمة اللغة الاجنبية ، أو بنقلها إلى اللغة العربية بلفظها الأصلي ، أو بتعريبها . فلطفت العبارة بما أدخل فيها من التجمل والتلطف ، حسب عادات الشعوب المتمدنة .

اما في العصر العباسي الثاني ، فتلاشت تلك العصبية العربية ، وضعفت الخلافة ، واشتدت الدولة الاعجمية وقويت . استعان المتوكل بالاتراك لا بالعرب لضرب الفرس ، لان العرب ضعفت ثقتهم بالخليفة ، وقلت قيمتهم . فقاوم الاتراك الفرس ، واضطهدوا الخليفة ، واتفقوا مع الفرس بمناضلة العرب . فتسرب الضعف إلى اللغة العربية ، فاصبح بعض الأمراء يدفعون الكتبة ليؤلفوا بلغة أجدادهم ، ويقصوا أخبار قومهم كالدقيقي والفردوسي .

العصر العباسي الثالث

ضعف الخلفاء : في أيام القاهر كان مبدأ دولة بني بويه وذلك سنة ٣٢٠ . أدى إلى ذلك استبداد الاتراك بالسلطة ، فاختلّ نظام الملك ، وكثرت الفتن والثورات ، فاستقل كل حاكم بالبلاد التي يحكمها .

وفي سنة ٣٢٣ اضطرّ الراضي ان يقلد محمد بن رائق الوزارة وامارة الجند ، ولقبّه أمير الأمراء . وخطب لابن رائق في البلاد على المنابر ،وفوّض اليه الخراج في جميع البلاد . ومن ثم أصبحت الخلافة رسماً دينياً صورياً ، وأصبح الخليفة وليس بيده من سياسة الملك شيء ، بل الأمر كله بيد أمير الأمراء ، وليس للخليفة الا الخطبة والسكّة ، بل يشركه في الخطبة أمير الأمراء .

فانقسمت المملكة هكذا : لم يبقَ للخليفة غير الخلافة وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق . اما باقي الاطراف فكانت :البصرة بيد ابن رائق ،وخوزستان بيد أبي علي محمد بن الياس ، والري وأصفهان والجبل في يد ابن بويه ركن الدولة ، وهو وشمكير بن زيار يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد الأخشيد محمد بن طغج — وأخشيد لقب ملوك فرغانة ومعناه ملك الملوك — والمغرب وافريقيا في يد القائم العلوي ، والاندلس في يد الناصر الأموي ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر الساماني ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين وعمان في يد ابي طاهر القرمطي .

اما الراضي ، فمات سنة ٣٢٩ وهو آخر خليفة انفرد بتدبير الخلافة ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة كانت نفقته وخدمه وحجابه وكل شؤونه على قواعد الخلفاء المتقدمين . أما امارة بني بويه ، فأعلنها المستكفي ولقب صاحبها معز الدولة ، ولقّب أخاه حسناً ركن الدولة، ولقّب أخاه علياً عماد الدولة ، وضرب أسماءهم على النقود . ولما عزم المستكفي على الفتك بابن بويه ، شعر ابن بويه بذلك فخلع الخليفة سنة ٣٣٤ وسجنه حتى مات ٣٣٨ .

وسلب بنو بويه كل سلطة الخلافة ولم يبقَ للخليفة إلا كاتب يدير أملاكه . واستعاد معز الدولة بن بويه مدناً كثيرة حتى بلغ ما لم يبلغه قبله إلا الخلفاء .

أما دولة الفاطميين ، فظهرت سنة ٣٥٨ على يد جوهر القائد ، فبايع الناس الفاطميين وانقطعت الخطبة عن بني العباس ، وبنى جوهر القاهرة لاسكان الجند فيها . وأول خليفة دخلها هو المعز سنة ٣٦٢ ، ثم ملك دمشق وغيرها .

وفي أواخر هذ االعصر ، ضعفت الدولة الأموية في الأندلس حتى انقرضت سنة ٤٠٧ ، بعد ان دامت ٢٦٨ عاماً . وقسّمت فامتلك كل عامل المنطقة التي كان يحكمها ، كما جرى في الدولة العباسية . وظلت تنتقل في أيدي ملوك الطوائف إلى أن خرجت من المسلمين تماماً في أيام بني الأحمر سنة ٨٩٧ .

اللغة في هذا الطور : رأيت فيما تقدم تجزؤ الدولة . وفي كل هذا لم يستغن الأمراء عن اتخاذ اللغة الفصحى العربية لغة رسمية في التعبّد والتعليم والسياسة . إلا ان هذه اللغة اصطبغت بصبغة قومية في بعض أحوالها .

فارس والعراق : فالفرس في العراق وفارس وخراسان حاولوا انشاء آداب جديدة بلغتهم الفارسية الحديثة . فأفلحوا في الادب ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يجعلوها لغة العلم والاشتراع والتعليم والسياسة ، لخلوها من الاصطلاحات الحديثة . فظلت اللغة العربية صاحبة النفوذ والسيادة في جميع الممالك الشرقية التي اشتقت من الدولة العباسية ، يبذل كل ملك جهده في ترغيب العلماء والأدباء

والكتاب والشعراء والاطباء والمهندسين في الاقامة عنده ، تأييداً لملكه وزينة لدولته .

فبقيت سوق الأدب رائجة أكثر من قرنين ، ثم اضمحلّت بالتدريج بتغلب النزعات القومية ، وانقراض العلماء والأدباء المطبوعين بطابع الدولة العباسية ، حتى خرج التتر في أواسط القرن السابع ، وخربوا تلك الممالك وقتلوا علماءها وبدّدوا كتبها . فجمدت اللغة العربية في أواسط آسيا جموداً لم تنتعش بعده .

الشعر : عاش شعراء كثيرون في هذه الممالك الشرقية يكتبون في دواوينها، ويمدحون وينادمون ويعلمون في مدارسها . ومنهم من كان يتنقل من مملكة إلى أخرى . ولم يجـــاروا شعراء الشام ومصر والجزيرة والأندلس لأنهم في بيئة أعجمية . ومع ذلك سلكوا مسلك الشعراء المتقدمين في اغراضهم من مـــديح وغزل ورثاء ووصف وفخر ، بضعف قليل في البلاغة واختراع المعاني .

إنما حدث **الشعر التهكمي المضحك على لسان ابن سكّرة وابن حجاج في بغداد** ، ثم انتشر هذا النوع ، وهو بمنزلة جرائدنا الهزلية اليوم .

وظهر نوع آخر ، وهو شعر فلسفي يشرح بعض الحقائق الفلسفية وحركة الاجرام السماوية ، كشعر ابن سينا والرازي وابن التلميذ الطبيب ، وشعر آخر صوفي رمزي نشأ في العراق ثم انتقل الى الشام ومصر ، كما في شعر الحـــلاج والشبلي والقشيري .

وهجر الشعراء استعمال الغريب من اللفظ والعويص من الاسلوب، واستعملوا الفاظاً أعجمية واصطلاحات فنية ومحسنات بديعية وألفاظ مجون وسخف .

اما المعاني المخترعة فكانت في شعر البغداديين ، لانهم فاتحو باب الهـزل ، وهو الفن الجديد . ولكن بين شعرائهم الهزليين شعراء ألمّوا بالمعـاني الشريفة والاخيلة الرائعة وتنزهوا عن الأسلوب الخليع، كالشريف الرضي ومهيار الديلمي.

وقد كان شعر أهل العراق عامة أرق اسلوباً وأفصح لفظاً من شعر أهـــل فارس وخراسان .

مصر والشام : انتشر العرب في مصر والشام ، بعد الفتـــح الاسلامي ،

لخصبها وقربها من الجزيرة ، فغلبت لغتهم وآدابهم ودينهم على لغـــة الروم والقبط . ولما ضعفت بغداد ، وقعت مصر في ايدي الطولونيـين فالاخشيديين فالفاطميين غنيمة باردة . فكانت مصر اخيراً عاصمة لخلافة عربية علوية ضخمة ذات حضارة عاليــــة ، وعاشت هذه الدولة ٢٧٠ سنة ، فصبغت مصر والشام بصبغتها في بعض الاعتقاد ، وأكثر العادات والاعياد ، وكانت حضارتهـــا في الصناعات اساساً للفنّ العربي الاسلامي ، إلى وقتنا هذا .

أحبّ وزراء هذه الدولة وامراؤها وخلفاؤها العلم والأدب والشعر أقصى محبة . فهاجر الأدباء إلى مصر من كل فجّ ، فجلس الخلفاء للشعراء في الأعيـــاد يستعرضون بضاعتهم وأجازوهم أسنى الجوائز . ولم يخمد هـــذه الشعلة المدنية الا نشوب الحرب الصليبية ومنازعة مواليهم لهم ، كما أصاب الدولة العباسية ، فأباد صلاح الدين الايوبي خلافتهم الفاطميـــة ، وأسّس دولة كردية في النسب مستعربة في اللسان والنزعة ، على انقاضها . انتفعت الدولة الايوبية بحضـــارة الفاطميين ، واحلّت محل مذهبهم الشيعي الباطني ، مذهب أهل السنّة . اما المملكة الايوبية فقوّضها مماليكها التركمان .

الشعر : كانت دار الخلافة معرضـــاً للأدباء والعلماء والشعراء والكتاب ، يهاجرون اليها من مصر والشام اللتين لم تكونا في شبـــاب الدولة العباسية الا ولايتين مرجعهما بغداد ، فكان الشاعر المشهور لا يطير صيته الا اذا هاجر إلى بغداد كما حصل للبحتري وابي تمام. اما الاديب والشاعر والعالم الذين لا يقوون على المهاجرة والاسفار فيظل ذكرهم خاملاً .

ولهذا لم تكن الفسطاط والاسكندرية ودمشق بيئة صالحة في ذلك الوقت لاقامة الشعراء ، ولكن لما ضعفت بغـداد قاسمتها مصر والشام العناية بالادب والشعر والفنون ، فعاش فيهما شعراؤهما ولم يرحلوا إلى غيرهما الا قليلاً . والمثل دويلة سيف الدولة الصغيرة في شمالي الشام ، فقد التفّ فيها حول اميرها جمهرة من الشعراء والادباء والفلاسفة والنحاة الخ . من الشام ومختلف الاقطار ، ممـــا لم يرَ مثله في باب خليفة . بل ان شاعر سيف الدولة لم يبالِ بخليفة بغـــداد

ووزيرها المهلبي عند مروره بها قاصداً عضد الدولة .

فالشعر زمن الايوبيين والفاطميين لم يطّـرد تقدمه،لطول هذا العصر وتقاصر همم الملوك في أواخره عن معاضدة اهله . فانصرف الشعراء اخيراً إلى الخدمـة في الدواوين ، وظلوا ينظمون الشعر اما تكمّلاً وتظرّفاً أو تملقـاً للرؤساء وتقرباً منهم .

لذلك كان مبدأ هذا العصر بمصر والشام نهاية ما وصل اليه الشعر العربي من الارتقاء ، كما في شعر المتنبي وابي فراس والمعري ، لقرب عهدهم بالعصر العباسي السابق وتأدبهم بأدبه .

واخذ الشعر يتحول رويداً رويداً إلى صورة وطنية قومية ، بسبب مـا نشأ في مصر والشام في قرنين من حضارة خاصة ومذاهب مختلفة شيعية وباطنية وصوفية وسنّية ، وكلها ذات تقاليد ورسوم حديثة ، وبسبب ما دهم البلاد من الحروب الصليبية التي غيّرت مجرى الحكم ونظمه وطرق الكسب والمعيشة ، وشغلت الناس عن الاستزادة من العلم والادب .

صفات الشعر بقيت فنون الشعر واغراضه كما كانت قديماً مستعملة في الشام ومصر . ثم استدعت حوادث العصر السياسية وشؤون التربية الخلقية والادبية والثقافة العلمية خصوصاً ، بعض توسع في اغراض الشعر القديمة ، او تنويعها او زيادة عليها ، فـكان ما يأتي :

أن توسعَ شعراء الشام في وصف الطبيعة قبـل ان تجتاح بلادهم الحروب الصليبية ، ولذلك سببان :

الاول : اتساع مجال الخيال الجميـل عندهم ، ووفرته لديهم بجمال بيئتهم وكثرة مناظرها الرائعة ،كالجبال الشاهقة المكللة بالغيوم والثلوج ، وما اليها من المروج ، والجداول ، والحدائق ، إلى صحة الهواء واعتدال الفصول وتميز بعضها من بعض .

الثاني : قرب الشام من العراق ، منشأ الحضارة الاسلامية ومنبت علمـاء اللغة والشريعة والحكمة ، وقربها من الجزيرة مهد الفصاحة الأوّلي ، وكان

عند أهلها في ذلك العهد بقية منها . واتصالهم بالشام يسّر لهم الاتصال بمصر ، ولذلك نرى سكان شرقي الشام حتى وقتنا هذا من أهـــل البدو أو المتطبعين بطباعهم .

ولقرب الشام من العراق ظلت فيهم ، في مطلع هذا العصر ، ملكة التكمل بالمعرفة والعلم ، والتزود من العلوم الاسلامية ، والفلسفة المنقولة عن الأوائل ، التي رسخت في أذهان نشء هذا الزمان بالعراق والجزيرة وشمالي الشام .

كل هذا من الأسباب التي تنمّي مادة الخيال ، وتجمل صوره وتشكلها بما لا يحصى ، وبما يجوّد اللفظ . ولذلك نجـــد أشهر الوصافين من الشاميين ، مثل كجاشم والصنوبري والوأوأ . فكجاشم فلسطيني من الرمـــلة ، والصنوبري حلبي من شعراء سيف الدولة ، والوأوأ دمشقي ، وهو القائل :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت   ورداً وعضت على العناب بالبرد

وتوسع شعراء الشام في وصف المعارك الحربية ، لكثرة وقوعهـا بين دول الجزيرة والشام ومصر من جهـــة • والروم والبيزنطيين والافرنج الصليبيين ، بعدئذ ، من جهة أخرى .

فشعراء سيف الدولة ، كالمتنبي وأبي فراس والنامي والببغاء ، وشعراء نور الدين بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، ممن يجيدون وصف المعارك الحربية .

(العماد الاصبهاني والجواني ممن مدحوا صلاح الدين) .

وتوسع شعراء الشام في الحِكم والأمثال ، كما فعـــل المتنبي ، ونقد العادات وشرح الفلسفة واحسان معاملة الحيوان كما فعل المعري .

وتنوعت التهاني ، وخصوصاً في مصر ، بسبب الاعياد التي كان يقيمهـــا الفاطميون ، كوفاء النيل ، وفتح الخليج ، ومولد النبي ، والنيروز المصري ، وقافلة الحج .

وتنوع الشعر الصوفي بتنوع الكنايات والرموز عن اسراره بالغزل والخمريات ووصف السير والسرى . ثم خرج عن طريقة الرموز والكناية الى تقرير حقائق التصوف وتقسيم مقاماته وأحواله .

ديباجة الشعر : كان في هـــذا العصر لا يزال رصيناً جزلاً ممزوجاً ببعض الغريب ، ولا سيما لدى شعراء الشام لغلبة البداوة على أهليه ، كما في شعر المتنبي وأبي فراس والمعري .

ولما تغلبت الدولة الفاطمية وغلبت حضارتها وعلومها وفلسفتها ورخاؤها ، مال الأدباء فيها إلى الظرف والتملح في كل شيء . فاستدعى ذلك رقة اللفظ ، ولطافة المبنى ، والميل الى المحسنات اللفظية . فاشتهرت هذه الطريقة في أواخر العصر الفاطمي بين المصريين من أمثال القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، وابن النبيه ، وابن مطروح . ثم انتهت بالبهاء زهير ، فتبسط فيها حتى قربت من درجة لفظ العامة ، وسرى هذا الروح الى شعراء الشام .

الشعراء

المتنبي

نسبه : يرجع لابيه المعروف بعبدان السقّاء الذي كان يستقي في الكوفة على جمله لاهل محلة فيها ، اسمها كندة .

ذاكرته : يروون عن قوة ذاكرته انه كان عند ورّاق ، فعرض كتاب للاصمعي فيه أكثر من عشرين ورقة ، فاطال أبو الطيب النظر فيه ، فاذا به قد حفظه ، (القصة).

تحصيله : تنقل به والده عندما رأى نبوغه ، فجاء به الى بلاد الشام ، فجالس الكثيرين من علماء زمانه ، كالزجاج وابن السراج والاخفش وابن دريد ، وغيرهم .

في اللغة : حصل كثيراً ، حتى سأله مرة ابو علي الفارسي : كم لنا من الجموع على وزن ، فِعلى ؟ فأجابه بلا تردد : حجلى وظربى. قال ابو علي : وفتشت كثيراً فلم أجد لهما ثالثاً .

حبه السيادة : دفعه الى طلب السلطة والمجد ، فدعا بعض شبان الكوفة الى بيعته فبايعوه ، فسجن. فاستعطف الوالي بقصيدة منها :

تعجلت فيّ وجوب الحدود　　وحدّي قبيل وجوب السجود

طموحه : لم يستفد من هذا الدرس ، بل فكر بمطمح أعلى ، وهو ادعاء النبوّة في بادية السماوة . فأخذ يتلو على الاعراب كلاماً منمقاً روى بعضه علي بن

حامد وهو : « والفلكِ الدوار ، والليل والنهار ، ان الكافر لفي اخطار ، امض على سننك ، واقفِ اثر من قبلك من المرسلين ، فان الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله » .

فتبعه بعض القوم من بني كلب وكلاب وعبس ، فسجنه لؤلؤ أمير حمص ، ثم استتابه وأخلى سبيله . المعري يكذب الرواية ، أما المتنبي فقد قال عندما سئل عن ذلك : هذا شيء كان في الحداثة .

طمعه بولاية : انصرف المتنبي عن هذه الافكار الى الأدب ، فكان الشاعر الخالد . ولكنه ظل يحنّ الى السيادة والولاية ، كما يتضح مما قاله لكافور :

وغير كثير ان يزورك راجل … فيرجع مَلْكاً للعراقينِ واليا
اذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية … فجودك يكسوني وكفك تسلبُ

فمن حسنات الدهر الى الادب العربي ان المتنبي لم يوفق في مطالبه الاولى .

سيف الدولة : كان ملك حلب ، محباً للادب يعرف جيّد الشعر ويجيده في بعض اوقاته . أغدق عطاياه على الشعراء منافساً بذلك الخلفاء حتى قال المؤرخون: لم يجتمع بباب أحد من الملوك ، بعد الخلفاء الكبار ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر .

اتصاله به : رآه سيف الدولة في انطاكية عند أبي العشائر الحمداني الذي قدمه الى سيف الدولة وأثنى على مكانته الأدبية .

لزومه له : لزم سيف الدولة فمدحه بما لم يمدح به أحد ، ويكاد ان يكون نصف شعره في سيف الدولة ، فخلد له ذكراً ابدياً .

حساده : وهذا أكثرَ حسّاده والواشين به ، فجرى له مع سيف الدولة ومع الشعراء حوادث جمة لم يسلم بها شرفه من الاذى ، واهمها ضرب ابن خالويه له بمفتاح فشجّ رأسه .

فترك سيف الدولة ، وسافر إلى دمشق ، ومنها إلى الرملة في فلسطين فمصر .

مع كافور : حل المتنبي دمشق لانها لم تكن في حكم سيف الدولة ، وتعرف يهودياً يعرف بابن ملـَك . فسأله اليهودي ان يمدحه ، فأبى ذلك انفة . وكان

كافور يطلب المتنبي من اليهودي ، فأجابه المتنبي : انا لا اقصد العبد ، وان دخلت مصر فما قصدي الا ابن سيده . فكتب اليهودي لكافور بذلك .

في الرملة : وملّ المتنبي الاقامة في دمشق ، فسار إلى الرملة ، فخلع عليه اميرها الحسن بن طَغْج ، وحمله على فرس كريم بموكب ثقيل ، وقلده سيفاً مرصعاً . وعلم كافور بذلك ، فطلبه من امير الرملة .

فذهب المتنبي اليه ، فأخلى له داراً وخلع عليه . فمدحه بقصائد رائعة انتقاماً من سيف الدولة عدو كافور الألد . واليك هذا التعريض :

قواصد كافور توارك غيره ... ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه ... وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

ومدح ايضاً سيد كافور ابن الاخشيد ، فاكرمه جداً ، حتى صار يقف بين يدي كافور وفي رجليه خفّان وفي وسطه سيف ومنطقة والى جانبيه حاجبان من مماليكه وكل منهما بسيف ومنطقة .

طمعه بكافور : مدح كافوراً طمعاً بالامارة ، علّله بها كافور ، ولكنه لم يصدق ، فيئس المتنبي ، وعوتب كافور على اخلافه الوعد ، فقال :

يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد الا يدعي الملك مع كافور فحسبكم .

كافور : عبد اسود مخصيّ ، مثقوب الشفة السفلى ، عظيم البطن ، مشقق القدمين ، ثقيل البدن . كان عبداً لابي بكر محمد بن طَغْج ، صاحب مصر ، فتوفي عن ولد صغير فانفرد كافور لخدمته واستبد بالملك دونه . ومع كل تلك البشاعة كان داهية ألمعيّاً .

انفته : لما قنط من كافور خرج حانقاً هارباً من عنده ، ونظم فيه قصائد هجو مرة ومقطعات اليمة . فجدّ كافور في طلبه فلم يدركه ، اما المتنبي فلم يعد إلى حلب بل ذهب إلى بغداد على عهد الخليفة المطيع لله العباسي .

رغب وزيره المهلبي ان يمدحه ، فأبى مترفعاً عن مدح غير الملوك . فاغتاظ الوزير وحرّش به شعراء بغداد فتناوشوه ، فلم يجبهم ابداً . فسئل في ذلك فقال : لقد فرغت من اجابتهم من زمان ، بقولي :

افي كل يوم تحت ضبني شويعر   ضعيف يقاويني قصير يطاول

مع ابن العميد: وقد راسله ابن العميد من أرّجان ، وهو وزير ركن الدولة فمدحه واقام عنده مدة ، وله معه مساجلات عدة .

وقد انتقد ابن العميد قصيدته : بادٍ هواك صبرت ام لم تصبر الخ ..

فاجابه المتنبي بقصيدة يعتذر عن ضعف تلك ، ومطلعها : جـــاء نيروزنا وانت مراده .

واصبح يدقق جداً فيا يقول في ابن العميد النقادة .

مع الصاحب بن عباد : راسله الصاحب بن عباد ولم يكن استوزر فلم يجبه ، فغاظه ذلك منه وتجند لانتقاده واظهار معايبه ، وهذا سبب عدائه للمتنبي .

عضد الدولة : ترك ابن العميد وذهب الى عضد الدولة فحظي عنده وفاز بأمانيه . ولم يطل اقامته عنده بل رجع الى بغداد وودعه بقصيدة كانت آخر ما نظم .

مقتله : خرج من شيراز ميمماً بغداد ومعـه كثير من الأموال والتحف ، فاعترضه فاتك بن جهل الأسدي مع عدة من اصحابه فاقتتلا ، فقتل المتنبي وابنه محمد وغلامه مفلح .

السبب : هجوه ضبة ابن اخت فاتك هذا. حذر المتنبي من المكيدة ابو نصر الحلبي ، فاجابه المتنبي . ابنَجو الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي ، والله لو ان مخصرتي هذه ملقاة على شاطىء الفرات ، وبنو اسد عطاش لخمس ، وقـد نظروا الماء كبطون الحيات، ما جسر لهم خف أو ظلف أن يرده . معاذ الله ان اشغل فكري بهم لحظة عين .

فقال له أبو نصر: قل ان شاء الله.فقال : هي كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ولا تستجلب آتياً .

دفاعه : قاتل المتنبي حتى احسّ بالضعف، فعمد الى الفرار . فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وانت القائل :

الخيل والليل والبيـــداء تعرفني   السيف والرمح والقرطاس والقلم

فأجابه أبو الطيب : قتلتني ، قتلك الله . وحمل على الاعداء فقتل .

رثاؤه : رثاه معظم شعراء زمانه .

كبرياؤه : ادت به الى المبايعة والنبوة والموت .

كان يرى نفسه مساوياً للملوك والامراء بل اعظم كثيراً منهم. وكان يشترط على ممدوحيه الا ينشدهم الا جالساً، وألّا يقبّل الارض بين ايديهم . ولما سئل ان يعيد انشاد قصيدته واقفاً ليسمعها كل الجمع ، قال : لكل امرىء من دهره ما تعودا ... وهو مطلع القصيدة المذكورة، وأعاد انشادها جالساً . وقد قال فيه من رثاه :

كان من نفسه الكبيرة في جيش ، ومن كبرياه في سلطان .

بخله : يروي مبغضوه عنه قصصاً كثيرة في البخل ، لا محل لذكرها هنا .

ديوانه : لم يعن بديوان شاعر كما عني بديوانه ، فقد شرحـــه كثيرون ، وكثيرون كتبوا كتباً بشأنه .

سير شعره : لم يتناقل شعر شاعر تناقل شعر المتنبي ، فما كان ينظم قصيدة حتى تتناقلها الالسن وتجوب البلاد . وقد أراد ابن العميد قبل ان يتصل به ان يمحو ذكره فلم يفلح .

شهرته : لم يحز شاعر شهرة المتنبي . أما اسبابها فهي :

١ — مقدرته ونبوغه . ٢— كثرة حساده . ٣— تحامل العلماء والنقدة عليه . ٤ — كان عصره عصر منافسة بين الملوك والامراء . ٥ — اقلاله ، فكل شعره — ٥٤٩٤ بيتاً — ٦ — كان جريئاً في اسلوبه ، يحاول ان يوجد لنفسه اسلوباً خاصاً ، وهذا هو الشاعر .

قيمة شعره : عاديّ ومسفّ في الشعر الذي لا يلائم فطرته ، ولا يجاريه شاعر في تصوير ما تتألم منه نفسه ، فيرمي الى الابداع والى اتيان ما يتفرد به . فهو شاعر قويٌ في مبادئه ، قويٌ في خياله وتصوره ، قويٌ في فلسفته . شاعر

بما في نفسه من قوة ونبوغ ، يراها فوق كل شيء حتى فوق نفسها .

مدحه : نراه قد بالغ كثيراً في مدحه ، وهذا ناتج عن إعمال قريحة لتروي ظمأ الملوك المتنافسين في ذلك الزمان . ومن لاحظ مدح المتنبي يرى انه كان يعود اليه من مدحه الملوك جزء من المدح يختصّ به نفسه . وهـذا يتفهمه من طالع قصائده المدحية بإمعان .

فخره : قد كان يفخر في كل ما ينظم . يفخر في المدح ، يفخر في الرثاء ، يفخر في الحكمة ، والقوة تتجلى في كل ما يقـول وينظم . حتى كان يؤدّي افتخاره إلى احتقار الملوك . ويفتخر حتى على الفخر كقوله :

وليفخر الفخر انني غـدوت به   مرتدياً خيره ومنتعـله

حكمته : ترمي إلى القوة والطموح والمطامع الكبـيرة والتفاني والجرأة . ويرى الظلم من طبيعة الناس ، ومن لا يظلم ، فلأنه عاجـز . يحب الوفـاء والصدق ، ويكره كل تصنع .

معتقده : في بعض اشعاره نراه مشككاً ، وفي غيرها نرى له رأياً كرأي الدهريين والعدميين :

تبخـل ايدينا بارواحنا   على زمان هنّ من كسبه
فهذه الارواح من جـوه   وهـذه الاجسام من تربه

تدينه : لم يكن متديناً ، بل كان رجلا مادياً يحب المال ، يعتقد انه سبب كل عظمة وشرف وفرح في الحياة . ويظهر عدم تدينه من عدم احترامه للانبياء ، وذكرهم كأحد افراد الناس .

افكاره : عزي اليه سرقات كثيرة من حيث الافـكار . فمنهم من قال ان افـكاره الفلسفية مأخوذة عن ارسطو ، وفي كتاب الوساطة شيء كثير ، يدل فيه مؤلفه على المواطن التي يتفق فيها المتنبي مع الشعراء الذين تقدموه .

التعقيد : اعتماده على المعاني جعل في شعره كثيراً من التعقيد ، وارتكب جوازات كثيرة ، ومخالفات كثيرة لما ألفه العرب قبله . واستعماله الثقيـل

والضعيف أكثر السفاسف في شعره . قد اكـــثر استعمال التصغير للتحقير والازدراء .

الخلاصة : كان المتنبي في شعره كمن يلقي درساً على الانسانية جمعاء . وكان يرى ان كلامه القول الفصل ، يقطع في كل ما يقول ، كأن لا خلاف عليه ، ولا يعبأ برأي سواه .

وهذا جعله مبتدعاً لا متبعاً .

ابن هانیء الاندلسي

نسبه : هو ابو القاسم محمد بن هانیء الازديّ الاندلسي ، ولد باشبيلية سنة ٣٢٦ ، اتصل بعامل اشبيلية زمن المستنصر الأموي ، فمدحه بقصائد غراء .

اتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة ، وظهر ذلك الأثر في شعره لوصفه الممدوح بصفات المعبود. فنقم عليه اهل اشبيلية فنصحه عاملها بالهجرة، فهاجر الى المغرب ومدح ولاته من قبل المـُعزّ الفاطمي . فاتصل خبره بالمعز ودخل في دعوة الفاطميين فاتخذه المعز شاعراً لدولته .

ولما فتحت مصر على يد جوهر وبنى القاهرة ورحل المعزّ اليها ، أراد ابن هاني اللحاق به ، فتجهز وتبعه ، ولما وصل الى برقة نزل على أحد أهلها ، فاقام عنده في مجلس انس . ويقال انهم عربدوا عليه وقتلوه . وكان عمره ٣٦ سنة ، ويقال ايضاً انه وجد مشنوقاً بتكة سراويله . روي انه عندما بلغ المعزّ خبر موته قال : هذا شاعر كنا نرجو ان نفاخر به الشرق .

اخلاقه : كان غير ديّن ، خالعاً كافراً .

لقبه : متنبي الغرب .

صراحته : كان صريح القول والفعل ، لا يبالي باحد ولا بعواقب الصراحة، ومبالغته بها قتلته . وهذه المبالغة في الصراحة ادت الى تطرفه في الافكار والمديح حتى قال لممدوحه :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار   فاحكم فانت الواحد القهار

وقوله :

هو عـلة الدنيا ومن خلقت له ولعـــلة ما كانت الأشياء

شعره – قيل فيه :

ان تكن فارساً فكن كعـليٍّ او تكن شاعراً فكن كابن هاني

هو كبير شعراء الاندلس ، غير مدافع ، سليم التفكير ، سلس التعبـــير . عالج كثيراً من مشاكل الحياة واحوال الاجتماع .

تأثره بالمتنبي : اطلع على شعر المتنبي وهو معاصره ، فنسج نسجه في الحكمة والفلسفة والامثال ، وفاقه في المبالغة التي لم نسمع بمثلها في الشعر العربي .

وصفه : يجيد وصف ما يراه اجادة نادرة ، ولذلك سمـــوه متنبي الغرب ، تشبيهاً له بابي الطيب ، انما بين الاثنين فرق : المتنبي مبتدع ، وابن هانىء متبع . شعره يقرقع ، كما قال المعري .

واشهر قصائده :

فتقت لـكم ريح الجـلاد بعنبر وأمدّكم فَلَق الصبـاح المسفر
وجنيتم ثمر الوقائع يانعـــاً بالنصر من ورق الحديد الاخضر

وقال في مدح جوهر اذ فتح مصر :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع وقد راعني يوم من الحشر اروع
غداةَ كأنَّ الأفق سُدّ بمثـــلهِ فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

خلاصة : شعره جزل اللفظ ، فخم العبارة ، أشبه بشعر الاعشى في الرنة ، وشعر بشار وابي تمام في الديباجة . يجيد الاستعارة والتشبيه ، وقد أكثر منهما جداً . يطيل القصائد ويبالغ أشد المبالغة . واظن ان موقفه مع الفاطميين كان يستدعي ذلك ، وقد يكون معتقدهم مهد لهذه الطريقة .

من شعره المتداول : « فتــكات لحظك ام سيوف ابيك الخ ... »

ابو فراس

نسبه : هو ابو فراس الحرث بن ابي العلاء سعيد بن حمدان ، ابن عم سيف الدولة الحمداني ، امير حلب . رافق سيف الدولة في غزوات عديدة ببلادالروم.

أُسر أبو فراس مرتين . في المرة الاولى لم يتعدّ به العدو قلعة خرشنّة ، اما في المرة الثانية فحمل إلى القسطنطينية ، واقــام في الأسر أربع سنوات . له في هذا الأسرقصائد عدة تعرف بالروميات وهي رقيقة جداً . فيها عتاب شديد لسيف الدولة لانه لم يسرع إلى المفاداة .

شخصيته : كان ابياً ، كبير النفس ، فارساً مقداماً ، شجاعاً عظيم الشأن . مدح ابن عمه سيف الدولة انما بإباء الملوك وعزة الامراء . حرّ الخصال ، صادق اللهجة ، ملء برديه الاريحية العربية .

كان المتنبي يتجنبه ولا ينبري لمباراته ولا يجاريه ، لنفوذه .

عاطفته : ظهرت رقته وحنانه وبره ولطف شعوره في منفاه ، إذ قــال ذلك الشعر الرقيق في رومياته .

فوا عجباً من هذا الفارس الشجاع الذي يفلق الهام ، كيف تحول إلى شخص فاقت عواطفه عاطفة الامهات . فاسمع شعره في روميات تحس فيها عاطفــة تتدفق كالبحر الزاخر .

موته : لم ينعم ابو فراس بالانفــكاك من الأسر حتى داهمته المنية . أراد بعد موت ابن عمه سيف الدولة ان يستقلّ بامارة حمص ، فاعترضه ابو المعالي بن سيف الدولة ، وجرت حرب بينهما قتل فيها ابو فراس ، سنــة ٣٥٧ ، وهو لم

يتجاوز السابعة والثلاثين .

شعره : فخم المعنى ، جزل اللفظ ، خال من العيوب التي تراكمت في شعر المتنبي . يجمع بين الحسن والجودة ، والعذوبة والفخامة ، والسهولة والمتانة . وهو مرآة عواطفه الشريفة ، تلمس في شعره رواء الطبع واباء الشريف . يمشي على آثار السلف ، فجاء شعره صورة لشعرهم ، ولولا العاطفة لما عاش ذلك الشعر .

اما ما قاله صاحب اليتيمة عن ان المتنبي لم يمدحه مع انه مدح من امراء آل حمدان من هم دونه ، وعدّ ذلك من المتنبي تهيباً لمقام أبي فراس واجلالاً لا اغفالاً واخلالاً ، فهذا حكم في غير موضعه . فكيف يمدحه أبو الطيب وهو يعلم ان أبا فراس مناظر له ، وكان يتعقب سقطاته وينسب اليه الأخذ عن هذا وذاك ؟

الخلاصة : ان شعر أبي فراس على نمط واحد ليس فيه ما في شعر ابي الطيب من رديء ، ولكن الجو الذي حوّم فيه ابو الطيب لم يحوّم شاعر فيه ، وقد يكون هواؤه لا يلائم صدورهم فقصّروا عن التحويم فيه .

الشريف الرضي

حياته : ولد في بغداد ، وتلقى العلوم فيها . اعتقل والده وحبس وصودرت أملاكه . ثم أفرج عنه فعادت إلى الشريف غبطته .

اتصل بالخليفة الطائع ومدحه باخلاص كما مدح القادر ، ثم مـــال إلى بعض الوزراء والملوك طمعاً بالخلافة التي كان يؤمله فيها ابو اسحق الصابي . وتوفي ولمّا يبلغ منها أرباً .

آثاره : ديوان شعر فخم ، وجمعه نهج البلاغة للامام علي .

شعره : موضوعه التغني بحبه وآلامه وآماله ، وافتخاره بنفسه وبأصـله . قـــال الغزل بعزة نفس وفخر . قوله فيه مبتكر احياناً ، وأسلوبه نقي الديباجة فخم .

قال الرثاء صادقاً مخلصاً ، وخصوصاً في رثاء الحسين ، وقال المـــدح بعزة النبلاء . وأرسل الفخر رصينا بلا تبجح . كان فخره باصله ومـــكارم اجداده بخلاف المتنبي . عبارته تقليدية بخلاف عبارة المتنبي ، وقد وصف موكب الحج ، والشيب والطبيعة .

كان اسلوبه مزيجاً من البداوة والحضارة ، سامي الخيال حافـــلاً بالصور الرائعة والعبارة المتماسكة .

ابو العلاء المعري

حياته : ولد في معرة النعمان ، ومرض صغيراً بالجدري فانطفأت عيناه ، وهو يقول انه يذكر اللون الاحمر .

أخذ عن والده مبادىء العلم ، ثم قصد حلب وتحدث إلى علمائها وزار مكتباتها ، ثم ذهب إلى انطاكية واللاذقية وعاد إلى طرابلس . واخيراً قصد بغداد وجالس علماءها في مجالس العلم والأدب . ولما بلغه نعي امه رجع إلى المعرة وحبس نفسه في بيته وسمّي رهين المحبسين اي العمى والبيت . ترك هو الدنيا فجاءت الدنيا إلى بيته الذي اصبح مزاراً لكبار العلماء والادباء وطلاب العلم .

شخصيته :زاهد في حطام الدنيا ، كبير النفس ، متوقد الذكاء ،تروى عن ذاكرته اخبار كالاساطير . وهو من نوابغ العميان العالميين .

ابو العلاء الشاعر : هو شاعر في ديوانيه : « سقط الزند » و « ضوء السقط » . وأغراض هذين الديوانين : فخر ورثاء ووصف ومدح .

ابو العلاء الفيلسوف : في ديوان اللزوميات ، طرق المعري جميع القضايا التي تشغل العقل الانساني . واللزوميات مجموعة آراء المعري في المشاكل العقلية . يؤلّه العقل . عاش نباتياً وتحدث عما وراء القبر ، وقبّح الزواج واساء الظن بالمرأة .

ابو العلاء الناقد : في رسالة الغفران، يتولى ابو العلاء النقد اللغوي والنحوي لانه كان من العلماء ، فنقد الأدب واللغة والتاريخ والمجتمع والدين . وكان في هذه الرسالة ساخراً من الطراز الاول ، يهزل وتحسبه جاداً ، وما هو الا هازىء

بأقدس عقائد الناس .

قيمته الفنية : لا يبالي في لزومياتـه بخلق الصور البيانية ، بل يريد ان يفضّ مشاكل فكرية . ومع ذلك ظهرت في اسلوبه خاصـة الهزء والظرف والفكاهة . وفي الجملة : ابو العلاء والمتنبي هما الشخصيتان العربيتان اللتـان لا نظير لهما في قول الحكمة .

آراؤه ومعتقداته : ان هذا التضارب والتناقض يظلان يواجهاننا مع المعري حتى نعلم انه فاطمي المعتقد . كان معاصراً للحاكم بامر الله ومشايعـاً له . ومن يتتبع تطوراته الفكرية يظن انه مضطرب التفكير ، في حين انه ذو عقيدة ، مهما كان شأنها ، تظل عقيدة . وقد اثبتت الأيام صحة ما تخيل هذا الأعمى الذي رأى ما لم يره المبصرون .

ألا تقوى ان تقول ان ابا العلاء كان على حق بعدما رأيت هذا الفتح المبين في عالم الفضاء ؟ أما قلَبَ هذا الاكتشاف الفضائي المعتقدات رأساً على عقب ؟

قال المعري :

ولو طـار جبريلٌ بقيـة عمره   من الدهر ما استطاع الخروج من الدهرَ

فالى اين أيها العلماء ؟

وفيما يعتقد البشر ، يقول المعرّي المشكّك :

في اللاذقيـة ضجـةٌ   ما بين احمـد والمسيحْ
قسٌّ يعالـج دلبـةً   والشيخ من حنق يصيح
كل يصحّـح دينـهُ   يا ليت شعري ما الصحيح

ثم يوجه مدفعه الرشاش نحو جميع المذاهب فيقول :

عجبت لكسرى واشياعـه   وغسل الوجـوه ببول البقر
وقول النصارى إلهٌ يُضـام   ويظلَم حيـاً ولا ينتصر
وقول اليهود إلـهٌ يحبّ   رشاش الدمـاء وريح القتر

وقومٍ أتوا من اقاصي البـــلاد   لرمي الجمــار ولثم الحجر
فواعجبـــاً من مقـــالاتهم   أيعمى عن الحق كل البشر ؟

واذا سألناه ما هو الحق ، أتراه يسكت ام يجيب ، كما سكت السيد امام بيلاطس ؟ ! ولكنه يومىء من بعيد قائلاً :

أُمور تستخف بهـــا حلوم   ولا يدري الفتى لمنِ الثبور
كتاب محمدٍ وكتاب موسى   وانجيـل ابن مريمَ والزبور

وها هو قد بدأ يوضح :

اذا رجع الحصيف إلى حجاهُ   تهاون بالمذاهب وازدراها
وهتْ اديانهم من كل وجـهٍ   فهل « عقل » تشدُّ به عراها

انتظر قليلاً لتصدق أكثر ما قال فيلسوفنا :

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت   ويهود حـــارتْ والمجوس مضلّله
اثنان اهل الارض ذو عقل بـــلا   دينٍ وآخر ديّنٌ لا عقــــل له

واخيراً يدعونا إلى عبادة العقل فيقول :

ايها الغرّ ان حبيت بعقـلٍ   فاعبدنــه فكل عقل نبيٌّ

واخيراً يحلّ مشكلة المشاكل كما يرى هو ، فيقول هازئاً :

أأترك شربها صهباء صرفاً   لما وعدوه من عَسلٍ وخمر
حياة ثم مـــوت ثم حشر   حديث خرافة يا أم عمرو

وآخراً يبوح بما عنده، واذا شئته كاملاً فارجع إلى كتابي « زوبعة الدهور » ، قال موضحاً رأيه في نهاية النهاية :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهةً   وحقٌّ لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطّمنا الايام حـــتى كأننا   زجاج ولكن لا يعاده سبك

وفي موضع آخر يعترف بخلود النفس ، ويرى الجسد كباقول حـــبر فرغ

مما فيه . فطرح بين سقط المتاع ، ثم يضحك هازئاً كعادته :

فيا ليتني هـــامد لا اقوم   اذا نهضوا ينفضون اللِمَمْ

وليس ابو العلاء بمخترع مذهب التقمص ، فقد قال به فريق من فلاسفـــة اليونان ومن عندنا كان جبران على هذا المذهب .

وآخراً نقول ان ابا العلاء عالج جميع القضايا الفكرية وجمعها في «لزومياته» و « فصوله وغاياته » ، فكأنه نظر بعين بصيرته فرأى ما لا يرى قبل حدوثه . وهكذا يكون العبقري حقاً .

الطغرائي

هذا لقب عرف به واشتهر ، وهو من المتفوقين في عصره في صناعتي المنظوم والمنثور . واشهر ما قاله شعراً هو قصيدته التي تعرف بلامية العجم تقابل لامية العرب . وكلا الشاعرين ، الشنفرى والطغرائي يصور لنا في لاميته أروع صورة لحياته وعصره .

وكما تمتاز لامية العرب بالوعورة ، تمتاز لامية العجم بالسهولة التي سار الشعر اليها . وكما يفتخر الشنفرى باسلوب حياته الوعر ، جـــاء الطغرائي يتغنى بالحكمة تغنياً ، ويندب زمناً كان فيه سيداً ، وظل كذلك حتى قتل .

حكمة الطغرائي بنت الاختبار ، ومعانيه مستمدة من تجاريبه . كل هذا يبدو لك جلياً لأول نظرة في لاميته المشهورة . وكان بيت بشار الذي قاله في وصف شعره ينطبق عليها :

وشعر كنَور الروض لاءمت بينه بقول اذا ما انجد الشعر أسهلا

ابن الفارض

شاعر مشهور لم تفارقه السهولة رغم ثقله وتصيده انواع البديـــع ، وقــــد شرح ديوانه الصغير وطبـــع في باريس . شرحه النابلسي الذي كان صوفياً من طراز ابن الفارض .

وأشهر شعره قصيدته الطائرة الشهرة :

شربنا على ذكر الحبيب مدامـــــة سكرنا بها من قبل ان يُخلقَ الكرم

وقد تفنن الجماعة في تفسيرها حتى يعتقـــد القارىء ان ناظمها عاشق إلهي ، حتى هزىء احد الشعراء ،اذ قال يخاطب الصوفيين :

اقال الله حـــين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

النثر الفني

مميزاته : كتابة الترسل والانشاء .

لما كان هذا النوع من النثر من الرسائل والمقامات والاخبار والقصص والسيَر مثاراً للخيال ومظهراً لحركات الوجدان والشعور واظهار التفوق في براعة القول والحذق في الصناعة اللفظية ، اصطبغ العصر وما بعده من العصور بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب اللفظ على جانب المعنى . فالتزم فيها السجع القصير الفقرات غالباً ، واستعملت الأساليب الشعرية في الشرح والاستدلال بالاكثار من الاخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة . وقلّت المعاني المخترعة ، فاضطر الكاتب الى حل كثير من ابيات الشعر ذوات المعاني الجميلة ، والى الاقتباس من القرآن والحديث ، حتى سمّى الأدباء هذا النوع : الشعر المنثور .

وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد وزير آل بويه ، وقلّده كثير ممن عاصروه وجاؤوا بعده . واعظم نموذج لها مقامات الحريري . كان ابن العميد رأس كتاب الشرق ، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور ، لم تنحط كتابته في البلاغة كما انحطت كتابة تابعيه في طريقته من المتأخرين ، حتى قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

وتخرج على يده الصاحب بن عباد الذي اولع بالسجع والجناس. ومن أئمة هذه الطريقة بديع الزمان ، وأبو بكر الخوارزمي ، والصابىء ، والحريري .

وظلت هذه القيود في الأدب حتى النصف الأخير من القرن التاسع عشر. كانوا يقلدون المقامات والرسائل ، حتى جاء احمد فارس الشدياق وثار عليها في كتابه الفارياق .

ابن العميد

اصحاب الاساليب خمسة : عبد الحميد ، ابن المقفع ، الجاحظ ، ابن العميد ، القاضي الفاضل .

ابن العميد : هو الاستاذ الرئيس الوزير ابو الفضل محمد بن الحسين العميد ، كاتب الشرق وعماد ملك آل بويه ورئيس وزرائهم .

فارسي الاصل من اهل مدينة قمّ . كان ابوه كاتباً بليغاً من كبار كتاب الدولة السامانية ، فنشأ ابنه مولعاً بالعلوم العقلية واللسانية ، فبرع في علم الحكمة والنجوم ، ونبغ في الأدب والكتابة . رحل عن أبيه الى آل بويه ، وتقلد الاعمال الكبيرة في دولتهم حتى تولى وزارة ركن الدولة (ابو عضد الدولة الشهير) ، فساس الملك احسن سياسة ،وقلد البرامكة ففتح بابه للشعراء والعلماء والفلاسفة ، يشاركهم في كل علم الا الفقه . وظل كذلك حتى مات سنة ٣٦٠ .

شخصيته : كان ذا منزلة عالية لعلمه ومقامه السياسي ،حتى اطلق عليه اسم الجاحظ الثاني . ومن طالع قصائد المتنبي في مدحه يرى ان المتنبي لم يتواضع لأحد تواضعه له .

اسلوبه : من الانشاء الكثير التنميق ،فهو أول من فتح باب الولوع بالرسائل البديعية ، متوخياً فيها السجع القصير الفقرات ، مقتبساً الآيات القرآنية الكريمة والاحاديث الشريفة ، مشيراً الى الحوادث التاريخية المشهورة ، ناثراً الابيات الحكمية مؤثراً الحلية البديعية ، كالجناس والمطابقة ، مضمناً الأمثال السائرة . وقد حاكاه فحول عصره وأخذوا عنه وقلدوه ،إلا انه أقلّ سجعاً منهم وأقرب إلى الطبع .

شعره : له شعر رائق إلا ان صبغة النثر والعلم تظهران فيه .

مرضه : كان قليل الحظ من العافيـــة ، مصاباً بالقولنج والنقرس وتشنج الأعضاء ، سأل الصاحب بعد ان عاد من بغـداد قائلاً : كيف رأيت بغـداد ؟ فأجابه : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد .

آثاره : له مجموع رسائل في الفلسفة والنصح والعتاب .

ملاحظة : كان ابن العميد مولعاً باستعمال حروف الجرّ ، واليـــك المثل : كتابي اليك وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منـــك واقبال عليك واعراض عنك . إلى أن يقول : ولا جرم ان وقفت بين ميل اليك وميل عليك ، أقـدم رجلاً لصدمك وأُخرى عن قصدك ، وابسط يـــداً لاصطدامك واجتياحك . ومنها : كيف وجدت ما زلت منه ، وكيف تجد ما صرت اليه ؟

الصاحب بن عباد

نشأته : هو كافي الكفاة ابو القاسم اسمعيل الصاحب بن عباد وزير آل بويه ، وكاتبهم .

ولد سنة ٣٢٦ بطالقان من قزوين . كان أبوه كاتبـــاً من خيرة كتّاب آل بويه . تعلم العلم والأدب من أبيه ، ثم اتصل بابن العميد فلزم صحبته وتولى كتابة خاصته ، ثم وزر لمؤيد الدولة من آل بويه ، ثم لأخيه فخر الدولة ، حتى اصبح له في ملكهما اليد النافذة المطلقة ، وظل كذلك حتى مات سنة ٣٨٥ .

صفاته : كريم الاخلاق ، سليم الذوق ، أريحي جواد يحب العلم والعلماء ، مولع بجميع الكتب القيّمة النفيسة . كان مجلسه حلبة علم وأدب ، يساجل فيها العلماء والشعراء ، سيال القريحة ، سريع العارض ، حاد النكتة ، كان أكثر كرماً من ابن العميد ، نقادة صادق النظر في الشعر والنثر ، تعقب شعر المتنبي وأكثر من نقده .

أسلوبه : هو اسلوب ابن العميـد ، ولم يسمّ بالصاحب الا لأنـه صحب ابن

العميد وأخذ عنه . إلا أنه أولع بالجناس والسجع جداً حتى قيل فيه : انه لا يترك سجعة ولو انحلّت باستعمالها عروة الملك . يعد ثاني ابن العميد بين الكتّاب .

شعره : له شعر رائق ، متأثر بالنثر أيضاً كابن العميد ، الا انه أقرب إلى الشاعرية من استاذه ، فهو يتعمد المعاني العلمية والشرعية والفلسفية وغيرها من المعاني تزييناً لشعره . ولا أرى حملته على المتنبي إلا حسداً وتشفياً لأنه لم يجبه على مراسلته له كما سبق .

آثاره : المحيط في اللغة (سبعة مجلدات) مجموعة رسائل ، كتاب الوزراء ، الكشف عن مساوىء شعر المتنبي . وله توقيعات بديعة جداً ، ونكات لطيفة فيها التلاعب بالألفاظ الذي كان مولعاً به .

من شعره :

أترى القاضي أعمى   أم تراه يتعامى
سرق العيد كأن   العيد أموال اليتامى

المقامات

معناها اللغوي محل الاقامة، وهي قصة قصيرة يرويها واحد دائماً كما انبطلها واحد، وهذا البطل شحاذ كثير الحيل، تارة يتعامى، وطوراً يلبس جبة الواعظ وحلة العالم. والعقدة فيها من طراز واحد، اي ان الراوية يعرف ان البطل محتال كذاب فيما يدعي.

مبدع المقامة هو بديع الزمان الهمذاني، والذين جاؤوا بعده له تبّع، ولم يجاره الا الحريري وهو اصح لغة من البديع.

اما الغاية من المقامة فهي اظهار البراعة في الانشاء أو جمع الالفاظ اللغوية لا القصة. ولكن بديع الزمان وفق في بعض مقاماته فجاءت كأقاصيص اليوم.

أما المغزى فيفيدنا كيف كانت الكذبة والتكالب على جمع المال. وقد كثر المحتالون في ذلك العصر فصورهم البديع متأثراً بالجاحظ.

والذي يعجبني من بديع الزمان خلقه في ذلك الزمان بطلاً سماه بشر بن عوانة، فظل العلماء والادباء يعتبرونه شخصاً حقيقياً، وعدوا قصيدته التي اولها: « افاطم لو شهدت ببطن خبت » من روائع الشعر. وهذا ما اطلقتُ عليه اسم طلسم الشهيرة.

وبقي السر مغطى بقشرة بصلة، كما يقول مثلنا، حتى قام الاستاذ بطرس البستاني ففتش عن آثار اقدام ابن عوانة عبر مجاهل تاريخ الأدب العربي، فلم يظفر بشيء، فبيّن للناس ان ابن الأثير وقع في الفخّ حين قابل بين ابن عوانة والبحتري والمتنبي، ففضل ابن عوانة على البحتري لانه اعتقد انه السابق الى

صوره ومعانيه في وصف القتال مع الاسد .

لقد مرّ على ابن‌عوانة الف سنة وهو ينعم بجلال التاريخ الى ان هتك ستره، فبلغ بذلك بديع الزمان قمة الفنّ حين كذب على الشعراء والمؤرخين ، وجازت عليهم كذبته عشرة قرون .

بديع الزمان الهمذاني

حياته : ابو الفضل احمد بن حسين . نشأ بهمذان ، ودرس العربية والادب ونبغ فيها ، ثم ضرب في الارض يتكسب بأدبه . أقام بنيسابور مدة املى بها ٤٠٠ مقامة بلفظ رشيق وسجع رقيق، طبع على غرارها الحريري ، حينما جادل الخوارزمي وتغلب عليه ، فاشتهر وخلا له الجوّ بموت الخوارزمي . فوفد على الملوك والأمراء ، حتى صاهر اعيان هراة التي استوطنها ، فحسنت حاله ، الا انه مات في الاربعين من عمره سنة ٣٩٨ .

المقامة : اطلقت المقامة في ذلك العصر على قصة خيالية انشئت بعبارة مسجوعة غالباً ، محلاة بانواع البيان والبديع ، مشتملة على كثير من الغريب .

بدأ بهذا النوع من الادب بديع الزمان وحذا حذوه الحريري وغيره . ولا عيب في هذه القصص الصغيرة ، الا انها ترمي غالباً الى الاحتيال وطلب الرزق عن طريق النصب . هي مفيدة باسلوبها وحفظها الفاظاً كثيرة ، الا انها غير شريفة المبادىء ، لا تعلـّم عزة النفس .

شخصيته: كان بديع الزمان حاد الذكاء قوي الذاكرة، كاتباً مترسلاً مجيداً، وشاعراً مبدعاً ، سريع البديهة ، مرّ الهجاء .

اسلوبه : ليّن العبارة سهلها ، قصير السجع . كل هذا يدل على أنه غير متعمل في الصنعة ، وانه غزير المادة .

آثاره : المقامات ، التي لم يصل الينا منهـا إلا ٥٣ مقامة ، ديوان رسائل ومقالات ومناظرات ، وديوان شعر .

كان كصاحبيه ، ابن العميد والصاحب ، مولعاً بالجناس والطباق وغيرهما من انواع البديع ، وقد زاد عليهما المقامات التي أبدعها وتفوق فيها ، فلم يبلغ أحد بعده ما بلغ .

راجت المقامات رواجاً عظيماً حتى نسج على منوالهـا كثير من الأدباء . وظلت متبعة حتى آخر القرن التاسع عشر ، فتحولت مع ناصيف اليازجي إلى صناعة لفظية ، إذ كان يتبع آثار الحريري لا البديع والبهلوانيات . ثم أصبحت ركاكة وسجعاً بارداً مـع نقولا الترك وغيره ، حتى كان بعض الأدباء المقلدين يتراسلون بشكل مقامات .

القصص

لم يهتم العرب لهذا النوع في بدء نهضتهم . ترجموا كل شيء الا القصص ، فلم يترجموا لا الالياذة ولا غيرها من قصص اليونان والرومان . وأول كتاب قصصي رأيناه في الأدب العربي هو كليلة ودمنة وغيره من الكتب المترجمة عن الفارسية والهندية .

أما القصص التي نراها بين أيدينا اليوم فهي من تأليف هذا العصر ، منها ما هو مترجم ومنها ما هو من وضع العرب .

كانت القصص في اول عهدها كأخبار تُروى عن أيام العرب وحوادثهم تشجيعاً للجنود وتحميساً لهم ، الى أن صارت تنمو بتناقل الرواة . ثم نمت وكبرت وجمعت ولم يذكر اسم واضعيها، كما جرى في أكثر القصص عند الافرنج. أما القصص الناضجة فلم يصل الينا منها إلا قصة عنترة المشهورة .

قصة عنترة : هي أكبر القصص العربية المملوءة بالحماسة وأخبار الحروب . تمثل أخلاق العرب في جاهليتهم وحروبهم وعاداتهم . معظم اسماء ابطالها حقيقية ، انما فيها مبالغة ككل رواية من نوعها .

وضعت في آخر هذا العصر ، ألّفها يوسف بن اسمعيل في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي . حدثت ريبة في بيت هذا الخليفة فأصبحت حديث الناس في مجالسهم ، فأشار على المؤلف بوضع هذه القصة ليشغل الناس بها عنه ، وهكذا كان . من المعقول انها لم توضع كما هي اليوم ، انما أخذت تضخم تدريجياً ، ككل الأخبار من هذا النوع .

هي أحسن القصص العربية مغزى . إذ انها ترمي الى الإباء والعفة والسمو ، بخلاف كتاب الف ليلة وليلة ، وقصص اليوم التي تعلّم الفساد الاخلاقي .

قصص اخر : وقد وضع العرب قصصاً أُخر ، منها قصة البُراق ، وقصة بكر وتغلب ،وقصة شيبان وكسرى انوشْروان . ووضعوا ايضاً قصصاً غرامية بعضها ضاع وبعضها أدخلوه في كتاب الف ليلة وليلة .

الف ليلة وليلة : هي مجموعة قصص متسلسلة ، ينبثق بعضها من بعض كأساطير كليلة ودمنة . اختلف الناس في تاريخها ، فمن قائل انها معربة ومن قائل انها مترجمة ، وهي على ما نظن ككتاب كليلة ودمنة ، مترجمة في الاصل وقد زاد عليها العرب أشياء كثيرة من حوادثهم وأخبارهم .

موضوعها : تمثل الآداب الاجتماعية في القرون الاسلامية ، وما قرأناه وكتبناه في هذا الدرس عن حياة العرب في هذه العصور ، وانغماسهم في اللهو والترف .

وفيها ايضاً اخبار جنّ وعفاريت ، وقصص غريبة عجيبة تصوّرها العقل البشري في ذلك الزمان وقد تحقق بعضها اليوم . وليست الخرافات بضاعة جديدة عند العرب في كتابهم هذا، بل هي مألوفة في ذلك العصر وفي كل عصر .

النحو واللغة

كثر النحاة في هـــذا العصر ولكنهم لم يأتونا بشيء جديد ، فلم يؤلفوا من عند انفسهم بل كانت كل اعمالهم في الشرح والتعليق والإعراب . أشهرهم :

ابن خالويه : همذاني الأصل ، جاء بغداد ثم رحل إلى الشام واتصل بسيف الدولة فقدمه . له محاضرات ومناقشات ، وكان من اعداء أبي الطيب المتنبي .

وله رسالة في إعراب ثلاثين سورة ، وكتاب الشجر . وأشهر كتبه كتاب في كلام العرب موضوعه الشواذ العربية ، طبع في مصر .

وقد قرأت له شعراً أشبه بشعر الصاحب المتكلف ، كله صنعة وطباق .

الزبيدي : من علماء النحو في الاندلس ، واسمه ابو بكر محمد ، من اشبيلية . تولى القضاء وكان شاعراً . له كتاب طبقـات اللغويين في المشرق والاندلس ، وكتاب الواضح في النحو ، وكتاب الاستدراك على سيبويه .

ابن جنّي : موصلي الأصل ، قرأ على ابي علي الفارسي . أشهر نحاة هـــذا العصر ، وله شعر جيد ، انما غلب عليه النحو ، وله فلسفة ونقد . امـــا أشهر كتبه فهي :

« الخصائص في اللغة » ، يبحث في أصول النحو ، واشتقاق اللغة . « سر الصناعة في النحو » يبحث في الحروف ومخارجها والحركات وما يناسب تقاربه منها في اللفظ . « شرح شعر المتنبي » .

اللغة : نضجت في هذا العصر علوم اللغة ونشأت المعاجم اللغوية ، فدونوها على حروف المعجم او على المعاني . وأشهر هؤلاء :

القالي : ابو علي ، من بغداد ، من حفـّاظ اللغة والشعر ونحـــو البصريين . تنقل بين بغداد والموصل ونفي في قرطبة . من آثاره كتـــاب الأمالي ، وهو ككتاب المبرّد . وله كتاب النوادر .

المعاجم اللغوية

وضع نواتها الخليل في كتاب العين ، الا انها لم تتمّ إلا في هذا العصر . امــا مصادرها فما نقل عن الرواة المتقدمين كحمّاد والاصمعي وابي عبيــدة . دونت أولاً في كتب مستقلة كل موضوع على حدة ، ككتب الإبل واسماء الوحوش ، والخيل والشاء ، والنبات والشجر الخ ...

وكذلك كتب النوادر ، أي ما ندر استعماله في اللغة ، ككتب الكسائي والشيباني والقالي الخ .

وكتب الغريب في اللغة وشروح الشعر ، وكلما كتب في اللغة واشتقاقها ، من اضداد واشباه ونظائر .

فهذه المؤلفات وأمثالها كانت مصدراً لاصحاب المعاجم . بيـــد ان مؤلفي المعاجم لم يعتمدوا عليها وحدها بل رجعوا ايضاً إلى التحقيق من ألسنة العرب .

اقدم المعاجم : كتاب العين للخليل ، مرتب على الحروف الابجديـــة ، ثم جمهرة ابن دريد ، ثم البارع للقالي ، ثم كتاب التهذيب للأزهري وهو ابن الأزهر من هراة . رتبه على مخارج الحروف ككتاب العين . ثم كتاب المحيط للصاحب ابن عباد ، مرتب على الحروف الأبجدية كما هي اليوم ، أكثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد . والمجمل لابن فارس ، اقتصر فيه على الألفاظ الهامة المستعملة معتمداً على السماع .

ومن كتبه المتداولة ، كتاب الصاحبي ألـّفه للصاحب بن عباد ، موضوعه فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، بحث فيه في أصل اللغة وخصائصها واختلاف

لغاتها بحسب القبائل .

الصحاح للجوهري : أصله من فاراب ببلاد الترك . كان هذا عالماً كبيراً في اللغة . سافر إلى الجزيرة وغيرها وخالط ربيعة ومضر ، فاتقن اللغة وعاد يعلم ويؤلف في نيسابور ، وهناك ألّف كتابه الصحاح فأسماه تاج اللغة وصحاح العربية ، رتبه على حروف الهجاء ، مرتباً الكلمات على آخر حرف منها .

ابن سيده : اندلسي من مرسية . كان ضريراً وأبوه ضرير ، وهو من علماء اللغة ، فأخذ عنه كتابه المحكم ورتبه على ترتيب كتاب العين . وهو محكم الضبط دقيق ، عول عليه صاحب القاموس في تأليف كتابه . وله المخصص ايضاً وهو كتاب مرتب المواد حسب المعاني .

الفهرست: أول من كتب في هذا العلم ابن النديم الورّاق البغدادي، ولولا هذا الكتاب لضاع كثير من آداب العرب . اما كتابه الموسوم بالفهرست ، فهو يتضمن وصف لغات الامم من عرب وعجم وخطوط وصور امثلة منها . ثم كتب الشرائع المنزلة ، ثم العلوم فذكر النحاة واللغويين وتاريخهم واسماء كتبهم واصحاب الأخبار والسيَر والشعر والشعراء والكلام والمتكلمين والفقهاء والحديث والمحدثين والفلسفة والعلوم القديمة والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة والمذاهب والمعتقدات والكيمياء واصحابها ، وفي كل باب تفاصيل في سيرة كل مؤلف واسماء كتبه .

وهذا الكتاب نفيس جداً بل هو مرجع لكل أديب .

العلوم الطبيعية

نبغ في هذا العصر علماء لا يشقّ لهم غبار . وقد أقبل النــــاس على الطب كثيراً حتى قيل : ان الذين امتحنوا لنيل الاذن بالتطبيب في عهد المقتــدر بالله أول القرن الرابـع ، بلغ عددهم ٨١٠ ، وبلغ عدد اطباء النصارى في خدمـــة المتوكل ٥٦ طبيباً ، وكان يجلس مع سيف الدولة على المائدة ٢٤ طبيباً ، وكان اطباء للخلفاء واطباء للجيش . وكان الامتحان يجري على الاطباء والصيـــادلة بالتدقيق ، وأشهر أطباء هذا العصر ابن سينا .

ابن سينا : الشيخ الرئيس الفيلسوف الطبيب ، ارسطو العرب وابقراطهم اسمه ابو علي الحسين بن عبدالله ، ابوه من بلخ سكن مملكة بخارى . نشأ ابن سينا في بخارى ، حفظ القرآن وتعلم الفقه . وما بلغ السادسة حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والطب والفلسفة .

النّف في الحادية والعشرين من عمره ، وتقلد بعض مناصب دولة بني سامان. كان قوي القوى عقلاً وجسداً ، ولكنه كان شهوانياً . مات في همذان في الثامنة والخمسين من عمره .

تأثيره : النّف في كل فنّ من العلم والادب ، وكان لمؤلفاته تأثير كبـــير في نهضة اوروبا الاخيرة ، لانهم نقلوا أهم كتبه إلى اللاتينية ، لغة العلم .

تآليفه : القانون ، ١٤ جزءاً في الطب والعقاقيروالتشريح، الشفاء ١٨جزءاً.
من كتبه الفلسفية : الاشارات والنجاة ، وله في التوحيد كتاب المبـــدأ والمعاد ، الإلهيات ، القصيدة العينية التي مطلعها : « هبطت اليك من المحـــل الأرفع . »

الصيدلة والكيمياء والنبات

تحقق الفرنج ان العرب هم أول من اشتغل في استحضار الادوية والعقاقير ، واستنبطوا كثيراً منها . فأول اقرابذين ألفه سابور بن سهل سنة ٢٥٥ ، ثم اقرابذين بن التلميذ سنة ٥٦٠ .

وتبع تقدمهم في الصيدلة تقدمهم في الكيمياء وعلم النبات . وهم مؤسسو الكيمياء الحديثة بتجاربهم واستحضاراتهم . راجع ما كتبناه عن جابر بن حيّان والكندي والرازي .

ويرجح انهم هم أول من ركّب البارود . وأشار ابن الاثير إلى ان العرب استعملوا مادة في واقعة سنة ٢٦٩ طلوا بها الخشب فامتنع احتراقه ؛ ويعقوب أول من الف في ابطال الكيمياء القديمة . اما علم النبات فلهم فيه السبق . اخذوا هذا العلم عن جالينوس وديسقوريدوس وعن الهنود .

نقلت هذه الكتب في ايام المتوكل ، ترجمها اسطفان بن باسيل من اليونانية . ولما نبغ ابن البيطار ، سافر إلى بلاد اليونان وبلاد الروم وشاهد كل نبات في مواضعه ، وكذلك في بلاد المغرب ، ودرس نبات الشام ، ثم ذهب إلى الديار المصرية ، وجعله الملك الكامل الايوبي رئيساً على العشّابين ، وقد ألّف كتباً في النبات اعتمد عليها الأوروبيون في نهضتهم الأخيرة .

وله كتاب المغني في الأدوية المفردة ، وكتاب جامع مفردات الأدوية والاغذية ، وكتاب ميزان الطبيب .

الصوري : ومن أيمة علماء النبات رشيد بن منصور الصوري . هذا العالم هو صاحب كتاب الأدوية المفردة . درس نبات الشام في سوريا ولبنان ، وصوره بالالوان كما يفعل علماء اليوم .

الفلسفة

اشتغل بالفلسفة من اهتموا بعلوم القدماء ، وخصوصاً الاطباء، وفي طليعتهم ابن سينا . وكان الفلاسفة متهمين في دينهم ، حتى أصبح اسم الفيلسوف مرادفاً لاسم كافر . ونقم العرب على المأمون لأنه سعى بنقل الفلسفة إلى لغة العرب ، فتستر اصحابها وألّفوا الجمعيات السرية ، وأشهرها **جمعية اخوان الصفا** التي تألفت في بغداد في أواسط القرن الرابع .

اشتغل أعضاء هذه الجمعية في الفلسفة حتى صار لهم فيها مذهب خاص مستنتج من فلسفة اليونان والفرس والهند ، معدّل على ما يقتضيه الاسلام .

وأساس مذهبهم ان الشريعة تدنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، وانه لا يغسلها إلّا الفلسفة ، وانه إذا امتزجت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية حصل الكمال .

رسائلهم : تعرف **برسائل اخوان الصفا** ، عددها ٥٠ رسالة . تنظر في مبادىء الكائنات واصولها وماهية الأرض والسماء ووجه الأرض وتغيراته ، والكون والفساد والآثار العلوية ، وتكوين المعادن وعلم النبات وأوصاف الحيوانات ، ومسقط النطفة وارتباط الناس بها ، وتركيب الجسد والحاسّ والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والصنائع العلمية والعملية ، والعدد وخواصه ، والهندسة والموسيقى ، والمنطق وفروعه ، واختلاف الاخلاق ، وان الإنسان عالم صغير ، والعالم انسان كبير ، وماهية العشق ، والبعث والنشور ، وأجناس الحركات والعلل والمعلولات ، والحدود والرسوم . وبكلمة ، لقد ضمّنوا هذه

الرسائل كل علم طبيعي ورياضي وفلسفي وإلهي وعقلي .

وفيها بحث من قبيل النشوء والارتقاء ، تناقلها العلماء وخصوصاً المعتزليين منهم ، ونقلت على يد الحكم بن عبد الرحمن الكرماني ، وهو قرطبي زار المشرق على عادة الاندلسيين للتبحر في العلوم ، فانتشرت هناك ودرسوها وتدبروها .

النجوم : قال العرب : ان صناعة التنجيم خرافة . ومالوا إلى الحقائق العلمية فعنوا بعلمها ، فرصدوا الافلاك والفوا الأزياج التي قاسوا بها العروض ، وراقبوا السيارات . واشهرهم في هذا العصر :

البيروني : أبو الريحان ، نسبة إلى بيرون بلد في السند ، اطلع على علوم الهنود واشتغل في النجوم والرياضيات والتاريخ ، واشهر كتبه الآثار الباقية في القرون الخالية ، التفهيم لصناعة التنجيم ، رسالة في الاسطرلاب ، كتاب الجماهر في معرفة الجواهر .

الرياضيات : كان للعرب شأن كبير في الجبر والهندسة والحساب . ومما أحدثه العرب في الهندسة انهم طبقوها على المنطق . وقد فعل ذلك ابن الهيثم المصري في فجر القرن الخامس ، وأدخل هذا في الجبر قواعد جديدة، وأساليب في استخراج المسائل الحسابية .

واشتغل العرب في أعوص المسائل الهندسية ، كقسمة الدائرة الى سبعة أقسام .

واخترع عباس بن فرناس الآلة المعروفة بالمثقال ، يعرف بها الأوقات على غير رسم ومثال. حاول هذا المفكّر ان يطير فنسي الذنب فسقط على ازمكه .

أما الموسيقى ، فبرعوا فيها وان لم يؤلفوا فيها . واخترعوا آلات موسيقية ، وحسّنوا أُخرى . وفي كتاب الأغاني قواعد كثيرة لهذا الفنّ مبعثرة هنا وهناك .

التاريخ : تطور التاريخ في هذا العصر ، فألفت التواريخ الخاصة للمدن والأمم والاشخاص . وسبب هذا التجزؤ الذي حصل في الدولة . اما تواريخ

الأشخاص فكان بايماز منهم .

ورتولد نوع جديد من التاريخ سموه علم الأوائل ، بحثوا فيه أوائل الوقائع والحوادث بحسب الموطن . وأول من ألّف به ابو هلال العسكري .

اما التاريخ العام ،فاصطبغ بصبغة الرحلات ، مع وصف الأماكن الجغرافية . وأكثر من أفاض في هذا ، المسعودي وهو من أهل الأسفار . اما النقد التاريخي فلم يكن في هذا العصر ، لان التواريخ كتبت تحت سيطرة الملوك والاعيان .

المسعودي

حياته : هو علي بن الحسين المسعودي ، نسبة إلى عبدالله بن مسعود الصحابي . ولد ببغداد وبها نشأ ، ولما شب وأربت سنه على العشرين ، استهوته الاسفار ، فضرب في البلاد شرقاً وغرباً ، وكانت رحلته لا تقل عن رحلات المختصين في هذا العصر . وقد سهل ذلك اتساع رقعة المملكة الاسلامية ، فاخذ يجمع أخبار الأمم والشعوب ، وتعرف احوال بلاد فارس والهند وسيلان ومدغشقر . وما عاد إلى بلاده عن طريق عمان ، حتى استأنف سفره إلى شواطىء بحر قزوين وبلاد الروم وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر والسودان ، وانقطع في آخر مطافه إلى التنقل بين مصر والشام ، ولزم التأليف وأخذ يدوّن ما رأى وسمع .

وهو ، لو محّص ولم يقبل كل حكاية ورواية ، لكان واحد عصره .

شخصيته : حلو المحضر ، لطيف المعاشرة ، كثير النكات ، يحب الفكاهة وقد عرف من الاخبار ما لم تضمه صدور الكتب .

تآليفه : أشهرها مروج الذهب ، وهو يحتوي أخبار الأمم التي عرفت في عصره قديمها وحديثها . وفي كلامه عن دولة العرب روى الوقائع وغرائب الاحاديث ، فمثل أحوال المدنية الاسلامية وحياة اهلها بنوع جلي واضح تلذّ

مطالعته ويجذب قارئه . وله كتاب كبير في الرحلات سماه أخبار الزمان ، ثم اختصره وسمى المختصر الكتاب الاوسط ، ثم أراد إجمال مـــا بسطه ، فوضع مروج الذهب ، وهو الذي بقي . ويقال ان له كتباً أُخرى قد فقدت .

اسلوبه : عبارته قوية واضحة جلية ، فيها جمال أدبي ، وليست بغريبة عن الفنّ ، ولا تخلو من النقد والتدقيق .

وله آراء خاصة ، وان لم تخلُ من خرافات وأوهام كأكـــثر ما كتب في التاريخ والجغرافيا وأساطير الأولين. أراد ان يفكـّه ، فضلّ في تحقيقه التاريخي والجغرافي والادبي ، فكان غير الجاحظ الذي وضع كل شيء على محكّ العقل .

وله ايضاً كتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وهو تاريـــخ اكبر من مروج الذهب مفقود .

وهناك مؤرخون عديدون كحمزة الأصفهاني ومسكويه والمرعشي وصاعد الاندلسي .

الجغرافية : بنى علماء الجغرافية علمهم في هذا العصر على الرحلات ، لان هذا العلم لم ينضج ، ومع ذلك وصفوا اماكن لم يصفها احد قبلهم ، لانهم عرفوا اصقاعاً عديدة لم يعرفها احد . وقد رسم العرب خرائط عدة ، بدأوا بذلك في صدر الدولة العباسية . وأول من رسم الخرائط محمد بن موسى الخوارزمي في زمن المأمون ، فعيّن مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافيـــة المبنية على علم الفلك .

اما الذين كتبوا في الجغرافية والـّفوا فيها فهم : ابو زيـــد البلخي صاحب كتاب صور الاقاليم ، والاصطخري صاحب كتاب الاقاليم ، وابن حوقل صاحب كتاب المسالك والممالك (وهو غير كتاب خرداذبة) ، والمقدسي صاحب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، وهو افضل الجغرافيات العامة في ذلك العصر .

الادب

نضج العقل العربي في هذا العصر، فبحثوا في كل فنّ ومطلب وأفردوا لكل فنّ باباً . فبعد ان كان كل شيء يروى على علّاته ، مال العرب في هذا العصر الى التدقيق والبحث ، فمن شك في رواية ، الى معارضة شعر بشعر .

نبغ في هذا نقاد للشعر ، كقدامة بن جعفر وابن رشيق الاصبهاني والثعالبي. فمنهم من انتقد الرواية، ومنهم من انتقد الشعر، وكل هذا نشأ فيهم من اطلاعهم على العلوم الجديدة والفلسفة والمنطق . فنمت فيهم هـذه الملكة وأصبحوا لا يقبلون شيئاً على علاته ، فأخذوا ينتقدون ويمحّصون ويعارضون شاعراً بشاعر، ويدلون على اسبقية بعضهم على بعض ، ويفضحون سرقات المعاني والافكار ، ويحكمون بالاسبقية لمن أجاد اخراج الصور . كان جلّ اعتمادهم على الصناعة اللفظية ونقدها ، وقلما تعرضوا للافكار الا في بعض أماكن . كان همهم ان يدلوا على مخالفات الفصاحة والقواعد والركاكة المخالفة لعلم البلاغة .

أهم من قام بهـذا العمل ، اربعة : الاصبهاني ، الثعالبي ، ابن رشيق ، العسكري .

الاصبهاني

المبرّد وابو عبيدة والاصمعي والجاحظ وابن قتيبة وابن عبد ربه والقالي،ومن سبق ذكرهم ، كل هؤلاء أدباء عنوا بالأدب جد العناية ، ولكنهم لم يجمعوا كلهم على طريقة واحدة.فالجاحظ وغيره كتبوا مزيجاً في الأدب وغيره،أما الأصبهاني الذي ندرسه فلم يكتب الا الأدب وما تبعه من مقدمات ونتائج .

حياته : عربي أموي ، ولد في اصبهان، يتصل نسبه بمروان بن الحكم، شيعي وان كان اموياً ، اسمه علي بن الحسين وكنيته ابو الفرج .

نشأ في بغداد وكان من أفراد مصنفيها الأفذاذ ، قوي الحافظة عالم بالانساب صادق الرواية ، عارف بفنون كثيرة ، وهو شاعر ايضاً .

له كتب عديدة ، اشهرها كتاب الأغاني الخالد الذي حفظ كنوزاً ادبية جليلة كانت فقدت لولا عنايته واجتهاده .

شخصيته : أديب ظريف ، سليط اللسان ، مخشيّ البادرة ، ملمّ بعلوم كثيرة ، عالم بالانساب ، عارف بالمثالب، ولذلك هابه الناس حتى الأمراء منهم، فقبلوه في مجالسهم وتوددوا له لظرفه وحسن حديثه ، مع انه كان قذر الثياب قلما يغسلها ويبدلها . حسن النقد لما يسمع ، كان كاتباً اكثر منه شاعراً ، يحسن التأليف والتصنيف. وكفى بكتاب الاغاني دليلاً يمثل لنا الأدب الواقعي اصدق تمثيل . اسلوبه قصصي ، يحسن القصّ الى ابعد مدى ، لا يكف عن موضوعه حتى يخرجه كاملاً محيطاً كافياً .

الاغاني : ألّفه في خمسين سنة ، بناه على المئة الصوت التي اختيرت للرشيد

وزاد عليها ، وذكر سير اصحابها وتعرض إلى ما تعلق بها من حوادث ، فجاء الكتاب تاريخ اشخاص ووقائع ومغازٍ وايام وحوادث حب وحرب وشعر وفكاهة . هذا الكتاب هو بحق ديوان العرب ، رفعه إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه الف دينار واعتذر اليه . ويقولون ان الصاحب بن عباد استغنى به عن مكتبته الضخمة . طبع الكتاب في ٢١ جزءاً ، ووضع له فهرستاً العلامة جويدي الطلياني فجاء في ٤ اجزاء .

تأثر الأصبهاني بطريقة الجاحظ فكاد يدنو منه ، ولكن اختلاف الشخصية لم يمكنه من ذلك ، فظل بينهما فارق .

الثعالبي

حياته : ابو منصور عبد الملك بن محمد النيسابوري الثعالبي نسبة إلى الثعالب ، لانه كان فرّاء .

خاتمة ادباء هذا العصر في الترسل ، وأكثرهم آثاراً واوسعهم مادة . وهو الذي جمع اخبارهم وأقوالهم ،فجاء عمله هذا جزءاً متمما لما فعله صاحب الاغاني، فكان زعيم المؤلفين والمصنفين . قال الشعر واجاده ، فهو ناثر مبدع وشاعرمجيد.

تعمد السجع فيما دوّن وكتب . اما صاحب الاغاني فارسل الكلام على السليقة كما يتلفظ به العربي في بداوته ، بدون سجع ولا تنميق .

وقد نظر في الشعر الذي رواه وانتقاه نظرة مدقق خبير ، ففاضل وقارن واحسن الانتقاء والاختيار . وكان يميل إلى شعراء الشام في حكمه ، فحكم لهم في السبق في حلبة الشعر ، وأيد ما قاله ببراهين وادلة . الحق يقال ان لواء الشعر في عصره كان معقوداً للشآميين .

اليتيمة : لولا اليتيمة امحى ذكر شعراء كثيرين . فهذا الكتاب يحتوي أخبار شعراء المئة الرابعة الهجرية ، وهو اربعة مجلدات فيها عدة ابواب . باب

لشعراء الشام ، وخصوصاً المتنبي وأبا فراس وغيرهما ، وباب لشعراء المغرب ومصر ، وباب لشعراء الموصل ، وباب لآل بويه وشعرائهم وكتّابهم ، وباب عن شعراء البصرة وبغداد والعراق كافة ، وبابان خاصان بابن العميد الصاحب ، وشعراء أصبهان ، والقادمين على الصاحب ، وشعراء الجبل وفارس والاهواز وجرجان ، ودولة بني سامان ، ففضلاء خوارزم ، وفصول عن ابي بكر الخوارزمي والهمذاني والبستي والميكالي ، وشعراء خراسان والطارئين على نيسابور ، الخ ...

ولا عيب في كتابه الا انه مال الى السجع كما قلنا ، في حين ان هذا الانشاء ليس بالاسلوب التاريخي .

وله غير هذا الكتاب كتب كثيرة ، بعضها مطبوع والآخر محفوظ في المكاتب الكبرى في اقطار مختلفة ، وقد احصاها جرجي زيدان في كتابه فبلغت ٣٦ مؤلفاً .

ابن رشيق

حياته : هو من اهل القيروان واسمه ابو العباس الحسن بن رشيق من اهل القيروان . كان صائغاً كأبيه ، ثم تحول الى الادب ، ورحل الى القيروان وامتدح صاحبها واتصل به . وظلّ في القيروان حتى خربها العرب وقتلوا صاحبها ، فانتقل الى صقلية واقام بمازر حتى مات .

تآليفه – العمدة : كتاب يبحث في صناعة الشعر ونقده وعيوبه . قسمه مؤلفه ابن رشيق الى ابواب : في فضل الشعر واشعار الخلفاء والفقهاء ومن رفعه ووضعه الشعر ، واحتفاء القبائل بشعرائها ، الخ . واوزان الشعر وحدوده ، والبلاغة والايجاز والاستعارة الخ . وانواع الفصاحة والاوزان وجوازاتها .

يتخلل كل ابحاثه طائفة منتقاة من جيد الشعر ، وبحث تحليلي في الشعر

ومعانيه على طريق الانتقاد . وقد قال ابن خلدون في هذا الكتاب : ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله .

العسكري

أبو هلال ، صاحب كتاب الصناعتين : النظم والنثر . كتب في هذا الباب على نسق من تقدموه ، وقد بين معايب الشعر ومحاسنه ، وبحث علم البلاغة بحثاً دقيقاً ، ونقد الشعر على طراز من سبقه ، وكتابه هذا جزيل الفائدة ، وهو مطبوع .

الادب في الاندلس

فتح المسلمون الاندلس وجلا اليها العرب والبربر من شمالي افريقية ، ولحق بهم كثيرون من جميع قبائل العرب من مصر والشام ، فتكوّن منهم بعد قليل جمهرة عظيمة مختلطة بطوائف من البربر ، حتى توصلوا بفتوحهم الى نهر اللوار في فرنسا .

هؤلاء الطارئون والفاتحون اصبحوا بعدئذ اصحاب السيادة في البلاد على القوط والاسبان واليهود وغيرهم من أهل البلاد . ثم امتزجوا بهم بالمصاهرة لإسلام جمهرة منهم ، فنشأ من كل هذا الخليط شعب مؤلف من عدة عناصر ، ذو صفات ومزايا جديدة ، شاركه في بعضها من بقي في دينه من بقايا الاسبان واليهود .

ثم تنوعت هذه الصفات بتنوع العصور المختلفة ، بما وقع فيها من الحوادث السياسية والاجتماعية والدينية التي تبقي أثراً بيّناً في اللغة وأدبها ، يمكننا أن نقسمه إلى أربعة أطوار :

الأول : عصر الولاة الأولين الذين كان يوفدهم الخلفاء الأمويون ، وهو طور نصفه فتح ، ونصفه فِتن داخلية انتهت بعصبية ممقوتة ، ختمت باستيلاء عبد الرحمن الداخل ، وتأسيسه دولة عربية ثانية في الغرب ضارعت الدولة العباسية ، وعدد ولاتها عشرون .

الثاني : عصر رقيّ اللغة وآدابها ، وهو عصر الدولة الأموية الغربية وملوك الطوائف ، الذين استبد كل منهم بناحية واستقل فيها . يمتد تاريخ هذه

الحقبة من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٨٤ هـ .

الثالث : عصر جمود اللغة وتقهقرها ، وهو عصر دولتي البربر من المرابطين والموحدين وهم الذين استولوا على ممالك الطوائف ، وجعلوا الاندلس ولاية تابعة لسلاطينهم بمراكش وفاس ، ومدته من ٤٨٤ إلى ٦٣٠ هـ .

الرابع : طور يقظة الموت ، وهو عصر الدولة العربية الثانية ، من ابن هود بن الاحمر ، ومدته من ٦٣٠ إلى ٧٩٧ هـ . وقد استطاع أرباب هذه الدولة المحافظة على جنوبي البلاد أكثر من قرنين ، ثم اجلاهم الاسبان عنها .

أما أرقى عصور هذه الدولة حضارة وأدباً فهو عصر بني امية وملوك الطوائف .

اللغة في العهدين

كانت حالة اللغة في عصر الولاة ، بين العرب ومستعربي البربر ، كما كانت في عهد الامويين في الشرق .

وفي زمن الدولة الأموية الأندلسية كانت تنهج نهج الدولة العباسية وتحاكيها وتنافسها في كل شيء ، وفاقتها في البناء ، وبلغت حضارتها ورقيها في العلوم والآداب غاية المجد زمن الخليفتين الناصر والمستنصر ابنه ، وزمن الحاجب المنصور الذي استبد بأمر الدولة بعدهما .

ولما انتشرت الفتن في آخر عهد الامويين انقسمت البلاد إلى عدة ممالك مستقلة ، مدة نصف قرن ، فقام في كل صقع منبر وأمير ، حتى قال فيها الشاعر :

مما يزهّدني في أرض اندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضدِ
القاب مملكة في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صورة الاسد

وقال شاعر آخر :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة منها أمير المؤمنين ومنبر

لم تكن حال الحضارة والعلم والأدب فيها أقل منها زمن الدولة الأموية ، إلا انها تقهقرت عندما صارت الاندلس ولاية تابعة للملوك البربر في مراكش من المرابطين والموحدين ، وانتعشت قليلاً في زمن بني الأحمر ، آخر دولة اسلامية في الاندلس .

الشعر : نقل العرب إلى الأندلس اخلاقهم وعاداتهم وأدبهم وشعرهم ، فاستخدموا الشعر فيما كانوا يستخدمونه في عصر بني أمية بالمشرق ، من أنواع الحماسة والحضّ على الجهاد والدعوة إلى العصبية وإثارة الفتن . ولما خمدت الفتن وقرّ الملك في بيت عبد الرحمن ، هبّ الشعراء ينحون مناحي الشعر التي فشت في الاسلام ، فصار الشعر صناعة فئة من المتأدبين يتكسّبون به بمدح الخلفاء والأمراء والقواد والانقطاع اليهم . وشجعهم هؤلاء أمويّهم وعلويّهم وبربرهم ببذل العطاء لهم وتقريب منازلهم منهم . فاتخذوهم بطانة وندماء ، واعواناً ووزراء ، إذ لم تكن صناعة الشعر مزرية بعظماء الناس هناك ، بل كانت حلية كل متعلم ، فقلما عجز عن قول الشعر انسان منهم ، بل نظمه كثيرون منهم حتى الأمّيون ، ولم يأنف من نظمه الخلفاء والوزراء والأمراء والفقهاء ، فأولع به كل الطبقات حتى النساء ، ومنهن من بارين الرجال فيه .

ولا نسمع بفقيه أو فيلسوف أو طبيب أو رياضي أو مؤرخ إلا نراه شاعراً بليغاً له مطولات ومقطّعات شعرية ، في أغراض مختلفة ، وذلك لجمال ارضهم وبيئتهم وطيب عيشهم وميلهم الفطري إلى الشعر ، لأن اكثرهم من عناصر عربية .

وإذا لم يشتهر فيهم أمثال بشار وابي نواس والمتنبي وابي تمام والبحتري ، فذاك لبعدهم عن المشرق مهد العربية وميدان التنافس العام فيها .

لقد نظم شعراء الاندلس في جميع الانواع الشعرية والاغراض حتى الخمريات والمجون والموشحات والازجال ، ولكنهم فاقوا العباسيين في وصف مناظر الطبيعة ورثاء الممالك الزائلة . وأشهر هؤلاء أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس . ثم نظموا قواعد العلم شعراً ، وبعض الحوادث التاريخية ، وقصروا عن المشاركة في الحِكَم التي تسير سير الأمثال .

كان شعرهم في الغزل غاية في الرقة ، والخيال الشعري الجميل مادة معانيهم ، وقلما أتوا في شعرهم بقضايا عقلية واحكام فلسفية .

الموشحات : وزادوا على شعراء المشرق في أوزان الشعر وقوافيه (فن الموشح) .

وهو يتركب من طوائف من أبيات أو شطور تتغير فيها القوافي . واشهر اصحاب الموشحات لسان الدين الخطيب وغيره .

وقد روى لابن المعتز من المشارقة موشح يمتاز بتماسك ديباجته ولا يقل رنة عن موشحات الاندلسيين .

ونظموا الموشح باللغة العامية فلقب بالزجل ، ثم شاع هذان النوعان في المشرق فحاكى المشارقة فيها الاندلسيين حتى وقتنا هذا .

ونبغ في الاندلس شعراء وشاعرات عديدون لايحصون ، أشهر مشهوريهم : ابن هاني وقد سبق ذكره ، وابن عبد ربه ، وابن خفاجة ، وابن حمديس ، وولادة ، وابن زيدون الخ . واخيراً ظهر الزجل الذي يُتبع عندنا اليوم ، وقد صار عامياً صرفاً في لهجته . وقد خصصنا هذا الفن بكتاب يظهر ان شاء الله . [١]

النثر : كانت مناصب الكتابة في عصر الولاة وأول عصر بني أمية كما كانت عليه في المشرق يتولاها الأمير مملياً على كاتبه ، أو الكاتب برأي الامير . وإذا علت مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة سمّي حاجباً ، وهو أشرف ألقاب الدولة . أما اسم الوزارة فكان يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم . ثم صار لقب الوزير للذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة ويلقب بذي الوزارتين ، يكون غالباً من رجال الأدب .

وكذلك كانت حالة الكتابة من جزالة اللفظ وفخامة للمعنى وخلوها من السجع ، إلا نادراً .

ثم حاكوا المشارقة في نظام الدواوين ورسوم الكتابات من تميز اقسامها

---

(١) صدر هذا الكتاب حديثاً ، وعنوانه : « الشعر العامي » .

وتنويع بدئها وختامها ، وتسجيع عباراتها ، كطريقة ابن العميد في السجع القصير ، واستمداد المعاني من الخيال ، وحلّ المنظوم ، ومن القرآن والحديث ، وتضمين الأمثال ، والتلميح إلى حوادث التاريخ .

وكتبوا في كل الاغراض التي طرقها كتّاب المشرق ، ولكن بلاغتهم لم تنحط في آخر امرهم كما انحطت في مصر والشام ، في العصور التركية ، لقلة طروء العناصر الاعجمية عليهم ولتأصّل عادة الاشتغال بالعلم فيهم .

كتّابهم : ابن شهيد ابلغ كتّابهم ، له في الوصف والمداعبات رسائل بديعة ، وابن زيدون ، والفتح بن خاقان .

التدوين والتصنيف : ابتدأ التدوين والتصنيف في أواخر عصر الأمويين وصدر العباسيين ، أما الأندلس في ذلك الزمان فكانت مضطربة . فلما وطد عبد الرحمن أركان ملكه ومهّد طريق الحضارة والرخاء والأمن لأهلها ، هبّوا يرحلون إلى الشرق لاداء فريضة الحجّ واقتباس العلوم . فتابعوا رحلاتهم إلى الشرق برّاً وبحراً ، ونقلوا إلى بلادهم علوم اللسان والدين ، لان الاندلسيين كانوا اشدّ أهل الأرض حباً للعلم ، وتفانياً في تحصيله وتوقيراً لأهله . وساعدهم على ذلك بنو امية وخلفاؤهم ببذل الأموال العظيمة في جمع الكتب ومكافأة العلماء . وأحلّوهم ارفع منزلة ، وسمعوا أمرهم وخضعوا لنهيهم ، وأخصهم عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (الحكم) . وقد جمع الحكَم هذا في مكتبته بقصر قرطبة مئات الالوف من الكتب .

وكذلك كان أكثر خلفاء بني امية ، واعيان قرطبة ، فما انقضى القرن الرابع حتى نبغ ألوف من العلماء ، فضارعت الأندلس المشرق وفاقته في بعض العلوم .

ولم يقصر ملوك الطوائف عن الأمويين فآزروا العلم وقربوا العلماء ، وكان من ملوكهم الأدباء أيضاً مثل المظفر أحد بني الافطس صاحب بطليوس ، وواضع التاريخ المظفري في ٥٠ مجلداً .

وفي عصر المرابطين هدأت حركة العلم قليلاً لأنهم اضطهدوا أصحاب الآراء والنِحَل المذهبية ، حتى تساهل الموحّدون في أمر مطاردة الفلسفة وعلومها ،

فنبغ من الحكماء والاطباء والكيمائيين جماعة اشهرهم : ابن رشد ، والباجي ، وابن زهر .

ثم قل الاختصاص في العلوم ، وكانت الحركة العلمية تنتعش أحياناً ثم ترقد، حتى أباد الاسبان العرب وعفّوا آثارهم وأحرقوا كتبهم ، فلم يسلم منها إلا ما نقل قبل الجلاء أو جهل مكانه .

تأثير الأندلس : للأندلس أكبر أثر عربي في الغرب ، فكلية قرطبة كانت تضمّ بين جدرانها اثني عشر الفاً من الطلاب ، عرب وغير عرب .

الفنّ العربي في البناء تجلّى بأبهى مظاهره في الأندلس من قصر الحمراء إلى جامع قرطبة .

جعلوا للغة العرب سيادة هائلة في الغرب فاندحرت أمامها جميع اللغات، حتى طلب رؤساء الدين المسيحيون من البابا ان يترجموا كتب الطقوس الدينية إلى المربية .

أدخلوا في لغات الغرب القافية في الشعر التي لم يعرفها الغربيون قبل العرب ، ثم طوّروا شعرهم إلى نوع الموشحات .

واخذ الطرب عن العرب من الموسيقى الكمنجة (الرَباب) والفليت (الشبّابة) عدا الالفاظ التي ملأت لغات الاوروبيين . أما العلوم وفروعها فحدّث عنها ولا حرج ، فقد ظلت كتب العرب مصدراً لها ، ولا يزال حتى اليوم المستشرقون يخرجونها كل عام .

شعراء الاندلس

شعراء الأندلس فئتان : فئة ظلت محافظة في شعرها على النمط الشرقي فلم تخرج على التقليد ، فقالت قصيدتها على الطراز الذي ألفه الشعراء المشارقة في التفكير والتصوير ، فلم تكن افكارهم غير شرقية . وعندما قال الصاحب ابن عباد كلمته — حين اطلع على العقد الفريد ولم يجد فيه ما كان ينتظر من ادبنا عبر البحار — : هذه بضاعتنا ردّت الينا ، جاءت تلك الكلمة في محلها . ولكن الفئة الثانية خرجت على العروضيّ .

فالعرب الاندلسيون في فجر هجرتهم كانوا مقلدين للمشرق في كل شيء ، حتى الالقاب التي كان يتخذها ملوكهم . ولما طال الزمان وتأثروا بمحيطهم الجديد خططوا قصائدهم على النظام المعماري الغربي ، فصارت قصائدهم غير ذات زوايا اربع كبيوتنا الشرقية .

ولما كان هذا الكتاب معمولاً ، كما قلنا في التوطئة ، ليكون دليلاً للقارىء في دنيا ثقافتنا الواسعة ، اكتفينا بما قلنا حتى لا نخرج عن تخطيطنا . ولهذا نقول ان شعراء الاندلس ليسوا كلهم ممن وشحوا قصائدهم فنوعوا قوانينها ووحدوا موضوعها ، ولعل أول المحافظين كان ابن عبد ربه الذي لقب بمليح الاندلس .

ابن عبد ربه

هو مليح حقاً ، وقد كان المتنبي محقاً حين سمع شعره وأثنى عليه . فلهذا الأديب شعر متماسك خال من تلك الميوعة التي نجدها في شعر المتوسطين من شعر ذلك الشطر من الامبراطورية العربية . فليس في شعر الاندلسيين الذين قالوا الموشحات شعر يماشي شعر المشارقة غير موشح لسان الدين الخطيب : « جادك الغيث » . والموشح الآخر المنسوب لابن المعتز .

فابن عبد ربه ، وهو الشاعر المجيد الذي لم يتخلّ عن شرقيته ، له شعر ذو خط كبير من الخيال واعتماده على الاستعارة والتشبيه ، والذي رأيته هو ان خياله أقوى من عاطفته .

ولد هذا الشاعر بقرطبة ، وانكب على المطالعة ، ثم لما اشتدّ ساعده الّف كتابه « العقد الفريد » الذي زيّن به جيد حسناء يعرب .

ابن زيدون وولادة

لا تغرّك هذه الواو والنون ، فالعرب قالوا هكذا ، وابن زيدون من مواليد قرطبة وهو عربي اصيل من بني مخزوم ، وُهب ملكة شعرية رائعة فقال الشعر يقطر رواءً وماويّة . قال أشهر قصائده كما أوحاها إليه قلبه ، فدارت على الالسن وظلت حتى يومنا هذا في دورانها . قالها حين حيل بينه وبين حبيبته ولّادة بنت المستكفي ، وهي شاعرة من طرازه ، وقد كانت

سافرة في ذلك الزمان ، رغم انها بنت الخليفة المستكفي .

اراد ابن عبدوس ان يشاركه في حبها ولكنها لم تمل إليه ، ولما كان هذا من المقربين من اولياء الأمر دسّ الدسائس ، فنجحت وشايته ، فسجن ابن زيدون . ولما عجز عن استرضاء ابن جَهْور صاحب العرش ، فرَّ من سجنه ولجأ إلى المعتمد بن عباد .

واشتهر ابن زيدون بالرسالة التهكمية التي وجهها إلى ابن عبدوس ، وهي من طراز رسالة التربيع والتدوير التي كتبها الجاحظ . والرسالة تشبه اليوم ما عرف بـ « طبق الأصل » ، إذ كتبها عن لسان ولادة ، صاحبة الندوة الأدبية ، التي تقول في وصف نفسها :

انا والله اصلح للمعالي ... وامشي مشيتي وأتيه تيها
امكن عاشقي من صحن خدي ... وامنح قبلتي من يشتهيها

وقد كانت تكره ابن عبدوس ولا تخشى ان تتندر عليه . فمرت عليه مرة وهو جالس أمام بركته الآسنة ، فقالت له متمثلة :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر

وقد كانت ولادة شاعرة حرة التفكير ، كأنها من نساء اليوم المتطرفات . وإذا لم تنظم الروائع فحسبها ان حبها أوحى إلى ابن زيدون قصيدته الباقية : « اضحى التنائي بديلاً من تدانينا » .

ابن عمار

ولد في بيت خامل . تأدب في قرطبة مدينة الأدب والعلم ، ثم صار معلماً للمعتمد بن عبّاد ونجيّه وسميره ووزيره . وابن عمّار يجاري ابن زيدون ، واغلب قصائده في مدح المعتضد وابن المعتمد .

شعره : يمتاز شعر ابن عمّار بصوره كما امتاز شعر ابن زيدون بعاطفته الحامية الوطيس . ومن قول ابن عمار في مدح سيده :

اثمرت رمحك في رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت رمحك من دماء كماتهم لما علمت الحسن يلبس احمرا

أما نهاية ابن عمار فكانت بشعة . تآمر على مولاه المعتمد وعصاه ، فسجنه المعتمد ولم يعفَ عنه رغم القصائد التي قالها في طلب العفو ، بل قتله بيده في سجنه وأمر بدفنه .

ابن حمديس الصقلي

شاعر مبدع في الصور والتخيل ، تعمق في وصف الطبيعة والعمران . وجد خياله مجالاً واسعاً ، وكان له في محيطه مرعى خصيب : جنائن وارفة الظلال وانهار تغني للغصون فترقص ، بدائع وطرائف راح يصورها بقلمه ، فجاءت لوحات طريفة نادرة .

وقد مشى على خطى البحتري في وصف القصور والبرك ، وسعى وراء التشابيه والاستعارات يتصيدها حتى ظهرت الصنعة وكثرت .

ولم يهمل شعر المدح فأغرق فيه ، وعاش ميسوراً .

ابن خفاجة

ولد بجزيرة شقر ، وهو كابن حمديس في اغراضه الشعرية ، حاكاه في صوره واحساسه . وآفة الشعراء سيرهم خلف بعضهم كالقوافل على الطرق المعبدة . لكن ابن خفاجة لم يتكسَّب بشعره إلا نادراً ، فقاله في الموضوعات الاخرى .

ابن سعيد

شاعر اندلسي ، هاجر إلى مصر فأصابه داء الحنين إلى وطنه ، فقال شعراً جيداً في ذلك ، متذكراً غرناطة التي ولد فيها .

لسان الدين الخطيب

ولد بلُوشة ،وتضلع من جميع علوم زمانه حتى صار فيها حجة . ولما اجتمع اشدّه خلف اباه ووزّر لبني الاحمر . وظل ينعم في ظل العزّ الوارف ، حتى خلع مولاه فاعتقل وعذب ، واتهم بالالحاد والزندقة عملاً بالكلمة المشهورة : من تمنطق فقد تزندق . ثم كانت الفتوى واباحة دمه ، فهاجموا السجن فخنقوه وطرحوا جثته فدفن ، ثم اخرج من لحده وأُحرق .

كان لسان الدين شاعراً وكاتباً وخطيباً وفيلسوفاً مشاركاً في جميع علوم

زمانه . وله مؤلفات ، منها : كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة ، وكتاب الاشارة إلى آداب الوزارة ، وبستان الدول .

تآليفه : وقد أوصل المقرّي تآليف لسان الدين الخطيب إلى الستين . واشهر موشح اتبع حتى قلده المشارقة والمغاربة ، وهو موشح لسان الدين الذي مطلعه :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمان الوصل بالاندلس

وله غيره موشحات كثيرة وشعر وافر .

المعتمد بن عباد

سيرته – حياته : ابوه المعتضد العبادي ملك اشبيلية ، مات أخوه الذي كان صاحب الحقّ في ميراث العرش ، فانتهى الأمر إليه . اتخذ الشاعر ابن عمار وزيراً لدولته ، ثم قتله بيده كما مرّ .

استولى على قرطبة ، وبلغ مرسية . ولما اتسعت رقعة ملكه وخاف عليه من ملك قشتالة الفونس ، استنجد بابن تاشفين ملك مراكش فلبّاه ثم انقلب عليه واشعل نار الفتن ، فاستولى على قرطبة واشبيلية وأسر المعتمد ونفاه واهله إلى اغمات ، وهناك مات بعد عذاب شديد وفقر ليس فوقه فقر .

هذا الملك هو أحد الذين صورهم أحد شعراء عصرهم حين قال :

وتفرقوا شِيعاً فكل قبيلة   منها امير المؤمنين ومنبر

انه شاعر وقد وصف لنا سوء مصيره في شعره الذي هو ابلغ معبّر عن آلامه ونكبته الفظيعة . قال يصف موقفه من العيد في اغمات :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً   فجاءك العيد في اغمات مأمورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة   ابصارهن حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن في الطين والاقدام حافية   كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
افطرت في العيد لا عادت اساءته   وكان فطرك للأكباد تفطيرا

من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالاحلام مغرورا

وخوفاً من ان تتساءل كما تساءل العقّاد عن التين والعنب في قصيدة ابي تمام البائية فتقول منتقداً: متى كان المسك والكافور للموطىء ؟فاننا نقول لك كما قلنا لذاك العلاّمة في غير هذا الكتاب :

حكاية المسك : زعموا ان زوجة المعتمد اعجبها مشهد النسوة الفقيرات يحملن جرارهن ويخضن في الوحل ، فتمنت ان تفعل مثلهن ، فأبى المعتمد ، ولكنه حباً بتلك الملكة عمل لها وحلة من مسك ، فحملت جرتها مثلهن وفعلت هي وبناتها كما فعلن .

ويقال انها حينما جاءت زائرة زوجها الملك في زندانه ، تذمرت وقالت : انها لم تشاهد يوماً ابيض في حياتها معه .

فأجابها المعتمد : ولا يوم الطين ؟..

من بات بعدك في ملك يسر به فانما بات بالاحلام مغرورا

وفي قصيدة ثانية وصف صورته في الاسر ، فقال يخاطب قيده ويستطرد إلى وصف حالة صغاره :

قيدي امـا تعلمني مسلما ابيت ان تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد هشمته ، لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك ابو هاشم فينثني والقلب قد هُشّما
ارحم طُفَيلاً طائشاً لبه لم يخشَ أن يأتيك مسترحما
وارحم أُخيَّاتٍ له مثله جرعتهن السمّ والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه البكاء والعمى
والغير لا يفهم شيئاً ، فما يفتح إلا لرضاعٍ فما

كم كنت اتمنى لو كان نابغتنا جبران قد صوّر المعتمد مستلهماً قصيدتيه هاتين بدلاً من ذلك الشكل الملكي الذي صور ابن عباد فيه .

ان الرجل في مصيبته أروع منه وهو على عرشه وفي أبهة ملكه .

المعتمد وابو فراس : المعتمد ابو عيلة ، ولذلك جاء تفجعه مؤلماً . أما ابو

فراس فكان براً بأمه فما ذكر غيرها حين قال :

لولا العجوز بمنبج ما خفت أسباب المنيه

فبعد هذا الذي نقلناه لك من شعر المعتمد ، اقول : تعطلت لغة الكلام فقابل انت بين الشاعرين ، فكلاهما منكوب ، وقد صحّ فيه قول من قال :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الاسباب والموت واحد

فلو تذكّر المعتمد في سجنه بأية صورة وحشية قتل شاعره ووزيره ابن عمار ، لهانت عليه مصيبته . وعندما تقرأ رثاء ابي البقاء الرندي للاندلس ، ستهون جميع المصائب . وهذه هي :

رثاء الاندلس

لابي البقاء الرندي

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يُغَرّ بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول ... من سرّه زمن ساءته ازمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزّقُ الدهرُ حتماً كل سابغةٍ ... إذا نبَتْ مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يَزَنٍ والغِمْدُ غمدانُ
اين الملوكُ ذوو التيجان من يمنٍ ... واين منهم اكاليل وتيجان
واين ما شاده شدّاد في إرَمٍ ... واين ما ساسه في الفرس ساسان
واين ما حازه قارون من ذهب ... واين عادٌ وشداد وقحطان
اتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملَكٍ ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله ... وامَّ كسرى فما آواهُ ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوماً ولم يملك الدنيا سليمان
فجائع الدهرِ أنواع منوعة ... وللزمان مسرات واحزان
وللحوادث سلوانٌ يسهّلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة امر لا عزاءَ له ... هوى له أُحَدٌ وانهدَّ ثهلان
اصابها العين في الاسلام فارتزأت ... حتى خلت منه اقطار وبلدان
فاسأل بَلَنْسِيَةَ ماشأنُ مُرسِيَةٍ ... واين شاطبة ام اين جيَّان

وابن قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وابن حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن اركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الاسلام خالية ... قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء اوطان!
تلك المصيبة انست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهقة ... كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة ... لهم باوطانهم عز وسلطان
اعندكم نبأ من اهل اندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث صناديد الرجال وهم ... قتلى واسرى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم ... وانتم يا عباد الله اخوان
الا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير انصار واعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم ... احال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الامر واستهوتك احزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق ارواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج عند السبي مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... ان كان في القلب اسلام وايمان

شذرات من موشحات الاندلس

لشمس الدين اللمان

بأبي غصن بانة حملا   بدر دجى بالجمال قد كملا   اهيف

. . . .

فريد حسن ما مال او سفرا   الا اغار القضيب والقمرا
يبدي لنا بابتسامة دررا
وشهده لذ طعمه وحلا   كأن انفاسه نسيم طلا   قرقف

. . . .

مورد الخد فاتر المقل   يفوق ظبي الكناس بالحول
وينثني كالقضيب بالميل
من حمل ردف مثل الكثيب علا   نيط بخصر كاضلعي نحلا   مخطف

. . . .

ظبي من الترك يقنص الاسدا   مقرطق اذابني كمدا
حاز جميع الكمال وانفردا
واهاً له لو جار او عدلا   لمستهام بصبه بخلا   مدنف

لشهاب الدين الموصلي

الهوى ضرب من العبث   وبه العشاق قد عبثوا

. . . .

لي مليـــح وصله امـــلي　　يزدهي كالشمس في الحمـــل
جـــائر يسطو بمعتـــدل　　ينثني كالشارب الثمـــل
خنث ناهيـــك من خنث　　فهـــو روح والورى جثث

• • • •

غـُصُنٌ يصبي بمـــائله　　فشمـــولي من شمائله
وغليـــلي من غـــلائله　　وخمـــولي من خمائـــله
لذّ لي في ريّـــه شعثي　　برح العذال او مكثـــوا

لشهاب الدين العزازي

يا ليلة الوصل وكاس العقار — دون استتار — علمتاني كيف خلع العذار
فاغتنم اللذات قبل الذهاب　　وجر اذيال الصبـــا والشباب
على خدود تنبت الجلنار — ذات احمرار — طرزها الحسن بكاس العذار
الراح لا شك حياة النفوس　　فحل منها عاطلات النفوس
وافتضها بين الندامى عروس
تجلى على خطابها في ازار — من النضـــار — حبابها قام مقام النثار

لاحد اللخمي الغرناطي

حباك بالافراح ، داعي الصباح ، قم لاصطباح ، فالنوم في شرع الهوى لا يباح
والصبح قد جرد منه حسام　　باد القسام
تضحي وجوه الزهر منه وسام　　ذات ابتسام
وخافق البرق بدا بالنياح ، سامي الليـــاح ، وادمع المزن به في انسباح
والروض في ذاك الهتون البليل　　ظل ظليل
يغدو نسيم الزهر منه عليـــل　　يشفي الغليل
وساجل البلبـــل يبدي الميل　　على خليل
لما رأى تلك الغياض الفساح ، غنى وصاح ، وكاد يزري بالطيور الفساح

لابن غزله

يا من حكى خده الشقائق   وما له بالبها من شقيق
تركتني بالدمـــع شارق   لما بـــدا خدك الشريق

. . .

سللت من ناظريك صارم   للفتك ياشادن الصريم
وسرت يوم الفراق سالم   وقد تركت الحشا سليم
متى اراك الغـــداة قادم   يا من حديثي بــه قديم
شيبت من اجلك المفـــارق   وسرت مع جملة الفريق
ما بين حاد حـــدا وسائق   قلبي بمن ساقــه وسيق
بالله يا سفاك   اغمد ظباك

اغمض ظبا الجفنِ — عن عاشق مضنى — يا غاية الحسن
صل مغرماً بهواك ،   ودع جفاك
اضرمت بالسقم — ناراً على جسمي — تالله مـــا جرمي
يافتنة النساك   الا اهواك
يا ظالمي حقا — يكفيك مـــا القى — افتنتني عشقا
بمرهفي عيناك   اما كفـاك
يا شمس يا بـــدر ، يا شهد يا خمر ، يا مسك يا عطر
المسك من ريّاك   ومن لمـاك
لولاك يا اغيد ، مـــا بت مسهد ، اراقب الفرقد

لعبد الله بن زمرك

بالله يا قامـــة القضيب   ومخجـــل الشمس واالقمر
من ملك الحسن في القلوب   وايد اللحظ بالحـــور

. . . .

من لم يكن طبعه رقيقـــا لم يدر ما لذة الصبـــا
فرب حر غـــدا رقيقا تملكـــه نفحة الصبا
نشوان لم يشرب الرحيقـا لكن الى الحسن قد صبـــا
فعـــذب القلب بالوجيب ونعم العين بالنظـــير
وبات والدمع في صبيب يقـــدح من قلبه الشرر

. . . .

كم شادن قاد لي الحتوفا بربـــع القلب قد سكن
يسل من لحظه سيوفا فالقلب بالروع ما سكن
خلقت من عادتي الوفـــا احن لـــلالف والسكن
غرناطة منزل الحبيب وقربهـــا السؤال والوطر
تبهـــر بالمنظر العجيب فلا عـــدا ربعها المطر

لعز الدين هبة الله

صرف كاس جلناره وهـــو بالمزج بهـــاره
فأدرهـــا واسقنيهـــا في هوى من ريق فيها
من شراب الـــكاس احلا ولهذا صار اغـــلى

. . . .

بثنـــايا كالاقـــاح فضحت نشر المدامه
وقنـــاع كالصبـــاح غلبـــت الف عمامـــه
فتنحوا باللواحي واسألوا الله السلامه
ربعها دار الاماره ثغرها عقد الوزاره
فكذا تصد تيهـــا حين لا ترى شبيها
اي حسن ما اجـــلَّا ونوال ما اقـــلَّا

لآخر

ما للغمام ، يبكي بماء المزن ، من غير حزن

دمع السحاب ينحل من أفق
قولي صواب يا معشر الخلق
حب الشراب فاملأ لنا واسق
وبالمدام ، نجني الذي نجني ، في ليل دجن
يوم عجيب ، يلذ لي لقياه
غاب الرقيب لا رده الله
وجه الحبيب بالقلب ما احلاه
بدر التمام ، يميل كالغصن ، بكل حسن

لابي بكر بن زهير

ما للموله ، من سكره لا يفيق ، يا له سكران
من غير خمر ،
ما للكئيب المشوق ، يندب الاوطان

. . . .

هل تستعاد ، أيامنا بالخليج ، ولياليها
او يستفاد ، من النسيم الأريج ، مسك دارينا
أو هل يكاد ، حسن المكان البهيج ، ان يحيينا
روض اظله ، دوح عليه أنيق ، مورق الافنان
والماء يجري ، وعائم غريق ، من جف الريحان

. . . .

لغيره

قسماً بصورة ياسينِ ، لقد استفز الهوى ديني ، على ايد
ما جنت علي سوى عيني ، أي نظرة جلبت حيني
ورمت فؤادي بسهمينِ
مذ نظرت في الحور العين، نظرة تقيدت في حين، بلا قيد

اطوار العمر

لصالح بن شريف الاندلسي

ابن عشرٍ من السنينَ غلامُ   فَـرِهٌ زَوِلٌ ثغره بسَّام
عَتِلٌ غافلٌ سريـع حراك   دأبه الغيظ والرضى والخصامُ
وابن عشرين للصبا والتصابي   ليس يثنيه عن هواه ملام
حُبّب الأكل والشراب اليه   وصنوف اللذات وهي حرام
يتمنى المنى ويطلب جدا   فهو مقدامٌ في الوغى وهمام
والثلاثون قرة وشبـاب   وهيام ولوعـة وغرام
فاذا زاد بعد ذلـك عشراً   فكمال وشـدة وتمـام
وابن خمسين مرّ عنه صباه   فيراه كأنه احـلام
وابن ستين صيرته الليـالي   هدفاً للمنون وهي سهام
وله الفضل والفخـار وشاح   وسكون وهيبة واحـترام
وابن سبعين لا تسلني عنـه   فابن سبعينَ ما عليه كلام
لا يبالي على اخترام الليالي   وهو عنها لاهٍ به استصامُ
خرِقٌ ساهم حريص على المال   كثير الاهتار وغد عَبَامُ
فاذا زاد بعد ذلك عشراً   بلغ الغايـة التي لا ترام
وابن تسعين عاش ما قد كفاه   واعترته وساوسٌ وسقام
فاذا زادَ بعد ذلـك عشراً   فهو حيّ كميّتٍ والسلام

العصر العباسي الرابع

سنة ٤٢٢ تولـّى القادر ،فظهرت في ايامه الدولة السلجوقيـة وانقرض بنو بويه ، فساد السلجوقيون في الدولة العباسية زمناً . وفي ايام المستظهر ٤٩٠ ، ظهرت دولة بيت خوارزم وبدأت الحروب الصليبية ، التي ظلت زهاء قرنين . وسنة ٥١٢ ، تولى المسترشد فطمح الى استرجاع حقوق الخلافة واتخذ عسكراً ، وجرت حرب بينه وبين السلطان محمود ثم تصالحا . وفي ايامـه ظهر عماد الدين زنكي وحارب الخليفة ثم تصالحا ، وأسر الخليفة في حرب مع السلطان مسعود ثم قتل عام ٥٢٩ . وفي ايام المقتفي ظهر نور الدين زنكي وملك البلاد الشامية ثم مصر .

وفي أيام الناصر ، اشتدت الحروب الصليبية وحدثت الحروب التتريـة ، وانقرضت الدولة السلجوقية ، وزحف جنكيزخان الى البلاد الاسلاميـة ، وفعل فيها الفظائع ، فقاومه ملوك الاسلام دون جدوى .

وفي ايام المستنصر المتوفي سنة ٦٤١ ، تمكنت التتر من أكثر البلاد. وفي ولاية المستعصم ظهرت دولة المماليك الجراكسة في مصر ، وزحف التتر على بغداد فقتلوا اعيانها وفي جملتهم الخليفة واولاده ، وارتكبوا الفظائع طوال اربعـين يوماً . وبموت هذا الخليفة انقرضت الدولة العباسية من بغداد سنة ٦٥٥ ، وعدد خلفائها ٣٧ خليفة ومدة ملكهم ٥٢٤ سنة .

وانقطعت الخلافة ثلاث سنوات ونصف ، حتى جددها المستنصر في مصر وحارب التتر ، الى ان تولى بعده الحاكم الذي ظهرت في أيامه الدولة العثمانية .

وظلت الخلافة العباسية في مصر ٢٥٥ سنة حتى انتقلت من آخر خليفة منهم الى بني عثمان سنة ٩٢٢ هـ.

الشعر : ان ما حلّ بخلفاء الدولة من المصائب ، وما اصاب المملكة الاسلامية العربية من التضعضع بسبب الحروب والفتن التي توالت كما رأيت ، قد أقلّ الذين يهتمون للشعر والشعراء ، ويأخذون بناصر الأدباء والعلماء . واذا كان المتنبي شكا وقال : « وما تفلح عرب ملوكهم عجم ». فماذا يقول شعراء هذا العصر الذين أصبح ملوكهم لا يفهمون لغتهم ؟ فلهذا انصرف الشعراء إلى الفقه والتصوّف ، وغير ذلك من الاغراض .

الا أنهم ظلوا يتحدّون أسلافهم الشعراء وينسجون على منوالهم . نظموا في الفخر تقليداً لمن تقدموهم ، والفرق بين الفريقين ان المتقدمين فخروا باشياء اندفعوا إلى الافتخار بها ، اما هؤلاء فافتخروا ليقال انهم افتخروا ، وبماذا يفخرون ، وقد صاروا إلى الانقراض ؟

وقس على ذلك المدح ، فالأولون مدحوا ملوكا هابهم زمانهم ، اما هؤلاء فالميدان امامهم ضيّق . واما لغة الشعر فضعفت عما قبل لبعد العهد بالعرب وفصاحتهم . وتسربت الركاكة الى الصناعة اللفظية كما فعل المنشئون ، فامتلأت أشعارهم بانواع البديع . وإمام هذه الطبقة الصناعية ابن الفارض الذي بلغ حدّ الإعجاز .

بهاء الدين زهير

حياته : ولد بوادي نخلة على مقربة من مكة ، ونقـل إلى مصر حيث نشأ وتأدب . اتصل بالملك الصالح بن الملك الـكامل من دولة بني ايوب ، ورافقه إلى الشام والجزيرة . ولما غلب هذا الملك ابن عمه الناصر وأسره ، أقام البهـاء بنابلس ، حتى عاد سيده إلى الملك واسترد الديار المصرية ، فصار البهاء وزيره . وظلّ كذلك حتى مات الملك الصالح ، فانزوى البهاء اذ ذاك وظل كذلك حتى مات بالوباء سنة سقوط بغداد في ايدي التتر .

شعره : كان البهاء دمث الاخلاق ، رقيق الطبع ، ليّن الجانب ، عـذب الكلام . فأثـّر ذلك في شعره ، فكان من السهل الممتنع . شعره صورة محيطـه وصورة اخلاقه وطبعه . لم يقلد احداً فيه ، ولم يلتجىء إلى غير شعوره لاخراج صُوَره الشعرية .

عبّر بلغة عصره واساليبها، فخلا من كل تعقيد وغرابة . يفهمه كل قارىء . واننا لنستطيع ان نقول فيه : انه حلقة الاتصال بين العامية واللغـة الفصحى العالية الاسلوب .

أجاد في الغزل والرثاء لأنه لغة العاطفة وألحق بهما العتاب الذي هو ضرب من الغزل . ترجم ديوانه المستشرق بلر الانـكليزي في مجلدين ، وعلـّق عليه الحواشي .

كان يعول على الاوزان الخفيفة شأن شعراء بغداد الماجنين . مدح ولـكنه لم يبرز في المدح ، ولم يكن شأنه فيه شأنه في الغزل .

اغلب نظمه في وقائع معلومة بينه وبين احبابه . وقد كان نزّاعاً إلى الخروج على المألوف في اللغة كقوله :

بروحي من أسمّيها بستّي   فينظرني النحاة بعين مقت

عمد إلى الصناعة اللفظية ، ولـكنه لم يكثر منها الّا في مناسبة ، بـل لا يعتمدها .

النثر

ميزته : تمكنت السيادة للاعاجم ، فأصبح العرب وغيرهم من رجال القلم مضطرين للتملّق . فنمّقوا العبـــارة وبالغوا في الاطراء والمديح ، فتأنقوا في انشائهم ، وزينوا عبارتهم بأنواع البديع والسجع . فتخطوا الحدود التي رسمها من تقدمهم ، حتى تعمّد هذاالسجع كل الكتّاب من مؤرخين وغيرهم ؛ فأصبحت كتبهم أحجية لا تدرك إلا بالجهد العظيم .

ومن أيمة انشاء هذا العصر القاضي الفاضل مقلد بن العميد .

القاضي الفاضل

هو فلسطيني ، ورد مصر وكتب أولاً في ديوان الظافر ، ثم استوزره صلاح الدين أيوب ، فساس ملكه ، ووزّر من بعده لابنه ثم لأخيه حتى تُوفي .

اسلوبه : مزيج من أسلوب الكتّاب قبله، كالصاحب وخصوصاً ابن العميد. انما امتازت كتابته في الاغراق في التورية والجناس ، فأكثر السجع جداً، وظل مذهبه شائعاً حتى عهد ابن خلدون .

الحريري

ابو محمد القاسم بن علي بن عثمان الحريري البصري ، اشتهر بمقاماته المشتملة على أكثر كلام العرب وأمثالها ولغاتها . كان في أول أمره يبيع الحرير ، ثم تحول الى الأدب فطارت شهرته ، وقرّبه الامراء وقصده المتأدبون للاستفادة من علمه.

اخلاقه : كان دميماً ، قصير القامة ، بخيلاً قذراً ، ان تسمع به خير من ان تراه ، كما قال هو عن نفسه، لذلك الذي قصده ثم استبشع منظره .

نثره وشعره : مكثر في النثر ، مقلّ في الشعر ، متبع بديع الزمان ، ممهد للاسلوب الفاضلي . قلّل من البديع وبالغ في الصنعة ، فقلّت معانيه وكثرت الفاظه. وشعره كنثره تنميقاً وصنعة .

مقاماته : وضعها على طريقة بديع الزمان . ويقول ان سبب وضعها انه كان في مسجد بني حرام ، فدخل شيخ عليه طمران ، فسأله الحاضرون ، فقال : من سروج . فسألوه عن كنيته ، فقال : أبو زيد . وجعل الراوي الحارث بن(همام اي الحريري نفسه) ، ثم زاد المقامات حتى بلغت الخمسين بناء على طلب الملك الأشرف .

طبعت هذه المقامات وترجمت مرات عديدة .

تآليفه : وللحريري غير المقامات، كتاب درّة الغوّاص في أوهام الخوّاص ، بيّن فيه اغلاط الكتّاب الكبار . وكتاب ملحمة الاعراب في النحو ، وهو أُرجوزة . والرسالة السينيّة ، أي ان اول كل كلمة فيها سين . ورسالة أُخرى في الفرق بين الضاد والظاء .

وظلت المقامات متبعة حتى آخر القرن التاسع عشر ، وقد يكتب فيها بعض كتّاب اليوم ولا يلتزمون السجع .

علوم النحو واللغة

وكثر في هذا العصر علماء النحو واللغة ، وقام منهم في كل قطر رجال عديدون كالجرجاني .

الجرجاني : مؤسس علم البيان ، وأشهر تآليفه اسرار البلاغة . وضع هذا العلم على قواعد راسخة ، وهو يقول انه اندفع إلى كتابة هذا التأليف عندما رأى الكتّاب انصرفوا عن المعاني إلى الالفاظ . وعلى منواله نسج المؤلفون فتوسعوا في هذا العلم . ثم جاء بعده **السكاكي والميداني** وهما من علماء اللغة ايضاً ، ثم **الزمخشري** ، واشهر كتبه المفصّل في النحو ، وكتاب أساس البلاغة ، وهو نسيج وحده يبحث في استعمال الالفاظ ومواضعها من الجمل .

وله اطواق الذهب ، وهو كتاب وعظ وادب على طريقة المقامات ، انما لا قصة فيه . وله كتاب المستقصى في الأمثال ، مرتب على حروف الهجاء .

ابن الحاجب : ولمع في هذا العصر ابن الحاجب . كان والده حاجباً للامير عز الدين الصلاحي بمصر . تأدب في مصر ، وانتقل إلى دمشق وعلّم في جامعها ، ثم انتقل إلى الاسكندرية ومات فيها .

تآليفه : الكافية في النحو . الشافية في النحو ايضاً ، وهو مختصر الأمالي النحوية .

التاريخ الطبيعي

لم يكن هذا العلم مرتباً ودقيقاً كما هو اليوم ، ولكن العرب كتبوا في هـذا كتباً درسوا فيها الحيوان والنبات وما يتبع ذلك من المـواد التي تعرف اليوم بالتاريخ الطبيعي . فقد علمنا ان الجاحظ كتب في الحيوان كتاباً جليلاً درسناه في محله ، اما في هذا العصر فقد كتب في الحيوان ، كمال الدين الأميري .

الدميري : كتب « كتاب حياة الحيوان الكبرى » وهو معجم مرتب على اسماء الحيوانات ، وصف فيه كل حيوان وأصل اسمه ، وما جـاء من الحديث والامثال بشأنه ، مع خصائصه الطبية وتفسيره في الاحلام . وفي الكتاب ايضاً ، على عادة ذاك الزمان ، ترجمة من يأتي على ذكرهم من المشاهير والأعيان والخلفاء والشعراء والادباء الخ ...

الرياضيات : من المؤلفين في هذا العلم ، في هـذا العصر ، **الشيرازي** . له كتاب نهاية الادراك في دراية الافلاك . **ابن البناء** المراكشي وله كتاب تلخيص اعمال الحساب .

الفلسفة – **القزويني** : له كتاب الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية . وله كتب غيره .

التاريخ والجغرافية والاسفار

نضجت في هذا العصر مواد التاريخ ، وعرف الناس كيف يكتبون فيه ، وتعددت الملوك في كل الاقطار ، وكل ملك يرغب في تاريخ عهده . فكثر الذين كتبوا فيه ، فمنهم من كتبوا التاريخ العام ، ومنهم من كتبوا التاريخ الخاص ، فتعددت كتب التاريخ في هذا العصر من سيَر الى تواريخ دول الى تراجم مشاهير وتواريخ مدن الخ ...

وكذلك جرى في كتب الجغرافية والرحلات والاسفار ، فبتعدد العواصم والديار كثرت الاسفار ، فدوّن الكتّاب ما رأوا وشاهدوا .

الادريسي : ابو عبدالله محمد بن ادريس الصقلي . تثقف في قرطبة ، الّف كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، لصاحب صقلية روجر الثاني. بدأ في كتابه بصورة الارض التي رسمها ، وأخذ في وصف اشكال الأرض وطبيعتها واستدارتها واطوالها . كانت جغرافية الادريسي هذه عمدة هذا العلم في اوروبا لتقويم البلدان اجيالاً ، فرسموا خرائطها وترجموها للغاتهم .

يظهر ان الادريسي كان عارفاً في منابع النيل فصورها بحيرات عند خط الاستواء كما يقول عنها علماء هذا الزمان. وفي هذا الكتاب خرائط ورسوم قيّمة.

ابن جبير : هو ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي . رحل رحلات عديدة الى مصر والشام والحجاز والعراق وصقلية ، فوصف كل هذه الافطار وما فيها من الغرائب والآثار .

ياقوت الحموي : هو روميّ الجنس ، حمويّ المولد ، بغدادي الدار . أشهر

جغرافيي العرب واغزرهم مادة وأجلهم نفعاً. أسر صغيراً فابتاعه تاجر بغدادي اسمه عسكر الحموي ، وعلمه لينتفع به في ضبط تجارته . أشغله مولاه في اسفاره التجارية ، فاستفاد بالمطالعة. جاء دمشق وكان متعصباً لعليّ ، فثار عليه الناس ففرّ وتنقل في بلاد كثيرة حتى ألقى عصا الرحيل في خوارزم . وفيما هو هناك خرج جنكيزخان على البلاد الاسلامية ففرّ ياقوت وظلّ هارباً حتى استقر بظاهر وهناك مات .

ميزته : مؤلف محقق ، حسن الترتيب والتبويب ، كما يظهر من كتبه .

كتبه : معجم البلدان: معجم جغرافي كبير ، حافل باسماء مدن وقرى البلاد حتى اسماء الجبال الخ .

وفي هذا الكتاب ، فوق الجغرافية ، أدب كثير . فهو يروي شعرا كثيراً ، وتاريخ كل من انجبته البلدان التي كتب عنها . من شعراء وعلماء وفقهاء وأدباء وخلفاء ، الخ .

معجم الأدباء : وهذا كتاب آخر وهو معجم تاريخي ادبي ، أوسع من كتابه الآنف الذكر . ذكر فيه سير النحويين واللغويين والمؤرخين والكتاب ، وكل من الّف في الادب .

المقرّيزي : بعلبكي الاصل عرف بهذ الاسم نسبة لحارة المقارزة . كان جده من كبار المحدثين فيبعلبك،تحول والده الى القاهرة فولد له تقي الدين المقريزي. تعلم فنوناً كثيرة ونظم ونثر ، وتولى النيابة في الحكم ، وكتابة التوقيع والحسبة والخطابة بجامع عمرو ، واتصل ببرقوق الملك ، الى ان انصرف الى العلم واشتغل بالتاريخ ، وكتب فيه كتباً قيمة هي مرجع الناس في شؤون مصر تاريخياً واجتماعياً وسياسياً .

خطط المقريزي : فيه جميع أخبار الديار المصرية وأحوال سكانها وآثارها من باق وبائد .وعند الكلام عن اثر ما في تاريخه يسرد ما توالى عليه من الحوادث والنكبات .

وله غير هذا الكتاب كتاب تاريخ مصر « السلوك لمعرفة دول الملوك » .

وله أيضاً تاريخ الدولة الفاطمية . وهنـــاك كتب عديدة لا نستطيع عدها في هذا الموجز .

المقّري : ولد في تلمسان وسمي المقري نسبة إلى قرية نسب إليهـا آباؤه . تعلم في فاس ومراكش ، ثم نزل القاهرة وزار القدس وحجّ خمس مرات ، واقام في المدينة وأملى الحديث ، وعاد إلى القاهرة ومات فيها فجأة .

تآليفه : نفح الطيب في غصن الانـدلس الرطيب ، يحتوي تاريـخ الأندلس وفتح المسلمين لها ومن حكمها من امراء وخلفاء.وترجم لمئات من ادبائهاوشعرائها، من اشعارهم ، خصوصاً لسان الدين بن الخطيب الذي اسهب جداً في وصفـه ورواية أدبه . وخلاصة الكلام، ان كتابه هذا يصوّر الأندلس من كل مناحيها.

النقد الادبي

أول من تصدّى للنقد كان الجاحظ ، وهو ابو الأدب العربي ، وجاء بعده ابن قتيبة في كتابه ادب الكاتب . ثم عالج هذا الموضوع كثيرون ، كالخوارزمي والثعالبي وابي هلال العسكري ، بيد ان انتقادهم لم يكن المقصود من كتبهم . اما انتقاد الالفاظ وغلط العوام فتصدّى له كثيرون ، وهذا دفع اليه امتزاج العرب بالعجم . ولكن نقد الانشاء من حيث هو فنّ مستقل بنفسه ، فكتب فيه الجرجاني الذي تقدم ذكره ، واضع علم البلاغة .

واستحسن المنشئون هذا العلم فتوسعوا فيه وزادوا عليه ، فكان من أيمته ابن الأثير صاحب المثل السائر ، فاستوفاه وأشبعه بحثاً وقتله درساً .

ابن الاثير

هو ضياء الدين ابو الفتح نصرالله الجزري ، المعروف بابن الاثير . ولد في جزيرة ابن عمر . انتقل مع والده إلى الموصل وهناك حصل العلوم وحفظ من شعر العرب شيئاً كثيراً أعانه على الابداع في النظم والنثر . اتصل بصلاح الدين ثم بابنه الملك الأفضل نور الدين . ولما توفي صلاح الدين واستقل ابنه بمملكة دمشق ، استقل ابن الأثير بالوزارة وردت أمور الناس اليه ، فأساء معاملتهم فكرهوه . ولما تقلّص ظل وليّه ، همّ الناس بقتله ، فأخرجه الحاجب محاسن بن عجم في صندوق مقفل عليه ، فلحق بمولاه وصحبه

إلى مصر . وفي مصر أساء معاملة الناس ايضاً ، ولو لم يهرب لكانوا قتلوه . وظل يسيء معاملة الناس ويتنقل من مكان إلى آخر حتى ادركته الوفاة .

اخلاقه : متكبر ، مدّعٍ ، شرس الاخلاق ، مطبوع على حبّ الاستبداد .

كتابه : « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » . مؤلف نفيس ، وافر المادة ، محكم الوضع ، جمع أصول علم الانشاء وفروعه ، لم يترك مسألة الا شرحها ، ولا فائدة الا سجّلها ، ولا بحثاً إلا جال فيه ، مبيّناً محاسنه ، كاشفاً عن معايبه . فجاء كتابه هذا جامعاً لكل فنون الكتابة مبوباً مرتباً بكل دقة ، يشهد لصاحبه برسوخ القدم في هذا الفنّ ، وغزارة علمه في هذا الفرع . الّا انه ، سامحه الله ، بدأ بالادعاء المشين من مقدمته إلى خاتمته ، فلا تمرّ صفحة الا نرى فيها الفات نظر إلى ما استنبط ابن الأثير ، أو إلى ما نظم ، أو إلى ما أدرك ، وهلمّ جرّا ، حتى يخيل إلى القارىء انه وضع هذا الكتاب ليبين لنا اقتداره وتقصير كل من تقدموه .

موضوع الكتاب : صناعة الانشاء لفظية ومعنوية ، وفي آخره فصل في النقد دلّ فيه على سرقات الشعراء ، وقسم السرقة إلى ثلاثة أقسام : نسخ وسلخ ومسخ ، وقسم كل نوع إلى ابواب .

لقد أجاد في كل ما كتب في هذا السفر الذي لا عيب فيه الا ادّعاء صاحبه .

عصر الانحطاط

المغول

سقوط بغداد: زحف جنكيزخان بجيشه فاكتسح خراسان ففارس، وأعمل سيفه في كل بلد نزل فيه ، فما كان يترك مملكة الا قفراً يباباً . وبعد ثلاثين عاماً ونيف ، زحف ابنه هولاكو فعبر نهر جيحون ، قاصداً بغداد ، فاستولى على قلعة « ألمُوت » وذبح من فيها من الجنود .

وفي سنة ٦٥٥ ، نشب خلاف بين الشيعة والسنّة كان أشبه بحرب داخلية قتل فيها عدد من الشيعة ، فغضب لذلك الوزير ابن العلقمي فشجّع التتر على غزو العراق والاستيلاء على بغداد ، فملكوها وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ، وأعملوا السيف في بغداد ٣٤ يوماً ، فما نجا الا من قدّرت له النجاة .

فدالت دولة العرب ولم يبق لهم من صورة الملك الا دويلات لا شأن لها ولا قيمة .

رجال العلم : وقف رجال العلم تجاه هذا الحدث الخطير وقفة حائر . نظروا إلى بغداد ملجأ العلماء فاذا نار الإرهاب والفتك مضطرمة بها . رأوا كل شيء عربي معرضاً للفناء ، فعلمهم وادبهم يقذف به إلى نهر دجلة . ففكروا إلى اين يهربون ويلجأون ؟ فلم يروا أمامهم الا مصر والشام .

مصر المماليك : كان المماليك رجال حرب وفتك لا يميلون الى الترف واللهو، بعضهم متمسك بالدين ، انما الدين الذي تُصوّره له فطرته وتلوّنه بيئته ونشأته .

فكانوا يمزجون الدين بالسياسة ، اذا اضطروا اليه لجذب قلوب الناس ، ولهذا انشأوا الجوامع والمدارس والملاجىء والمصحّات وحبس المال على عمل البر ، وتقريب العلماء وتشجيعهم على نشر العلم بالمدارس والتأليف . وقد يكون الدين عندهم لإذكاء نار الحرب كما وقع لهم اذ رأوا أنفسهم حماة الإسلام ، وملجأ الأمم العربية المهزومة . فالملك الظاهر بيبرس حمى خلافة بني العباس وتقبل ولاية الحكم من المستنصر بالله العباسي الذي فرّ من وجه التتر إلى مصر .

هجرة العلماء : أخذت القاهرة مكان بغداد فأصبحت دار العلم لما فيها من مدارس ومجالس ، فشرعوا يؤلفون ويكتبون وينثرون وينظمون . ثم فرّ علماء الأندلس أيضاً إلى مصر ، لأن ما حلّ بالعباسيين حلّ ما يشبهه بالاندلسيين .

ولكن هجرة العلماء الى مصر والشام لم تترك أثراً بيّناً في الحياة في هذين القطرين ، بل لم تتعد غيرهما من بلاد المشرق . ولم تُحدثْ أي حدث اجتماعي لأنها كانت علمية أدبية دينية ليس غير . **فمقدمة ابن خلدون** ، نزيل مصر أيام السلطان ، لم تحدث أقلّ تأثير مع انها تتضمن كثيراً من الآراء الاجتماعية الناضجة ، وتحتوي على آراء سديدة في سياسة الممالك وإنهاض الشعوب . وما السبب إلا جمود الناس وتمسكهم بالقديم ، وخمول الشعب وجهله .

ضعف النثر : ضعف النثر لشغف الكتّاب بتزيين اللفظ وتجميله بالسجع ، وتحليته بالبديع ، وانصرافهم عن المعاني والأفكار . فإذا قرأت لكاتب مقالة في هذا العصر رأيت انها لا تشتمل على معنى باهر أو فكرة قيّمة ، لأن الكتّاب كانوا يفكرون في الألفاظ قبل المعاني ، وفي هذا مقاومة للعقل ، فجاء الانشاء متكلفاً خائراً .

وبدت بوادر هذا الضعف قبل سقوط الدولة العباسية بزمن غير يسير . غير ان الكتّاب في هذا الزمان نسجوا على منوال القاضي الفاضل ، فالتزموا السجع والتورية وغالوا في ذلك جداً ، حتى أتوا بما ينافي الذوق .

ضعف الشعر : وبدت على الشعر آثار الضعف والتقهقر لأنه لم يرسل مع الطبع والسليقة ، كما كان شأنه في العصر العباسي الأول . ضعفت الملكة الشعرية

والخيال والابتكار والتوليد ، وأحسّ الشعراء ذلك فلجأوا الى العناية بالألفاظ، فجعلوها براقة خلابة ، ولكنها لا تخلو من براعة ، وكادت تكون جميلة لولا خلوها من الأفكار التي يهتز لها الفكر الإنساني أكثر من اهتزازه بالكلام . لقد كانوا كاللاعب على الحبل يدهشك بلباقته ، ويؤسفك ان يضيع وقته بأمور تافهة كهذه .

وقد ظلّ الشعر أرقى بكثير من النثر لأن تقيده بالوزن والقافية لم يفسح للمحسّنات اللفظية لتلجه بسهولة و كثرة ، كما كان شأنها في النثر .

ولا تنس جهل أكثر هؤلاء السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية . فلو كانوا يتذوقون الأدب والشعر لانصبّ الشعراء على عملهم الفني وأتقنوا نظمهم وجوّدوه . فلهذا لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون الا في « حماه » حيث بقيت هذه العادة ردحاً من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية .

ومما يدل على انحطاط الشعر تصدّي معظم الفقهاء والعلماء والكتّاب لنظمه من غير هيبة ولا خشية . واليك مثالاً من ذلك الشعر ، قاله أحدهم في السلطان برقوق :

سلطان مصر دام فضل علائه قد عمّنا بالفضل والاحسان
لم أنس يوم السبت حسن مهمّه قد كان يوماً جاء بالسلطان

الحلي

هو صفي الدين ابو البركات عبد العزيز بن سرايا الحلّـي . ولد ونشأ في الحلّـة ، ايام كان العراق يعج بالبلايا وتنهلّ عليـه الدواهي . هجر الشاعر مسقط رأسه وأمّ الملوك الاكراد آل ارتق اصحاب ماردين ، فأحسنوا وفادتـه وأجزلوا صلته ، وصانوا مهجته من الاعتداء . فرتع في ظلّهم ، فقال فيهم شعره الجيد ويعرف بالارتقيات ، منها ٢٩ قصيدة كل منها ٢٩ بيتـاً على حرف من حروف المعجم يبدأ به البيت ويختم به من الهمزة إلى الياء . ووسم هذا المجموع بـدرر النحور في مدح الملك المنصور . وورد الحلّـي مصر ومدح ملكها الناصر بقصيدة غراء ليس فيها هذه الصنعة . ثم عاد إلى ماردين ، وحنّ إلى وطنه ، فعاد اليه وهناك مات .

شعره — أغراضه : لم يدع الحلّـي باباً من أغراض الشعر الا ولجه ، وقـد بنى ديوانه على احد عشر باباً ولجها كلها وغالى في **المجون والاحماض** .

اوزانه وضروبه : نظم القصائـد مطولات ، ومقطعات ، ومخمسات ، ومشطرات ، ومواليا ، وزجلاً ، وقوماً ، وكان وكان ، الخ ...

قيمته : ان هذا الشاعر يعد اماماً للصناعـة اللفظية في الشعر ، فنسج على منواله كثيرون ممن جاؤوا بعده ، فصرفوا عنايتهم إلى الجنـاس والتطبيق والتنسيق ، فأصبح الشعر صورة جامدة لا تجري فيه ماويّة الحياة والعاطفة . ثم تدرّج شيئاً فشيئاً حتى صار لا تشتهي ان تسمعه ، واذا رأيت صاحبه فـلا تستحي ان تصفعه ...

بيد ان له صورة اخرى لا تقلّ رواء عن الشعراء المجيدين ، وذلك حيث لا يتعمّد التكلف ، كما في قصيدته البائية التي مدح فيها ملك مصر السلطان الناصر ، وكقصيدته الرائية التي حرّض فيها الملك الصالح على الاحتراز من المغول ومنافرتهم عند اقبالهم ، ومطلعها : « لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا » الخ . وكقصيدته الفخرية في الحماسة : « سلي الرماح العوالي عن معالينا » .

الخلاصة : ان الحلّي هذا زعيم شعراء عصر الانحطاط . وشعره متفاوت في الجودة ، فآونةً يسفّ دون الشعراء ، وحيناً يسمو إلى ما فوق أفقهم . وعلى كل فلا تزال في شعره رائحة الشعر البليغ من فصاحة لفظ ورشاقة أسلوب .

وشعره في جملته سهل الألفاظ حسن المعاني ، الا ما تكلفه منه للتشاوف واظهار الحذق والمقدرة اللغوية والفنية ، فانه جاء رديء النسج ، ثقيلاً على السمع ، ومن هذا في ديوانه شيء كثير . وهو أول من نظم في المدائح النبوية .

ابن الوردي

حياته : هو زين الدين عمر ، ولد في معرة النعمان ومات بحلب . برع في الادب والنحو واللغة والتاريخ والفقه . له مؤلفات تاريخية : تتمة المختصر في أخبار البشر . وله في النحو : اللباب في الاعراب ، وشرح ألفية ابن مالك . وترك في الأدب ديوان شعر ، ومقامات كالحريري ، وقصيدته الحكمية المعروفة بلامية ابن الوردي . وقد طبع أحمد فارس الشدياق هذا الكتاب في مطبعته بالاستانة .

شعره : بسيط الاسلوب ، وسط في جودته ، كان يحسّنه بالانواع البديعية متبعاً عصره في ذلك . هذا الشاعر الذي ينهى عن قول الغزل ويأمر بمجانبته ، نرى في ديوانه مقاطع غزلية لها قيمة وقدر .

ابن نباتة : ومن شعراء هذا الزمان ابن نباتة . في شعره رقة وسهولة وايراد

ونكتة مستملحة . ولا غرو فهو مصري المولد والمنشأ .

الشاب الظريف : وهو شاعر مصري ايضاً ، رقيق الكلام منسجم العبارة.

ومن الشعراء ايضاً ، **التلعفري** ، **والبوصيري**،وهذا شاعر اشتهر بقصيدته : « البردة » في مدح النبي ، يعرفها عدد لا يحصى من البشر ، وطبعت طبعات مختلفة .

وله ايضاً قصيدة نبوية همزية ، لا تقل عن البردة الميمية رونقاً وجلالا ، أما شعره في غير هذا الغرض فليس بالشعر العالي .

التأليف والمؤلفون

في هذا العصر كثر التأليف في كل الفنون والعلوم. ولعلّ من أقوى الأسباب كثرة المدارس ، وميل ملوك القاهرة الى اقتناء الكتب النادرة،وانشاء الخزانات لأنواع عديدة من المؤلفات .

ولكن التأليف في هذا خلوّ من الابتكار، وما هو الا جمعمن آثار المتقدمين. هذا اذا استثنينا تاريخ ابن خلكان وخطط المقريزي .

علوم اللغة والتاريخ : من أيمة علم النحو في هذا العصر **ابن مالك الطائي** ، دمشقي المولد ، اشتهر في تسهيل الفوائد في النحو . والألفيّة ، وهي النحو ، يعرفها الكثيرون بابن عقيل لأنه شرَحها.واشتهر ايضاً بكتاب الكافية، ولامية الأفعال ، وهاتان ايضاً منظومتان في النحو كالألفية .

ابن منظور : صاحب لسان العرب ، وهو أكبر معجم عربي يقع في ٢٠ مجلداً ، مرتب على أواخر الكلم،ويعدّ دائرة معارف في اللغة والأدب والتفسير.

ابن هشام : صاحب مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، وهو كتاب درس فيه النحو درساً عميقاً وخصوصاً معاني الحروف .

ابن خلكان : كان قاضياً مدرّساً . أشهر تآليفه كتاب وفيات الأعيان ،

وهو معجم تاريخي يدلّ على ابتكار وتدقيق، ومرجع في التاريخ واللغة والأدب.

ابن خلدون : تونسي المولد ، تنقل بين المغرب والأندلس كاتباً ومشيراً لأمرائها ، ثم رحل الى مصر واتصل **بالسلطان برقوق** ، فولّاه قضاء المالكية ، ومات في مصر .

مقدمته : اشهر كتاب يحقّ للعرب الافتخار به لأنه بحث جامع في علوم الاجتماع والسياسة وفلسفة التاريخ . بحث كل ذلك في اسلوب سهل شائق لم يشب بصناعة ، واستنباط منطقي صحيح .

القلقشندي : نبغ في الإنشاء وله كتاب : **صبح الأعشى في صناعة الانشا،** اشتهر به ، وهو يضم الى صناعة الانشاء تقويم البلدان .

الصفدي : هو صلاح الدين ابو الصفاء بن ايبك الصفدي ، ولد في صفد ، وتلقى العلم عن ابن نباتة في دمشق . تولى ديوان الانشاء في صفد وحلب والقاهرة .

قيمته : من أعاظم كتّاب العصر المغولي وأوسعهم علماً واكثرهم عملاً . ألف في مواضيع شتى . حسن الاسلوب ، وأغلب كتاباته في التراجم التاريخية .

تآليفه : الوافي في الوفيات ، وهو معجم في التراجم . وله نصرة الثائر على المثل السائر ، وهو نقد لكتاب ابن الأثير ، انتقد عليه اعجابه بنفسه ، واستدرك عليه أشياء فاتته . وله كتب عديدة غير هذه الكتب لا مجال لعدّها هنا وأكثرها محفوظ في مكاتب الغرب .

ابو الفداء: هو الملك المؤيد عماد الدين ابو الفداء اسمعيل ابن الملك الأفضل نور الدين علي الايوبي . ولد بدمشق التي لجأ ابوه اليها عند اكتساح المغول حماة قاعدة ملكه . تأدب أبو الفداء على علماء عصره فبرع في العلوم اللسانية والدينية والفقه والتاريخ والطب والأدب والشعر وعلم الهيأة . كان فارساً شجاعاً ، حضر مع أبيه حصار قلعة مرقب وحصار طرابلس وعكاء .

تقرّب من الناصر بن قلاوون فسرّ به وولاه نيابة حماه ، ثم جعله ملكاً عليها ، فكان الملك المحبوب المحمود الأثر .

آثاره : لأبي الفداء نظم ونثر وتصانيف ، منها : « المختصر في أخبار البشر» اختصره عمن تقدمه كالطبري وابن الاثير المؤرخ لأصحاب المثل السائر ، وتممه إلى سنة ٧٣٠ هـ . وقد نقله الافرنج إلى لغاتهم . وله في الجغرافية كتاب تقويم البلدان ، جمع فيه كل مفيد . ويمتاز بضبط الاسماء وتحقيق العروض والاطوال ، مع ذكر ما تجب معرفته من الاراضي والبحار والأقاليم العرفية والحقيقية على مذهب القدماء ، فكان لكتابه هذا شأن عند الفرنج للوقوف على الجغرافية العربية .

ابن العبري : هو ابو الفرج غريغوريوس بن اهرون الملطي . درس الطب على ابيه ، ثم على غيره من المشاهير ، وتضلع ايضاً من سائر العلوم والفنون . كان يحسن العربية والسريانية واليونانية .

ولما انقضّ المغول على هذه الديار هرب مع والده إلى انطاكية ، وانقطع عن العالم معتبراً بمصائب الأمم ونكبات الدول ، فلجأ إلى كهف يتعبد فيه ، فاهتدى رئيسه البطريرك اليه ، وعرف تقواه وسامه اسقفاً في العشرين من سنيه ، واوفده إلى طرابلس ، ثم ولاه رئاسة اساقفة حلب . واعتبره هولاكو ملك المغول لفضيلته وعلمه ، فأطلق يده ، فاستخدم هذه الحرية التي كان يتمتع بها ، في خدمة القريب والعلم .

آثاره : له مؤلفات كثيرة في السريانية ، تشهد له بالتعمق وبُعد الغور في الفنون .

مختصر الدول : وضعه تلبية لاحد أفاضل العرب ، وهو تعريب تاريخه السرياني ملخصاً ، ولكنه أضاف اليه ما يتعلق بدولتي المسلمين والمغول وقسماً لاخبار الاطباء والرياضيين .

القزويني : مؤرخ شهير اسمه زكريا بن محمد ، يتصل نسبه بمالك بن انس . كان إماماً فاضلاً وعالماً فقيهاً ، أتقن فنون الأدب وتفقه في الدين . عينه المعتصم قاضياً على واسط والحلة ، وفي دمشق تعرف على ابن العربي الصوفي الشهير .

أشهر كتبه كتاب عجائب المخلوقات في وصف الكون ، وله في هذا الكتاب

آراء جليلة وأخبار طريفة . وله كتاب آخر عنوانه « آثار البلاد » ، وهو مثل كتابه الأول .

ابن بطوطة : هو الرحالة الشهير شمس الدين ابو عبد الله الطنجي . ولد بطنجة ونشأ وتأدب فيها ، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره قصد مكة ثم جاب العراق ومصر والشام واليمن والهند ، ودخل مدينة دلهي عاصمة البلاد ، وولاه ملكها خطة القضاء المالكية ، ثم ساح في الأقطار الصينية وأُسر وتملص من أسره ، فدخل بلاد التتر ، وتوغل في القارة الافريقية الى تمبكتو ، وطاف في بلاد الأندلس ، ثم عاد الى المشرق .

تحفة النظار : في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، وتُعرف برحلة ابن بطوطة ، كتاب ضمنه المؤلف أخبار كل ما رآه وشاهده . طبعت في باريس ومصر .

اهتمّ الافرنج لهذه الرحلة كثيراً ، عندما اهتموا بالشرق والسفر اليه ، عولوا عليها وانتقدوها وعلقوا عليها ونقلوا بعضها إلى اللاتينية ونشروه ، وترجمت للغات عديدة .

السيوطي : هو جلال الدين ابو الفضل عبد الرحمن بن الكمال السيوطي ، إمام أيمة المسلمين ، وزعيم العلماء الأعلام . ولد بأسيوط ، ونشأ يتيماً بمصر وحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات .

أتقن في قليل من الزمن فنون عصره ، وتبحّر في التفسير والحديث والفقه والنحو والبيان والبديع على طريقة العرب .

ساح في بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور حيث كان في كل مكان يتذاكر مع العلماء ويباحثهم . وتولى تدريس الفقه في المدرستين الشيخونية والبيبريسية ، فطار صيته وانتهت اليه رئاسة العلوم الدينية في عصره .

اخلاقه : كان حاداً نزقاً ، ثقيل الوطأة على الكتّاب الذين يعتقد انهم اقتبسوا من مؤلفاته ، فيشهّرهم. أما هو فكان يعبث بتأليف المتقدمين فينتحل

وينسخ . كان سريع الخاطر غزير المادة سيال القلم . له ٣٠٠ مؤلف بين بسيط ووسيط ووجيز .

قيمته : أفاد كثيراً بابرازه طائفة من المؤلفات كانت امّحت آثارها لولاه .

ولو لم يكن له الا كتاب الإتقان في علوم القرآن ، والمزهر في أصول اللغة ، والأشباه والنظائر في دقائق النحو وأصوله ، والهمع على الجمع ، في فروع النحو والصرف وأصولها ، لكفى .

الادب

الابشيهي : هو محمد بن احمد الخطيب الابشيهي ، صاحب كتاب المستطرف في كل فنّ مستظرف ، وهو من الموسوعات الأدبية يشتمل على ٤٨ باباً في مباني الاسلام ، والعقل والذكاء ، والحمق ، والقرآن وفضله ، والعلم والادب الخ ...

وبحث في الملك والسلطان وطاعة وليّ الأمر ، الخ . وفي العمل والكسب وأخبار العرب الخ . وفي الدواب والحشرات ، مرتبة على أحرف الهجاء ، وفي البحار وعجائبها والانهار الخ ... وهو يتضمن أيضاً فوائد تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية الخ ...

ترجمه الافرنج الى الفرنساوية ، وطبع في باريس وترجم الى التركية .

ومن علماء اللغة الذين لم نذكرهم : الفيروزابادي ، اشتهر بقاموسه «المحيط» ، مرتب على أواخر الكلم .

المدارس : ذكرنا ان المغول تغلغلوا في العراق واستولوا على ما جاورها ، ففرّ العرب العلماء من تلك الديار الى الشام والقاهرة حيث كانت دولة عربية اللسان .

فدولة المماليك كانت تسير على خطى الأمراء والملوك العرب بتقريب العلماء والشعراء ورغبوا في اقتناء الكتب فنشأت في عهدهم .

وأول من اهتم بالتدريس على نفقته من السلاطين هو المعزّ الفاطمي . عمل ذلك في الأزهر ثم عمل مجلساً في جامع عمرو بن العاص . ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم في القاهرة . ولما انقضت الدولة الفاطمية بنى صلاح الدين لكل طائفة مدرسة .

وفي هذا العصر كثرت المدارس وكثر المدرسون والطلاب ، فتنافس الملوك والأمراء وسراة المصريين والسوريين في إنشاء المدارس ، يتقربون بذلك الى الله لنشر علوم الدين اولاً ، ثم غير ذلك من العلوم .

وتكاثر الطلاب من أقطار مختلفة ، فكانوا ينامون في تلك المدارس وينفقون من مال المحسنين. وكان في هذه المدارس خزانات علم كبيرة تضمّ عشرات الالوف من المجلدات .

واشهر هذه كانت في القطر المصري وهي : المدرسة الفاضلية ، والمدرسة الصاحبية البهائية ، أنشأها الوزير الصاحب بهاء الدين سنة ٦٥٤.

والمدرسة الظاهرية بناها بيبرس (الظاهر) سنة ٦٦٢ ، كان بها خزانة كتب تشتمل على أمهات العلوم .

العصر العثماني

نشأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى، في أثناء العصر المغولي. ولما رسخت قدم الترك في تلك المنطقة ، قطعوا البحر الى اوروبا ففتحوا القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ. ونشروا لواء الاسلام في شرقي اوروبا ، ثم تحولوا الى المشرق فافتتحوا مصر والشام ، على عهد السلطان سليم الثاني ، فأصبحتا ولايتين عثمانيتين سنة ٩٢٣ هـ.

وأصبح الشرق الاسلامي في يد ثلاث أُمم : الفرس في ايران وخراسان ، والمغول من افغانستان الى اقصى الهند ، والأتراك في مصر والشام والعراق وتونس والجزائر .

العثمانيون أتراك خلفوا المماليك وهم اتراك ايضاً . ولكن العالم العربي لم يشعر في عهد المماليك بما شعر به في العهد العثماني للاسباب الآتية :

١ – المماليك كانت عاصمتهم مصر وهي قلب العالم العربي .

٢ – كانت العربية لغة دولة المماليك **وكانوا يحبون العلماء** ، الخ .

٣ – بُعد عاصمة العثمانيين عن البلاد جعلهم يخافون على ولاياتهم العربية ، ففرقوا الناس واستبدوا واختلسوا أموال الرعية وأرهقوا النفوس .

انحطاط اللغة : لم تنحطّ اللغة الا في آخر العصر المغولي ، لان ما ظهر في اوائله كان من نتاج الاعصر السابقة . أما في هذا العصر ففسدت ملكة اللسان وجمدت القرائح ، ولم نعد نرى من التآليف غير الشروح والحواشي ، وكثر

التأليف بلا نظام كالكشكول ، وانحطّ الاسلوب الانشائي حتى كاد يكون عامياً .

وانحطت الاخلاق باستعمال المخدرات والانعكاف على المسكرات . وكثر السفه في المجون ، وتأليف الكتب المملوءة بالفحشاء والخلاعة .

السلطان سليم : كان هذا السلطان مدمراً هدّاماً ، أغار على خزائن دور العلم فنهبها ، واختلس كثيراً من آثار البلاد وخصوصاً مصر ، حتى انه انتهب مال الاوقاف ، فكسدت سوق العلم وأصبحت التركية اللغة الرسمية ، وظلت اللغة العربية لغة الدين ، وصارت لغة التخاطب ، في مصر خصوصاً ، مزيجاً من العربية والتركية . اما في هذه الديار الشامية فبقيت اسلم لبعدها عن الاتراك ولاختلاط اهلها بالقبائل العربية المنتشرة فيها .

النثر الفني : بلغ النثر الفني في هذا العصر اقصى الركاكة ، وفسدت اللغة اسلوباً واعراباً . عجز كتاب هذا العصر عن مجاراة من تقدموهم حتى في الصناعة اللفظية التي قبّحناها .

الشعر : اما الشعر فلم ينجُ من هذه البلية ففسدت نواحيه ولم ينجُ منها الا القليل . ومن اشهر شعراء هذا العصر البعيد عن التكلف وفي شعره انسجام ولطف وخلو من التعمد :

ابن النحاس الحلبي ، مات بالمدينة .

وعبدالله بن شرف الدين الشبراوي من اساتذة الازهر ، رقيق الشعر سهله ، مات سنة ١١٧٢ .

ومن هؤلاء المجيدين **ابن معتوق الموسوي** .

وظهر شعراء غير هؤلاء تغلبت الركاكة على شعرهم . ولولا ان العربية لغة الدين ، لسادت الركاكة وكانت البلية أعم . ولم نرَ كلمة تمتّ إلى اللغة الفصحى بنسب .

اشهر علماء اللغة في هذا العصر اثنان : الخفاجي والصبّان . وابرز المؤرخين :

محمد بن طولون : تعلم في القاهرة وعلم في المدرسة الصالحية بالشام والّف كتباً نفيسة .

عبد الغني النابلسي : زعيم المتصوفين وإمامهم في هـذا العصر ، ولد في دمشق سنة ١٦٤٠ ، له تآليف عديدة ، منها شرح ديوان ابن الفـارض قطب صوفية زمانه . توفي سنة ١٧٣١ ، ويقال ان اول كتاب طبـع في دمشق هو كتابه « الأوراد » .

محمد بن عبد الوهاب : توفي سنة ١٧٨٧ ، وهو رأس الوهابيين وإمامهم ، نجدي ، حنبلي المذهب ، ترمي تعاليمه إلى التوحيد فقط ، وترك كل شيء مـا عداه . عنّف مسلمي زمانه واتهمهم بالكفر فهمّوا بقتله ، فانتصر له الامـير ابن سعود .

عصر النهضة

النهضة اللبنانية

١

الجذور : ان شجرة الأدب اعمق الأشجار جذوراً لأنها مغروسة على مجاري ذات الانسان العظمى منذ الازل ، وسيبقى ظلها متنقلاً من حال الى حال حتى يقع الجنس البشري تحت ضربة نووية من ضربات بعض المجانين من بني البشر . عند ذاك ينتقل الأدب الى نوع آخر يبدعه كرُّ ملايين السنين، وتكوّنه النواميس الأزلية على هواها الهدام البَنّاء ، وهو لا يفنى .

الأدب زرع عقلي جرثومته في دماغ كل منا ينبت ويستوي على ساقه ، ويتغذى من تلافيف ادمغتنا إلى ان يصير صالحاً غذاء لغيره . والحركات الفكرية تتبع ناموساً لا محيص لها عنه ، فبينا ترى العلم يزدهر في منطقة ما ، اذا به يذبل وينتقل وينمو في منطقة أُخرى لم تكن تخطر على بال .

الرها : فالرها التي كانت عاصمة دنيا العلم تشع منارتها وتضيء المسكونة اذا بالانسان هذا الخالق العجيب الغريب يتهافت عليها من فج عميق . فثقافتنا الرهاوية الاصل لساناً وعلماً وفلسفة تغيرت وتبدلت وتحولت في اعراقنا كما تتحوّل المواد الغذائية وتجري في الاجساد لتعمل واجبها في خدمة الحياة التي لا تحول ولا تزول ، وان تبدلت الاشكال تظل هي اياها في الجوهر .

عندما كان يأتينا السرياني قبل الحرب العظمى مشرداً طالباً القوت كنا لا نأبه له بل نزدريه ، لا نعلم انه حفيد مدينة الرها عاصمة العلم ومنبت المفكرين

حيث كان يعلم اشهر فيلسوف شاعر : مار افرام السرياني .

فالرها هي ذات الحظ الاوفر من ثقافتنا العربية ، نصارى ومسلمين ، وقد ظلت قروناً على كرسي مجدها الثقافي تصنع المدنية وتزرع المعرفة باخراج شباب الدنيا إلى عالم الضياء ، وقد مرت بك في اول هذا الكتاب الفتوى التي تقول : يحل لنا ان نعلم ابناء المسلمين العلوم العالية .

فتيوفيل بن توما الرهاوي الماروني هو تلميذ الرها ، جامعة ذلك الزمان العظمى ، وقد أهّله علمه إلى رئاسة ديوان المنجمين في عهد المهدي .

والرها التي انتسب اليها تيوفيل هذا كانت مدينة العلم في تلك القرون المظلمة . فتحها العرب سنة ٦٣٩ ودخلها البيزنطيون سنة ٩٤٢ ثم الصليبيون سنة ١٠٩٨ ثم ملك الموصل عماد الدين ، فالاتراك عام ١٦٣٧ .

وتلك ايام كان لها شأنها بين الناس ، وعلى هذا الناموس يسيّر البشرية من يدبّر الأمور ويفصّل الآيات . انا لا اجزع اذا رأيت شر النكبات يستفحل لاني اعلم ان ذاك الشر يحمل في منقاره بزوراً خيّرة ، يأخذ هو القشرة واللب وتبقى النواة لتصير فيما بعد شجرة عملاقة تعشش النسور والعقبان في اغصانها .

فالذي نقل فتياننا من مغارة قنوبين وكهف دير قزحيا إلى الفاتيكان وقصور عواصم اوروبا ، ودور مكاتبها التي بنتها يد الفن لا يد الجن الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد ، هو الذي قضى بهذه النقلة وليس لقضائه مرد .

الصليبيون : نكب الصليبيون وغيرهم مدرسة الرها ، مدينة الثقافة في ذلك الزمان ، وتوالى عليها غزاة فاتحون آخرون فطارت نسور الثقافة من أوكارها إلى لبنان مزودة بما تستطيع حمله من زاد العلم ، وفي العش اللبناني المنيّع استقرت طيور العلم على مفرق الشرق والغرب . وبقيت الحملات الصليبية تتوالى على الشرق منذ سنة ١٠٩٦ حتى كانت الحملة الثامنة سنة ١٢٧٠ . وفي سنة ١٢٩١ تقلص ظل آخر صليبي غريب عن البلاد .

نعم جاؤوا باسم الدين وذهبوا اخيراً مكسورين بعد نضال قرنين إلا خمس سنوات ، ولكن تلك الحملات العصبية تركت في لبنان آثاراً حضارية افاد منها

جميع سكان المشرق ، وخصوصاً لبنان الذي امتزج بهم باسم الدين ولاجله . وقد وصف شوقي هذا الموقف بقصيدة دالية سنقرئك بعضها حيث نتحدث عن هذا الشاعر العظيم .

وقبل ان نفارق هذا الموقف يجب ان نعطيك موقتاً هذه الحبّة المسكّنة استعداداً لتناول الجرعات الكبرى . قال شوقي بعدما وصف عرَضاً الحملات الصليبية :

لولا ضلال سابق لم يقم من أجلك الخلق ولم يقعدِ

لقد احدثت تلك الحروب الدينية خراباً وهيجت بعض الناس على بعض ، ولكن الحروب كدلاء الناعورة يفرغ واحد ليمتلىء الآخر . خربت الرها فملأت ديورة لبنان ثم خزائن اوروبا كتباً .

كان لبنانيو شمالي هذا الجبل يعرفون السريانية لساناً وكتابة وترتيلاً فاطلعوا على ثقافة جديدة . واللبناني منذ كان ، لا بد له من لغتين ، فشكراً للمغول ، فلولا بغيهم لم نتعلم اللغة العربية . فما اطلّ القرن الخامس عشر حتى عرفنا العربية ثم حملنا بزورها فيما بعد إلى جميع اقطار المسكونة ، واليك قصة الثقافة عندنا من أولها .

جاء الصليبيون وفي نيتهم ان ينجدوا المسيح فاذا بهم يعرّفون أخوته ، وهم جميع الناس ، على بعضهم ، ثم يخدمون الثقافة والعلم حتى زالت اشارة الصليب اليوم الا من الاماكن الخاصة بالعبادة . فاللبناني ، وان كان متديناً ، يهمه العلم والثقافة ، ولذلك دفع اخوانه في الوطن إلى اقتباس المعرفة .

ان نهضتنا في بدئها كانت ثقافية لا لغوية بيانية . عرفنا الغرباء الذين نزلوا في ربوعنا فأخذنا منهم واعطيناهم وكانت هذه المعرفة لخير الانسانية جمعاء ، وفي مقدمتهم ابناء عمنا العرب الذين كانوا في حالة حرب مع الحملات الصليبية فنبنا نحن عنهم في الاقتباس ، وكان ذلك خيراً لنا ولهم . وقد بانت النتيجة بعد ذهاب الصليبيين الذين تأثروا بنا ، وتعلموا منا وعلمونا ، مَغرّبونا ومشرقناهم . ثم تابعنا هذه الرسالة في جميع أقطار الدنيا ، ولذلك قال حافظ ابراهيم في

اللبنانيين ونهضتهم الباسلة :

سعوا إلى الكسب «محموداً»وما فتئت أم اللغات بـذاك السعي تكتسب
فحيث كان « الشآميون » كان لهـا عيش « جديد » وفضل ليس يحتجب

كان ظل الصليبيين في تقلص حين جاء عهد التتر الذي اجتاح ملك العرب ، فقتل وهدم وخرب فلم تجد طريدة هولاكو جحراً تلجأ اليه آمن من ديورة جبل لبنان ، وما تلك الديورة غير مغاور وكهوف لم تكن تؤخـذ في زمن الخوف والفزع .

فتحت تلك الاطناف التي تحرسها شماريخ الجبال ، وفي جوار الوجوه التي عرفتها في الرها من أصحاب الغنابيز والزنانير الذين جعل لهم النبي محمد حرمة بقوله للأنصار : تجدون رجالاً حبسوا انفسهم في الصوامع فلا تمسوهم . وهكذا تركوهم بجوار قناديل المعرفة مكبين على كتبهم يؤلفون وينقلون الى العربيـة كنوزاً خالدة .

افزع هولاكو وجنكيزخان لغة الله ، ولكنها أمنت واستراحت حقبة في جوار اولئك المشايخ فكانوا لها مؤنسين ومشجعين ، ولمـا اطمأنوا واطمأنت راحوا يبحثون ليروا ما ترك لهم الصليبيون في الرها لما احتلوها .

جاء الصليبيون من أوروبا وأقاموا في لبنان قرنين كما ذكرنا ، ثم ذهبـوا وبقيت قلاعهم وحصونهم وقصورهم وكاتدرائياتهم زينة لأرضنا ، وكان من نتائج حملاتهم الغواشم التعارف والتفاهم بين الشعوب ، ونشر المدنية بمقدار ما كانت تسيغ العقول . وأحكموا بمقدار ايضاً الصلات التجارية والعمرانية بـين المشرق والمغرب . اما أشهر صفحات تاريخهم التي لم تندثر حتى اليوم فهي تلك البنايات الشاهقة القائمة على رؤوس روابي لبنان وربى جبال العلويين وجميـع البلدان التي اخذوها .

وهناك صناعات تعلمناها منهم وهذا كله معين على انتشار الثقافة . فالثقافة لها شوط في كل ميدان ، والفن المعماري والصناعي يلهم المثقفين . اما المهم فهو العلم، وهذا ما نسعى اليه قبل غيرنا . قال علامتنا الدويهي المؤرخ الصادق : يهم اللبناني ان ينسخ كتاباً ، ويكتسب علماً ، ثم يبني ديراً في جواره مدرسة .

٢

قبل نابليون بقرنين : خلفاء الرهاويين واحفـادهم ، كانوا خميرة العجنة الثقافية في لبنان ، فرفعوا اسم لبنان علماً فوق العلم الاشم . فأشبهوا السمكتين والخمس خبزات .

قالوا : عرق الاصل نزّاز ، فكل هؤلاء الطلائع الذين سنذكرهم ، كان العلم في دمهم ، يجري في عروقهم ، فطعّموا العربية ولم تثبط هممهم الكلمة المأثورة : أبت العربية أن تتنصرا .

لم تعد عقلية ناس هذا العصر مثل عقلية ذلك الزمان ، فالثقافة لا تدين بدين حتى نقول عرفناها قبل غيرنا ، فهي كما جـاء في الآية الكريمة : **« زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار »** .

هذا مثل العقلية اللبنانية التي افتتحت مغالق الدنيا مفتشة عن الكلمة أُمّ المعرفة . تعلمتْ العربية في القرن الخامس عشر عن طريق النسخ ، ثم تقدمت . زحفت أولاً كالطفل كما ترى في صقر لبنان ، ثم دبّت على يديهـا ورجليها ، واخيراً عدَت وما زالت تعدو . كان عقلها بوراً فأكبت عليه تحرثه حتى خالطت اكابر المفكرين وصارت منهم . حسب لها الغرب والشرق حساباً وما يزال ، فهي لها في كل ميدان فرسان .

فهذه الثمار جناها جدودنا وقدموها على طبق من ذهب هدية لأم اللغات التي حدبنا عليها في طور ضعفها ، وظللنا نداويها ونداريها حتى رأينا رجوع الشيخ الى صباه . فلولا مساعدة بابا رومية والملك الشمس لم يكن شيء مما كان من هذا التجديد . فقد علـّمونا وعلـّمناهم . علمناهم لغة القرآن الشريف وثقـّفونا باللغات والعلوم الاوروبية . تعلمنا في مدارسهم وعلمنـاهم علومنا الشرقية بما نسخناه وترجمناه ولقنـّاهم اياه من كنوز علمية وأدبية ، ولم يطل بنا الأمر حتى جلسنا

على كراسي جامعاتهم أساتذة نثقف ونعلّم .

وتولينا تموين خزانات كتبهم فنسقناها وكنا من حراس الثقافة ، ولولا ما فعلنا لذهب الكثير من كنوز المعارف . وسنفصّل ما أجملنا ، ونذكر الأهم من المآثر الجبارة التي دوّنت على ضوء الشمعة الراجف ونور السراج الشحيح . لقد دفعوا ثمن ذكرهم وشهرتهم هذه أضواء عيونهم .

فيا أيها الجنود المجهولون ، انني اعتذر لأرواحكم اذا أغفلت ذكر أحد منكم ، فقد اكون جاهلاً له لا مهملاً .

والى اخواننا في اللسان نقول : كل فتاة بأبيها معجبة ، فلا يؤاخذنا أحد من بني عمنا العرب اذا تغنينا بأمجاد أجدادنا الأولين . فقد تغنينا بأمجاد العرب حتى شبعنا . ومن قرأ شعرنا ونثرنا يعرف ذلك . والعربية حين لاذت بنا لم ترَ زيّاً غريباً ولا وجهاً عجيباً . فقد ألفت معاشرة علمائنا وألفت أزياءهم في قصور الخلفاء الاوائل حين كانوا يترجمون لهم ويطببونهم . فاللبناني كما قال الحجاج : مهاجر ليس باعرابي .

إن نهضتنا ثقافية ، علمية فلسفية ، لا لغوية بيانية كما قلنا . رأى جدودنا ان الجنينة أمست بوراً فحرثوها وطعّموها . أطلّوا من دياميسهم ومغاورهم ذات الهواء الرطب فانتعشت أجسامهم اليابسة وجرى الدم في عروقهم حين ضربتها الشمس . ولولا شدة حرارة شمس لبنان لما استطاع هؤلاء المجاهدون الحياة طويلاً في دير قنوبين ، وقزحيا ، ومار سركيس ، والقطين ، والمغاور الأخرى .

ألهم الله السلطان العثماني سليمان الثاني فأصدر ارادته الشاهانية بحمايتهم واطلاق الحرية لهم في ممارسة شعائر دينهم . كان ذلك في سنة ٩٥٧ هـ. في عهد البطريرك موسى العكّاري فانطلق عندليب « الطلائع » — المطران فرحات — بعد حين يغني ويرتل ، لا يخشى غدر صياد .

نعترف انه كان قبلنا أناس أصح منا لغة يعربية وأفصح تركيباً وأجمل تعبيراً . ان أعمق الأشجار جذوراً هي شجرة الأدب ، وإذا تعمقت

في نبش تاريخ الديورة والهياكل رأيت جذوراً عميقة للثقافة متشابكة في تربة الفكر اللبناني، فمن قبل الفينيقيين الى حدود المسألة الشرقية ترى على درب الحياة آثار اقدام الثقافة . فهذه البقعة مرت بها جميع شعوب الارض . تقاتلت ثم ذهبت وتركت عندنا مخلفات ثقافية كما يترك الجيش شيئاً من عتاده ، ومن هذه الأشياء كلها تكونت عقليتنا ، فليس في الدنيا أمة مثلنا تشابك أفكار .

انظر ترَ في لبنان ديورة وهياكل وقلاعاً وحصوناً ، كنائس وكاتدرائيات وجوامع ومدرّجات وملاعب . فعلى كل قمة دير ، وعلى كل تلة هيكل أو قلعة ، وفي كل واد ملجأ حصين تعجز عن أخذه غارات طائرات هذا الزمان . فقد نحتت الطبيعة لجدودنا الجبال بيوتاً فاستعمروها وسكنوها . فحولَ الينابيع قامت المدن والدساكر ، فلو بنينا حول لبنان سوراً لكان متحفاً للعاديات .

ان الطبيعة هي المهندس الاعظم لهذا الجبل ، وهي في كل يوم تتفتح لنا عن عجائب . الانسان قبل ان يصير صاحب مخازن عظمى كان اولاً مستخدماً أو سمساراً ، ثم تدرج هذا اللبنان ، ومشت ثقافته ُقدُماً ، فمن مغارة قنوبين الى قباب الفاتيكان وبرج ايفل وقصور كمبردج والكرملين . كان اعلامنا نقلة كتب نسخاً وترجمة ، ثم صاروا مؤلفين وعلماء اعلام ، كما سنرى . وأميرا الجبل فخر الدين وبشير — كان احدهما عمرانياً فقضت عليه الحال ان يرحل (موقتاً) الى توسكانا ، فدرس مخطط العمران هناك ولما عاد سهّل للاجانب طرق الحياة ، وكانت هذه من بشائر النهضة العمرانية .

كان الحاقلاني ، وهو من مشاهير الطلائع ، مدّبره وهمزة وصل بينه وبين أمراء الغرب فبشرت مساعيه بخير جزيل . ففخر الدين كمحمد علي بالنسبة الى زمان كل واحد منهما ، كلاهما مفضل وكلاهما عمراني .

والأمير بشير الشهابي : كان عنده لكل شيء شيء ، كان في الحرب قيدوم الجيش وأمير السرج ورب السيف والرمح ، وفي السلم رب السرير تتألف حوله حلقة الشعراء ، يطارحهم ويقترح عليهم الموضوعات ويجيز المحسن ، ويناقش المناقشة الصارمة ويقول الشعر وان كان الشعر بالامراء يزري .

ان المدنية أمواج ، فتارة يكون البحر عجاجاً ، وطورا تنظر اليه فتحسبه مفروشاً سطحه بالدمقس . والعلم كالنور ينتشر على ابعد الابعـــاد ويطلب في اطراف المعمور . أمـــا جاء في الحديث الشريف ، اطلب العلم ولو في الصين ؟ وهكذا صار عندنا ، فمن ضفاف ما بين النهرين الى وادي قاديشا وظلال الارز ، ومن نهر التيبر الى نهر السين الى الهدسون الى شلالات دفنه ونياغرا ، سار اللبناني ومعه في حقيبته ثوب و كتاب ورغيف خبز .

لقد تناوب ابناء الخيام وابناء المغاور على حمل أعباء أوسع اللغات وأمرنها وأبعدها تمدداً . قد لا يعجب كلامي الصريح من يحبون المبخرة ، ولكن الحكم على الادب والآثار القلمية لا يكون منصفاً الا بعد جيل على الاقل ، فهو والتاريخ في هذا سواء بسواء .

أمّا سبقنا الى تلقي حضارة الغرب وثقافته فله سببان :

١ً — جغرافي و٢ً — ديني . فكما تعلم ان موقعنا كان ممراً يوم لم تكن هذه الاختراعات ، وديننا يقربنا من الجماعة . والذي يقول غير ذلك، فاقول له : اذا تعددت الاحزاب اليوم في البيت الواحد صار اشبه ببرج بابـــل . قرّبتنا من الصليبيين وغـــيرهم من الزوار الفرنج الرابطة الدينية ، فأفدنا حضارة جديدة اضفناها الى ثقافتنا السريانية . كنا ندرس كتب العلم القديمة والجديدة ، كنـا نتعلم عن طريق نسخ الكتب يوم لم تكن المطبعة ، ولما ظهرت كنا اسبق الشرقيين اليها ، وكانت أول مطبعة في الشرق بالقلم السرياني ، والكرشوني ، ثم العربي في القرن الخامس عشر أي قبل ظهور نابليون على شط الاسكندرية بقرنين .

وكيّفنا عبارتنا على هوى حديثنا ففصلنا الثوب على القد ، فسمونا مجددين وقد ضل من وصفنا بالشعوبية ، وكيف يكون ذلك وزعيمنا مار مارون نشأ على ضفة نهر العاصي ، وجاء لبنان من هناك ؟

أظن ان عقلية الصليبيين في ذلـــك العهد لم تكن أرقى من عقلية غيرهم ، ولولا ذاك لمـا جاؤوا بصلبانهم وايقوناتهم الى ساحـة حرب شرقية ، وما أبعد الشرق عن الغرب في ذلك الزمان .

وأصاب العرب بتنكرهم للعلوم الجديدة ، ما أصابهم حين تنكروا للفلسفة والمنطق ، وقــالوا : من تمنطق فقد تزندق ، فغلبهم الزنادقة حتى قام الغزالي يقول :

غزلت لهم غزلاً دقيقاً ولم أجد   لغزلي نسَّاجاً فكسّرت مغزلي

وهنا نختم هذا الفصل بالقول : فليصدق رائد أهله .

اللهم اشهد اننا صدقنا .

الطلائع

١٥٨٤

قبل محمد علي بقرنين ونصف القرن
وقبل مراسيم السلطان سليمان الثاني بقرن
وقبل ميلاد فخر الدين المعني

كانت الثقافة عندنا . ورثنا الرها وجندي سابور ونصيبين ، وأهدينا ذلك الميراث ، بعدما أغنيناه ، إلى الغرب والشرق فانعشناهما بعد الذبول . لم يجد اميرنا فخر الدين من يدير شؤون امارته وعلاقاته مع الغرب غير كاهن لبناني هو الحاقلاني .

ولم يجد من ترجم له كتاب هندسة الابراج غير الكاهن مخائيل بن عميرا الاهدني . وهذا الكاهن الذي ارتقى الى السدة البطريركية قد صنّف غراماطيقاً مطولاً برهن فيه ان لغتنا اقدم لغة ، فعينت له رومية معاشاً سنوياً طول حياته .

أما فخر الدين المحسن الينا فقد أمّن لنا الحياة فعدنا الى كسروان والجنوب واشتغلنا لانماء الثقافة . كان فخر الدين رجل عمران أكثر منه رجل ثقافة ، يقدر العلم ورجاله ، فأبدينا نشاطاً علمياً . احتجنا الى سيفه ليحمينا واحتاج الى علمنا فنفعناه به .

إن الثقافة احتمت بجبال لبنان ، ومن يصدق ان البطرك موسى العكاري

لم يعدم بين اكليروسه مطراناً يعرف العربية والتركية والسريانية وهو المطران انطون فرحات الحصروني ، فأرسله الى حلب ليؤدي واجب الخضوع لجلالة السلطان سليمان الثاني حين قدم الى حلب ، فأصدر السلطان مراسيمه التاريخية الخمسة فانعشتنا وأُلقي عنا نير الاضطهاد .

مدرسة الموارنة في رومية : عام ١٥٨٤ . ليس يعني كلامنا هذا ان اللبنانيين الموارنة لم يعرفوا الغرب وثقافته قبل ان انشأ لهم البابا غريغوريوس الثالث عشر هذه المدرسة . بلى وهاك التفصيل .

في عهد البطرك مخايل الرزّي رفعت شكوى إلى بابا رومية على ان هذا البطرك يعقوبي المذهب ، فاوفد الحبر الاعظم قاصدين هما الاب جوان باطيستا اليان ، والاب توما راديوس ، وامرهما بالتدقيق في الفحص عن اعتقاد الموارنة . اما رئيس البعثة جوان باطيستا فدعي إلى رومية واطلع البابا على الحقيقة وسأله ان ينشيء للموارنة مدرسة فانشأها وجعلها برعاية البابا وخلفائه . وكان الكردينال كرافا مساعداً له في هذا المشروع الديني الانساني . ولم يقف الكردينال كرافا عند هذا الحد بل وقف جميع تركته عليها .

ومن هذه الخلية خرج عسل وشهد كثيران، كما قال في وصفها العلامة المطران يوسف الدبس . ثم توفي الكردينال كرافا ، وكيل الموارنة ، وظلت المدرسة قائمة ، ونبغ من تلامذتها علماء اعلام « طبق ذكرهم الخافقين فانارو المغرب بتواريخ المشرق ، وكانت كتبهم وما برحت كمرقاة للعلوم ومشكاة يستنار بنورها في امور المشرق » .

لويس الرابع عشر :ثم انبرى هذا العاهل الاكبر إلى نصرة العلم والثقافة واذاعتها فخصّ هؤلاء الطلائع بمدرسة في مدينة النور ، باريس ، وتسهيلاً للمهمة اصدر خطاً ملوكياً مؤيداً ببراءة رغب فيها إلى ممثل دولته لدى الباب العالي « ان يبذل لهم الحماية لدى اعتاب صديقنا الاكمل السلطان الاعظم وان يسيروا في المراكب الفرنسية أو غيرها، اما لدرس العلوم، واما لغير ذلك ، ولا يكلفوهم الا ما يمكنهم دفعه . اعطي هذا الخط في سان جهان بمدينة لاي في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩ وهي السادسة لملكنا » .

الطلائع

ابن القلاعي

حياته: ولد في لحفد، وهي قرية قديمة مشهورة في بلاد جبيل تبعد عن قريتنا عين كفاع نحو ساعتين، ولحياته حكاية.

عرف بابن القلاعي نسبة إلى محلة من ضيعته ولد فيها وعاش حتى بلغ ورشد. فخطبت له امه التي كان اسمها غوريّة فتاة جميلة من ذوي قرباه. وبعد الخطبة اصابه مرض نفرت منه عيناه واسترخت اهدابه فصار شكله بشعاً ففسخت الخطبة. وهاجر جبريل إلى القدس ودخل دير رهبان مار فرنسيس، واضاف إلى تعلمه السريانية والعربية اصول اللغة اللاتينية ومهر في العلوم الإلهية والطبيعية لانه سافر إلى رومية سنة ١٤٧٠.

وعاد جبرائيل إلى وطنه راهباً، وتجند لخدمة طائفته في النقاش والجدال والدفاع عن العقيدة المارونية، ثم رقي إلى درجة الاسقفية وقضى حياته مجاهداً مناضلاً حتى لقي وجه ربه سنة ١٥١٦.

فابن القلاعي، لقب خلعوه عليه، والقلاعي في لغتنا العامية معناها الصخور الضخمة، وعندما كنت شاباً زرت ذاك المكان الذي نسب اليه هذا العلامة، فهو مزين بصخور ثابتة حيث وجدت إلى اليوم، وفي لحف رابية تستريح على قمتها كنيسة مار اسطفان لحفد.

ابن القلاعي الزجال: كان هؤلاء الطلائع ضعاف اللسان العربي، وما قولك

بسرياني مستعرب حديثاً ؟ ومع ذلك فان لم تعجبنا عبارته فحسبنا فكرته . فابن القلاعي ذو ثقافات متعددة وهو متعمق فيها كلها .

لم تطغ الناحية الغربية فيه على الناحية الشرقية ، فاذا قلنا ان أزجاله وثائق تاريخية لا نعدو الحق لانه لم يقل غير الحق ، واذا قلنا ان ازجاله مجتمعة هي ملحمة بلدية ففيها عناصر وصفية موضوعية ترضي الذين يحافظون على تقاليد هوميروس ، كنا صادقين . ففي بعض زجلياته يصور المعارك تصويراً كاملاً ، تشفع بركاكة عبارتها مراعاة القوانين الأخرى الملحمية، واذا رأينا الروح السائدة فيها دينية كاثوليكية فلا نتنكر لها ، أليست أغنية رولان كذلك ؟

بطرس المطوشي : أحد تلاميذ مدرسة رومية ، وبعد ان انجز علومه فيها صار راهباً يسوعياً وقد عهد اليه البابا بسفارات دينية كبرى ، وقال فيه دي لاروك : انه لاهوتي مبرز ، له غراماطيق سرياني لاتيني وكتيّب في اللاهوت الأدبي محفوظ في مكتبة مدرسة الموارنة برومية ، وقد وقف مع الكردينال بللرمينوس على فحص كتاب الفرض الكبير (الشحيم).

نصر الله شلق : وهو من العاقورة ، درس العلوم برومية وصار كاهناً . أقام باوروبا زمناً . أما مؤلفاته فهي : تاريخ الكنيسة ، وترجمة سفر ايوب من السريانية الى اللاتينية وفصولا أُخرى .

جمع ثروة أوصى أن تنشأ بها مدرسة خيرية في مدينة رافانا بايطاليا ، فكان افتتاحها سنة ١٦٣٩ واقفلت ابوابها ونقلت تلامذتها الى مدرسة الموارنة سنة ١٦٦٤ .

انطونيوس الصهيوني : عشق اللبنانيون الكتب ، فمن لم يكن مترجماً أو مؤلفاً كان ناسخاً ، فهذا الراهب رئيس الكهنة نسخ الاقسام الاول والثاني والثالث والرابع من فلسفة السريان التي ترجمها حنين بن اسحق ونسخ ايضاً مقالة في الحساب والجبر بالعربية لابي عبدالله احمد شهاب الدين الذي عاش في اواخر القرن الرابع عشر . ونقل مقالة في الخطوط الهندسية لاحمد بن علي .

القس جبرائيل الصهيوني

هذا العلامة العظيم ماروني لبناني من اهدن . عرف بهذا الاسم قبل مولد الصهيونية اليهودية . تعلم في مدرسة الموارنة برومية وحاز بعد الامتحان لقب « ملفان » في اللاهوت ، واقيم استاذاً للغتين العربية والسريانية في مدرسة السابيانس– الحكمة – الشهيرة، واشتهر حتى دعاه لويس الثالث عشر سنة ١٦١٤ ليكون معلماً في المدرسة الملكية بباريس ، ثم حمله لقب ترجمان ملكي . ولما اعتمدوا على نشر الاسفار المقدسة بعدة لغات عهد اليه بتعريب النسخة العربية ، وتنقيح النسخة السريانية ، ومعارضتها بنسخ عديدة ، ثم ترجمة النسخة العربية والسريانية ، وعهد معه بهذه المهمة الاخيرة الى ابراهيم الحاقلاني .

آثاره : قال والتن الذي عني بطبع البوليكلوتا : « ان هذا الرجل العظيم ، أي الصهيوني ، قد بذل تعباً شاقاً وكثير الفائدة لكل من يرغبون في التضلع من االلغات الشرقية والاسفار المقدسة . ومن لا يقر له بالفضل يكون ناكر الجميل والاحسان . ونرى انه واجب على الجميع ان يؤدوا له الشكر الذي لا نهاية له».

وآثار الصهيوني كثيرة ، منها ترجمة كتاب الزبور من العربية الى اللاتينية ، طبعت في رومية سنة ١٦٨٤ وكتاب في نحو اللغة العربية طبع بباريس سنة ١٦١٦ .

وترجمة جغرافية ابي عبدالله محمد الادريسي من العربية الى اللاتينية ، طبع ايضاً بباريس سنة ١٦١٩ .

وكتاب في بعض مدن المشرق ودين اهلها وعاداتهم وخصالهم .

وله ايضاً ترجمة الزبور ثانية عن الترجمة المعروفة بالبسيطة الى اللاتينية وطبعه بباريس سنة ١٦٢٥ الخ. الخ.

وقد ذكر دي لاروك خبر وفاته بباريس سنة ١٦٤٨ وذلك في كتاب رحلته الى سورية ولبنان .

ابراهيم الحاقلاني

حياته : ولد في حاقل (جبيل) وتعلم بمدرسة رومية ، ثم علم السريانية والعربية برومية واشترك مع الصهيوني والحصروني في طبع التوراة .

مؤلفاته : كان من مشاهير علماء زمانه . ومؤلفاته ترجمة كتاب ابن الراهب المصري القبطي في التاريخ الشرقي، واتبعه بترجمة مقالات طويلة في تاريخ العرب وانسابهم ، وقد طبعه بباريس سنة ١٦٥١ .

وله ترجمة قصيدة عبد يشوع الصرباوي في المؤلفين البيعيّن إلى اللاتينية مع شرح لها وحواش عليها . طبعت برومية سنة ١٦٢٨ .

وله ايضاً ترجمة الكتب الخامس والسادس والسابع من تأليف ابولينوس في الهندسة من العربية إلى اللاتينية ، بناء على طلب دوق توسكانا .

وله مختصر الفلسفة الشرقية ، طبع بباريس سنة ١٦٤١ .

وترجم إلى اللاتينية كتاب الحيوان للسيوطي .

وترجم من العربية إلى اللاتينية مواعظ القديس أنطونيوس واجوبته .

وللحاقلاني كتاب الانتصار لسعيد بن البطريق .

وله ايضاً ترجمة قوانين المجمع النيقاوي المعروفة بالقوانين العربية ، وقد عارضها على ست نسخ عربية ثم ترجمها إلى اللاتينية .

ورقد الحاقلي برومية في ١٥ تموز سنة ١٦٦٤ . ونقلت كتبه إلى المكتبة الفاتيكانية بعد وفاته .

مرهج بن نيرون الباني : ولد في احدى قرى جبة بشري ، ويسميه علماء

الغرب فاوسطوس . اخذه خاله ابراهيم الحاقلاني إلى رومية فبرز ، واقامه الكرسي الرسولي استاذ اللغة السريانية في كلية السابيانسا خلفاً لخاله العلامة .

له كتب محترمة في التاريخ .

نقّح الاناجيل واسفار العهد الجديد وطبعت بالسريانية بمعاونة القس يوسف الباني . توفي مرهج سنة ١٧١١ .

يوسف بن جرجس الباني : تلميذ رومية ، وهو كثير الانتاج ، عرّب كتبه وصحّح لغتها العربية المطران جرمانوس فرحات . يعد من المجلّين في التأليف والتصنيف .

مؤلفاته : اتقن معرفة اللغات العديدة وتضلع بالفلسفة واللاهوت وأكب على العمل فاخرج كتابه النفيس : « ميزان الزمان وقسطاس ابدية الانسان » ، وقد طبع مرات . ثم اتبعه بترجمة كتاب الكمال المسيحي في ثلاثة اجزاء . وكتاب علم الذمة وغير ذلك من التأملات العقلية . وأشهر تآليفه تفسير سفر رؤيا يوحنا العويص .

وللباني ايضاً ترجمة تفسير العهد الجديد إلى العربية ، وقد توفي سنة ١٧٢١ .

بطرس فروماج

١٦٧٨ — ١٧٤٠

كاهن يسوعي جليل ، كان أشبه بسفير بابوي يمثل رومية في لبنان . عالم حضر المجمع اللبناني كمستشار لاهوتي يرد ذكره كثيراً في تاريخ هذه الحقبة الثقافية ، ترجم كتباً روحية أشهرها الكمال المسيحي ، وكتاب السنكسار ، أي سيَر القديسين التي عرّبها جرمانوس فرحات .

ان هذا الأب لم يسىء إلى الموارنة ،بخلاف سواه من القصّاد المرسلين، كما أشار إلى ذلك الأب انديني المنتدب الرسولي فقال : ان ما اتهم به قصاد البابوات الموارنة هو تجنٍّ عليهم ...

وقد ورد هذا القول في كتابه « بعثة إلى لبنان » .

الاب بطرس مبارك

ولد في غوسطا عام ١٦٦٠ . اتقن سبع لغات: العربية والسريانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والطليانية والفرنسية ، وبعد رجوعه من رومية سنة١٦٨٥، رسمه كاهناً البطريرك الدويهي واعاده إلى رومية برتبة وكيل عنه ، وزوده ببعض كتب ليترجمها وينشرها ، فترجم إلى اللاتينية كتاب نسبة الموارنة ، وكتاب رد التهم عنهم وسلسلة بطاركتهم .

استدعاه أمير توسكانا وأوقفه على طبع الكتب الشرقية ، ثم اقيم مدرساً للعلوم المقدسة فأثرى ، ووقف ثروته على الخير الثقافي ، فاحدث مدرسة عينطورة وموّلها بعقار يقوم ريعه بتعليم ١٢ تلميذاً ، وعهد بتدبيرها إلى الآباء اليسوعيين بشروط قبلها الأب تارنز رئيس الرهبانية اليسوعية . وانصرف هو إلى تأليف الكتب النافعة وترجمتها .

مؤلفاته : ترجمة مجلدين من تأليف مار افرام السرياني مع مقدمات دالة على اتساع علمه .

وترجم قسماً من المجلد الثالث ، ثم أتمّه المطران اسطفان عواد السمعاني .

وله كتب أُخرى مفيدة ومقالات نافعة .

يقول الدبس : ان اليسوعيين يعدون الأب بطرس مبارك من اكابر علمائهم .

البطريرك اسطفان الدويهي

حياته : رجل فضيلة وعلم وجهاد ، صان في كتبه التي ألّفها اشياء كثيرة من امجاد لبنان . فهو المجاهد الذي اقرّ بفضله التاريخ الوسيط .

ولد في اهدن سنة ١٦٣٠ وتعلم السريانية صغيراً ، وعندما بلغ الثانية عشرة ارسله البطرك جرجس بن عميرا إلى مدرسة رومية ، فانهى دروسه من فلسفة ولاهوت وعلوم ولغات وعاد إلى الشرق . وبعد ان علم الاولاد ست سنوات رقي إلى رتبة المطرانية ، ثم انتخب بطريركاً فلقي اضطهادات ومشقات فطفر إلى بلاد كسروان والشوف ،وكان بين هذه المشاكل يرتب ويصحح وينقح الكتب العديدة ويرتب السجلات وينسخ الوثائق . واخيراً دعاه والي طرابلس إلى العودة إلى كرسيه آمناً . فعاد في ١٩ نيسان ومات في ٣ ايار سنة ١٧٠٤ .

اشهر كتبه :

١ — فنارة الاقداس .

٢ — رد التهم .

٣ — تاريخ الازمنة ، فيه تاريخ لبنان وسوريا .

٤ — كتاب المنائر العشر .

٥ — سلسلة بطاركة الموارنة .

هذه نقطة من بحر علم الدويهي الذي كانوا يدعونه في عصره قبة الحكمة ومعلم الشرق .

ان المعلم رشيد الشرتوني من المجددين في التأليف والتصنيف ، واننا نذكره هنا معجبين بتحقيقه وتدقيقه وبروحه العلمية ونزاهة قلمه ، فهو الذي اخرج كتب الدويهي من الداميس المارونية ، فقد اودعوها فيها ليحفظوها للذرية ، ولولا ذلك لذهبت آثارها وانطوت صفحات مجيدة من التاريخ العام والخاص .

وقد كان المعلم الشرتوني مولعاً بحفظ المخطوطات ، فرتّب ما وجده منها في اثناء انزوائه في دير مار شليطا مقبس .

بطرس التولاوي

١٦٥٥ — ١٧٤٥

حياته : هذا اسمه الكهنوتي ، اما اسمه العلماني فكان عبدالله بن بطرس بن اسحق التولاوي .

دخل مدرسة رومية سنة ١٦٦٨ وهو في الحادية عشرة . قال الدبس : وتخرج بهذه المدرسة بالعلوم والفنون ورجع إلى لبنان ملفاناً فسامه الدويهي

كاهناً وأرسله إلى حلب واعظاً ، فاشتهر بعلومه حتى كان شيوخ العلماء يستفتونه لأنه درس الفقه وكان فيه من المبرزين .

فيلسوف ، كانت أكثر آرائه مبنية على أساس علمي لأنــه كان استاذاً في العلوم الطبيعية .

انشأ مدرسة تضاهي مدارس حلب المشهورة في ذلــك العصر ، وتتلمذ له كثيرون فنبغوا وعدّوا من مشاهير العلماء كالمطران فرحات ، والمطران عبدالله قره علي ،والشماس عبدالله زاخر ، والخوري نيقولاوس الصائغ. وكان الى جانب كل هذا يؤلـّف ويعظ ويرشد .

من تآليفه : كتابه المنطق الذي عرف باسمه ، وكتاب غراماطيق اللغــة السريانية ، وكتاب مجموع المجــامع المارونية ، وكتاب ترجمة القديس توما الكمبيسي ، وأخبار المجمع التريدنتيني ، وكتاب مواعظ في مجلدين ، وكتاب في علم ما وراء الطبيعة ، وكتاب في الفيزياء ، وكتاب منطق ، وكتاب في اللاهوت ٥ أجزاء ، وكتاب مرآة النفوس ، ومذكرات ، وتأملات روحية ، ورسائل ، وفتاوى في الفقه الكنسي والعالمي .

وهناك كتب أُخرى لم نذكرها لئلا يطول هذا الموجز .

مات هــذا العلامة الكبير بعدما شيَّخ وبلغ التسعين ، وبحق نسميه استاذ الطلائع .

السمعاني الكبير

السماعنة ، أسرة علم وذكاء ، مشاهيرها كثر ، منهم المطران يوسف شمعون وهو عم السمعاني الكبير ، له كتاب علم الذمة . والبطرك يعقوب عواد وسمعان عواد .

فالسمعاني الكبير أي يوسف سمعان ولد في ٢٧ تموز سنة ١٦٨٧ ودخل مدرسة رومية وعمره ثماني سنوات . ولما أتم علومه وعزم على العودة إلى لبنان عهد اليه البابا اكليمنضوس الحادي عشر ان يعمل فهرستاً لاتينياً للكتب الشرقية ويلخص فيه فحاويها ، ففعل وعلق على الكتب حواشي نفيسة بينت للبابا ان يوسف سمعان السمعاني اهل لأن يكون مترجماً للكتب العربية والسريانية والكلدانية التي في المكتبة الفاتيكانية .

وفي السنة ١٧١٠ نال درجة الملفنة وعين مستشاراً في لجنة اصلاح الأسفار المقدسة التي يستعملها أبناء الشرق . وفي السنة ١٧١٥ أوفده البابا للبحث عن الكتب المخطوطة في الاقطار فأحضر منها إلى رومية كتباً وافرة العدد من جميع نواحي المشرق ، فكانت مادة لكتابه الشهير : « المكتبة الشرقية الفاتيكانية » .

وفي سنة ١٧٣٠ سماه البابا حافظاً لهذه المكتبة العظمى ، ثم صار رئيسها . ساعده على هذا العمل الجليل حذقه بضع عشرة لغة فاخرج خلاصات الكتب الشرقية الى اللاتينية .

بعض تآليفه :

١ — المكتبة الشرقية (٤ مجلدات) .
٢ — التاريخ الشرقي ، وقد ترجمه العلامة الحاقلاني .
٣ — مؤلفات القديس افرام السرياني (٣ مجلدات) .
٤ — غراماطيق اللغة اليونانية (طبع في جزئين) .
٥ — تأبين الفريدريك اغوسطوس الثاني ملك بولونيا .
٦ — تأبين القاه في كنيسة الفاتيكان في جناز البابا بناديكتوس الثالث عشر .
٧ — محاضرة في انتخاب البابا القاها على الكرادلة في كنيسة الفاتيكان .
٨ — براءة رسولية فيها نظام تدبير المكتبة الفاتيكانية .
٩ — قوانين الرهبان الموارنة بالعربية واللاتينية وتاريخ نشأة الرهبانية .
١٠ — تاريخ مملكتي نابولي وصقلية ، طبع برومية في أربعة مجلدات سنة ١٧٥١ — ٥٣ .
١١ — مكتبة القاموس الشرقي الكنسي والمدني (خمسة مجلدات) .
١٢ — المجلد الخامس من المكتبة الشرقية ، وترجمة الأسفار المقدسة .
١٣ — المجلد السادس من كتب السريان البيعية .
١٤ — المجلد السابع من مجموعات الجامع السريانية .
١٥ — المجلد الثامن من مجموعة المجامع العربية .
١٦ — المجلد التاسع من ترجمات كتب المؤلفين اليونانيين الى السريانية والعربية .
١٧ — المجلد العاشر من المؤلفين العرب النصارى .
المجلدات ١٨ و ١٩ و ١١ و ١٢ — من المؤلفين المسلمين .
كلندريات عديدة لجميع الطوائف تقريباً .
٢٠ — في صور القديسين الفسيفسية .

٢١ — مجامع الكنيسة الشرقية (ستة مجلدات) .

٢٢ — تسعة كتب في التاريخ الشرقي : الموارنة، والروم الملكية، والدروز، والنصيرية ، والمسلمين ، والقبط ، واليعاقبة ، والاحباش النساطرة، والأرمن .

٢٣ — تسعة كتب في تاريخ سورية القديمة والحديثة .

٢٤ — غراماطيق سرياني مطول .

٢٥ — كتاب منطق بالعربية .

٢٦ — كتاب في ما وراء الطبيعة بالعربية .

٢٧ — كتاب لاهوت بالعربية .

٢٨ — كتاب تفسير الآيات الغامضة في العهدين .

وهناك كتب عديدة لم تدوَّن في السجل الفاتيكاني .

ليت المجال يتسع لنشر فقرات من رسالة البابا الى معلم البلاط الرسولي يوسف سمعان السمعاني للدلالة على ما حازه هذا الشرقي اللبناني من اجلال لدى اعظم شخصية عالمية : بابا رومية . ولكننا نكتفي بما قلناه ، ومن شاء الزيادة فليرجع الى المطولات .

بولس عواد : ومنهم المطران بولس عواد (١٨٥٥ — ١٩٤٠) اقدم هذا المطران كأسلافه الساعنة فترجم الخلاصة اللاهوتية لتوما الاكويني ، وطبع منها أربعة أجزاء ضخمة ، كما لخص شرح بديعية الحموي المعروفة بخزانة الادب.

نعمة الله ابو كرم: ويحصى مع هؤلاء المطران نعمة الله ابو كرم فهو مترجم الفلسفة النظرية والجامعة ضد الامم لتوما الاكويني .

المطران اسطفان عواد السمعاني

هو ابن اخت السمعاني الكبير ، تلميذ مدرسة رومية . من مؤلفاته : كتاب شرح اعمال الشهداء الغربيين والشرقيين في مجلدين . وفهرست الكتب المخطوطة في المكتبة المادشية وهو يحتوي على ذكر خمسماية وسبعة وثلاثين كتاباً مع خلاصتها .

وله كتاب فهرست الكتب التي بمكتبة كيجي في رومية ، وله فهرست للكتب التي في المكتبة الفاتيكانية ألّفه مع خاله السمعاني في ثلاثة مجلدات .

وله ترجمة تاريخ ابن العبري الى اللاتينية ، وتكملة ترجمة المجلد الثالث من كتاب مار افرام إلى اللاتينية .

مات سنة ١٧٨٢ ، بعد ان ملأ صيته الفاتيكان وغيره من المراكز العلمية .

يوسف لويس السمعاني

هو ابن اخي السمعاني الكبير ،تلميذ مدرسة رومية . عينه البابا بناديكتوس الرابع عشر معلماً للغات الشرقية في الكلية الرومانية (السابيانسا) .

آثاره : له كتاب الرتب والطقوس الدينية ، ويخبرنا العلامة الدبس انه غالي السعر وانه اشترى نسخة منه بست وعشرين ليرة ذهبيَّة .

وله ترجمة الشحيم اي كتاب فروض السريان في اربعة مجلدات ، وترجمة قداس الكلدان إلى اللاتينية .

القس شمعون السمعاني

هو ابن اخي يوسف لويس ، ولد بحصرون ودرس في مدرسة الموارنة برومية .

آثاره : فهرست للكتب الخطية الشرقية في مكتبة بادوا الثانية .

وله ايضاً كتاب تاريخ العرب قبل ظهور الاسلام ، وكتاب في الكرة الفلكية ، وجميع هذه الكتب باللغة اللاتينية .

الغزيري

هو ميخائيل الغزيري تلميذ رومية وقد حضر المجمع اللبناني ووُصف بأنه استاذ الفلسفة واللاهوت .

من تآليفه : كتاب في مجلدين وصفه الدبس بانه جزيل الفائدة وهو فهرست للكتب العربية التي في مكتبة الاسكوريال باسبانيا .

وقد أُوفد هذا العلامة مع الخوري الياس سعد البجاني للاعتراض على بعض رسوم المجمع اللبناني والطعن بالعلامة الكبير السمعاني الاكبر فعادا مخذولين . وهذا بعض ما جاء في رسالة البابا جواباً على تلك الشكوى :

« وقد أيدناه كل التأييد (أي المجمع اللبناني الذي انتزع فيه السمعاني أكثر

حقوق البطرك الماروني) وأثبتناه بسلطاننا الرسولي، ورأينا من الصواب والانصاف ان نمحو كل وصمة التحقت باسمكم، وان ننزل التأديب بمؤلفيها. وأن نعلن انها تستحق الحرق بالنار».

ونحن نقول اننا فشلنا بسبب المجمع اللبناني مرتين، الأولى عند مولده والاحتجاج عليه، والثانية عند اعلان موته يوم مات عريضة آخر بطرك ماروني منتخب عام ١٩٥٥.

وهكذا تكون قد استبدّت رومية بنا مرة واحدة، جزاء تعلقنا بها والعوض ببقاء السادة احبار طائفتنا...

اصحاب الكتاب والكتابين

عبدالله قراعلي : ولد بحلب وتتلمذ للشيخ سليمان النحوي. له مختصر الشريعة ومواعظ ومذكرات .

جبرائيل حوشب : ولد في حلب وصار مطراناً. له كتاب الرموز ومفاتيح الكنوز .

يوحنا حوشبي : اول تلاميذ مدرسة رومية نقل الى العربية مؤلفات لاهوتية . مات في رومية سنة ١٦٣٢ .

سركيس الغمري : (١٦٩١ — ١٧٤٥) من اهدن ، تلميذ مدرسة رومية ، له كتاب هدى الخطأة ، تعريب مواعظ سنتيري . مختصر علم الذمة ، ظهور الايمان ، غراماطيق لدرس اللاتينية .

سركيس سمراني : وهو راهب كان في دير قزحيا نسخ عدة كتب ونظم زجليات منها واحدة تصف فتح الاسطول التركي جزيرة قبرص سنة ١٥٧٠ .

ابو المواهب يعقوب الدبسي : من مواليد حلب ، طرابلسي ماروني، ترجم الانجيل الى العربية الفصحى وهو عالم لغوي ونحوي ذكره المطران فرحات في بحث المطالب ورجّح رأيه .

المطران جرمانوس فرحات

١٦٧٠ — ١٧٣٢

حياته : هو جبريل بن فرحات مطر ، ولد في حلب سنة ١٦٧٠ ، وتلقى اولاً مبادىء اللغتين العربية والسريانية ، وتاق الى التعمق والتوسع في فنون اللغة العربية فلزم إماماً عالماً هو الشيخ سليمان النحوي فقرأ العربية عليه ، وانصرف الى الحفظ فحفظ شيئاً كثيراً ، واتقن السريانية ايضاً كالعربية ثم الطليانية التي كانت تعلمها مدارس الموارنة ، فاتقنها وترجم منها كتباً عديدة. ثم درس الفلسفة واللاهوت والمنطق والتاريخ المدني والكنسي ، ثم هاجر من حلب وجاء لبنان حيث أسس رهبانية ، ثم صار قسيساً فرئيساً عليها ، وسافر الى رومة ، فحدا به ميله الى لغة الغرب الى مشاهدة الاندلس فزارها ومتع نظره بآثار العرب .

وفي سنة ١٧٢٥ سيم اسقفاً على حلب فكان مثال الراعي الصالح للرعية وتوفي سنة ١٧٣٢ وقد فهمت من سيره في الحياة صفاته الشخصية .

تآليفه : بين كتبه نحو اربعين كتاباً في علم اللسان والدين ، امـــا معرباته ومختصراته ومصححاته فتربو على المئة ، والمشهور منها هو ، بحث المطالب ، أول كتاب في النحو الفـــه نصراني على الطريقة الحديثة . وله « الإعراب عن لغة الأعراب » وهو معجم اختصره عن الفيروزابادي وزاد عليه من عنده الفاظـاً وفوائد . وله كتاب فصل الخطاب في صناعة الوعظ ، والمثلثات الدرية .

المكتبة : وقد وقفت بنفسي على جهود السيد فرحات اذ اطلعت على المكتبة الأثرية المحفوظة بمدينة حلب في المطرانية المارونية فهي لسان يخبر بجهود هذا

العلامة المجاهد في سبيل اضاءة نبراس العلم في عصر الظلمة والانحطاط ومن يطلع عليها يطلع على تاريخ الحقبة ، ففيها قرآن كريم مكتوب على رق غزال ، وفيها انجيل حاول المطران ان ينحو فيه نحو القرآن فعجز عن مضاهاته حتى صحت فيه الآية : وأتوا بسورة من مثله .

استاذ الفصحى : لم يذهب المطران الى رومية طالباً بل زائراً ، وشاء الله الا يتلقى علومه في الغرب فقويت ملكة لسانه العربية فصحت عبارته. واتقانه العلوم اللسانية وانصرافه الى الشيخ سليمان، استاذ العربية في ذلك العهد، وانصبابه على مطالعة آثار العرب الأدبية جعل منه فارس حلبة العروبة وقائد الطلائع ومدربها . وهكذا تم تبادل الثقافة حين انشأ الفيلسوف التولاوي ، استاذ فرحات ، مدرسة خاصة في ذلك العهد بحلب يدرس فيها الطليانية واللاتينية والفلسفة والعلوم واللاهوت.

مجمع علمي: بعد رجعة فرحات من الغرب وزيارته للاندلس خطر له مشروع علمي فأنشأ الى جانب المكتبة دائرة علمية كان من اعضائها التولاوي والباني وغيرهما . كانوا يؤلفون ويترجمون والمطران يصحح عبارتهم ، **وهكذا كان التطعيم الذي عاد على لغتنا بالخير . وهكذا كان التعايش العلمي** ، فلله در هؤلاء جميعاً ما اجزل فضلهم واكثر خيرهم . كانت الشهباء في عهدهم مدينة العلم ومنها انتشرت النهضة العربية الجبارة التي طار قبسها فأنار المسكونة .

ان المطران فرحات جدير باضخم دراسة وادق الابحاث ، لأنه هو الذي عربنا واخرج لغتنا الكنسية من ركاكتها . فهو الذي قدم العربية في الهيكل واجلسها عن يمين مذبح البخور كما قلنا في كتابنا صقر لبنان . لقد صحح الكتب جميعها ، وترجم ما تجوز ترجمته بلغة صحيحة اعراباً ولغة .

فرحات الشاعر الاول : ان اولية جرمانوس فرحات ليست في شعره المتين وعبارته الجاهلية ، فقد كان في عصره شعراء مسلمون ابلغ منه قولاً ، ولكن أوليته هي في كونه أول شاعر فصيح من مستعربي لبنان الذين لم يقولوا الشعر الا زجلاً سريانيّ اللحن (راجع صقر لبنان اذا شئت) .

شعره : اكثره في الزهد ووصف المناسك ، وكما قال الأب توتل في المنجد الأدبي عنه : انه أعاد الحياة النسكية الى لبنان . واقول أنا : « فامتلأت اوديته وكهوفه ترانيم وتسابيح » . ومن قوله في الزهد :

اني بليت باربـع لم يخلقـوا الا لشدة بـلوتي وعنـائي
ابليس،والدنيا، ونفسي، والهوى كيف الخلاص وكلهم اعـدائي

وكأن هذه الأفكار كانت تتراكم عليه في وادي قاديشا فيقول :

احاول في عمري من الدهر راحـة وهل تطلبنَّ العقل والظرف من زنجي
فاصبح دهري عاجزاً عن سعادتي كأني حرف الحلق والدهر افرنجي

وصار رئيس اساقفة حلب ولكنه ظل ناسكا زاهداً لا يجد سعـادة الا في انعاش ابناء ابرشيته ، واذا تبرم أو ضاق صدره طرد التجربة بالالتجاء الى أمه مريم العذراء ، وهتف :

لو كان للافلاك نطق أو فم لترنمتْ بمديحـكِ يا مريم

ويمعن في الصوفية حتى يهتف :

الله الله انت السمـع والبصر في العاشقين وانت الفوز والوطر
عشقتكم والهوى مني على صغر يا حبذا والهٌ قد زانـه الصِغَر

جزاه الله خيراً ونفعنا به .

الخوري نيقولاوس الصايغ

حياته : هو نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ ولد ايضاً بحلب . تلقى دروسه الابتدائية على استاذ كغيره ، في ذلك الزمان ، ثم انصرف يشتغل في مهنة أبيه – الصياغة – مطالعاً كلما سنحت له الفرصة .

ثم درس الفلسفة واللاهوت والرياضيات استعداداً للكهنوت ، وصادف اذ ذاك رجوع السيد فرحات من رومية فتتلمذ له . ثم هاجر الى لبنان وترهب في دير القديس يوحنا الصايغ بالشوير . وبعد ان صار كاهناً ترقى الى منصب الرئاسة العامة فساس الرهبانية احسن سياسة .

قيمته : اخلاق فاضلة وتدبير بحزم ونشاط ، وتقوى وفضيلة ممزوجان بالعلم . شاعر حسن التصور ، لطيف الطبع ، ينزع في شعره إلى الاصلاح الديني . له ديوان شعر يعرف باسمه ، وبديعية طريفة بالنسبة لعصره .

ان ما قيل في شعر المطران يصح ان يقال في ديوان الخوري ، فكلاهما ترهب وانقطع عن دنياه ، وان مدح الصائغ وهناً . وتعجبني منه جرأته الرسولية حين يقول :

كثر العثار بعثرة الرؤساء وغوى الصغار بغرة الكبراء

فاذا رأيت الرأس وهو مهشم ايقنت منه تهشم الاعضاء

عفواً لم اذكر الرثاء ، فلهذا الخوري الفاضل شعر في رثاء معلمه المطران فرحات هاك فقرة منه :

امامي وذخري بل غنائي ومغنمي غنمت به غنماً تجل غنائمه

حلبت به وسع الاناء معارفاً يلازمني جنح الدجى وألازمه

اما الذين نظموا البديعيات بعد الحموي فقلما وفق واحد منهم .

البطرك يوسف اسطفان

١٧٢٩ — ١٧٩٣

هو من انبغ تلاميذ مدرسة رومية المارونية ، توفي سنة ١٧٩٣ بعد مرور اربع سنوات على تأسيسه مدرسة عين ورقة الشهيرة . وكأن إحداثها كان موحى به لتسد مسد مدرسة رومية التي صادرتها حكومة الجمهورية الفرنسية وباعتها من احد الناس ، وفي هذا الحدث يقول العلامة المؤرخ الشهير المطران يوسف الدبس : يظهر ان العناية الربانية تداركت الطائفة المارونية باعداد خليفة لمدرسة رومة فالهمت البطرك يوسف اسطفان ان يحول دير عيلته المعروف بعين ورقة إلى مدرسة عامة للطائفة ، يستغنى بها عن الغرب .

ان هذا البطريرك الجبار الاستقلالي النزعة صارع الفاتيكان سنوات وشغل دوائره زمناً حتى تدخل الامير يوسف بواسطة الشيخ سعد الخوري واعيد إلى البطرك المكفوفة يده سلطانه الرسولي وعاد من جبل الكرمل بأبهة وجلال بعد ان ألانت الامراض من عوده الصلب ، فدخل عرينه وهو يرتل النشيد السرياني الذي ألفه هو لهذه المناسبة ومطلعه : « افتح يا لبنان ابوابك » .

هندية : ان قصة الراهبة حنة عجيمي المعروفة في لبنان بهندية كانت في الظاهر هي السبب الذي عكر صفاء عيش البطريرك ، اما الحقيقة فهي ان رومية لا ترضى عن الاستقلال الطائفي فهي تريد الكنيسة كما جاء في قانون الايمان : كنيسة جامعة رسولية ، او كما جاء في الانجيل : ان تكون الرعية لراع واحد .

والاسئلة التي اجاب عنها البطرك يوسف اسطفان ، قبل ان اعيد اليه اعتباره ، تلقي ضوءاً على ما اقول . ومن شاء التوسع في هذا الموضوع فليقرأ كتاب « بصائر الزمان » للاب الملفان بولس عبود الغوسطاوي مواطن هذا البطريرك العملاق .

عين ورقة : اذا كانت مدرسة رومية طائفية مختصة بالموارنة وحدهم ، فعين ورقة لم تكن كذلك ، كان منهاجها التعليمي على غرار مدرسة رومية ، تعلم ست لغات والعلوم والفلسفة ، وقد اعطت لبنان نوابغ علمانيين مثل الشدياق والبستاني وغيرهما حتى سميناها سوربون الشرق . وهذا ما حملنا على حشر هذا البطريرك الجسور في هذا المقام فهو يحق له ان يكون في طليعة الطلائع وان جاء متأخراً عنهم في تاريخ وجوده وفي مؤلفاته العربية . ان لهذا الحبر الجبار العنيد مواقف تشرف تاريخنا ، فهو في حقل العلم مثله في الصفات الاخرى التي يجب ان يتجمل بها الراعي ، فلا يتراخى في صون الميراث الذي عهد اليه بالمحافظة عليه .

تآليفه : كثيرة ، اغلبها في اللغة السريانية التي كان عارفاً اسرارها وشاعراً فيها . وقد وضع كتاباً في تربية الاولاد كتبه لسكان ابرشية بيروت حين كان مطراناً عليها . وله ميامر وافراميات وبواعيث عديدة . ترتل في الاعياد الكنسية .

رحم الله يوسف اسطفان ومنّ على الموارنة المطبوعين على الاستقلال ببطريرك غيور مثله يحرم عينيه النوم لاجل المحافظة على الامانة ، والمناضلة في سبيل استقلال كنيسته الشرقية .

انتهى حديث رجال نهضتنا الأولى

النهضة المصرية

١٧٩٨

الثورة الافرنسية : غيرت وجه العالم، ولا حاجة الى سرد تاريخها في هـذا الملخص ، فهذا ما يعلمنا اياه التاريخ ، فالذي يهمنا من اخبارها هو ان نذكر كلمة عن اتصال الشرق بها عندما دخل المشرق بطل اوروبا الجبار الذي استغل تلك الثورة ، وهو الامبراطور نابليون بونابرت .

القطر المصري : ان الحرب التي أوقدت نارها الثورة الافرنسية طارت شرارتها الى الشرق باغارة الفرنسيس على البلاد المصرية ، فتوغـلوا في البلاد شرقاً وغرباً ، وتخطت جيوشهم الى مـا وراء القطر المصري فدخلوا سوريا وفتحوا عدة مدن منها ، فهب الشرقيون فجـأة من سباتهم العميق على دويّ المدافع وصلصلة السيوف ، فكافحوا مدة من الدهر ، فكانت معارك هـائلة ، وكان احتكاك بالأقوام كما سترى . ثم اضطرت الاحوال السياسية الاجانب الى الجـلاء ، فتقهقروا عائدين من حيث أتـوا ، تاركين في النفوس أثراً هو موضوعنا .

الاحتكاك : كانت مصر في هذا العهد منقطعة عن الغرب اعني به ذلـك الانقطاع الذي يدعو الى اقتباس شيء من حضارة الغرب وعلومه . أما التعليم العالي فكاد يكون محصوراً بالأزهر وهو يتنـاول علوم الدين من لغة وأصول وتفسير وحديث ونحو وبلاغة الخ... وعلوم النظر من توحيد ومنطق ومناظرة وفلسفة قديمة ، وحساب وهيئة وعلوم أُخرى .

إلا ان التعليم الأزهري، وخصوصاً في اللغة العربية ، استحال الى ضرب من الفلسفة اللفظية ومناقشات جدلية ، ألفت فيها الكتب والحواشي ، أما لباب العلم، كما نفهمه اليوم، فكان حظه قليلاً جداً . إلا ان فضل الأزهر العظيم — وهو حفظ اللغة العربية وعلومها — في تلك الحقبة العظيمة لا ينكره أحد . ومن تلاميذه لا من سواهم كانت البعثة التي أرسلها محمد علي الى أوروبا ، فعادوا عارفين بمبادىء علوم ذاك العصر وكانوا أئمة الاصلاح كما سترى .

نابليون : في سنة ١٧٩٨ فتح نابليون بأسطوله الاسكندرية عنوة ، ثم ضرب في مصر حتى بلغ الجيزة ، وبعد موقعة مع المماليك، لم يثبتوا فيها بوجهه، اجتاز النيل واحتل القاهرة قاعدة البلاد .

تمّ لنابليون هذا الفتح بسهولة وحكم البلاد إلا بعض مماليك كانوا مستقلين بالصعيد في اطراف البلاد ، فهؤلاء كانوا يشنون الغارة على الفاتحين حيناً بعد حين ، وكان سكان القاهرة أيضاً يخرجون الى الجيش بعصيّهم ونبابيتهم فتصليهم مدافعه وبنادقه ناراً حامية .

العلم : جاء بونابرت بطائفة من العلماء والصناع لدراسة الحياة المصرية من جميع نواحيها ، وتشييد المعامل والمصانع ، وانشأ مدرستين لتعليم ابناء الافرنسيين ، وأقام مكتبة جامعة . ودعا الافرنسيون اعيان المصريين الى الدار التي اعدوا فيها وسائلهم للعلوم والفنون وأروهم الأدوات والآلات لدرس الطبيعة والكيمياء والارصاد الفلكية وغير ذلك فظنوها ضرباً من السحر ولكنها السحر الحلال ، سحر العلم . فأحس المصريون الحياة الجديدة التي لا يألفونها ، والعلم الذي لم يعرفوه .

الجلاء : وفي سنة ١٨٠١ اجلى الفرنسيون عن الديار المصرية ، فعاد اليهم حكم العثمانيين والمماليك ، فأخذت البلاد تعاني من ضروب العناء والظلم ما لا يطاق ، حتى سنة ١٨٠٥ اذ نودي بمحمد علي باشا والياً على مصر .

محمد علي : قدم مصر ضابطاً في الحملة التركية التي وجهتها السلطنة لاخراج الفرنسيين من مصر . وكان شعلة ذكاء ، واسع الحيلة ، طموحاً ، شجاعاً إلى حد

التفوق ، فوثب في رتب الجيش وثباً . خالط المصريين وكبار علمائهم فاستمالهم واعانوه عند الحكومة حتى عينته والياً على مصر وتركيا تكره ذلك .

كان اول اعماله ان فتك بالمماليك واراح البلاد من ظلمهم ، فاوقع بجمهرتهم في القلعة سنة ١٨١١ .

الجندية : ثم انشأ جيشاً على الطراز الحديث في ذلك الزمان فعلم جنوده ودربهم على اساتذة افرنج . وفي سنة ١٨٢٥ انشأ في قصر العيني مدرسة حربية اعدادية . اما اللغة فكانت التركية والى جانبها تدرّس العربية وغيرها. وارسل طائفة من المماليك لدراسة فنون الجندية في اوروبا ، ثم أنشأ مدرسة اركان حرب في ضواحي القاهرة ودعا اليها اساتذة افرنسيين .

الطب : كانوا يدعون الحلاقين ليضمدوا الجروح في ساحة القتال ، وكان المصريون يلجأون إلى الدجالين ليتطبببوا، فانشأ محمد علي مدرسة طب ومستشفى كبيراً اشرف عليهما اساتذة افرنسيون وغيرهم ، واستدعى ايضاً مترجمين من شاميين ومغاربة وارمن يترجمون للتلاميذ ما يلقيه عليهم اساتذتهم الفرنجة ، لان معظم التلاميذ كانوا من طلاب الازهر لا يعرفون لغة اجنبية .

جيش واسطول : وضم محمد علي إلى عنايته بالعلم، عناية بكل ما تحتاج اليه دولة ، فبنى اسطولاً ونظم جيشاً ، وعني بالمسائل العمرانية كالريّ وغيره ، فاستعانت به الدولة في حروبها مع الدول الاخرى . وفتح السودان ثم اقتطع شطراً من تركيا وكاد يظفر بالعاصمة لولا تألـُّب الدول الاوروبية عليه.

الخلاصة : في كل ما تقدم وصل محمد علي مصر بالغرب . وظلت الحال سائرة في اطراد حتى العام ١٨٤٩ الذي مات فيه محمد علي ، فتولى بعده ابنه عباس فخبت نار تلك النهضة فاغلقت المدارس والمصانع . وظلت كذلك في عهد سعيد بن محمد حتى صارت الولاية إلى اسمعيل فاقتفى أثر جده محمد علي ، ففتح المدارس وارسل البعثات العديدة إلى اوروبا واستقدم خير الاساتذة ، ووجه همة عظيمة إلى الزراعة فبنى القناطر وشق الترع ، الخ ...

الترجمة والتأليف : كان بدؤهما في مصر في عهد محمد علي : ثم استؤنف في

عهد اسمعيل ، واول ما ترجم كان كتباً طبية وقد قام بذلك الاطباء الجدد . ان التأليف والترجمة كانا ضئيلين في زمن محمد علي وحفيده اسمعيل شأن كل شيء في اول عهده .

المدارس : اقامها محمد علي على اختلاف ضروبها ، وعلى خطته مشى اسمعيل ايضاً ، اما المدرسة العالية التي انشأها اسمعيل فمدرسة دار العلوم وهذه كان لها اليد الطولى في بث صحيح اللغة العربية . اما الازهر فادخل فيه تعديل وسار على المنهاج الجديد بعد معارضة من رجاله .

المطابع : جاءت اول مطبعة إلى مصر مع الحملة الافرنسية مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية ليطبع عليها ما تريد الحملة اذاعته على الاهلين ثم تركها الفرنسيون فيما تركوا بعد الجلاء ، فكانت نواة لمحمد علي فأسس مطبعة عظيمة دعيت المطبعة الاهلية ، ثم سميت مطبعة بولاق . وفي ايام سعيد باشا انشأ القبط مطبعة أُخرى ، وفي هذه المطابع طبعت كتب ادبية قديمة .

الصحافة : أول جريدتين صدرتا في الشرق هما بريد مصر والعاشور المصري أصدرهما الفرنسيون في القاهرة . ولما آلت الولاية الى محمد علي أصدر الوقائع المصرية سنة ١٨٢٨ حتى ظهرت سنة ١٨٦٧ جريدة وادي النيل ، وبعدها ظهرت الاهرام في الاسكندرية أولاً ، ثم نقلت الى القاهرة ، وقبل هاتين الجريدتين ظهرت جريدة اليعسوب سنة ١٨٦٦ .

ثم قامت بجوار الصحف مجلات علمية أدبية الخ .

تأثير الصحافة : أحدثت الصحافة تأثيراً في اللغة تعبيراً واسلوباً ، فقاربت بين إساليب الكتاب المختلفة ، وهي التي قضت على الأسلوب القديم ، ذلك السجع المضنك ، وهي التي سهلت سبل التجدد فقصرت مسافة البعد بين لغة الكتاب ولغة الأمة ، وهي التي نفت تلك الكلمات التي تنبو الآذان عن سماعها ، والفضل الأكبر في هذا الاحياء لاحمد فارس الشدياق حين عهد اليه في تقويم لسان جريدة الوقائع فابعد عبارتها عن العجمة والرطانة ، ولما ظهرت جوائبه في الاستانة ، بعد تونس ، تمّ العمل الأكبر .

التمثيل : لم يكن له دار قبل ان بنى الخديو اسمعيل الاوبرا بمناسبة افتتاح ترعة السويس ، فدعا اليها جوقة افرنسية مثلت رواية عائدة باللغة الفرنسية .

اما التمثيل في اللغة العربية فكان اسبق الناس اليه شاعر كاتب من لبنان ، فمارون النقاش هو أول من ألـّف فيه ، ثم حوّل بيته مرسحاً مثل عليه هو وجماعته اولى مسرحياته ، وبعد حين تألف من هؤلاء اجواق ، وكانت أولى الفرق التي ذهبت الى مصر فرقة الشيخ خليل القباني ثم سليمان القرداحي . أما المصريون فلم يمارسوا التمثيل المسرحي إلا حين ظهر الشيخ سلامه حجازي . ثم تقدموا حتى برزوا فيه ، وتخلف الشاميون ولا يزالون ، فكان للبنان فضل البادىء .

في القطر الشامي

أما في الشام ، وخصوصاً في لبنان ، فكانت الحالة على غير مـا هي عليه في مصر ، اذ كان اللبنانيون اكثر امتزاجـاً واختلاطاً بالغرب ، لارتباط فريق منهم دينياً برومة وغيرها . ومن لوازم الدين العلم ، فكان في هذه البلاد فريق يعرف الآداب الاجنبية ولغات الاجانب من طليانية ولاتينية وفرنسية ويونانية وانكليزية لارتباط هذه اللغات بالدين ، ولهذا قلنا آنفـاً ان محمد علي باشا اعتمد على الشاميين في الترجمة عندما انشأ مدارسه الحديثة في مصر .

وللدين يد كبرى في نشر الثقافة ، كما سبق في كلامنا عن الحركة في مصر . فالأزهر كان هناك حمى اللغة ، وهنا كانت المدارس التي أشادها رجال الدين ايضاً منبتاً لرجال العلم والأدب الذين كانوا ، في هـذه الديار وفي مصر ، رجال النهضة وحماة الفصحى .

المدارس : كانت المدارس قبل هـذا القرن في الجوامع والزوايا كمدرسة الجامع الأموي في الشام ، وغيرها في دمشق وحمص وحلب وحماة وكان المرجع الأعلى الأزهر في مصر .

اما المدارس النصرانية فأقدمها في لبنان للطائفة المارونية فقد كانوا ينشئون عنـد كل دير مدرسة للصغار يتعلمون فيهـا القراءة والكتابة ، تحت سنديانة الدير وبين جدرانـه ، ومن مدارسهم المشهورة مدرسة أسسهـا غريغوريوس البـابا سنة ١٥٨٤ وكان أساتذة هـذه المدرسة وغيرهـا من الكهنة والرهبان ، لأنـه لم يكن يحسن القراءة والكتابة إلا الكاهن والإمـام وأبناء

الاعيان . ولهم مدارس أُخرى في المدن الكبرى ملحقة بالدير مثل مدرسة زحلة ١٧٦٩ ، ودير القمر ١٧٨٢ ، وعجلتون ١٧٥١ الخ .

واشهر المدارس المارونية التي اخرجت البستاني والشدياق والدبس وغيرهم من رجال النهضة هي مدرسة عين ورقة التي اسسها البطريرك يوسف اسطفان سنة ١٧٨٩ على مثال مدرسة رومية .

وبعد ٤٠ عاماً قامت مدرسة مار عبدا هرهريا سنة ١٨٣٠ ، ومدرسة مار يوحنا كفرحي سنة ١٨٣٢ ، ومدرسة ريفون الخ ...

وكان للروم الكاثوليك مدارس صغرى في عين القش وعين تراز ، وللروم الارثوذكس ايضاً مدارس صغيرة ايضاً في جوار الكنائس والديورة .

الامير بشير : وكان الجزار في عكا من خصوم الامير بشير الشهابي فدفعت هذه الخصومة الامير بشير الى الهجرة الى مصر ، فصادف اكراماً من أميرها محمد علي . وتوافقت المشارب بين الرجلين فحين خرج محمد علي وولده ابراهيم على الدولة كان مما احتلوه من بلادها سوريا ، فقرّب هذا بين الاميرين ، ومن ثمرات تلك الصداقة التي جناها لبنان تلك البعثات العلمية التي اوفدها الأمير بشير من شبيبة بلاده الى القاهرة حيث تلقت الطب في مدرسة قصر العيني المعروفة في هذه البلاد ببولاق . فليس الامير الشهابي رب سيف وبطل ميدان وحسب ، بل له في معركة الثقافة يدان تدلان على عرق اسرته القرشيّ الاصيل .

نشأة الطباعة : أول مطبعة عربية أُنشئت في ايطاليا ببلدة « فانو » بأمر البابا يوليوس الثاني ، ودشنها لاوون العاشر سنة ١٥١٤ . كان أول مطبوعاتها كتاب الزبور . وسنة ١٥٣٠ طبع القرآن الكريم في البندقية . اما الاستانة فقد بدأت فيها الطباعة العربية أوائل القرن الثامن عشر .

في حلب : ظهرت المطبعة الاولى فيغرة القرن الثامن عشر ،وقد صنع امهات الحروف العربية الشماس عبدالله زاخر الذي يقول فيه معلمه جرمانوس فرحات : « كن يا ابن زاخر في الآنام فريداً » . ومطبعة الشوير ومؤسسها عبدالله زاخر ، ثم مطبعة القديس جاورجيوس في بيروت ١٧٥٣.

المستشرقون

أول من اهتم باللغات الشرقية ، البابوية الرومانية . فهي التي عنيت بالمطبعة العربية لطبع الكتب الدينية والتبشير ، فجمعت كتباً كثيرة من الشرق بواسطة السمعاني . ثم حذت حذوها في اوروبا فرنسة اولاً لغاية علمية لا دينية ، فانشأ الفرنسيون مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس سنة ١٧٩٥ ، ومنها تخرج المستشرقون من المان وطليان واسوجيين وروس ، وانتشرت هذه المدارس في الاقطار الاوروبية كافة .

الجمعيات الآسيوية : ثم انشئت جمعية اسيوية في باريس سنة ١٨٢٢ ، وفي انكلترا سنة ١٨٢٣ ، ثم في المانيا سنة ١٨٤٤ ، ولكل جمعية من هذه الجمعيات مجلة علمية تبحث شؤون الشرق . فكان لهؤلاء يد على آداب اللغة العربية واحياء معالمها الدارسة .

اعلامهم : من اعلام المستشرقين ، واقدمهم بوكوك الانكليزي الذي مات سنة ١٦٩١ ، ومن آثاره تاريخ ابن العبري ، طبعه في اللغة العربية مع ترجمته اللاتينية ، ورسالة حي بن يقظان ، وغيرهما .

دربلو : مستشرق ظهر في اواخر القرن السابع عشر . من آثاره معجم في تاريخ الشرق وادبه سماه المكتبة الشرقية ، وهو اشبه بدائرة معارف تبحث في علوم الشرقيين وما اليها .

ثم ظهر ريسكي فطبع تاريخ ابي الفداء ، والحريري ، ثم كاريزي الايطالي ، صاحب كتاب كدائرة المعارف في العربية والاسبانية . ثم كارليل الانكليزي ،

وهو صاحب كتاب آداب العرب ، واشهر هؤلاء العلماء في اللغة الانكليزية ، واستاذ الآداب العربية في كمبردج ، مات سنة ١٨٠٤ . وسوزا البرتغالي صاحب كتاب الالفاظ البرتغالية المشتقة من العربية .

ولم يدخل القرن التاسع عشر حتى كان الاقبال على التمشرق عظيماً ، وتقدم المستشرقون في فنهم ووجهوا معظم عنايتهم في درس لغات الشرق إلى اللغة العربية وآدابها ، فاقبلوا على النشر والترجمة والتأليف في الآداب العربية بلغاتهم .

مستشرقو النصف الاول من القرن التاسع عشر : اول من عني باللغات الشرقية الفرنسيون واتبعهم غيرهم من الاوروبيين واشهرهم الآتي ذكرهم :

دي ساسي : توفي سنة ١٨٣٨ . تخصص بالعربية والفارسية وكان امهر اهل زمانه فيها . صرف حياته في خدمة الآداب الشرقية وخصوصاً العربية تأليفاً ونشراً وتعليماً . له كتاب في النحو العربي كتب خصيصاً للافرنج ، وكتاب قراءة سماه « الانيس المفيد للطالب المستفيد » . وله ايضاً تاريخ العرب في الجاهلية . وكتب مقالات قيمة في المجلة الآسيوية ، ونشر كتاب كليلة ودمنة والفية ابن مالك . وهو مؤسس الجمعية الآسيوية ، بالاشتراك مع تلاميذه ومريديه ، وقد انشأ معهم المجلة الأسيوية .

تلاميذه : عمونيل سديلوا وابنه لويس ، وقد خدما اللغة العربية ، فلويس ألّف كتاب تاريخ العرب وآدابهم طبع في باريس ، وكتاب المقابلة بين جغرافيي العرب واليونان ، وله عدة مقالات في الازياج العربية ، نشرت كلها .

دي برسفال : توفي سنة ١٨٣٤ . علم اللغة العربية وكان امين المخطوطات العربية في مكتبة باريس الاهلية ، وله كتب عديدة في آداب العربية وتاريخها . وكان ابنه مستشرقاً ايضاً ، وله كتاب العرب قبل الاسلام يقع في ثلاثة مجلدات باللغة الافرنسية .

جربير . فرنساوي نقل جغرافية الادريسي ، وله عدة مقالات .

فريستل : توفي سنة ١٨٥٢ ، له مقالات هامة في عرب الجاهلية .

دي فيرجه : له كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام .

رينو : خلف استاذه دي ساسي ، في امانة المخطوطات الشرقية ،وتدريس اللغة العربية ايضاً في مدرسة اللغات الشرقية التي صار رئيساً لها .

نشر كتاب تقويم البلدان لابي الفداء ، مع ترجمة افرنسية ، وكتاب في فتوح العرب بفرنسا .

كاترمير : من تلاميذ دي ساسي ، وقد حاز شهرته وحل محله في إمامة الآداب الشرقية . صار عضواً في الاكاديمية الافرنسية ، وتولى تدريس اللغات الشرقية ، فأدهش الناس بابحاثه القيمة وتآليفه الكثيرة . ترجم تاريخ المماليك للمقريزي ، ونشر مقدمة ابن خلدون وامثال الميداني الخ .

وهناك مستشرقون المان مثل روديغر ، ويولد ، وكوسغارين ، وكلنيتو ، اصدروا المجلة الشرقية الألمانية ، ولهم تآليف وكتب لا يتسع المجال لإيراد ذكرها .

في القرن التاسع عشر

قلنا ان أول مطبعة في مصر هي مطبعة بونابرت ، واول مطبعة في لبنان هي مطبعة قزحيا للرهبان الموارنة ، انشئت في أول القرن السابع عشر ، وهي اول مطبعة في الشرق ، كانت تطبع الكتب العربية بالحرف الكرشوني ، وهو السرياني .

عبدالله زاخر : وظلت كذلك حتى صب الحرف العربي الشماس عبدالله زاخر . وقد احتفلت الجمهورية اللبنانية بتمجيد ذكرى المئتين لهذه المطبعة عام ١٩٤٢ فاحيت ذكر مبدعها الشماس عبدالله زاخر ، وكان للبنان شرف السبق في الشرق باخراج الحرف العربي الى عالم الثقافة ، فرأى النور في الشوير من لبنان .

مطابع كبرى : ثم في هذا القرن انشأ الانكليز مطبعة عربية الاحرف في مالطة سنة ١٨٢٢ ، ونقلت الى بيروت سنة ١٨٣٤ وهي التي تعرف بالمطبعة الاميركية .

وسنة ١٨٤٨ انشأ الآباء اليسوعيون المطبعة الكاثوليكية . كانت تطبع في أول نشأتها على الحجر ، ثم صارت تطبع على الحروف . وهي أكبر مطابع هذه الديار وأغناها . وفي مطبعتي الاميركان والجزويت طبعت كتب كثيرة قيّمة ذات شأن ، ولا تزالان تصدران أنفس الكتب حتى اليوم .

وسنة ١٨٥٧ انشئت المطبعة السورية لخليل بك الخوري صاحب جريدة حديقة الاخبار ، ثم مطبعة المعارف للبستاني سنة ١٨٦٧ ، وهي التي صدرت عنها الجنان والجنة والجنينة ومحيط المحيط ، الخ .

وانشأ داود باشا، أول متصرف على جبل لبنان (١٨٦١ – ١٨٦٨)، مطبعة لبنان الحكومية فكانت تطبع على الحجر . ومن مطبوعاتها المعلقات وشرحها. وتلتها مطبعة جريدة ثمرات الفنون ، والمطبعة الأدبية لخليل سركيس سنة ١٨٧٤ ، ومنها يصدر لسان الحال . وبعد هذه المطابع ظهرت مطابع عديدة حتى عمت البلاد في هذا العصر .

المؤلفات المدرسية : اخرجت هذه المطابع كتباً مدرسية لا تحصى، ولكن هذه التآليف كلها كانت كما وضعها الاقدمون ، وظلت معاهد القرن التاسع‌عشر تعلمها كما وضعت (شعرية ونثرية) حتى فكر بعض المتأثرين بأدب الغرب وطرقه التعليمية بتعديل الاساليب القديمة فحادوا عن تلك الطرق العقيمة . ولا يعني كلامنا ان تطور كتب التعليم كان عظيماً ، فهي لا تزال الى اليوم تحمل تحديد القدماء وتعريفهم وكثيراً من امثلتهم التي وضعها العرب في فجر حضارتهم .

المعاهد الاجنبية : للمدارس الاجنبية فضل على البلاد في نشر الثقافة الاجنبية فيها على يد مدارسهم التي انشئت لنشر البشارة أولاً. واليك تاريخ نشأة هذه المدارس .

مدرسة عين طوره ، وقد مرّ خبر تأسيسها ، ثم صارت ، سنة ١٨٣٤ ، للآباء اللعازاريين . ومدرسة اليسوعيين في غزير ، ثم كليتهم في بيروت التي تعلم كل العلوم بفروعها حتى الطب والحقوق والهندسة .

الجامعة الاميركية : أُنشئت سنة ١٨٣٥ وأقفلت سنة ١٨٤٠ ، ثم أعيد انشاؤها في عبيه سنة ١٨٤٧ ، ثم في بيروت . وهي اليوم جامعة بيروت الاميركية تعلم كل العلوم بفروعها والطب . والمنافسة بين البروتستان واليسوعيين ملأت البلاد مدارس فشكراً لهما .

وبعد سنة ١٨٦٠ نشأت في البلاد معاهد كثيرة للصبيان والبنات، للراهبات والسيدات البروتستان .

ولا تزال قائمة إلى اليوم تهذب وتعلم ، ومثلها فعلت مدارس الفرير في بيروت ومدن لبنان الكبرى .

المدارس الوطنية : زهرة الاحسان للروم الارثوذكس للبنات ، المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني ، وهي اقدم مدرسة وطنية ، انشأها سنة ١٨٦٣ واقفلت سنة ١٨٧٦ ، بعد ان اخرجت للبلاد عدداً من رجال العلم .

ومدرسة الحكمة انشأها المطران يوسف الدبس سنة ١٨٦٥ . المدرسة الداودية انشأها داود باشا في عبيه وعرفت باسمه ، والمدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥ ، مدرسة الثلاثة الاقمار للروم الارثوذكس سنة ١٨٦٦ ، ومدرسة اليهود سنة ١٨٧٤ ، والمدرسة الرشيدية اقدم مدارس المسلمين الحديثة ، ومدرسة الكلية الاسلامية انشأها الشيخ احمد عباس الازهري سنة ١٩٠٠ .

المدارس المجانية : ظلت الرهبانيات وحدها تعلم بالمجان حتى جاء رستم باشا ثالث متصرف في لبنان وانشأ ٧٢ مدرسة حكومية في امهات القرى اللبنانية فكانت الحجر الاول في صرح علمنة المدارس.

الصحافة – الجرائد اولاً : ذكرنا الصحف التي عرفتها البلاد اول عهدها بالصحافة ، والآن نقول : ان اول صحيفة أهلية هي حديقة الاخبار لخليل بك الخوري عام ١٨٥٨ ، ثم الرائد التونسي سنة ١٨٦٠ في تونس ، والجوانب لاحمد فارس في الأستانة ، والبرجيس في باريس لسليمان الحرائري ١٨٦٥ ، وجريدة سورية في دمشق ، والفرات في حلب ، وهما جريدتان حكوميتان رسميتان ، سنة ١٨٦٥ ، والنشرة الاسبوعية للمرسلين الاميركان سنة ١٨٧٠ ، والبشير لليسوعيين سنة ١٨٧٠ ، وقد دعوها اولاً المجمع الفاتيكاني .

المجلات : وظهرت على اثر الجرائد الاخبارية المجلات العلمية ، أولاها مجلة الجنان لبطرس البستاني ١٨٧٠ . ثم شفعها بجريدة سياسية اسماها الجنة ، وبعد الجنان بسبع سنوات ظهرت المقتطف لصروف ونمر في بيروت اولاً ، ثم نُقلت إلى مصر بعد ان صدر منها عشرة مجلدات ، وبعد نقلها اصدر صاحباها جريدة المقطم معها . ثم ظهرت مجلة البيان لليازجي ابراهيم وزلزل ، والهلال لجرجي زيدان ، والمشرق للآباء اليسوعيين ، والضياء لابراهيم اليازجي بعد ما احتجبت البيان . واخذت الجرائد والمجلات تنتشر ولا تزال الى يومنا هذا في نمو مستمر .

الجمعيات العلمية : أُسست أول جمعية علمية بمساعي الاميركان سنة ١٨٧٤ ، وكان من اعضائها فانديك ، والبستاني ، وناصيف اليازجي ، وورتبات ، ومخائيل مشاقه . عنيت بالخطب ، والمباحثات ، وجمع الكتب ، ونشر العلم .

٢ – الجمعية العلمية السورية ، من اعضائها الأمير محمد ارسلان ، وسليم البستاني ، والمركيز موسى فريج ، أُنشئت سنة ١٨٦٨ ، وجمعيـــة شمس البر ، ١٨٦٩ ، وجمعية زهرة الآداب سنة ١٨٧٣ ، وجمعية الحكمة التي اسسها الدبس في مدرسة الحكمة سنة ١٨٨١ .

المجامع العلمية : انشىء في لبنان مجمع لم يطل عمره . أما اقدم المجامع العلمية العربية والذي لا يزال يعمل بنشاط فهو المجمع الدمشقي . تأسس عـام ١٩٢١ وهو يصدر مجلته الفصلية طافحة بالدراسات والابحاث المفيدة .

كرد علي : كان رئيسه الدائم العلامة الاستاذ محمد كرد علي ، وظـــل على رئاسته حتى مات سنة ١٩٥٣ ومن اشهر مؤلفات هذا الكاتب العامل : خطط الشام ، وتاريخ احمد بن طولون ، وفلاسفة الاسلام ، وكنوز الاجداد ، ومذكرات في أربعة اجزاء كبيرة وغيرها .

ولما مات انتخب الأديب الشاعر خليل مردم بك رئيساً للمجمع . ولم يطل عمره ، رحمه الله ، فحلّ محله الامير مصطفى الشهابي وهو علّامة مدقق .

وفي القاهرة انشىء مجمع ما زال ملتئماً ، وقد بذل جهوداً في سبيل هدفـه وهو المحافظة على صحة اللغة العربية وجعلها تماشي تقدم العلوم والفنون .

وفي بغداد انشىء مجمـــع ثالث له كأخويه المصري والسوري جولات في خدمة الفصحى .

المكاتب العربية في أوروبا : مكتبة برلين الملوكية عدد مجلداتها ١،٤٥٠،٠٠٠ بينها مخطوطات عربية كثيرة . مكتبة الاسكوريال في اسبانيا ، فيها ١٦٨٦ كتاباً عربياً ، مكتبة لندن ، مكتبة اكسفورد وهي اغنى المكتبات باللغـــة العربية ، ومكتبـة باريس ، ومكتبة فيينا ، ومكتبة الفاتيكان الحافلة بالآثار الأدبية .

وفي الاستانة مكتبات عديدة حافلة بالكتب العربية ، وفي مصر المكتبة الخديوية ، والمكتبة الازهرية ، ومكتبة الجامعة المصرية ، والخزانة التيمورية. وفي دمشق المكتبة الظاهرية . وفي حلب المكتبة الأحمدية ، والمكتبة المارونية التي انشأها جرمانوس فرحات ، فيها ٧٠٠ مخطوطة .

وفي بيروت المكتبة الشرقية ، وهي غنية بالمخطوطات التي لا تقل مجلداتها عن ٥٠ الفاً . مكتبة الكلية الأميركية فيها آلاف المجلدات . وفي العراق مكتبة السيد حسن صدر الدين ، وفيها مخطوطات فريدة .

المعاجم : وكثرت في هذا الطور التآليف على اختلاف انواعها ، ففي مصر والشام كتب طبية وعلمية وزراعية ، وخصوصاً معاجم . فبعد معجم فرحات الذي طبع في باريس ظهر محيط المحيط وقطر المحيط لبطرس البستاني ، ودائرة المعارف التي الف منها المعلم بطرس ستة مجلدات .

ثم قام بعده ابنه وانسباؤه كسليمان البستاني فألفوا منها اجزاء حتى وصلوا الى المجلد الحادي عشر ، وظهر ايضاً اقرب الموارد للشيخ سعيد الشرتوني ، والبستان للشيخ عبدالله البستاني ، ومعجم الشيخ عبدالله العلايلي الطريف ، والمنجد للاب لويس معلوف ، واخيراً أتمه الأب توتل بمعجم اعلام شامل فجاء من انفع الكتب .

القرن التاسع عشر

الادب عامة

لم يبزغ نجم هذا العصر الا والادب قد جف وذبلت نضارته وحالت بهجته ، وانقطعت الصلة بين الاقلام والادب القديم ، فالنثر ركيك عقيم ، حافل بالصنعة الشنيعة التي لا يقبلها ذوق ، والمواضيع بليدة ، والافكار تافهة ، والصور مكروهة ممقوتة ، يلوح فيها تعبير كبار الكتاب كرقعة جديدة في ثوب بال . أما الشعر فدارت مطالبه في اضيق الدوائر : غزل خائر ظاهر التكلف ، ووصف بليد لا تتمثل فيه شيئاً ، وهجاء بارد ، ومديح لا تشتهي ان تسمعه ، فلا الديباجة تحببه اليك ، ولا البلاغة تستر عيوب المبالغة ، ولا همّ للكتاب والشعراء الا الصنعة واقتناص الالفاظ .

اما علوم البلاغة فضبطت في قواعد جافة ، منها شعرية ومنها نثرية ، وكلها تافهة لا تدني الطالب من مناهل البيان والفصاحة ، ولا تقرب ما يتعلمه الى فهمه ، وقد زاد الشرّاح كتب البلاغة تعقيداً اذ خرجوا بها الى التفلسف والتعليل فأعلّوا القلوب والافهام .

ولم يكن يحرص اكثر الكتّاب على قواعد الاعراب وصحة اللغة ، ولذلك جاءت ترجمة الكتب العلمية التي احتيج اليها اقرب الى العامية منها الى الفصحى ، الى ان كانت النهضة الحديثة التي لم تعدم اللغة العربية فيها انصارها مثل فرحات وكرامه والعطار والدرويش والطهطاوي .

فبدأ الناس يبحثون الأدب القديم ويحتـــذونه اذا كتبوا أو خطبوا حتى اقتربوا منه رويداً رويداً ، مع تأثرهم بالأدب الغربي ، لأن حضارة هــذا العصر مبنية على أساس الحضارة الغربية الاوروبية ، ففنونها وعلومها ولغاتها وآدابها قد خالطت نفوسنا لاطلاعنا عليها وتأثرنا بها ، ولهذا نرى الادب الحديث متأثراً كل التأثر بالأدب الغربي ، في الأغراض والمنازع .

النثر : كان الناس في هــذا العصر يحذون حذو كاتبين ، بل ينسجون على طراز كتابين : مقامــات الحريري ومقدمة ابن خلدون ، الاول يمثل الاسلوب الصناعي الأجوف المموه، والثاني يمثل الاسلوب المحكم. فقصر العقول عن البحث حمل فريقاً على اتباع خطى الحريري ، اما المفكرون – وما كان اقلهم في هذه الفترة – فكانوا يؤثرون ابن خلدون لجريانه مع الطبع وملاءمته لروح العصر ، وظلّ الصراع مستمراً حتى انكسر قلم القاضي الفاضل والحريري في آخر صفحة من كتاب عيسى بن هشام للمويلحي ، ومجمع البحرين لليازجي ، وليالي سطيح لحافظ ابراهيم .

الأساليب : ان الاقلام التي تحررت من رق المقامات لم تتبع كلها ابن خلدون بل راح فريق منها يقلد الجاحظ وابن المقفع والإمام علي ، بيد ان تأثر الكتّاب باساليب الفرنجة ولـّد فيهم الميل الى الاساليب الدقيقـــة السهلة وترك السجع ومقته ، ثم تعددت الأساليب في هذا العصر فكان لكل طبقة اسلوب، كالمحامين والصحفيين والمؤرخين والنقاد والقصصيين والمترجمين الخ ...

أثر الادب الغربي :

١ – ادخل على العربية تعابير جديدة لم تؤلـَف من قبل ، وصيغاً جديـدة ايضاً لتأثر الكتاب بالأدب الافرنجي وخصوصاً غير المطبوعين منهم على أساليب العربية ، وقلة البضاعة من فقه اللغة .

٢ – جعل المقام الاول للمعنى لا للفظ .

٣ – الاقتصار على ما يؤدّي المعنى ويصيب الغرض .

٤ – تناول الموضوعات والاشخاص بالوان من التحليل لم تكن معروفة من قبل .

٥ – تطور النقد الأدبي واتساع دائرته ، على اسلوب الفرنجة ، بعد ان كان العرب لا يتناولون المعاني والصور بالنقد صار يشمل كل شيء حتى الافكار وايرادها .

نثر الصحف : خدم اللغة اجل خدمة وهو الذي مهد طريق الخروج على الأساليب القديمة وهجرها ، ومن شروطه تعمد السهولة في اللفظ وعدم التعمق في المعاني لأن الصحف تخاطب الجماعة ، ولذلك ترى نثر المجلات العلمية والأدبية أعلى طبقة من نثر الجرائد ، وأرصن وأوفى لأنها كتبت للمتعلمين خصوصاً،وهذا النوع من النثر بدأ اولا ركيكا ضعيفاً ثم أخذ في التحسن حتى بلغ ما بلغه اليوم من الرقي ، فللصحافة اجل خدمة في بعث الأدب ورقيّه .

النثر الفني : هو اقدم انواع النثر على الاطلاق لان عهد العرب بالصحف جديد ، كما انهم لم يعالجوا البحوث الاجتماعية الا في العصور المتأخرة .

والنثر الفني يحتاج الى تضلع من بلاغة المتقدمين والفاظهم التي تؤدي المعنى بتمامه ، ومنها سعة الخيال والتفطن الى تفهم الكلام على حقه والتقاط النكتة مع مجانبة الاستكراه ، وادراك جمال العلم والفن . وقد كان هذا النثر ضعيفاً في بدء عهده كما كانت اغراضه مقصورة على كتب المودات ورسائل التهنئات والتعزيات وشيء من الوصف ، ثم اخذ يرقى ويتقدم حتى وصل الى ما تراه اليوم .

جمهرة الكتاب ومن هؤلاء النثّار المرصفي ، والليثي ، وفكري ، واحمد فارس الشدياق ، وعبده ، والمويلحي ، واليازجي (ابراهيم)،واسحق،والحداد، والبستاني (سليمان) ، والمنفلوطي ، وجبران ، والريحاني ، ويكن ، وعمر فاخوري .

الاقاصيص والروايات : قد ذكرنا سابقاً عن حظ العرب من هذا الفن ، فالقصة الصغيرة، كما هي في المقامات،قد اخذت بحظ وافر من الفن لولا مغزاها. اما القصة الجديدة فأول من حاول كتابتها ابناء هذا القطر لانهم اسبق الى مخالطة

الفرنج . أول من كتب فيها ، فرنسيس مراش، وسليم البستاني ، وفرح انطون، وجرجي زيدان ، وليس هنا مجال البحث عن مقدار توفيقهم .

اما القصة الصغيرة كالمقامات فآخر من كتبها نقولا الترك، وناصيف اليازجي في لبنان ، والمويلحي ، وحافظ ابراهيم في مصر ، إلا ان المصريين احتفظا بالاسلوب واسهبا في الموضوع فجاء عملها بين القصة والمقامة .

الخطابة : ظلت الخطابة في أول هذا العصر كما كانت في آخر العصر العباسي لا تتعدى الجوامع والبيع ، ، حتى كانت الثورة العربية في مصر والحياة النيابية والدعاية الوطنية . أما الشام فظلت متأخرة عن مصر في الحياة السياسية لبقائها تحت النير التركي ، وقد كانت وطأة المراقب ثقيلة على الالسنة والاقلام ، بيد ان الجمعيات الأدبية التي تقدم ذكرها ساعدت جداً على تقوية ملكة الخطابة ، ولما انطلقت الالسنة تناولت الخطابة السياسة والاجتماع ، وكان من مشاهير الخطباء عبدالله نديم ، ومحمد عبده ، واسحق ، والمطران الدبس ، ومصطفى كامل ، وزغلول، والافغاني وفي المتأخرين امين الريحاني، والدكتور فياض، وفليكس فارس ، ومجاعص .

الشعر

كان الشعر خامداً ميتاً فلم نسمع شاعراً يتغنى قبل هذا العصر إلا المطران جرمانوس فرحات والخوري الصائغ ، وبعدهما ظهر الشعر أيضاً على لسان بطرس كرامه ونقولا الترك ، وفي مصر قاله السيد علي أبي النصر والشيخ علي الليثي على عهد اسمعيل ، كما قـــاله الشاعران اللبنانيان في ظل البشير الشهابي الذي كان يعطف على الأدباء ويجيزهم كأمراء العصور العباسية ، فكان له فضل كبير على نهضة الأدب والشعر خاصة .

إلا ان هـــذا الشعر كان ركيكاً بارداً ، كله تقليد وصنعة ، ينحو نحو الاقدمين في الاغراض ويقصر عنهم في الديباجة والرشاقة والافكار ، وبالاختصار يقصر في كل شيء .

محمود سامي البارودي : الا ان الشعر طفر طفرة عظيمة تستقبل بالدهشة حين قاله محمود سامي البارودي المصري ، فهذا أعاد للشعر العربي رواءه ، فقد ضاهى الشريف الرضي في الجزالة والمتانة والقوة ، ولم يختلف عن المتقدمين في شيء من مطالب الشعر ، قاله مثلهم وعلى نحوهم ، وزاد عليهم شيئاً من مظاهر الحضارة الجديدة ، ووصف مخترعات العصر الحديث .

صبري : ثم ظهر اسمعيل صبري الذي قال الشعر المحكك ، وهكذا كان صبري والبارودي سابقين لظهور شوقي شاعر النهضة .

أما في لبنان فخطا بالشعر الشيخ ناصيف اليازجي فكان فوق الذين تقدموه ولكنه دون البارودي شدة اسر ، وتركيباً وصفاء ديباجـــة ، بيد انه يمتاز

بالسهولة وهو في شعره من اضراب البهاء وأبي العتاهية في السهولة ، أما اليوم فالشعر خطا خطوات واسعة حتى دنا من فصاحة الأقدمين ولهجتهم العربية ، مع ترك زخرف اللفظ والاهتمام بالمعنى وتصوير المشاهد ووصفها وصفاً دقيقاً ، وترك الاساليب القديمة والأغراض العتيقة كالمدح والهجاء ، إلا نفراً قليلاً لا تزال عقولهم بخواتم ربها ، يصفون ماء وجرة وعندهم الأنهار المتدفقة والينابيع المغردة ، يرون ما يرون حولهم ولا يشعرون ، يتغزلون حتى في المذكر كما تغزل ابو نواس . ذاك تغزل ارضاء لعاطفته ، أما هم فلا أدري لماذا .

ان لشعر الغرب أثراً بليغاً في الشعر العربي خصوصاً في شعراء هذه الفترة ، فانهم يختارون اغراضاً بالأجنبية اشبه . وقصارى الكلام ان نهضتنا الحاضرة اذا ظلت مطردة فالأمل كبير ، ولا يبعد ان نرى عصراً زاهياً يكون ذا شأن في تاريخ الأدب ويترك لمن يأتي بعدنا مجالاً للبحث والدرس .

الشعراء والكتاب

الترك

هو نقولا الترك ولد في دير القمر من اسرة قديمة فيها ، يدل اسمه ، كما يقول التقليد، انهم من عائلة تركية توطنت دير القمر، احب العلم من صغره وأكب عليه واكثر المطالعة فأمسي منشئاً شاعراً ، ولما جلس الأمير على كرسي أمارة لبنان في بيت الدين اتصل به نقولا وخدمه ومدحه في قصائد كثيرة، وزاد على الشعراء انه كتب في التاريخ .

ومن مميزات نقولا المزاح في الشعر . وشعراء زمانه كانوا ينظمون في اغراض المتقدمين كلها وزادوا عليها باباً جديداً يعرف بالتاريخ ، وهو تضمين الأحرف الابجدية للسنة التي قيل فيها الشعر ، بعد كلمة تاريخ أو أرخ أو أرخت أو ارخنا الخ . وقد تفرد في هذا الباب الشيخ ناصيف اليازجي الذي ضمن بيتاً عشرات التواريخ (راجع كتابنا : روّاد النهضة الحديثة) .

الترك المنشىء : ولنقولا الترك مقامات قلد بها الحريري ، عددها عشر ، محدثها الحازم وبطلها ابو النوادر يرمي بها الى مدح الأمير وقد طلب فيها داراً يسكنها فمنحه ذلك الأمير بشير، وقد كان يفعل ذلك في الشعر فيطلب الكسوة وغيرها من الأمير .

وللترك تاريخان : الاول تاريخ نابليون ، والثاني تاريخ احمد باشا الجزار ، والكتابان يدلان على فكرة وروية وتأمل وتبصر ، والركاكة في نثر الترك اقل منها في شعره .

كرامه

هو بطرس بن ابراهيم كرامه الحمصي ، ولد ونشأ وتأدب بحمص . قال الشعر في حداثته ، ومدح أعيان بلده ثم هاجر ووالده الى بلاد عكار واتصل بحاكمها ومدحه ، ثم اتصل بالامير بشير فكان له شاعراً ومدبراً ، وتولى رئاسة ديوانه وامانة سره لمعرفته التركية ، وكان معلماً لولده الأمير أمين ، ففاضت عليه النعمى فأصبح أميراً .

ولما نفي الأمير الى مالطة بعد انهزام ابراهيم باشا المصري ، رافقه بطرس في منفاه ، وظل في خدمته حتى مات الأمير في الاستانة . وعيّن بطرس كاتباً في المابين الهمايوني وظل في وظيفته تلك حتى مات .

شاعريته : شاعر مطبوع فياض القريحة قوي العارضة متصرف في المعاني وهو اعلى شعراء عصره كعباً ، وارسخهم قدماً ، مدح غير الامير من كبار حكام ذلك الزمان اخصهم داود باشا حاكم العراق وركن النهضة الادبية فيه . قال فيه قصيدته الخالية المشهورة التي احدثت ضجة أدبية كبرى ودارت حولها مناقشة حامية كان بطلها التميمي الشاعر العراقي . (راجع كتابنا : رواد النهضة) في باب شعراء الأمير .

اليازجي

هو ناصيف بن عبدالله اليازجي ، ولد بكفرشيما ، تلقى مبادىء العلوم على احد القسوس ثم علمه والده الطب على الطريقة القديمة وهي مهنة الاب ، فوعى الطب ونظم فيه ارجوزة . حفظ ناصيف كثيراً ووعى أكثر مأثورات العرب . ثم قصد الأمير بشير فقربه اليه وجعله من كتاب ديوانـــه ، وبعد سقوط عرش الأمير عـــاد ناصيف الى بيروت ينظم ويكتب ويراسل ادباء عصره ، ويعـلم في المدارس العالية .

تآليفه : لم يترك باباً مما طرقه الأقدمون إلَّا طرقه ، ففي مجمع البحرين نحا نحو الحريري ، وفي الارجوزة نحا نحو ابن مالك ، وفي ديوان المتنبي نحا نحو ابن جنّـي ، وفي كتب النحو والصرف والبيان نحا نحو الجماعة ، وفي شعره أيضـاً نحا نحو الشعراء الأقدمين . وله ديوان فاكهة الندماء ، ونفحة الريحان ، وثالث القمرين .

شعره : متأثر بما حفظ ، رقيق الديباجة ، مطبوع اللهجة ، سريـع البديهة ، ناصع اللفظ . قلد الحريري فوفق ، والمتنبي فأخفق . قـــال الحِكَم فلم يأتِ بجديد ، وكل تآليفه تدل على سعة اطلاع واتقان لعلوم اللسان . وقد برز في نظم التاريخ الذي تقدم ذكره ، والتفصيل في رواد النهضة أيضاً .

حكمته : بدائية زهدية لا ابداع فيها ، ومدحه على غرار السابقين ، وغزله ناعم رقيق ككل شعره .

النثر

ركاكة وغموض ومحسنات لفظية إلى ضعف تركيب وقلق ، أي ان يؤتى باللفظة عمداً لتوضع في الجملة مرغمة الخ .

الجبرتي : عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، نسبة الى جبرت وهي مدينة في الحبش ، ولد سنة ١٧٥٤ ، ومات سنة ١٨٢٢ ، تخرج في الأزهر واتقن علوم زمانه واتصل بالفرنسيين عندما فتحوا مصر وعيّن كاتباً في الديوان . وبعد ذهابهم انصرف الى التأليف ، فكتب تاريخه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » وهو يحتوي حوادث القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، جمعه على حوادث الأيام يوماً فيوماً ولا سيما ايام نابليون وفجر حكم محمد علي ، وفيه تراجم كثيرة لمن كانوا يموتون من مشاهير العلماء والأعيان الخ ..

انشاؤه جاف ، بيد ان روايته صحيحة ، ومع ذلك هو في طليعة منشئي هذا العصر .

البستاني

هو بطرس بن بولس البستاني ، ولد بالدّبية – لبنان (١٨١٩ – ١٨٨٢) ، تلقى علومه في مدرسة عين ورقة المارونية واحسن اللغات السريانية والعربية واللاتينية والايطالية ، ودرس الفلسفة واللاهوت ، والحق القانوني والجغرافية والتاريخ والحساب ، على نية أن يصير من خدام المذبح ولكنه حوّل نفسه إلى خدمة العلم .

واتصل بالبروتستانت وتعلم اللغة الانكليزية والعبرانية واليونانية ، وتمذهب بمذهبهم وترأس مدرسة الاحد عندهم بعبيه سنتين الـّف في خلالها كتابه : « كشف الحجاب في علم الحساب » ، ثم ساعدهم في ترجمة التوراة .

وبعدئذٍ انشأ مدرسته الوطنية ، واصدر مجلاته الجنان والجنة ، وتفرغ في آخر حياته للتأليف فألـّف كتابه محيط المحيط ، أخذه عن الفيروزبادي وزاد عليه كثيراً من الالفاظ الحديثة للمصطلحات العلمية والمنطقية وغيرها ، ودل على أصول الكلمات الدخيلة .

ثم انصرف لتأليف كتابه الجامع دائرة المعارف فأصدر منه ستة اجزاء ، فأتم السابع ابنه سليم والحقه بالثامن ، ثم تابع الورثة اصدار ثلاثة اجزاء فبلغت الاجزاء ١١ .

قيمته : ركن النهضة ومنارة علم وأدب في عصره ، عمل بنفسه ما تعجز عنه

الجماعات ، رجل عمل وثبات ، تعلمنا آثاره ان الكد المقرون بالذكاء يأتي بكل عجيبة .

اما كتابته فكانت سهلة لا تعمّل فيها ولا تكلف ترسل على السليقة، من اتباع ابن خلدون، وان قصر عنه في صحة التعبير ، يهتم للمعاني اكثر من الالفاظ، فهو يمثل النقلة السريان في عهد الخلفاء العباسيين .

ابراهيم اليازجي

ولد في بيروت ونشأ فيها ، وأخذ العربية وعلومها عن ابيه ، وبعد ان قال قصائد رائعة ودبج مقالات شائقة ، اتصل بالآباء اليسوعيين فوقف على ترجمتهم للتوراة منقحاً عبارتها العربية فجاءت افصح الترجمات. ثم علّم في المدرسة البطريركية ، وانشأ مجلة الطبيب مع زلزل وسعاده ، ثم انتقل الى مصر فاصدر البيان اولاً ، ثم اصدر مجلة الضياء بدلاً عنها وماتت بموته .

اخلاقه : ابي النفس عصبي المزاج ، انوف مترفع عن كل خساسة ، وقد دفع ثمن هذه الخصال غالياً شأن كل أديب شريف أبيّ لا يبيع وجدانه.

قيمته : تبحر في فقه اللغة على وجه خاص ، شاعر متين ، كاتب رصين ، وهو أول من عالجوا النقد اللغوي في البيان والضياء ، فرد الكتاب إلى العربي الصحيح فكان أثره بعيداً في حمل الادباء على تحرّي صحة الألفاظ وتأليف الكلام على قوانين العربية الخالصة ، والخلاصة انه كان حجة جيله ، اذا قضى يقال : قطعت جهينة قول كل خطيب .

في العلم والفن : وله ايضاً فضل آخر وهو ايجاد الفاظ كثيرة لمصطلحات علمية ،وله يد كبرى على الطباعة فهو صانع امهات الحروف العربية الاسلامبولية ، وله في علم الهيئة جولات حتى انه اكتشف نجمة فعد بين علماء الفلك المكتشفين .

ابراهيم الاحدب

ولد في طرابلس سنة ١٨٢٦ ومـات سنة ١٨٩٠ واخذ العـلم عن شيوخها ورحل الى الاستانة وعرج على مصر وتعرف الى شيخ الأزهر وعلمائه ثم راسلهم بعدئذ . اشتهر بالفقه الحنفي ، فكانت محاكم لبنان تعتمد على فتاويـه . ثم تولى القضاء في بيروت ووظف في المعارف ، وتولى تحرير ثمرات الفنون . قـال الشعر وله منه الجيد واشتهر بنظم الأمثال الشعرية ، والحكم .

تآليفه : عديدة . منها : مقامـات ، فرائد الأطواق في أجيـاد محاسن الأخلاق ، وهو مئة مقالة كاطواق الذهب نظماً ونثراً ، وله فرائد اللآل في مجمع الأمثال ، مؤلف نفيس في مجلدين نظم فيه امثال الميداني . وله كتب أُخر غيرها ، وقد اشتهر في الاكثار من النظم حتى بلغ ما نظمه ثمانين الف بيت .

يوسف الأسير : ولد في صيدا عام ١٨١٤ ولم يتبع التجارة كأبيه فانصرف الى العلم . تلقى علومه الابتدائية في صيدا ثم خرج الى دمشق فالأزهر حيث فاز بشهادته العالية وعاد الى صيدا ثم انتقل الى بيروت ، وتقلب في مناصب عديدة شرعية ثم ذهب الى الاستانة حيث وظف في وزارة المعارف ، ثم عاد الى بيروت فكان مرجع رجال اللغة والفقه الشافعي ، وقد قال الشعر ولكن لم يجدد فيه .

تآليفه : ارشاد الورى ، رائض الفرائض ، شرح كتـاب أطواق الذهب ، وديوان فيه الشعر الجيد .

الكونت رشيد الدحداح : ولد في عرمون كسروان ، لبنـان . درس في عين ورقة ، ثم صار كاتباً لامراء زمانه . ولكنه ابى هذه الحياة المقيدة فرحل

الى باريس واشتغل بالتجارة ثم انصرف الى العلم ، فانشأ جريدته برجيس باريس واتصل بباي تونس ومدحه فقربه وجعله ترجمانه الخاص ، وبعد مدة عاد الى فرنسا فابتنى قصراً وعاش عيشة العظماء وانصرف الى التأليف كالمستشرقين .

تآليفه : قمطرة طوامير ، مقالات ادبية وفوائد لغوية . سيار المشرق في بوار المشرق (تاريخ) وقد طبع معجم المطران فرحات .

الآلوسي : محمود شهاب الدين الآلوسي من اشراف العراق السادة الحسينيين، نسب لآلوس جزيرة في وسط الفرات،كان قطب علماء العراق وتولى افتاء السادة الاحناف . له تلامذة كثر ، رحل الى الاستانة وحظي بمقابلة السلطان عبدالحميد الذي اجزل عطاءه ادبياً ومادياً فعاد الى العراق غانماً .

تآليفه : نزهة الالباب ، وهو كتاب رحلة جامعة لتراجم العظام وابحاث جرت بينه وبين شيخ الاسلام، روح المعاني في تفسير القرآن ، رحلة اسلامبول، شرح درة الغواص ، كتاب المقامات الخيالية ، وله غير هذه كتب كثيرة لم يطبع منها الا ١٧ كتاباً .

الطهطاوي : من رجال بعثة محمد علي الكبرى الى باريس ، تولى الترجمة في العلوم المختلفة، ثم ولي نظارة مدرسة الالسن التي انشأها محمد علي للترجمة وعلمها. وقد عانى كثيراً من الاتعاب لان اللغة العربية كانت في ذلك الزمن منقطعة عن لغات الغرب فجاهد كثيراً في اخراج المصطلحات لاداء المعاني الفنية . وله كتب عديدة في فنون مختلفة منها .

تآليفه : تاريخ مصر ، رحلته الى فرنسا ، تعريب تماك ، هندسة ساسير ، وغيرها .

الحرائري : هو تونسي الأصل واسمه سليمان الحرائري ، عاون الدحداح في برجيس باريس ، وكان قبلاً رئيس كتّاب الباي التونسي وله كتاب عرض البضائع العام في وصف معرض باريس .

الدبس : هو المطران يوسف الدبس ، ولد بكفرزبنا وتعلم في عين ورقة العلوم واللغات والفلسفة واللاهوت وكل علوم الدين ، وبعد ان سيم كاهناً علّم

في مدرسة مار يوحنا مارون ، ثم سيم أسقفاً لأبرشية بيروت المـــارونية . له تآليف عديدة واولها مربي الصغار ومرقي الكبار ، ثم مواعظ الدبس ، وكتاب سفر الأخبار ، وروح الردود ، وأعظمها تاريـــخ سوريا الضخم وهو عشرة مجلدات ضخمة ، وله غيره كتب عديدة أهمها الجامع المفصل الذي عوّلنا عليه في كتابة تراجم طلائع النهضة اللبنانية .

وهو منشىء مدرسة الحكمة ومؤسس الجمعية الأدبية فيها . والخلاصة ان حياة هذا الأسقف كانت حياة جد وعمل . توفي سنة ١٩٠٧ .

قيمته : خطيب مفوّه ، فصيح بليـغ ، انشاؤه من نوع انشاء عصره ، مرسل لا كلفة فيه ولا بلاغة .

الاب لويس شيخو

ولد في ماردين ثم اتصل بالآباء اليسوعيين فتعلم في مدرستهم بغزير ، وسافر إلى اوروبا وعاد ليدرس الآداب العربية في كليتهم . ثم انقطع الى التأليف فخدم الآداب العربية بما ألّفه من الكتب القيمة ، التي له الفضل في إخراجها بأحسن ترتيب وتبويب وطبع متقن عرفت به مطبعة الآباء اليسوعيين .

وقد كانت مجلة المشرق ميدان الأب لويس اليسوعي ينشر فيها كل ما يعن له نشره ، وقد عني بنشر الآداب العربية ، وكان جـــل همه موجهاً للبحث في النصرانية وشعرائها قبل الإسلام وبعده .

مؤلفاته : كتاب علم البيان والخطابة جزآن ، وله جزآن آخران هما مقالات تشرح الكتابين وتفيض في البحث ، وميزة كتابه انه نهج في علم البلاغة العربية منهج أدباء الفرنج .

مجاني الأدب ٦ أجزاء وله ثلاثة أجزاء شرح وهو مختـــارات من خير أقوال العرب وهو الأول من نوعه في وفرة الأغراض وحسن التبويب .

شعراء النصرانية كتاب ضخم في ستة مجلدات يزعم فيه الأب شيخو ان معظم شعراء الجاهلية نصارى ، وفي هذا الزعم من المغـــالاة ما فيه ، بيد ان للكتاب قيمة أدبية كبيرة .

آداب النصرانية بين عرب الجاهلية ، ذكر فيه كلمات وعبـــارات وامثالاً أدخلتها النصرانية في ادب الجاهلية .

تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر . أحيــا شيخو في هذا الكتاب ذكر كثيرين من الأدباء والشعراء في كل الأقطار .

وله أيضاً يد كبرى على المكتبة الشرقية ، بما جمع من الكتب ، وقد جعل لها فهرستاً كفهرست أمهات المكاتب العالمية .

القصص

كان حظ العرب من القصص والشعر القصصي قليـــلاً ، بيد ان هذا الفن اقتبس عن الاجانب ، فهم الذين جعلوا شأناً عظيماً للقصة ، اقتبسها العرب عنهم بقواعدها ومناهجها حتى موضوعاتها ، وكان الاسبقون الى هذا الشاميون لمخالطتهم الاوروبيين ، والأخذ عنهم ، ومن هؤلاء : **فرنسيس مراش الحلـــبي** ، **وسليم البستاني** ، **وجرجي زيدان** ، **وفرح انطون** . بيد ان قصص هؤلاء لا تنطبق على الفن القصصي الحديث تمام الانطباق ، فهمّ القصصيين اليوم تحليل الشخصيات وتصوير المشاهد بكل دقة ، في حين ان قصصنا تعنى بسرد الحوادث كواقعة حال ، وكان يهمهم المفاجآت ، والاتيان بالغريب منها الذي يدهش له القارىء .

سليم البستاني : هو ابن المعلم بطرس البستاني ولد سنة ١٨٤٧ — ومات عام ١٨٨٤ . نشأ في حجر ابيه وأخذ عنه العربية وعن اليازجي الأب . كان مساعداً لأبيه في أعماله الأدبية والعلمية والّف بعد وفاة ابيـــه الجزء السابع من دائرة المعارف ، ولم يطل عمره فلحق بابيه بعد سنة من وفاته . كان يحرر الجنة والجنان ويضع الروايات التمثيلية والقصصية .

أهم رواياته : قيس وليلى ، ورواية الاسكندر ، والهيـــام في جنائن الشام وزنوبيا ، وغيرها . هو أول من الّف في هذا الفن ، اما لغته الكتابية فأصح من لغة أبيه ، ومقالاته وافرة التخيل .

زيدان

جرجي زيدان منشىء الهلال، وصاحب الروايات التاريخية، ومؤلف كتاب الادب العربي الحديث مرتباً حسب العصور . ولد ببيروت وتعلم اولاً في مدرسة كمدارس القرى البسيطة ، واضطر الى العمل مع ابيه الفقير ، وحاول ان يتعلم اللغة الانكليزية في مدرسة ليلية ففعل ، ومال الى تعلم الطب في كلية بيروت الاميركية فمكث فيها سنة واحدة ، وخرج وذهب الى مصر ليتم علمه هناك فلم يستطع لضيق ذات يده ، فغادر المعهد الطبي وكتب في جريدة الزمان ، ثم رافق الحملة النيلية سنة ، وعاد الى بيروت حيث طالع العبرانية والسريانية ووضع كتابه « الفلسفة اللغوية » ، ثم عاد الى مصر حيث ساعد في تحرير المقتطف . وتركها والّف كتابه تاريخ مصر الحديث، ودرس في المدرسة العبيدية الى ان اصدر مجلة الهلال .

قيمته : دمث الاخلاق ، ليّن المعاشرة ، لطيف الحديث ، متوقد الذكاء ، صادق العزيمة صبور ، لم يكن يتعمد في كتابته اسلوباً خاصاً ، بل كان يرسل عبارته على السليقة بلا تكلف ولا تصنع ، فاذا صح ان يكون لبطرس البستاني اسلوب فهو هذا ، فكلاهما طبعا على غرار واحد ، ورميا الى هدف واحد وهو تعليم الجمهور .

آثاره : اما آثاره فهي : مجلة الهلال ، تاريخ مصر الحديث ، تاريخ التمدن الاسلامي ، تاريخ الادب العربي ، العرب قبل الاسلام ، مشاهير الشرق، اثنتان وعشرون رواية تاريخية ، وقد كان ملماً بعلوم شتى للمطالعة الكثيرة والابحاث التي كانت تتطلبها منه مجلته . اما هلاله فصبغته تاريخية كما ان صبغة المقتطف علمية تطورية . والضياء لغوية ، والمشرق اثرية ادبية دينية جدلية ، والجامعة مجلة فرح انطون اجتماعية فلسفية حرة الفكر .

الصحافيون

تقدم الكلام عن تاريخ الصحافة في بابه ، والكلام عن الانشاء الصحافي في كلامنا عن النثر . فالاسلوب الصحافي كان خالياً من الفن في أول عهده بل كان الانشاء بسيطاً ركيكاً لا يعلو عن اللغة العامية إلا انه معرب ، ولكن الصحافة أخذت ترتقي وتنمو وتتحسن لهجتها وتبعد عن العامية حتى بلغت ما بلغته اليوم من علو اللهجة ومتانة التركيب وفصاحته . ونعيد القول ان الاسلوب العربي الحاضر مدين للصحافة ، فهي التي نفّرت الناس من السجع الذي ثار عليه أحمد فارس الشدياق .

احمد فارس الشدياق

هو فارس بن يوسف الشدياق قبل ان اعتنق الاسلام ، ولد في عشقوت كسروان لبنان (١٨٠٤ — ١٨٨٧) ، وتلقى علومه في مدرسة عين ورقة الشهيرة . نشأ نبيهاً ذكياً أولع منذ الصغر بمطالعة تآليف البلغاء وأشعار العرب الأقدمين فأدرك اسرار اللغة ، ثم رحل إلى القطر المصري فأتمّ دروسه وحرّر في الوقائع المصرية ، واشتهر بين علماء عصره وشعرائه .

ودعاه المرسلون الاميركيون إلى مالطة فتولى ادارة مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتها . ثم سافر إلى اوروبا فزار باريس ولندن وغيرهما . وفي باريس تعرّف الى باي تونس ونظم فيه قصيدة عارض بها لامية كعب بن زهير « بانت

سعاد » وبعث بها اليه بعد عودته الى تونس ، فارسل يدعوه اليه على سفينة حربية خاصة ، واكرم وفادته جداً ، وقلده المناصب الرفيعة وكان يكتب المقالات الطنانة في الرائد التونسي .

وطلبته الصدارة العظمى من الباي فقدم الاستانة وانشأ الجوائب ، جريدته الشهيرة ، فملأ صيته الاسماع ، فكان ذاك الكاتب البليغ والسياسي المحنك والمنشىء الاخلاقي الاجتماعي ، وكان لرأيه السياسي تقدير وشأن في أندية أوروبا السياسية .

تآليفه : الواسطة في أحوال مالطة ، كشف المخبا عن احوال أوروبا ، الجاسوس على القاموس ، سر الليال في القلب والابدال ، منتهى العجب في خصائص لغة العرب ، اللفيف في كل معنى طريف ، الساق على الساق في ما هو الفارياق ، وهذا الأخير كتاب طريف وهو مذكرات وسيرة حياة . وله مجموعة مما نشر في جريدته الجوائب في مقالات وهو أربعة أجزاء الخ .

قيمته : متضلع من فنون الأدب ، بصير بمذاهب البيان ، متفنن في الانشاء ، غني بالمفردات اللغوية الى حد غريب . شاعر ناثر ، اسلوبه منسجم التراكيب ، متساوق المعاني كثير الاطناب والاستطراد ، يبالغ فيما يكتب ، مقلد في شعره ، مجدد في نثره ، وقد أجاد في الصناعتين وكان رائد النهضة الأدبية والسياسية .
(طالع كتابنا « صقر لبنان » لتعرف قصته) .

اديب اسحق

ولد بدمشق ١٨٥٦ ومات في لبنان ١٨٨٥ تعلم في مدرسة الآباء اللعازاريين العربية والافرنسية ، غادر المدرسة صغيراً واستخدم في الجمرك فتعلم اثناء ذلك اللغة التركية ، وقدم بيروت فخالط الادباء والشعراء واهل العلم ، فكان طلق اللسان بارعاً في النظم والنثر فاعجبوا به . فانقطع اذ ذاك الى الكتابة واحترف الصحافة ، فعرب بعض الروايات الافرنسية ، والّف بعضها ، وكانت رائحة الحرية الثائرة تنبعث من خلال سطوره ، فضاقت به الديار الشامية ، فرحل الى مصر وانشأ هناك جريدة مصر ، ثم جريدة التجارة ، فاطلق فيها العنان لقلمه السيال الجريء فخرجت مقالاته يملأ صداها وادي النيل ، فاعجب الناس بلغته الصحافية البليغة الخالية من كل ركاكة وتعقيد وغموض ، فراجت كتابته حتى عدت الحكومة جريدته خطراً فصدر الأمر باقفالها ، وقد سجن في ثورة عرابي باشا لتطرفه وحريته ، وكان فوق كل ذلك يلقي الخطب المهيجة الطافحة بالروح القومية والوطنية .

ثم رحل الى باريس وداخل جماعة من كتاب الفرنسيس والاتراك ، واختلف الى مجلس الامة الافرنسي فاعجب ببلغاء خطبائه ،وظل يعالج السياسة والكتابة حتى اعياه داء الصدر فعاد الى وطنه لبنان وظل يكتب حتى قضى في التاسعة والعشرين من عمره .

قيمته : منشىء بليغ ، وخطيب مفوه ، فصيح اللهجة ، سريع البديهة ، يرتجل المقالة والخطبة ارتجالاً . اسلوبه شديد الاسر متراص التركيب ، مليح

الاستشهاد الذي اكثر منه . تارة يسجع وطوراً لا ، فهو أشبه بالطائر ، يسجع متى طاب له. في كتابته حياة قوية يشعر بها القارىء فيندفع مع كاتبها. ويغلب على مقالاته اسلوب الخطابة وهذه مجموعة مقالاته تشهد على ما اقول . وبكلمة نستطيع ان نقول ان اديب اسحق خرج بالصحافة الى طور جديد من حيث الاسلوب والروح . (طالع رواد النهضة) .

محمد عبده

ولد بمحلة نصر من اقليم البحيرة بمصر ١٨٤٩–١٩٠٥ نشأ نشأة الاوساط من القرويين فاستظهر القرآن في كتّاب القرية ثم ارسل الى الجامع الاحمدي فجامع الازهر ، ثم تتلمذ لجمال الدين الافغاني وهو اكبر تلاميذه . عالج الكتابة في الصحف عندما كان طالباً في الازهر ، فكان على عادة اهل زمانه يلتزم السجع، والتمهيد بين يدي الموضوع بالمقدمات الفلسفية ، ثم ما برح قلمه يرقى ويعلو بتثقيف استاذه وبازدياد حظه من العلم حتى بلغ ما بلغ ، وقد تأثر بنهج البلاغة الذي شرحه فجرى قلمه على اسلوبه وشبه فصاحته .

آثاره : العروة الوثقى اصدرها مع استاذه الافغاني ، شرح نهج البلاغة ، الاسلام والنصرانية ، رد على هانوتو ، وقد دار نقاش بينه وبين فرح انطون صاحب مجلة الجامعة حول ابن رشد وفلسفته. (طالع كتابنا : جدد وقدماء).

اخلاقه : حاد البصر بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، ذكي القلب ، شديد العارضة ، قوي الحافظة ، كبير النفس ، عالي الهمة ، نزّاع إلى الاصلاح ، وقد عانى في سبيله ما عانى .

أثره الديني : فسّر القرآن بلسان العلم والعقل ، قرّب العقائد من الافهام ، وكشف ظلال الابهام .

اسلوبه : يسجع احياناً كإبن العميد فيتكلف الصنعة ، وينحو نحو الجاحظ احياناً في التأليف فتتراصف فقره وتتساوق أغراضه ، يلبس المعاني لبوسها من الألفاظ الملائمة لها ، وقد كان علماء الأزهر المتمسكون بالقديم غير راضين عن آرائه ، ولذلك قال قبل ان يحتضر :

ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه العمائم

المسرح

لقد ذكرنا عن المسرح في بدء الكلام عن هذا العصر وقلنا ان لبنان كان أسبق العرب إلى فن التمثيل ، وهـا نحن نذكر ثلاثة من المؤلفين المسرحيين وأولهم ، بل أول من مارس هذا الفن في الشرق : مارون النقاش .

مارون النقاش : ولد في صيدا ١٧١٧ – ١٨٥٥ ونشأ في بيروت ، كان تاجراً ولكنه ميال الى الموسيقى ، اتقن العربية والافرنسية والايطالية ، سافر إلى مصر وايطاليا فأعجب بالتمثيل . فلما رجع إلى بيروت ألـّف فرقة تمثيلية ووضع رواية البخيل ، وهي أول درامة عربية ، مثـّلها في منزله ودعا لحضورها قناصل الدول وأعيان بيروت فصادف قبـولاً . ثم ألـّف رواية هرون الرشيد ودعا اليها والي بيروت وبعض الوزراء ورجال الدولة ، ثم انشأ مسرحاً بجانب بيته تحوّل بعد موته الى كنيسة .

وله أيضاً رواية الحسود وغيرها ، وقد احتفلت مصر بالذكرى المئوية لنشأة المسرح ودعت لبنان إلى الاحتفاء معها بهذه الذكرى ذكرى ابنه النابغ .

نجيب الحداد

ولد في لبنان ١٨٦٧ – ١٨٩٩ وقـال الشعر صغيراً ، ثم ذهب إلى مصر حيث زاول الصحافة فتولى رئاسة تحرير جريدة لسان العرب ، وكان يحرر في

غيرها ويترجم الروايات التمثيلية ، وقد مات بداء الصدر الذي فتــك بزميله اسحق .

شعره : كان شاعراً مطبوعاً كجده الشيخ ناصيف اليازجي، سهل الديباجة مهلهلها ، من غرر قصائده وصف القمار ووصف القمر ، وهذه الاخيرة متأثرة بمقالة خاله الشيخ ابراهيم ، وله وصف حريـق سوق الشفقة في باريس ووصف القطار وغيرها من الشعر الجيد .

نثره : نثره كشعره رقة واناقة ديباجة يكثر من التشابيه والاستعارات ، بحث كثيراً من المواضيـع التي تلابس الحياة الاجتماعية .

مسرحياته : صلاح الدين ، السيد ، المهدي ، حمدان ، روميو وجوليت ، الرجاء بعد اليأس ، الفرسان الثلاثة ، ثارات العرب ، غصن البان ، البخيل. وله عدا هذه المسرحيات مجموعة مقالات ، وديوان شعر .

النقد الادبي

تاريخ الادب العربي كما هو اليوم على الطريقة المدرسية حديث العهد في معاهدنا، فقد كان على المتأدب ان يعمد الى الاغاني ومعجم الادباء ووفيات الاعيان ويتيمة الثعالبي وغيرها من الكتب التي جمعها المصنفون العرب من الرواة وغيرهم ، وقد قال ابن خلدون ان عمدة الادباء اربعة كتب : البيان والتبيين ، وأدب الكاتب، والنوادر لابي علي القالي ، والكامل للمبرد .

وفي هذه شيء من النقد لا يتجاوز الالفاظ والمعاني والسرقــات الشعرية ، وكان النقد لا يتعدى قولهم ان فلاناً اجاد اكثر من فلان ، وفلان سبق الى هذا المعنى ، ثم تطور النقد عندما ظهر كتاب ابن رشيق « العمدة » والمثل السائر لابن الاثير ، بيد انه ظل على نسق القدماء ولم يخرج عنه الا بمقدار قليل .

تاريخ الادب

اول من اهتم بكتابة تاريخ الأدب العربي على الطريقة الحديثة هو جرجي زيدان ، وله فضل تأريخ الذين لم يترجم لهم القدماء من ادباء وشعراء متأخرين ومستشرقين .

لما قامت الجامعة المصرية والمعارف المصرية على الطريقة الحديثة الّفوا في هذا الموضوع كتباً مدرسية على نمط جديد مماشين الطريقة الاوروبية الحديثة بتحفظ تام .

اما النقد على الطريقة الاوروبية الحديثة فقام به عصبة من الادباء المتأثرين بادباء الغرب المستشرقين وبنقدهم الحديث ، فخطوا خطوهم وحذوا حذوهم في النقد . وانني أرى أثر النهضة في النقد اظهر منه في تأليف تاريخ الأدب .

وللبكالوريا اللبنانية فضل على طبع ملكة النقد في الطلاب ، بهذا النص الذي ادخلته في منهاجها ، وهو اوروبي بحت ، كما يفعل الذين يكتبون تاريخ الادب ، انما ما نواخذ عليه المؤلفين في تاريخ الادب هو اقلالهم حتى الندرة من كتابة تحليل ونقد نصوص تكون نماذج للطلاب .

المستشرقون

الفرنسيون

برون : له بحث في الآداب الجاهلية قبل الاسلام واخلاقهم ، وكتاب نساء العرب قبل الاسلام ، وترجم بعض اشعار جاهلية وبعض كتب قديمة .

دي سلان : ترجم مقدمة ابن خلدون ، وترجم تاريخه للبربر أيضاً .

دي مينار : ترجم مروج الذهب ، وكتاباً في الشعر الفارسي .

كليمان هيار : له تاريخ بغداد الحديث ، وتاريخ آداب اللغة العربية ، وتاريخ العرب ، وترجم كتاب الخليقة للبلخي ، وانيس العشاق لشريف الدين الرومي ، وله مقالات عديدة في المجلة الاسيوية وانتقادات وابحاث ، ثم صار استاذ اللغة العربية في باريس .

الالمانيون

المستشرقون الالمان في النصف الاخير من القرن التاسع عشر اكثر المستشرقين انتاجاً ، وهؤلاء اهمهم :

فرايتاغ : تلميذ دي ساسي ، له كتاب في اللغة العربية في الجاهلية والاسلام ، ونشر حماسة ابي تمام باللغة اللاتينية والعربية ، وامثال الميداني مع ترجمتها اللاتينية .

كرسفارين : تلميذ دي ساسي أيضاً ، نشر كثيراً من مخطوطـــات مكتبة باريس ، ولخص كتاب الجبر والمقابلة للفخري .

فلايشر : استاذ مدرسة ليبسك ، الف كثيراً وله مقالات في لهجـات اللغة العربية ، ونشر تفسير البيضاوي في ثلاثة مجلدات ، وبعض كتاب الف ليـــلة وليلة ، وشيئاً من تاريخ ابي الفداء .

ديبتريستي : له يتيمة الدهر فـــيما يتعلق بسيف الدولة والمتنبي ، ورسائل اخوان الصفا ، وديوان المتنبي وآلهيات ارسطو ، وفلسفة الفارابي .

وايل : له تاريخ الخلفاء خمسة مجلدات، وسيرة ابن هشام ترجمها إلى الالمانية .

وستفيلد : نشر كثيراً من الكتب العربية . ويزيد عدد منشوراته ومؤلفاته على مئتين منهـــا سيرة ابن هشام ، ووفيات الاعيـــان ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، وعجائب المخلوقات للقزويني .

النمسويون

بورجشتال : اشهرهم ، له تاريخ الآداب العربية في سبعة مجـــلدات ، ودائرة معـــارف شرقية تشتمل على آداب الشرق ، ترجم « أيهـــا الولد » للغزالي ، وديوان المتنبي .

الهولنديون

جون بول : له من المتنبي ومعـــاصريه ما قالوه في سيف الدولة ، ومختصر معجم البلدان ، وكتاب الخراج لابن آدم .

دوزي : كتب كثيراً عن الاندلس ، له كتاب تاريـــخ الدول الاسلامية في اللغة الفرنسوية ، وكتاب آخر في آداب الاندلسيين ، وله معجم عربي ذكر فيه الالفاظ العربية التي لم ترد في معاجمنا ، وله غير هذه كتب أُخرى .

دي غويه : له كتب كثيرة وقف على طبعها وضبطها ،منها : فتوح البلدان، ديوان مسلم بن الوليد ، ديوان الطبري ١٥ مجلداً ، والّف مذكرات في التاريخ والجغرافية الشرقيين .

الانكليز

كورتن : انصرف للغة السريانية ، ونشر كتاب الملل والنحل ، وكتاب عقيدة أهل السنّة للنسفي ، ومنتخبات من طرقات الادباء .

ادوار لين : ترجم الف ليلة وليلة ، ومنتخبات من القرآن ، وله مقالات وكتب بالانكليزية عن الآداب الاسلامية .

بالمر : من اساتذة كمبريدج ، نشر ديوان البهاء زهير مع ترجمته للانكليزية ، وترجم القرآن .

رايط : نشر الكامل للمبرد ، ورحلة ابن جبير ، ومنتخبات شعراء الجاهلية ، وقسماً من نفح الطيب ، أي القسم التاريخي منه .

مرجليوت : مستشرق معروف عند العرب ، نشر كتباً عربية منها : معجم ياقوت ، ورسائل ابي العلاء مترجمة إلى الانكليزية ، وله كتاب في السيرة النبوية .

براون : انصرف إلى الفرس وآدابهم .

نولدكي : الماني وهو إمام المستشرقين المعاصرين ، صرف همه للتأليف ، له تاريخ القرآن بالالمانية ، وتاريخ عروة بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب ، وتاريخ الغسانيين ، والمعلقات الخمس .

هوتمن : الماني له كتاب في العرب ،وفي الاسلام والمسلمين والآداب الاسلامية ، وديوان الحطيئة ، وكتاب في الاسلام ، وغير هذا كتب كثيرة تبحث في الشرع والحديث .

جويدي : ايطالي ، عيّن استاذاً في الجامعة المصرية ، كان يلقي فيها محاضرات قيمة باللغة العربية ، نشر كتاب الأفعال لابن القوطية ، والاستدراك على سيبويه .

فضلهم : للمستشرقين فضل النشر والتدقيق ، فقد بعثوا آثاراً كثيرة من مدافنها ، فهم الذين دلوا ادباء العرب الجدد على البحث والتنقيب وحببوا آدابنا الينا ، وارشدونا الى مجدنا الضائع ، وتراثنـا المقسم ، وهم الذين عرّفوا الأمم الأجنبية إلى أمتنا العربية ، واظهروا مـا في خزائنها من الكنوز النفيسة المجهولة منا .

هنري لامنس اليسوعي

علّامة بلجيكي من اعلام المستشرقين المشهورين في الشرق والغرب ، عاش في لبنان وأحب تاريخه وجغرافيته فعرّفنا على آثار بلادنا وتاريخها تعريفاً دقيقاً في كتابه « تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار » .

وله ايضاً شهرة بعيدة في بحوثه عن عرب الجاهلية ، والعصر الأموي .

تآليفه : الإسلام ، والجزيرة العربية الغربية قبل الهجرة ، وخلافـة يزيد الأول .

ويظهر ان هنري لامنس اديب قبل ان يكون عالماً أثرياً حتى كتب روايته حبيس بحيرة قدَس التي ترجمها لمجلة المشرق العلّامة رشيد الشرتوني ونشرت في سنتها الخامسة .

وكتب ايضاً رواية « خريدة لبنان » التي نقلها الأديب نجيب حبيقه ونشرت في السنة الأولى من المجلة عينها .

ان لامنس لم يحرم بلدنا من دراسة عميقة لجميع مرافقه .

كراتشكوفسكي وجبّ

من كبار مستشرقي الروس. للأول كتب لا تحصى، وهو مختصّ بآثار ادبائنا المعاصرين وخصوصاً الرواية التاريخية في الأدب العربي المعاصر . وهذا اللون الأدبي ، اي القصة المعاصرة ، قد انفرد بدرسه البروفسور جبّ فخص النهضة الحاضرة بدروس عميقة دلّت على قدرته فيما انفرد له .

مؤرخو لبنان

الأمير حيدر الشهابي : صاحب التاريخ الذي عرف باسمه . تحدث فيه سارداً الحوادث الكبار تبعاً لتواريخها سنة فسنة . وقد خص أمير لبنان الكبير بشيراً الشهابي بالجزء الأخير من هذا المجلد الضخم ، فجاء هذا الكتاب جامعاً اخبار الدهور من مولد النبي واعماله وغزواته الى الخلفاء واحداً واحداً ، حتى نهاية عمر الأمير بشير .

والذي ترك لنا هذا التاريخ يجب علينا ان نؤرخ حياته ولو تأريخاً موسوعياً فنقول انه ولد في دير القمر (١٧٦١ – ١٨٣٥) ، وتوفي في دير القرقفة ، وقد قضى حياته ، كما اخبرنا احمد فارس الشدياق ، يدوّن الحوادث المعاصرة له أول بأول ، وكان الأمير بشير يعتمد عليه .

وإذا قرأت الفارياق، وتساءلت اين ذكر احمد فارس المير حيدر، نقول لك: اقرأ كتابنا صقر لبنان ففيه النقد الكافي لتاريخ المير حيدر ولتاريخ اعيان لبنان الذي ألّفه طنوس الشدياق شقيق احمد فارس .

نشر تاريخ الأمير حيدر الاستاذ نعوم مغبغب في القاهرة سنة ١٩٠٠ ثم اقتطع منه الدكتوران أسد رستم وفؤاد البستاني الجزئين الثاني والثالث لاعادة الطبع .

تاريخ اعيان لبنان : وهذا تاريخ آخر وقف عليه قبل ظهوره المعلم بطرس البستاني كما صرح مؤلفه الشيخ طنوس يوسف الشدياق بما ذيل به الكتاب عند نهاية طبعه سنة ١٨٥٩ .

ان تاريخ اعيان لبنان معروف من اسمه انه لبناني محض ، وان تاريخ المير حيدر اوسع مدى ، اما النسق والتفكير فواحد تقريباً . وقد نقد احمد فارس تاريخ اخيه طنوس بدقة شديدة وعنّفه بل وبّخه لأنه ماشى السلطة الروحية واتهم أخاه الشهيد اسعد بالوسوسة . (عُد ، اذا شئت ، الى : صقر لبنان).

لبنان لاسمعيل حقي بك : متصرف لبنان سنة ١٩١٥ . ومع انه لم يثبت على كرسيه إلا أقل من سنة فقد سعى لاخراج كتاب عن لبنان من الوزن الثقيل . يقول فيه صاحب منجد الاعلام : انه كتاب عزيز الوجود . اما أنا فلم احصل عليه في حينه لأننا كنا في تلك الأيام السوداء نفتش عن رغيف خبز ولو من شعير لنفكّ ريقنا .

القرن العشرون

سليمان البستاني

١٨٥٦ — ١٩٢٥

سيرته : سليمان بن خطار سلوم البستاني . ولد في بكشتين لبنان عام١٨٥٦ . لقّنه عمه المطران عبدالله البستاني العربية والسريانية فشغف باللغات ، ودخل المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني فأتم دراسة العربيـــة والسريانية واتقن الانـكلـيزية والفرنسية ، وكان من معلّميه الشيخ يوسف الأسير والشيخ ناصيف اليازجي .

كان قوي الذاكرة فتمكن من معرفة خمس عشرة لغة مع جميع علوم زمانه .

ثم علّم في المدرسة الوطنية وساهم في تحرير الجنان والجنة . وما عرف حتى صار ترجماناً لقنصلية اميركا ، ورأسَ جمعية زهرة الآداب مرتين .

وحنت نفسه إلى الاسفار فأم العراق وطاف في جزيرة العرب . واستدعاه الزعيم قاسم باشا لانشاء مدرسة وجريدة . فأدار تلك المدرسة سنة ، ثم عيّن مديراً للشركة الخديوية ، ومديراً أيضاً لمعمل حديد انشأه مدحت باشا . واتصاله بمدحت باشا مكّنه من التنقل في نواحي البلاد العربية جميعها،وهناك تعرّف الى الأماكن الوارد ذكرها في الشعر العربي .

وكانت عودة البستاني من الجزيرة عام ١٨٨٥ لينصرف الى اتمـــام دائرة المعارف التي ألّف منها اجزاء المعلم بطرس ثم سافر الى مصر عام ١٨٨٧ .

وخطر له ان يترجم الالياذة شعراً الى العربية . فاطلع على الملاحم المختلفة ، ولما كانت يونانيته ضعيفة راح يدرسها على أحد الآباء اليسوعيين . وبعد ذلك ترك القاهرة عام ١٨٨٨ قاصداً العراق فالهند فاطراف العجم حيث درس عـــادات الفرس وآدابهم لتكون له المواد اللازمة لمقدمة الالياذة وشرحها ، فصقلت تلك الرحلات ذوقه الفني الادبي. وعاد الى بغداد حيث تزوج . وأقام في بغداد سنتين تابع فيها التعريب وكتابة مؤلف عنوانه « في تاريخ العرب » .

ثم ذهب الى اسطمبول حيث أقام سبع سنوات وانتدب لتولي ادارة القسم التركي في معرض شيكاغو فغادر الاستانة اليها حيث انشأ جريدة تركية لم تعش غير عام . ثم عرف مواطن حوادث الالياذة وكنوز امثالها واجواء قصصهـــا ووقف على آراء أُدباء اليونان فيها .

وعاد الى قريته بعد اربعين عاماً ثم هجرها الى مصر حيث اشترك مع انسبائه في تأليف الجزئين العاشر والحادي عشر من دائرة المعارف . وفي عام ١٩٠٤ اتم تعريب الالياذة وطبعها واقيمت له حفلة تكريم في فنـــدق شبرد . وتناولت الصحف والمجلات عمله الجبار .

سقوط عبد الحميد : وبعد اربعة اعوام بعث الدستور العثماني من قبره عام ١٩٠٨ فنشر سليمان كتاب « عبرة وذكرى » وهو كتاب يدعو الى نبذ التعصب والاتحاد ، وفيه ذكريات وعبر ترمي الى الاصلاح. وعلى اثر صدور هذا الكتاب انتخب عضواً لمجلس المبعوثان .

وهناك ظهرت مواهبه السياسية ، فحضر الجمعية العموميـــة سنة ١٩٠٩ ، واشترك في تقرير خلع السلطان عبد الحميد ، فافلتت الشعراء والخطباء كالنمور من اقفاصها . ثم انتخب البستاني نائباً لرئيس مجلس المبعوثان ، فرأس عدة وفود الى عواصم اوروبا حيث كان يخطب فيهم بلسانهم ، وفي حضرة ملوكهم كادوار السابع وغيره . واوفدته السلطة الى لبنان بمهمة رسمية ، ولما عـــاد سنة ١٩١١ عيّن سفيراً فوق العادة في اكبر عواصم اوروبا كروما وبرلين ولندن وباريس . وفي عام ١٩١٣ عيّن وزيراً للتجارة والصناعة والزراعة والغابات والمعادن

فاصلح كثيراً ، وهو الذي تولى عقد الصلح بين تركيا وبلغاريا . وظل في منصبه حتى كانت حرب ١٩١٤ . وساءت صحته فاستقال وذهب الى سويسرة حيث قاسى آلاماً شديدة جداً ووصف بشعر رائع رقيق طرق معالجته وآلامه متذكراً وطنه حاناً اليه . ولكنه شفي بعد ذلك العذاب ونقله اخوه سليم الى مصر . وذهب الى الولايات المتحدة حيث عمي ، ثم مات في اول حزيران عام ١٩٢٥ في نيويورك . وما اجمل ما قاله ايليا ابو ماضي شاعر المهجر في رثائه :

فتح الموت حين اغمض جفنيه عيون الورى على حسناته
فهو ماضٍ له جلالة آت من فتوحاته ومن غزواته
والفتى العبقري يولد اذ يولد في مهده ويوم وفاته

وفي الخامس عشر من آب وصل جثمانه الى بيروت ونقل الى مسقط رأسه ليعرض في الغرفة التي اتم فيها شرح الالياذة العربية .

مقدمة الالياذة

تقع في مئتي صفحة من طبعة الالياذة ذات الحجم الكبير ، وهي مؤلفة من أربعة فصول وخاتمة . يتكلم في الفصل الاول عن نشأة هوميروس الذي أنكر بعضهم وجوده . ومعنى اسمه ابن النهر . ثم بحث نظم الالياذة وصحة نسبتها الى هوميروس فأثبت انها له مخالفاً رأي العالم الالماني ولف الذي أنكر ذلك . موافقاً في ذلك عالماً المانياً آخر اسمه ميلر ، وقد يكون هذا الرأي له . اما حجته فهي وحدة الالياذة وصفات أبطالها ، ثم اوصاف أماكنها الواحدة فلا اضطراب في تسلسل حوادثها ولا معانيها .

وروى بعد ذلك حكاية تعريبه الالياذة وكيف خرج على القصيدة القديمة فنوّع القوافي والاوزان ، واهتم بالملاءمة بين الوزن والموضوع حتى خص الأبحر بما يوافقها من مواضيع ، وكان نصيب بحر الخفيف انه وزن يصلح للقصص .

ثم تحدث عن موضوع الالياذة فأرّخ الشعر العربي تأريخاً مجملاً وقابل بين جاهليتنا وجاهلية اليونان في التفكير والتعبير. ثم بيّن ان الشعر العربي خالٍ من ملحمة كبرى كالالياذة وغيرها من ملاحم الأمم .

موضوع الالياذة : حرب قامت بين الطرواديين واليونان الأقدمين اثناء حصار طروادة ، وطروادة مدينة محصنة مسورة من مدن آسيا ، قدّر الباحثون موضعها في جنوبي مضيق هللاس (الدردنيل) وزمنها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

زار بارس بن بريام ملك طروادة ملك مدينة اسبارطة اليونانية فأكرم

الملك ضيفه ، وفتن بارس بهيلانة امرأة الملك وخطفها فاراً بها الى طروادة .

وسمع اليونان بالخبر ، فقاموا إلى السلاح . واحتشدت الأبطال تحت أمرة أغا ممنون شقيق الملك ، وزحفوا بحراً على طروادة وطوقوها محاصرين . وكان أعظم هؤلاء الأبطال : فطرقل وعولص وآخيل ، صديق فطرقل .

وطال الحصار ، وسطا اليونان على قرية سبوا منها فتاتين جميلتين . فكانت أحداهما لأغا ممنون والثانية لآخيل .

كانت فتاة أغا ممنون بنت كاهن ابولون ، فطلب اعادتهـــا فلم يعدها له اغا ممنون ، فصلـّى الى ابولون إلهه ، فسمع الإله صـــلاته من الاولمب فدارت الدائرة على اليونان وفشا فيهم الوباء ورماهم الإله ابولون بسهامه .

فأوحت هيرا امرأة زفس الى آخيل فقـــال لقادة اليونان : فلنبحث عن سبب غضب ابولون .

فقال أحد الحكماء : على أغا ممنون ان يعيد البنت إلى أبيها وإلّا هلكنا .

فامتعض اغا ممنون ، وطلب حصة من الغنائم بدل البنت . فقال له آخيل : ومن أين ؟ أعد الفتاة ومتى فتحنا طروادة نعطيك ثلاث حصص .

فأبى اغا ممنون وقال لآخيل : إذا أعدتها لا أقبل بها بديلاً غير فتاتك .

فأنـّبه آخيل : ايتها الوقاحة المجلببة بجلباب الملوك تتهدّدني بأن تسلبني ما منحني الجيش ؟ أنا أقوم بأكبر قسط من القتال ونصيبي من الغنائم دائماً دون نصيبك . سأعود إلى بيتي .

فقال اغا ممنون : انصرف ، لن استعطفك لكي تبقى .

فاستعرت نار غضب آخيل وهمّ بأغا ممنون ليقتله ولكن الآلهة نهته .

فاكتفى بالقول لأغا ممنون : أيهـــا السكير الأحمر العينين كعيني الكلبة . اسمع هذه اليمين : سيأتي يوم تطلب فيه الأمة آخيل ولا تجده ، ستعجز انت عن درء الخطر عنها ويتساقط ابناؤها امام هكتور الظامىء الى الدم .

وكان ذلك ، فاعتزل آخيل الحرب وهكذا بـــدأ البستاني معرباً مطلع الالياذة :

ربة الشعر عن اخيل بن فيلا   انشدينا واروي احتداماً طويلا

وكان ان صال هكتور بطل الطرواديين على اليونان ، وقتل الكثير من ابطالهم فالتجأوا مضطرين الى آخيل يسترضونه ، فلم يقتنع ولكنه اذن لصديقه فطرقل ان يلبس درعه ويذهب لمقاتلة هيكتور . بيد ان هيكتور صرعه ، فحمي غضب اخيل ونزل يريده ، فقتله وربط جثته بعربة وطاف بها حول اسوار طرواده .

وحزن الشيخ بريام على ابنه هيكتور ، وحمل الهدايا الى آخيل ملتمساً تسليمه جثة ابنه ، فسلمه اياها واقاموا له مأتماً انشدت فيه المراثي .

وتنتهي الالياذة ، ولا تستسلم طروادة ، ثم تمر عشر سنوات ويموت آخيل ولا تستسلم : حتى كان سقوطها اخيراً بحيلة ابتدعها عولص .

بنى حصاناً خشبياً واقعد في جوفه جماعة من اليونان ، وتوارى اليونانيون عن الانظار ، فاقبل عليه الطرواديون ظانين ان فيه غنيمة . ففتحوا باب المدينة وجروا الحصان اليها ، فدخل المحاربون الذين كانوا في جوفه وقتلوا الحراس ، وتبعهم المحاربون ، وهكذا استولوا على المدينة واحرقوها .

شرح الالياذة : لم يكتف سليمان بالتعريب بل عمد الى شرح الالياذة وتحليلها وجلاء غوامضها . وقابل بين المعاني اليونانية والعربية كما قابل بين الشعرين والاوزان . ثم وصف العتاد الحربي وما اليه ، ونبه الى المقابلة بين قصة عنترة وحرده ، وحرد آخيل . ولم يحرم الفلسفة واللاهوت من درس العقائد والعادات ومنها ان الرجل الجاهلي كان يحلف برأس زوجته . ومنهم من يحلف برأس شيخه أو زعيمه ولكنه اذا كذب يقتل حالاً ، اما اذا حلف بالله فما عليه بأس الآن ، بل يؤجل ويوضع في كتاب فيدخر ، كما قال العم زهير .

وقد دل البستاني على الاثر الفينيقي في الالياذة وعلق عليه . وفسر كلمة قدموس بأن مادتها في العربية كمادتها في الفينيقية أي القدم . ثم فسر الرموز الفينيقية فسهل الفهم . وأشار الى ذكر ارز لبنان .

شاعرية البستاني : شعره من الطراز العباسي ، وهو هنا يترجم فلا يستطاع

الحكم على بُعد مدى خياله ، ولا مجال للحكم على ديباجته وتفاوتها في الالياذة لانه لا يستطيع ان يحذف ما يشاء من اسماء اعلام تشوّه الشعر. وهو في كل حال لم يقصر ، وان كان شعره الوجداني الذي نظمه ابان مرضه في سويسرا انقى ديباجة واقوى عاطفة . وكذلك جاء في مواقف الالياذة الوجدانية التي تلائم شعرنا العربي .

انشاء البستاني : يتصف انشاؤه بالرصانة ، تغلب عليه الصبغة العلمية ، ولا يسجع ولا يتأنق ولا يتخيل . يهمه ان يفصح لنا عما في فكره بتدقيق في اللفظ وبعد عن الحشو والزيادة . البستاني وان كانت موضوعاته بعيدة عن التجميل والتحسين فقد كان في اسلوبه طلاوة ادبية تخفي تحتها شيئاً من جفاف العلم، وان لم يكن كله فجله . أما البستاني الناقد فكان احرى ان يسمى البستاني الباحث لانه في المقدمة بحاثة اكثر منه ناقداً .

فرح انطون

بزغ نجمه الادبي مع هلال القرن العشرين، وانطفأ ذاك الشهاب الثاقب بعد ان عد ثالث اثنين : المقتطف للعلم والهلال للتاريخ ، وجامعة فرح للثقافة الحديثة ، فكان رائد النهضة الفكرية ، وداعي دعاة الفلسفة الحديثة .

حمل على القديم حملات كان لها ما بعدها، وظل يناضل في الشرق والغرب حتى قضى قبل نهاية الربع الاول من هذا القرن .

يصح فيه قول خليل مطران : وفـّيت قسطك (للنهى) فنم ِ .

اسلوبه : لم يكن فرح من اصحاب التعابير الجوفاء . اسلوبه سهل هيّن ، تغنيه من الفصاحة الابانة والظهور ، وهو مؤلف ومترجم ، وفي كلا الحقلين يفتش عن غرض سام هو انارة الاذهان في تلك الظلمات التي رافقت عصره .

آثاره : ٢٤ كتاباً منها : اورشليم الجديدة ، ومريم قبل التوبة ، والدين والعلم والمال ، والوحش الوحش الوحش ، وترجمة حياة يسوع لرينان ، وابن رشد وفلسفته .

في جامعته : لم يترك اثراً خطيراً الا تصدى له ، وهو أول من عرّف الشرق بنيتشه وغوركي ، وترجم للاول : « هكذا تكلم زاراتوسترا » ، وللثاني رواية مشهورة ، ولكن يا للاسف ، فانه كما لم يتم رواية الجدلية قبل التوبة ، كذلك لم يتم ترجمة كتابَي نيتشه وغوركي .

كان الرجل يفتش عن معاشه فانصرف الى تأليف المسرحيات فأطعمته خبزاً ولكن دون الشبع وراحة الفكر .

هذه كلمة وجيزة عن رائد القصة والادب الحديث ، اما دراسة فرح فتجدها مفصلة في كتابنا « جدد وقدماء » .

جبران

١٨٨٣ — ١٩٣١

حياته : ولد في بشري وهاجر مع امه إلى بوسطن ، ثم رجع إلى بيروت ، ودرس العربية في مدرسة الحكمة .

وقصد بعد ذلك باريس وتعلّم هناك التصوير فتفوّق فيه وعرف اشهر الرسامين وخصوصاً روادان .

تآليفه : عدة كتب بالعربية : الأرواح المتمردة ، وعرائس المروج ، والأجنحة المتكسرة ، ودمعة وابتسامة ، والعواصف ، والبدائع والطرائف . والمواكب قصيدة شعر منظوم .

وكتب بالانكليزية : النبي ، والمجنون ، ورمل وزبد ، والسابق ، ويسوع ابن الانسان ، وآلهة الأرض .

كان متصوفاً ولكن صوفيته مادية ، والحب عنده قطب الوجود ، والشوق خالق الكائنات .

اسلوبه : انشاء جبران منمق حافل بالألوان ، يندغم بالطبيعة إلى اعمق أعماقها ، ولعله ان يكون شاعرنا العالمي في القرن العشرين اذا اعتبرنا النثر شعراً غير موزون . وجبران مصور فيما يكتب فكأنه يفكر بالصور والألوان ثم يعبّر بالكتابة عما يتخيل . أما آراؤه الاجتماعية فقائمة على المحبة كما نرى في كتابه النبي الذي هو قمة الفكرة الجبرانية ، او خلاصة آراء جبران . وضعه على نمط كتاب نيتشه ، ولكنه بناه على الحب ، بعكس نيتشه الذي يقوم كتابه على بغض

الإنسان وتمنيه له الانقراض ، لعله يخلق بعده إنسان اسمى من الإنسان الحاضر .

اكتسب جبران بنبوغه شهرة عالمية لم يدركها كاتب عربي قبله ، فهو والريحاني صنوان .

فلسفته : وإذا تعمقنا ، رأينا ان عصارة الفلسفة الشرقية موجودة في كتب جبران . إن ادباءنا المهجريين عاشوا غرباء عن محيطهم الجديد ، لم يفكروا بغير الشرق ، وجبران خصوصاً كان اشدهم حباً للبنان . والحياة اللبنانية أوحت اليه بفكرته الثورية ، لأنه قضى صباه في محيط ذي اقطاعيتين: اكليريكية وعلمانية . وهذا ما يصوره لنا في قصة خليل الكافر وغيرها كمضجع العروس ، ويوحنا المجنون .

إن العرق اللبناني الفينيقي الوثني يتمثل في كتابات جبران ، وقد كتبت كثيراً عن الريحاني وجبران ،فليراجع ذلك في كتبي ،فالمقام هنا اضيق من ان يسع .

تأثيره: كان لجبران اعظم تأثير في جيله ، وقد اتبع اسلوبه واسلوب الريحاني زمناً ولا يزال ، وان ضعف تقليده ، وهذا الشعر الجديد غير الموزون خلقه الريحاني وجبران متأثرين بأسلوب انبياء التوراة ، والشاعر الانكليزي وتمان .

صاحب مدرسة : جبران إمام متبوع والامريكتان مدينتان له بعروبتهما . فهو ذاك الشرقي الطائر الصيت الذي تقرأ كتبه الانكليزية بلذة وشوق .

الرابطة القلمية : عميدها ومؤسسها جبران ، ولكنها لم تعمر طويلاً فماتت بموته ، وأجهزت عليها عودة نخائيل نعيمه إلى لبنان . اننا نأسف لتواريها ،لانها أدّت اجلّ الخدمات للأدب والفكر ،ولا يزال أثرها ماثلاً للعيان في أساليب كتّاب القرن الحاضر .

امين الريحاني

١٨٧٦ — ١٩٤٠

ولد بالفريكه من لبنان وتعلم مبادىء العربية والفرنسية في الفريكه بمدرسة انشأها نعوم المكرزل ثم في مدرسة قرنة شهوان .

هاجر إلى امريكا وهناك درس مبادىء الانكليزية ثم اتقنها ، وانخرط في جوقة للتمثيل ، وانصرف الى دراسة الحقوق . ثم انقطع عنها ، وتحول أخيراً إلى الأدب فتفوق فيه .

نقل لزوميات المعري الى الانكليزية فطارت شهرته نظراً لشاعريته وصفاء لغته . ثم كتب في الرحلات عدة كتب اشهرها: ملوك العرب ، وهو اخلد آثاره لأنه سبق فيه غيره . وقد ترجمه للانكليزية .

ترك كتباً كثيرة بالعربية والانكليزية منها تاريخ نجد الحديث ، وقلب لبنان ، وسياحة إلى المغرب . وله روايات قصصية وتمثيلية . عدا الريحانيات ، وهو مجموعة خطب ومقالات وشعر منثور ادخله الريحاني إلى الآداب العربية . وله مجموعة رسائل نشرها حديثاً أخوه ألبرت وهي عندي في مقدمة تركته الأدبية .

كان الريحاني نزاعاً إلى الاصلاح ، فحمل على الاستبداد ونفخ في بوق الحرية ، وقاوم الانتداب فنُفي مرة .

كان خطيباً مفوهاً بل أمير المنابر ، تحب سماعه ولو كان يحمل عليك . دعا الشرق الى النهوض والاتحاد، وعرّف العرب بعضهم ببعض ، وهو أول من فكر بالجامعة العربية قبل ان تكون . فاجتمع بملوك العرب وامرائهم داعياً إلى الوحدة .

إن كتب رحلات امين خالدة، بما فيها من حقائق وجمال حديث، وبها عرف العربي بأخيه العربي، بعد ان كاد بعضهم يجهل بعضاً .

ولي الدين يكن

١٨٧٣ — ١٩٢١

ولد في الاستانة من ام جركسية واب تركي،ثم عاد به والده الى مصر وطنه. تعلم في مدرسة الانجال المختصة بتعليم اولاد الامراء ، فتعلم العربية والتركية والانكليزية ، ثم درس الافرنسية والمّ باليونانية وتزوج من امرأة يونانية .

انصرف في اول عهده بالكتابة الى تحبير المقالات السياسية ، وكان اهله لا يرغبون فيما يرغب فيه . سافر الى الأستانة في عهد السلطان عبد الحميد ، فأقام فيها سنة وعاد الى مصر فاصدر جريدة الاستقامة وكان يناهض فيها رجال السياسة في الأستانة ، فاقفلت جريدته واخذ ينشر افكاره الحرة في الجرائد الأخرى ، ثم أعاد الكرة على اسلامبول فذهب اليها ، وعيّن عضواً في ديوان المعارف ، وكانت الجواسيس تحدق به لأنه وضع في لائحة الاحرار ، فحبس ونفي الى سيواس، حيث بقي ست سنوات، حتى اعلن الدستور. فعاد الى مصر، وصار سنة ١٩١٤ سكرتيراً عربياً في ديوان الامناء ، وما ارتاح في حياته حتى عاجله الداء فقضى في حلوان سنة ١٩٢١ .

اخلاقه : حر الفكر جريء ، ميال الى الاصلاح ، انوف ابي ، مات فقيراً .

آثاره : الصحائف السود ، التجاريب ، ديوان شعر ، المعلوم والمجهول ، خواطر نيازي .

اسلوبه : شديد العبارة ، قوي التركيب ، حاد اللهجة ، لا يتقيد باسلوب ، قوي الخيال ، ثائر العاطفة .

المنفلوطي

١٨٧٦ — ١٩٢٤

هو مصطفى لطفي، ولد في منفلوط من اعمال مديرية اسيوط، واليها نسب. أسرته وجيهة .

التصق بالازهر بعد ان تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، فحصل صدراً من العلوم وكان به شغف شديد بالادب ، فعكف على كتب البلغاء ودواوين الشعراء يقرأ ويحفظ ، ولازم من فتائه رجال الأدب وأعيان كتّاب الصحف ، فكانت له فيه ملكة وطبيعة ،فنظم الشعر سهلاً جزلاً رصين القافية ،وارسل النثر حلواً سلساً محبوكاً ، وقد شغله هذا بقدر ما عزف عن الكدح في مطالعة كتب الازهر ومعاناة دروسه ، على انه واظب على حضور دروس الشيخ محمد عبده الى غايتها .

وفي اثناء طلبه في الازهر نسب اليه انه هجا الخديو عباس حلمي بقصيدة نشرها في احدى الصحف الاسبوعية فحكم عليه بالحبس . فقضى في السجن مدة العقوبة ، ثم عفا الخديو عن جرمه بشفاعة من لهم عنده كريم منزلة . فلما صارت نظارة المعارف الى زغلول باشا عيّنه محرراً عربياً لها،ولما تحول زغلول الىنظارة الحقانية حولته معه وولاه فيها مثل هذا المنصب ، حتى اذا قام البرلمان عيّن في سكرتاريته ، على ان الموت عاجله في العقد الخامس، فمات سنة ١٩٢٤ .

والمنفلوطي ، رحمه الله ، كان دقيق الحس ، رقيق العاطفة ، رحيم القلب ، يغمره الشعور بالاسى من كل ما يحل في هذا العالم من ضروب الويل والشقاء ،

ولهذا ترى قلمه اجود ما يكون في صفة مدنف عانٍ ، او يتيم محروم ، او متهم مظلوم ، ونحو هذا من مآسي الحياة .

آثاره : وهو بعد رشيق القلم ، سهل البيان ، حـلو العبـارة ، متين نظم الكلام ، اذا أتته السجعة فذاك ، وإلا فلا يتكلف طلبها بتعمّل . وكان شديد التذوق لبلاغات العرب ، يحتفل للجمل البارعة ، وللصيغة الرائعة ، فيفسح لها في خلال نثره مكاناً، وقد جمع قدراً عظيماً من مقالاته في كتاب دعاه النظرات، وأخرى في كتاب آخر سماه العبرات ، وله منتخبات بديعة من أشعار المتقدمين ومقالاتهم دعاها مختارات المنفلوطي، وهي تدل على حسن ذوقه ودقة اختياره. ترجم له بعض اصدقائه عن الافرنسية رواية مجدولين فجوّد في العربية صياغتها وصقلها صقلاً جميلاً ، وكذلك فعل في رواية بولس وفرجيني التي أخذهـا عن ترجمة فرح انطون .

لقد عالج المنفلوطي الشعر اولاً،ثم انصرف عنه إلى النثر،فكان شأنه في هذا شأن كثيرين من كتاب اوروبا المشهورين ، فأكثرهم عـالجوا النظم أولاً ، ثم انصرفوا الى النثر، ما عدا الشعراء الكبار الذين استطاعوا ان يبرزوا.أما كتابة المنفلوطي من حيث الموضوع فتعوّل على الحقيقة اكثر منها على الخيال. واختراعه في التعبير لا في الفكر، يعوّل كثيراً على التشبيه والاستعارة وكل ضروب المجاز، ويكثر من المترادفات .

يعقوب صروف

١٨٥٢ — ١٩٢٧

حياته : من مواليد قرية حدث بيروت بلبنان سنة ١٨٥٢ . تلقى علومه اولاً في مدرسة الاميركان بعبيه ، ثم انتقل إلى الجامعة الاميركية حيث لم يتم دروسه ، وأخرج منها بعد ثورة طلابها تأييداً لاستاذهم فان ديك .

وفي سنة ١٨٧٦ انشأ مجلة المقتطف فظهر منها عشرة مجلدات ، ثم نقلها من بيروت الى مصر وظل يديرها ويشرف عليها ويكتب فيها إلى آخر حياته ، فكانت دائرة معارف ثقافية ومدرسة علمية تدخل كل بيت يتكلم العربية ، فسلّح العقل العربي بالعلوم الحديثة في كل فن ومطلب ، فكان كل ناطق بالضاد تلميذاً لصروف الكاتب والفيلسوف المؤمن بالعلم وحده ، وقد أيّد مذهب دارون في النشوء والارتقاء بكل قواه العقلية ، مسانداً رفيقه الدكتور شبلي الشميّل .

آثاره : أهمها المقتطف في ٥٢ مجلداً ، وكانت اكثر مقالاته العلمية والفلسفية والفنية حافلة بكل جديد ، فجارى تطور العلم في جميع مراحله ، وقد عرّف الشرق بنوابغ العرب والانكليز ، إذ ترجم لهم وقابل بينهم . وقد عرّب كتباً كثيرة وألّف كتباً كثيرة وجال جولات موفقة في دنيا القصة ، فكتب « اميرة لبنان » و « فتاة مصر » وغيرهما .

وكان صروف من اركان مدرسة النهضة الحديثة ، فراح يدبج مقالاته ،

حتى العلمية منها، باسلوب بياني رشيق ، رصين، من طراز كتّاب الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد عليهم تعريب الالفاظ للاغراض العلمية والفلسفية.

وأعار صروف الرياضيات اهتماماً كبيراً وكتب في علم الفلك كتاب «بسائط علم الفلك» فاحتوى احدث الانباء عن النظام الشمسي، والسيّارات، والثوابت، والبقع الشمسية، والنجوم المذنّبة ، حتى بلغ مقام العلماء الكبار، وكان في ذلك بعيد المرام ، ناصع البيان ، واضح المأخذ .

وفي الطبيعيات والكيمياء والفلسفة كان صلة الوصل بين الشرق ورجالها في الغرب ، اذ بسط آراء العلماء تبسيطاً اوضح غامضها .

وله في التاريخ وعلم الآثار غرر الفصول والكتب ، وقد اسعفه الحظ انه نشأ في بلد تاريخي اثري. ثم انتقل الى بلد حافل باعظم الآثار ، فطاف بين اطلال قصوره يتحدث عنها معتمداً على احدث الآراء .

وديع البستاني

الشاعر المجيد وديع فارس البستاني سليل بيت علم في عصر النهضة يحق لافراده النابغين ان يرددوا : اذا مات منا سيّد قام سيد ، ويحق لشاعريه سليمان ووديع ان يقولا : نحن فرسان الملاحم .

فالاستاذ وديع هو اول من شق طريق العروبة الى بيت الشاعر الفيلسوف عمر الخيام ، فعرب رباعياته تعريباً لم يوفق أحد من معربي الخيام الى شعر انقى ديباجة من نظمه ، وقد يكون جارى الخيام وتحداه .

مؤلفاته : معنى الحياة ، السعادة والسلام ، مسرات الحياة ، محاسن الطبيعة ، رباعيات الخيام ، رباعيات الحرب ، البستاني لطاغور ، خمسون عاماً في فلسطين ، وكلها معرّبة الا ديوان الفلسطينيات .

شاعر المهبراته : ولد في الدبّيه ومات فيها ١٨٨٨ — ١٩٥٤ . قضى حياته يطوّف في الآفاق فسميناه السندباد الادبي ، وناضل لأجل فلسطين مكافحاً الصهيونية ، وما كان امرّ خيبته حين قال عن نفسه :

غنّى العروبة عمراً وعاش حتى رثاها

فهو ممن أُخرجوا من ديارهم بعد عناد ضارٍ ، ولكن المقدر كائن .

ان المهبراته هي اعظم اثر ادبي عالمي ، صرف شاعرنا المجاهد على نظمها اربعين عاماً حتى اخرجها بهذه الاناقة الفنية ، ولكن اسماء الاعلام لا تروّض ترويضاً تاماً وتوضع في قفص الخليل .

جزاه الله خيراً ، وافسح في اجلنا لندرس هذا الأثر الذي قال فيه البنديت نهرو حينما اطلعه عليه الاستاذ اميل البستاني ابن شقيق الشاعر : ان هذه الملحمة المعربة هي خير ما يستطيع العرب اهداءه للهند .

احمد شوقي

١٨٦٨ — ١٩٣٢

نشأته : ولد بالقاهرة سنة ١٨٦٨ ، جده كردي مغربي ، جاء مصر يحمل وصاة إلى محمد علي باشا والي مصر فأدخله في معيّته ، ثم صار أميناً للجمارك المصرية ، فجد شوقي لأبيه جمع ثروة بدّدها ابنه أبو احمد شوقي .

أما جده لوالدته فاسمه احمد حليم بك يعرف بـ « النجده لي » نسبة لنجدة احدى قرى الأناضول ، وفد على مصر فتياً فاستخدمه ابراهيم باشا وزوجه بمعتوقة جلبت من الموره اسيرة حرب لا شراء ، وهذه الجدة كانت كالمربية والأم لشوقي ، وقد ذكرها في شعره ، وهي التي جاءت به إلى قصر اسمعيل طفلاً يحبو ، وكان نظره لا ينزل من السماء — كما روى — فطرح له اسمعيل على البساط بدرة دنانير هوى اليها بصره الخ ...

تعلم في الكتّاب اولاً ، ثم أوفده توفيق باشا إلى فرنسا فدرس الحقوق في مونبليه ، وخالط الاوروبيين وعرف أخلاقهم وعاداتهم وآدابهم الخ .

مثّل مصر في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٦ ونظم قصيدته المشهورة : « همت الفلك واحتواها الماء » .

شاعر الامير : لزم قصر الأمير عباس حلمي وكان شاعره وقد قال :

شاعر الأمير وما   بالقليل ذا اللقب

وفي الحرب العظمى اعتقل ونفي إلى اسبانيا التي اختارها ، وسبب اعتقاله

سقوط عباس حلمي ولي نعمته وقيام حكومة السلطان حسين كامل .

عيّن عضواً في مجلس الشيوخ سنة ١٩٢٤ .

اربعة اصول : قال شوقي عن نفسه ان أربعة أصول اجتمعت فيه ، فهو عربي تركي يوناني شركسي بجده لأبيه ، اذن هذا شاعر جديد من الموالي يعيد به التاريخ نفسه فيبز شعراء العرب الاقحاح في عصرنا هذا كما بزّهم الكثيرون من الموالي في عصور مختلفة .

ظل الملوك منابت الشعراء : نشأ شوقي بنعمة ، وعاش بنعمة ، ومات بنعمة ، لم يتمتع بها شاعر عربي في كل العصور .

نشأ مقرباً من العائلة المالكة ، فجاء شعره مصقولاً ، بعيداً عن التغني بالسيف والرمح ، كما فعل البارودي ، ولم يذكر التعاسة والشقاء كحافظ .

شوقي ومولاه : كان سريع الخاطر واسع الاطلاع شديد الاخلاص للبيت العلوي المصري ، وقد قال :

أأخون اسمعيل في ابنائه ولقد ولدت بباب اسمعيلا

سرعة خاطر : وكان أشد اخلاصاً لعباس حلمي الذي اسماه وأغناه . ويروى ان شوقي كان راكباً حماراً فلمح الخديوي مطلاً من شرفة قصره فترجل ، فطلبه الخديو وتظاهر بتوبيخه قائلاً له : ألا يحق لي ان أطلّ من شرفة قصري بملء الحرية ؟

فأجابه شوقي : وهكذا أدّبنا السلف : واذا المطيّ بنا بلغن محمدا .

وبعد ان أنال خديو مصر شوقي لقب شاعر الأمير ، جافاه مرة ، فأنشد شوقي :

أليس من العز المؤثل ان يرى أمير القوافي في فنائك جاثيا

فلولا هوى العرش الذي أنت ربه لما أنزلتني حالة من مكانيا

وكان شوقي واقفاً في حفلة وحرارة الشمس شديدة ، فناوله مولاه عباس مظلته فارتجل :

مولاي عباس اهداني مظلته يظلل الله عباساً ويرعاه

ما لي وللشمس اخشاها وارهبها من كان في ظله فالشمس تخشاه

هكذا ترعرع شوقي، وهكذا نشأ في قصور الامراء، فاصبح أميراً ثانياً في قصر كرمة ابن هانىء، يلجأ اليه ذوو الحاجات مهما سموا، ثم جلس على عرش الأدب الخالد، بينما عرش مولاه عباس تزعزع، وصار أميره شريداً طريداً.

اخلاقه: كان شوقي حيياً جداً، حتى انه لم يجرؤ على صعود منبر لفرط حيائه، فكان ينشد قصائده سواه، وكنت تكاد لا تسمع حديثه اذا تكلم.

وكان جواداً بفنه لم يكلف بنظم قصيدة لجمعية او معهد ورفض.

كان عفّ اللسان لم يهج ولم يذم، ومع شدة خوفه من النقد وبغضه لناقديه، كان يلاطفهم اذا اجتمع بهم، ويقول بعضهم انه كان يحرّش الناس بهم ويقيم القيامة عليهم. وتمثلوا على ذلك يقول شوقي:

« ان الاراقم لا يطاق لقاؤها وتنال من خلفٍ باطراف اليد

كان يوصي ولده دائماً ان يكون لطيفاً مع الجميع ويحسن ما قدر.

قوميته: لم يقم في شعراء العصر الحاضر شاعر قومي مثل شوقي، بل لم يشبهه شاعر في رثاء المجد الضائع الا ابا البقاء الرندي باكي مجد الاندلس.

سياسته: لم تكن له وجهة سياسية خاصة، وسياسة شوقي تتجلى بقوله:

اذا الفتنة اضطرمت في البلاد ورُمت النجاة فكن إمّعه

فاسمعه يمدح الانكليز:

أو ما ترون الارض خرّب نصفها وديار مصر لا تزال جنانا
يرعى كرامتها ويمنع حوضها جيش يعاف البغي والعدوانا

واسمعه يذمهم:

اليوم اخلفت العهود حكومة كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصرا فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها ودكت ركنها واضاعت استقلالها المأمولا

وقوله :

أمن سرق الخليفة وهي حي   يعف عن الملوك مكفّنينا

ارستقراطيته : كان شوقي شاعر الأمير ، لا يتكلم الا بالمناسبات الرسمية وغيرها من المواقف الرسمية السياسية ، وكان يهتم لما يقول وخصوصاً في الشؤون السياسية المصرية والاسلامية فيعتبرونه معبراً عن فكر أميره ، وهذا الموقف « الرسمي » اسر شاعرية شوقي وابعده عن الشعب ، ولولا سقوط العرش ، وبعده عن القصر ، لما قال ما قال من الشعر الخالد ، فشوقي مدين لعباس بأمرين : مدين لعرشه ومدين لسقوطه . وقد أصاب شوقياً وحافظاً ما أصاب جريراً والفرزدق فانهما ماتا بعام واحد .

اطواره : كان لا ينظم الا أهم أبيات القصيدة بعد نصف الليل ، ثم يتمها في الغد أو ما يليه ، وكان مولعاً بالسينما يشهدها دائماً ، وهو كابن المعتز في حب الطيوب ، وكان يكره ان يتصور . كان محباً للموسيقيين ، فاتصل أول عهده بعبد الحي حلمي وعبده الحمدلي ثم بعبد الوهاب في آخر حياته ، وهو الذي أدناه من الملوك والأمراء ، كما ان عبد الوهاب كان بوقاً صارخاً يسمع الاقطار العربية صوت شوقي ، وكان عبد الوهاب منه كمعبد والغريض من ابن أبي ربيعه .

شأنه : كانت اشارة شوقي حكماً في عهد عباس ، وطاعته عند اكثر الحكام من بعض المغانم ، وعظم شأنه حتى في الاستانة ، فكان في كل صيف يسافر اليها فيلقى فيها اجلالاً وتكرمة . وقد نزل في ضيافة عبد الحميد صيف إحدى السنين ، فانعم السلطان عليه بالرتبة الاولى وأوسمة عديدة ، وكانت حفلة تكريمه سنة ١٩٢٧ برعاية الملك فؤاد . وحفلة تأبينه كانت ملكية ايضاً قامت بها وزارة المعارف .

ولهذا ترى الترف شائعاً في شعر شوقي ، فهو في هذا كابن المعتز ، وصاحبه حافظ كابن الرومي .

شاعريته : خلق شوقي شاعراً فقال الشعر صبياً واطلقته قريحته الخصبة

سامي المعاني ، فخم الالفاظ ، متلاحم الديباجة مصقولها ، منتقى الالفاظ، وله في التعبير جولات بعيدة .

كان الشعر في الفترة الأخيرة ضعيفاً ركيكا مسفاً لا أثر للعاطفة فيه، يقال في اغراض الاقدمين ، فكأن الشاعر يتكلم بلسان غير لسانه .

وكان من حسن حظ شوقي ان تقدمه شاعران هما : البارودي واسمعيل صبري. فهذان رفعا مستوى الشعر ونهجا به نهجاً جديداً فحذا ، شوقي حذوهما ونهج نهجهما في تجديد الشعر لفظاً ومعنى وصياغة وغرضاً ، وبعداً عن الصناعة اللفظية (البديع) ، حتى كان في بادىء امره يعرض كل قصيدة على اسمعيل صبري، كما كان يفعل الشعراء في العصور القديمة .

وكان شوقي مكباً على المطالعة بوجه عام ، يقرأ كتب الأدب بوجه خاص ، ودواوين الشعراء على وجه اخص ، نخص منهم : ابا نواس—الذي اسمى بيته باسمه — وابا تمام والبحتري والمتنبي ، فظهر أثر هؤلاء الاربعة في شعره ، ففيه حلاوة أبي نواس ودقة وصفه وغزله، ووصف الخمر ومجالس اللهو الا العبث، وفيه عناية ابي تمام بالمعاني الرفيعة وتعمدها مهما كلفه الأمر ، وفيه هلهلة البحتري واحكام نسجه وبراعة نظمه . اما أثر المتنبي ففيما ترى من حكمة ومعانٍ ومثَل. وبكلمة ، ان المتنبي كان هدف شوقي الذي يرمي اليه في شاعريته ويقلده في كل شيء ، خلقاً ونظماً وانفة وادعاء وطعناً في الحساد .

ولا يعني هذا ان شوقي شاعر لا شخصية له ، بل نعني انه متأثر بمن ذكرنا من الشعراء كل التأثر ، وقد تكوّن من كل هذه العناصر شاعر هو شوقي كما يتولد من عدة عناصر كيمائية عنصر آخر ليس هو تلك العناصر وان نشأ عنها . والدليل على ذلك اننا اذا عرضنا على خبير باساليب الكلام شعراً لشوقي لا يتردد في ان ينسبه اليه .

ومن العناصر التي عملت عملها في شعر شوقي حذقه اللغة الافرنسية ، فقد اخذ منها معاني كثيرة ، ولكنه ابرزها بصورة عربية خالصة فتنكرت كل التنكر .

وللسياسة أثرها الظاهر في شعره ، فقد حذقها في قصر الامير وبرز فيها كما برز الاخطل في زمانه .

وللسياحات في الاقطار الغربية والشرقية عمل عظيم في فنه واخصاب لقريحته ، فمثل هذه السياحات تذكي الالهام وتعين الشاعر وتمد قريحته ايما مدد . ان الشاعر مصور للطبيعة ، وفي تغيّر مناظرها الهام جديد وتشويق واغراء .

فشوقي يعد بحق من اعظم شعراء العالم العربي كله . لقد تصرف في كل فن وجال في كل غرض ومطلب ، وعارض متقدمي الشعراء ومتأخريهم ، وسنتكلم عن هذا في بابه . قال الشعر نصف جيل ، كان في أول عهده اقليمياً ، ثم صار لسان كل الاقطار العربية ، يشاركها في كل ما تشعر به ، كما سيأتي ايضاً .

ومن خصائص شوقي انك تراه يمدح ويرثي أو يقول في غير هذين الفنين ، بيد أنه ينحرف دائماً الى سرد حكمة أو ضرب مثل ، وتلك سجية الشاعر الاكبر المتنبي .

وشوقي طويل النفس كإبن الرومي ،حتى ليبلغ بالقصيدة المئة ، او يزيد ،دون اسفاف ، وهذا يدل على انه كان كثير التهذيب ولا ينظم بفترة واحدة .

وقصيدته « همت الفلك » ٢٩٠ بيتاً ، وكلها من جيّد الشعر ، وله قصيدة على الباء في حرب الترك واليونان طويلة كهذه .

له مقطوعات شعرية يتغنى بها ، وله أبيات كثيرة سائرة يستشهد كثير من الكتّاب بها حتى فتنت هذه الظاهرة شاعرنا ، على فتونه ، فقال :

رواة قصائدي فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق

تآليفه : ديوانه يقع في أربعة اجزاء ، طبع منه اثنان ، وله غيره في الشعر « عظماء الاسلام » ، وقصائد سهلة للاطفال ، وله في النثر كتاب اسواق الذهب قلد فيه الزمخشري .

رواياته : علي بك الكبير ، وكليوبترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة ، كلها شعرية .

وله روايات نثرية ، منها : لادياس ، ورقة الآس ، مذكرات بنتاؤر ، اميرة

الأندلس . من هذا تعلم خصب الرجل وجده ، رحمه الله .

اثرته : كان لمولده ونشأته اليد الطولى في اخلاقه ، فنشأ عزيزاً محباً للنفس مترفاً منعماً ، حتى كان يخيل اليه ان كل شيء مسخر له ، وانه خلق لينعم في الحياة ، والمحيط الذي تعلّم فيه – فرنسا – زاد في هذا الخلق ، ولم يعلمه شيئاً من ديمقراطية الفرنسيس ، فهو منذ نشأ ترافقه النعم ، فقد كان ينعم حتى في المدرسة ، ولم يفكر في الغد ، ولمَ التفكير والمنصب واللقب والثروة والشرف في انتظاره ؟

التجديد : حاول شوقي في مطلع فنه ان يكون مبتكراً مجدداً ، وصرح بذلك وتمدّح به ، بيد انه لم يأت بشيء من هذا ، بل بالعكس ، فانه إبّان نضجه كان مثله الاعلى تقليد الأقدمين او معارضتهم – سم ذلك ما شئت – .

إن شاعراً كشوقي تيسر له ما لم يتيسر لسواه ، كان في استطاعته ان يكون رسول التجديد والتطور في الأدب العربي ، ولكن الأحوال السائدة التي كان خاضعاً لها سدت عليه الطريق ، فقد كان يجدد بتحفظ ويثور بمداورة ، فهو لا يريد ان يغضب احداً ، وذاك كان شأنه مع الاحزاب المصرية . ولا غرابة في ذلك ، فمن عاش في قصور الامراء ، هكذا يجب ان يكون ليحفظ نفسه .

التقليد : حاول شوقي ان يجدد ، كما قلنا ، فلم يفلح ، وظل في طريقه تلك حتى اذا كانت الفترة الاخيرة من عمره كانت كل قصائده مطبوعة على غرار القدماء بلا تحفظ ، فلا تكاد تقرأ قصيدته حتى تتراءى لك القصيدة التي احتذاها أو عارضها .

فشوقي اشبه بطائر يستطيع محاكاة كل الطيور ، وهو يقول عن نفسه :

وتر في اللهاة ما للمغني   من يد في صفائه او ليانه

ويرى طه حسين ان شوقي لو قرأ الالياذة والاوديسا وفهمها حق فهم ، وتحرر من قيوده لانشأ شعراً عربياً قصصياً ، وكذلك لو قرأ تمثيل اليونان والمحدثين في الغرب في شبابه ، لاعطى اللغة العربية فناً تمثيلياً له قيمته الصحيحة ، وكذلك قل عن الشعر العصري الاوروبي .

ويقول أيضاً ان معارفه بهذه الآداب العليا كانت ضئيلة على نحو مـــا يتعلم الذين يكتفون بدوائر المعارف أو ما يكتب للتلامذة في الكتب المدرسية .

المدح : من يقرأ ديوان شوقي القديم ، يرى في مقدمته ان شوقي يكره المديح وينكره على المتقدمين ، وتمنى لو خـــلا الادب العربي منه ولو لم يكن غرض الشعراء في الازمنة الخاليـة . ولكن سرعان ما رأينـا شعره يعج بالمديح ، كيف لا وهو يريـــد ان يكون شاعر الامير تشبهاً بالمتنبي واميره ، وقـد رأيناه بعد ذاك يترسم خطى الشاعر العظيم خطوة خطوة حتى في الفخر في موقف الرثاء ، الا انه يظهر لي انه كان راغبـاً عن شعر المناسبات ، فلا يشير اليها بقصائده الا بابيات ، أمـا ما بقي من القصيدة فينزع فيه الى شؤون خاصة اهمها الحكمة التي كانت وجهته .

التأثير الاجنبي : كان يحسن التركية ويتقن الافرنسية ، وقد طالع كثيراً وهضم ما طالعه وتمثله ، من ادب افرنسي وتركي وعربي ، عرف اخلاق العرب من انكبابه على ادبهم وتاريخهم . فكان ذا ثروة أدبية وافرة . عاشر الاتراك في حياته واشتد اتصاله بهم فقوي العنصر التركي فيه .

أما الأدب الافرنسي فكان متصلاً بشعرائه وأدبائه مطالعة ، ولكن بالذين يعرفهم كل المتأدبين مثل لامرتين وهوغو ولافونتين وجيل سيمون . واما الذين اتوا بعدهم فلم نرَ لهم اي أثر في شعره ينم عن تعرفه اليهم . ولهذا كان تجديده بقدر ما كان عند اساتذته هؤلاء من تجديد، مع ان جديدهم كان قد صار قديماً في بلادهم . لا أظن ان شوقي كان يجهل ذاك الجديد ولكن انصرافـه الى السياسة كيفه ووضع التخوم لحدود تجديده ، فما تجاوزها في زمن استطاع فيه التجدد ، اما عندما اطلقت السياسة سراحه فلم يكن وقت تجديد .

الاسر والحرية : لا نعني المنفى ، بل شيئاً غير هذا ، صرف شوقي زهـاء ربع قرن من عمره كان فيه شاعر مناسبات، ليس مناسبات طليقة بل مناسبات ذات برنامج لا يمكن الرجل ان يتعداه ، طائر غريد سجين في قفص مذهب ، يقول ما يجب ان يقال لا ما يجب ان يقول ، حتى سقط عرش مولاه ، فافلت

الطائر وانطلق في الافق البعيد يطرب ويشجي ويغرد وينوح .

وكان لأدبه من نفيه الى الاندلس حظ كبير ، فبكى المجد العربي الدارس الخالد بقصائد كان لها صدى في العالم العربي ، كلها شوق وحنين ونـدب وبكاء للمجد المفقود ، وكيف لا يبكي شاعر مفجوع بعرش اميره ؟

ثم عاد الى الوطن ،بعد الحرب العظمى فاذا مصر وطنه غيرها،واذا العالم كله قد تبدل : نفوس تنزع الى الحرية المطلقة ، وألسن تتغنى بالاستقلال ، وشعب يُقتل في سبيل كل هذا ، وشاعر افلت من قيود السياسة الرسمية أرخى لقريحته العنان ، فشعر بما لم يشعر به من قبل ، شعر بنبضات قلب الشعب الذي كان يريده ألا ينبض عندما كان في ظل العرش ، فهاج شاعريته هذا الاحساس،فكان لسان العرب والوطن يترجم عن أماني الامة المصرية والاقطار العربية كلها . لم تلم بالامة ملمة الا اهتزت لها عاطفة شوقي ، فكان ترجمانها شعراً رائقـاً مؤثراً يشكو ويشكر ، وفي هذا يقول : « كان شعري الغناء في فرح الشرق » .

رجلان : قال هيكل في مقدمته لديوان شوقي : تشعر حين مراجعتك اجزاء ديوانه كأنك أمام رجلين مختلفين لا صلة بين احدهما والآخر ، فان كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر الى أعلى سمواته ، وان كليهما مصري يبلغ حبه مصراً حد التقديس والعبادة ، أما فيما سوى هذا فاحد الرجلين غير الرجل الآخر ، احدهما مؤمن عامر الايمان ، مسلم يقدّس اخوّة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة حرماً يفيض منه الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة قوام الحياة ، محافظ يرى العربية تسع كل صورة ومعنى وخيال . والآخر رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها غاية الحياة ، متسامح تسع نفسه الدنيا ، ساخر من الناس وأمانيهم ، مجـدد في اللغة لفظاً ومعنى ، وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي في شبابه واليوم ، وان كان لتأثره بالقديم الغلبة اليوم .

وترى في شعر شوقي صورتين من صور الحياة ، تستقل كل واحدة منهما عن الأخرى كأنما صاحبها غيره ، فأذا قرأت : « رمضان ولى هاتهـا يا ساقي » ، تشعر انك بحضرة شاعر مغرم بالحياة ، ولذاتها .

وإذا قرأت : « ريم على القاع بين البان والعلم » و « ولد الهدى فالكائنات ضياء » ، تشعر انك في حضرة شيخ متهجد حتى الوسوسة يفيض قلبه ايماناً ويقيناً ، والغريب انه في الحالتين غير متكلف ولا متصنع .

فالحالة الاولى وليدة الشباب ، وما يتقد فيه من عواطف أذكتها الحضارة الاوروبية بشوقاتها ومهيجاتها ، والصورة الثانية اردها الى النشأة والتربية الاوليين ، فان اختفى اثرهما وتغلبت عليهما عاطفة الشباب ، فلا بدّ ان تظهرا في الكهولة ، وفي شوقي روح قومية تجعله يقدس كل ما يرى فيه جامعة لتلك القومية .

فشوقي يمثل مصر فالمسلمين فالعرب فالشرق ، فاذا تصفحت شعره تراه يفيض بهذه الروح فيضاً ، ويؤثر مصر في كل شيء ما خلا الدين ، فبينا نسمعه يتغنى بمجد الفراعنة وعظمة دولتهم تراه يخاطب الفرعون الاكبر قائلاً :

فؤاد اجل بالدستور دنيا   واشرف منك بالاسلام دينا

اسلاميته : الى جانب عاطفة شوقي الوطنية ، عاطفة اشد اتقاداً تلك هي العاطفة الإسلامية ، فلهذه العاطفة قبلتان ، الاولى صوب مكة حيث نشأ السلف الصالح ، والثانية صوب الاستانة ، وهكذا كان شوقي يستمد وحياً كثيراً من العرب ومكة والقرآن والإسلام والرسول والارث المفقود . وفي كل ما قاله من الشعر في هذه الاغراض يتجلى الايمان الحي ، بيد ان شعوره كان أشد وأقوى عندما يتكلم عن الترك والخليفة ، ولعل في ذلك قوة دم الجنس، أو لان تأثير الترك في سياسة القصر كان أشد ، وشوقي ولوع بها الى حد بعيد ، وهو لسان اميره .

الحكمة : أحب شوقي الحكمة في شعره ، ولا غرو ، فأبو الطيب كان مثله الاعلى ، فهو يميل الى الحكمة العامة أشد ميل ، فقلما ترى عنوان قصيدة إلا وتجد قليلاً منها يدخل في العنوان ، وما بقي فحكمة وغزل ووصف ، وفي هذا ترى شوقي شرقياً عربياً غير متأثر بالحياة الغربية إلّا قليلاً .

لغته : ترى شوقي يغلو في شرقيته وعربيته ، فيتعمد ذلك في لفظه ومعناه،

وقد مال إلى احياء الفاظ قديمة ، ففعل وأحيا كثيراً منها وبعثها من مراقدها ، فكأنه يرى ذلك شيئاً من التجديد ، وقد تابعه في استعمالها كثيرون من شعراء عصره ، وله تعابير خاصة به احسن استعمالها ووضعها ، فصاهر بين ألفاظ عديدة وحسن اقترانها ، فزادت شعره رونقاً وروعة .

وغلو شوقي في عربيته وشرقيته اوضح في جانب اللغة منه في جانب المعاني ، فمعانيه فيها من أدب الغرب كل ما يسيغه الطبع الشرقي والحضارة الشرقية ، ودليلنا على ذلك الالفاظ التي نفخ فيها روحاً جديدة فأحياها ، فوصل بها المدنية الدارسة بالمدنية المنبعثة الحديثة . ومن اقدس واجبات الخلف المحافظة على ميراث السلف ، وهذا أشد ما تحتاج اليه اللغة العربية ، فعسى ان يقوم فينا كثيرون مثل هذا الشاعر ، وما أشبه هذا بعمل الأثري الذي يحيي ميت الفن بعد عشرات الأجيال ، ويدل على مواضع الحسن فيه بعد ان ينفض عنه غبار الدهور ويحببه الى الناس الذين قد يمرون به ولا يشعرون بما فيه من روعة وحسن .

تطوره : قال الرافعي يصف تطور شوقي: « يكبر شعره كلما كبر الزمن، فلم يتخلف عن دهره ولم يقع دون ابعد غاياته، وكأنه مع الدهر على سياق واحد وكأن شعره تاريخاً من الكلام يتطور اطواره من النمو ، فلم يجمد ولم يرتكس ، وبقي خيال صاحبه الى آخر عمره في تدبير السماء كعرّاض الغمامة ، سحابه كثير البرق ، ممتلىء ممطر ، ينصب من ناحية ويمتلىء من ناحية .

«الناس يكتب عليهم الشباب فالكهولة فالهرم،ولكن الاديب الحق يكتب عليه شباب فكهولة فشباب ، اذ كانت في قلبه الغايات الحية الشاعرة ما تنفك يلد بعضها بعضاً الى ما لا انقطاع له ، فانها ليست من حياة الشاعر التي خلقت في قلبه ولكنها من حياة المعاني في هذا القلب » .

شعره السياسي : باحمد شوقي آلت زعامة الشعر لمصر في هذا العصر ، ولم تكن فيما سلف من العصور ذات شأن نابه — اذا استثنينا عصر البهاء زهير الذي لا يعد من امراء الكلام .

اما شعر شوقي فانساق مع الزمن والحوادث – واعظم العصور انقلابات كان هو عصر شوقي – فمن خلافة تركية اسلامية ، إلى وطنية مصرية ، إلى نزعة فرعونية ، إلى جامعة اسلامية ، فكان هذا مادة خياله وغذاء نبوغه وسبب مجده الشعري ، اعانه على ذلك انصرافه للشعر ٤٤ سنة متصلة غير منقطعة لا يشوبها بلبال ، رزق وجاه ، يحل ويرتحل ، اين شاء ومتى شاء .

المبالغة : في شعر شوقي كثير من المبالغة اكتسبها من عنصره التركي الفارسي – ان صح النسب .

الاضافات : لشوقي اضافات غريبة املاها عليه عنصره التركي ايضاً ، مثل قوله : عيسى الشعور ، عمرو الامور .

الاعلام : يكرر كثيراً من الاسماء المقدسة والاعلام التاريخية مثل عيسى وموسى ويوشع وخالد وبدر وسينا وجبريل وحاتم وكعب الخ . تراها مقحمة إقحاماً .

التكرار : اكثر من تكرار بعض المعاني ، مثل بيته في الاخلاق ، فقد ورد ذكره بمعناه اكثر من عشر مرات ، وكذلك غيره من المعاني ، كما يراها المدقق في شعره .

الوصف : اقوى ناحية في شعره ، ولكنه لشدة تأثره بالمتقدمين يصف حرب اليوم وجنودها بما كان يصفهم به شعراء العرب دون مراعاة للزمان والمكان والعتاد والاختراعات الحديثة .

الاجتماع : لم يتعرض شوقي في شدة لمسألة اجتماعية مختلف عليها ، فهو يساير القديم ويلاطف الجديد دون ان يتعرض لما بينهما من خلاف – وهذا خلقه السياسي كما تقدم – فما رأيناه بحث تقليداً او قضية اشتد الخلاف حولها وحاول المجددون هدمها ، فكأنه لم يحس ما قام حوله من الثورات الاجتماعية ، والنزاع بين القديم والجديد في مصر ، الا انه قال شيئاً في موضوع المرأة لكن دون ان يجرح الحجابيين اذ عمد لسرد واقعة تاريخية لا يستطيع انكارها المحافظون ، كما انه لم يتعرض للحجاب ، قال :

هـــذا رسول الله لم | ينقص حقوق الامهات
العلم كان شريعـة | لنسائـــه المتفقهات
رضن التجارة والسياسة | والشؤون الاخريات

ديباجته : بحترية اندلسية ، الفاظ منتقاة لا تنافر بينهما ، رنـــة موسيقية تطرب لها ، فكأن الجيد من شعره موقع ايقاعاً ، فاز كثيراً بالمعنى الجيد وأدّاه في اللفظ الرشيق .

خياله : غني بصوره الرائعة ، له في قصائده المشهورة جولات يحلق بهـــا تحليقاً ثم يعود إلى مستواه ولا يسف . ان هذه الوثبات تميز الشاعر عن الشاعر ، فالعادي يقوله كل انسان .

شاعر جامع : نظم شوقي في كل اغراض الشعر وأجاد فيهـا ، ولا نخطىء اذا قلنا انه تعمد بعضها تعمداً ليقول فيها ، وزاد على من تقدمـــوه الشعر التمثيلي . لا نعني ان الشعر التمثيلي لم يكن قبل شوقي او كان معدوماً ، بل نعني ان شوقي زاد فيه ورفعه الى مستوى عالٍ قرب به من الفن الروائي وان لم يدركه تماماً .

وكأنه كان يباري الشعراء الاقدمين فعارض مشاهيرهم ، ونظر إلى شعراء الغرب العظام فشاء ان يكون له ما لهم . ففي حكاياته الصغيرة اقتفى خطوات لافونتين ، وفي ديوانه الخاص : « عظماء الاسلام » نحـــا نحو هوغو في ديوانه اساطير الدهور ، وفي تفلته من قيود القافية نحا نحو هوغو أيضاً في « هرنني » ولكن بتحفظ وحذر ، فلم يغضب الناس كما أغضبهم هوغو .

وحيث يتعذر على شوقي المعنى الفريد النادر يلجأ الى تعبير جديد يغنيك به عنه . استغل التاريخ الاسلامي وحوادثه الخطيرة ، فكان كالبستاني الحاذق في استثمار الأرض الخصبة .

أما تمثيلياته فقد لخصنا رأينا فيها في كتابنا « الرؤوس » .

شعره التمثيلي: أراد شوقي أن يكون له شعر تمثيلي ككبار شعراء الغرب، فعمد إلى مواضيع تاريخية أراد أن يمثلها ، فجاء شعره غنائياً اكثر منه تمثيلياً ،

وهذا لا بد ان يكون ، فلغة التمثيل غير لغة الشعر ، واذا كان النثر العالي لا يؤدي المحاورة على حقها ، فكيف بالشعر وهو مقيد بوزن وقافية .

أراد ان يكون له ما كان لهوغو من روايات شعرية تمثيلية ، فجاء بهذه الروايات ، فغنى وأطرب وأثّر في النفوس اي تأثير ، أما إذا عرضنا لهذه الروايات فنياً ومحّصناها رأينا انه ينقصها شيء كثير من الفن الروائي .

لا نستطيع ان ندرس رواياته واحدة واحدة ، ولكننا نتكلم عنها جملة ، فغاية شوقي الشعر العالي في مواضيع مختلفة ، يتوسل اليه بالفن الروائي ، ولو عمد إلى هذا الفن ، كما يقول طه حسين ، في شبابه لجاء بشيء كثير .

ولسنا نرى شوقي في رواياته يتتبع الحوادث التاريخية بدقة ، أو يراعي وحدة الزمان والمكان ، كما هي في المسرح الفرنسي . بل نرى رواياته مجموعة حوادث ، وقد يستعير حادثة من التاريخ وينسبها لشخص آخر ، كما فعل في رواية مجنون ليلى ، إذ يجعل ابن عوف يمثّل دور الحسين ، في الشفاعة بعاشق ، ويستعير أيضاً عواطف هذا لذاك ويبالغ في تصوير العواطف وتكبير الفكر .

إن رواياته المسرحية تشبه بعضها بعضاً حوادث وافكاراً ، غنائية في جوهرها اكثر منها تمثيلية ، ينظر الى الشعر قبل الفن ، وهذه آفة الشعراء في الفن الروائي ، وهذا ما أصاب هوغو في رواياته . فشخصية الشاعر ظاهرة في كل مكان بلا انقطاع .

أفكار ونظريات تتفتق ، ونظريات وشخصيات تظهر على التعاقب ثم تختفي ، وشخص أو شخصان او ثلاثة تستقل بالرواية ، وبقية الاشخاص لحمة ليس أكثر .

صور بيانية تصح ان تكون بلسان من قالوها أو لا تصح ، فجاءت الروايات أشبه بسرد وقائع . فالروح الغنائية سائدة، كأنما شوقي كان يؤلفها وهو يتخيل الأجواق تنشدها ، فيها قوة الاستنباط الكلامية ومقدرة فائقة في الالفاظ والتعبير ، وخيال شائق ومعانٍ رائعة .

المحادثة والمناجاة تطول كثيراً حتى تكاد توقف سير الرواية ، ولكن

بلاغتها تجعلها غير مملولة،فتسمع بطيبة خاطر كقطع منفصلة أو مختارات للحفظ ذات تأثير .

ان روايات شوقي ، على حداثة هذا الفن في الادب العربي ، ينظر اليها بعين الارتياح ، اما اذا قيست بالفن الغربي التمثيلي فينقصها من الفن شيء كثير ، فصاحبها لم يمثل لنا الا عصراً بعيداً عنا وعادات واخلاق تحتاج إلى درس ، وقد انطق اشخاص الامس بلغة اليوم ، وهذا بعيد عن الفن الروائي والتمثيلي .

ولكن الصناعة الشعرية تشفع بما فيها من العيوب وتكفل لها الحياة زمناً ، حتى يقوم عندنا من يبزّ شوقي ويفوقه .

شوقي والمتنبي : رثى شوقي امه بقصيدة عارض بها المتنبي في رثاء جدته .

شوقي :

وقرت سيوف الهند وارتكز القنا ... واقلعت الكبرى واقشعت الغمى .

المتنبي :

إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى ... يعود كما ابدى ويكرى كما اصمى

شوقي :

الى حيث آباء الفتى يذهب الفتى ... سبيل يدين العالمون به قدما

شوقي :

لك الله من مطعونة بقنا النوى ... شهيدة حرب لم تفارق لها اثما

المتنبي :

ولم يسلها الا المنايا وانما ... اشد من السقم الذي اذهب السقما

شوقي :

است جرحها الانباء غير رفيقة ... وكم نازعت سهماً فكان هو السهما

المتنبي :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد ... لكان اباك الضخم كونك لي اما

شوقي :

لئن فات ما املته من مواكب ... فدونك هذا الحشد والموكب الضخما

رأيت بـــه ذات التقى ونظمته لعنصره الاذكى وجوهره الاسمى
اتيت به لم ينظم الشعر مثـــله وجئت لاخلاق الرجال به نظما
ولو نهضت عنه السماء ومخضت به الارض كان المزن والتبر والكرما

. . .

شوقي في وصف خيل الترك :

والصبر فيها وفي فرسانها خُلـُق توارثوه أباً في الروح بعـــد أب
كما ولدتم على اعرافهـــا ولدت في ساحة الحرب لا في ساحة الرحب

المتنبي :

اقبلـْتـُها غرر الجيادِ كانمـــا ايدى بني عمران في جبهاتهـــا
الثابتـين فروسة كجلودهـــا في ظهرها والطعن في لباتهـــا
فكأنها نتجت قياما تحتهـــم وكانهم وُلدوا على صهواتهـــا

شوقي :

اذا هب حاميها على السفنِ انثنت وغانمها الناجي فكيف الخيب

المتنبي :

اغر اعـــداؤه اذا سلموا بالهرب استكبروا الذي فعلوا

شوقي :

خدعوهـــا بقولهم حسنـــاء والغواني يغـرهن الثنـــاء
مـــا تراها تناست اسمي لمـــا كثرت في غرامهـــا الاسمـــاء
ان راتني تميـل عـني كان لم يـك بيني وبينها اشيـــاء
نظرة فابتسامـــة فسلام فكـلامٌ فموعـــدٌ فلقـــاء

لبعضهم :

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

. . . .

شوقي :

لك نصفي وما عليك جدالي آفة النصح ان يكون جدالا

آفة النصح ان يكون جـدالا وأذى النصح ان يكون جهـارا

ابن الرومي :

وفي النصح خير من نصيح موادع ولا خير فيه من نصيـح مواثب

شوقي :

حوت الجمال فلو ذهبت تزيدها في الوهم حسنا ما استطعت مزيدا

لبعضهم :

ذات حسن لو استزادت من الحسن اليها لما اصابت مزيدا

شوقي :

يا دميــة لا يستزاد جمالهـا زيـديه حسن المحسن المتبرع

ابن الرومي :

يا حسن الوجه لقد شنته فاضمم الى حسنك احسانا

شوقي :

انا انطونيو وانطونيو انا انا من مات ومن مات انا

لبعضهم :

انا من اهوى ومن اهوى انــا نحن روحـــان حللنا بدنا

منتخبات شوقي

لشوقي في رثاء ابيه وقد نحا فيه منحى شعراء الصوفية :

ليت شعري هل لنا ان نلتقي   مرة ام ذا افـــتراق الملوين
انا من مــات ومن مات انا   لقي الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة في بدن   ثم صرنا مهجة في بـــدنين
ثم عدنا مهجة في بدن   ثم نلقى جثة في كفنين
ثم نحيـــا في عليّ بعدنا   وبها نبعث اولى البعثتين
ما ابي الا اخ فارقته   وده الصدق وود الناس مين
طالما قمنا الى مائدة   كانت الكسرة فيها كسرتين
وشربنا من اناء واحـــد   وغسلنا بعد ذا فيه اليدين
وتمشينا يدي في يـــده   من رآنا قال عنـــا اخوين

المراجعة :

لم تصب بالخداع نجحا ولكن   خدعوهـــا بقولهم حسناء
قوة الله ان تولت ضعيفا   تعبت في مراسه الاقوياء
كذا الناس بالاخلاق يبقى صلاحهم   ويذهب عنهم امرهم حين تذهب
وما السلاح لقـــوم كل عدتهم   حتى يكونوا من الاخلاق في اهب
وليس بعامر البنيان قوم   اذا اخـــلاقهم كانت خرابا
بنيت لهم من الاخلاق ركناً   فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
ولقد يقام من السيوف وليس من   عثرات اخلاق الشعوب قيام

وانما الامم الاخلاق ما بقيت وانهمُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

الافتخار :

ان عصراً مولاي فيه المرجى انا فيه القريض والشعراء
واني لطير النيل لا طير غيره وما النيل الامن رياضكُ يحسب
اذاقلت شعرافالقوافي حواضر وبغداد بغداد ويثرب يثرب
ولو اني خطبت على جماد فجرت به الينابيع العذابا
ملكت امير المؤمنين ابن هانىء بفضل له الالباب ممتلكات
ومازلتُ حسّان المقام ولم تزل تليني وتسري منك لي النفحات
ومن كان مثلي احمد الوقت لم تجُز عليه ولو من مثلك الصدقات
اني انا المصباح لست بضائع حتى اكون فراشة المصباح
لا ترومي غير شعري مركبا ان شعري درجات الخالدين
كل حمد لم أصِغه زائل خالد الحمد بما صغت رهين

الدفاع عن المسلمين :

ظلموا شريعتك التي نلنا بها ما لم ينل من رومة الفقهاء
هكذا المسلمون والعرب الخالون لا ما يقوله الاعداء
من سب دين محمد فمحمد متمكن عند الاله رسولا
ولا ازيدك بالاسلام معرفة كل المرؤة في الاسلام والحسب

التعابير :

وتغشى (ابيّات المعاقل) والذرا بين (الرفارف) والمشارف
فقلت (اشراط القيامة) ما ارى تهزات دهرا (بديك الصباح)فنقر
راى (الفتنة الكبرى) فوالى انهماله تجدوهم (كهف الحقوق) كهولا
اعدت (الراحة الكبرى) لمن تعبا اخنى الحمام على (ابن همة نفسه)
اهين فيها(ضيوف الله)واضطهدوا ، وبدا محياك الذي قسماته
هذا فضاء تلم الريح خاشعة به ويمشي على الدهر محتشما

وبنو الوادي (رجالات) الحمى ، وصفا لي (ملاوة) من شباب
ولو اني دعيت لكنت ديني عليه اقابل (الحتم المجابا)

الرياضة :

هل من نداك على المدارس انها تذر العلوم وتأخذ الفوتبولا

قصائد عامة :

يا فاتح القدس خل السيف ناحية ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
اذا نظرت الى أين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه الحقبا
علمت ان وراء الضعف مقدرة وان للحق لا للقوة الغلبا

في العمال :

قد دعاكم ذنب الهيئة داع فاصابا
هي طاووس وهل احسنه الا الذنابى

استغفار وادعاء :

ولا بت إلّا كابن مريم مشفقا على حسدي مستغفراً لعداتي
ولا حملت نفس هوى لبلادها كنفسي وفي فعلي وفي نفثاتي
واني ولا من عليك بطاعة اجل واغلى في الفروض زكاتي
أبالغ فيها وهي عدل ورحمة ويتركها النساك في الخلوات
وانت ولي العفو فامح بناصع من الصفح ما سودت من صفحاتي

في الخلافة :

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الافراح
كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الاصباح
يا للرجال لحرة موؤودة قتلت بغير جريرة وجناح
ان الذين استجراحك حربهم قتلتك سلمهم بغير جراح

بكت الصلاة وتلك فتنة عابث   بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتَى خزعبلة وقال ضلالة   وأتى بكفر في البلاد براح
استغفر الاخلاق لست بجاحد   من كنت ادفع دونه وأُلاحي
هو ركن مملكة وحائط دولة   وقريع شهباء وكبش نطاح
أأقول من احيا الجماعة ملحد   وأقول من رد الحقوق اباحي
أدوا الى الغازي النصيحة ينتصح   ان الجواد يثوب بعد جماح
تركته كالشبح المؤله امة   لم تسل بعد عباده الأشباح
هم اطلقوا يده كقيصر فيهم   حتى تناول كل غير مباح

. . . .

فلتسمعن بكل ارض داعيا   يدعو الى الكذاب او لسجاح
ولتشهدن بكل ارض فتنة   فيها يباع الدين بيع سماح
يفتى على ذهب المعز وسيفه   وهوى النفوس وحقدها الملحاح

. . .

للورد كرومر :

ايامكم ام عهد اسماعيلا   ام انت فرعون يسوس النيلا
ام حاكم في ارض مصر بأمره   لا سائلاً ابداً ولا مسؤولا

. . . .

في ملعب للمضحكات مشيد   مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن اصوله   وتصدر الاعمى به تطفيلا
جبن اقلَّ وحطَّ من قدريهما   والمرء ان يجبن يعش مرذولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى   ظل الحضارة في البلاد ظليلا
ان قيس في جود وفي سرف الى   ما تنفقون اليوم عد بخيلا
او كان قد صرع المفتش مرة   فلكم صرعت بدنشواي قتيلا

لا تذكر الكرباج في ايامه　　من بعد ما انبت فيه ذيولا

. . . .

في المعلم :

قم للمعلم وفه التبجيلا　　كاد المعلم ان يكون رسولا
اعلمت اشرف او اجل من الذي　　يبني وينشىء انفساً وعقولا
سبحانك اللهم خير معلم　　علمت بالقلم القرون الاولى

. . . .

واذا اصيب القوم في اخلاقهم　　فأقم عليهم مأتما وعويلا
وجد المساعدَ غيركم وحرمتم　　في مصر عون الامهات جليلا
ليس اليتيم من انتهى ابواه من　　هم الحياة وخلفاه ذليلا
ان اليتيم هو الذي تلقى له　　امّا تخلت أو أبا مشغولا

. . . .

رثاء مكدونيا :

يا اخت اندلس عليك سلام　　هوت الخلافة عنك والاسلام
نزل الهلال عن السماء فليتها　　طويت فعم العالمين ظلام
ازرى به وأزاله عن اوجه　　قدر يحط البدر وهو تمام
خلت القرون كليلة وتصرمت　　دول الفتوح كانها احلام
مقدونيا والمسلمون عشيرة　　كيف الخؤولة فيك والاعمام

. . . .

واليوم حكم الله في مقدونيا　　لا نقض فيه لنا ولا ابرام
كانت من الغرب البقية فانقضت　　فعلى بني عثمان فيه سلام
ومسيطرون على الممالك سخّرت　　لهم الشعوب كانها أنعام

من كل جزار يروم الصدر في نادي الملوك وجدُّه غنام
سكّينه وحزامه ويمينه والصولجان جميعها آثام

. . . .

عيسى سبيلك رحمة ومحبة في العالمين وعصمة وسلام
ما كنت سفاك الدماء ولا امرأ هان الضعاف عليه والايتام
يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام
انت الذي جعل العباد جميعهم رحما وباسمك تقطع الارحام
اتت القيامة في ولاية يوسف واليوم باسمك مرتين تقام
واليوم يهتف بالصليب عصائب هم للاله وروحه ظلام
خلطوا صليبك بالخناجر والمدى كلٌّ اداة للاذى وحمام

. . . .

لام عباس حلمي :

ارفعي الستر وحيي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفي الهودج فينا ساعة نقتبس من نور ام المحسنين
برىء الرفق من السيف الذي منع الأم ملاقاة البنين
اقبلي في بحرك الطامي اذا عبث السيف بموج المحتفين
حرق الدهر يديه وانجلت محنة التبر عن العرق المتين
آب من قيمتك الدهر كما رجع النقد من الشعر الرصين

. . . .

توتنخامون :

قفي يا اخت يوشع خبرينا احاديث القرون الاولينا
وقصّي من مصارعهم علينا ومن دولاتهم ما تعلمينا
نرى لك في السماء خضيب قرن ولا نحصي على الارض الطعينا
مشيت على الشباب شواظ نار ودرت على المشيب رحى طحونا

تعينـــين الموالد والمنايا وتبنين الحياة وتهدمينـــا
فيالـك هرة أكلت بنيها ومـا ولدوا وتنتظر الجنينا

. . . .

ولست بقائل ظلموا وجاروا على الاجراء أو جلدوا القطينا
فإنا لم نوق النقص حتى نطالب بالكمال الاولينا
وما البستيل الا بنت امس وكم أكل الحديد بها سجينا
وربة بيعة عزت وطالت بناها الناس امس مسخرينا

. . . .

الى اللورد كرنافون :

سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا
يقول الناس في سر وجهر ومالك حيلة في المرجفينا
امن سرق الخليفة وهو حي يعف عن الملوك مكفنينا

في آجيا صوفيا

نموذج وعدنا به بمناسبة كلامنا عن الحروب الصليبية .

كنيسة صارت الى مسجد   هديـــة السيد للسيد
كانت لعيسى حرما فانتهت   بنصرة الروح إلى احمـــد
كانت بهـــا العذراء من فضة   وكانـ روح الله من عسجد
عيسى من الام لدى هالة   والام من عيسى لدى فرقـد
فمن ملاك في الدجى رائـح   الى ملاك في الدجى مغتـــد
ومن نبات عاش كالببغـــا   وهو على الحائط غض ندي

. . . .

وناب عما كان من زخرف   جـــلالة المعبود في المعبد
فيا لثار بيننا بعـــده   اقام لم يقرب ولم يبعـــد
باق كثأر القدس من قبله   لا ننتهي منـــه ولا يبتدي
فلا يغرنك سكوت المـــلا   فالشر حول الصارم المغمد
لن يـــترك الروم عباداتهم   او ينزل الترك عن السؤدد
فان يعادوا في مفاتيحـــه   فيا ليـــوم في الورى اسود
يشيب منه الطفل في مهـــده   ويزعج الميت في المرقـــد
فكن لنـــا اللهم في امسنا   وكن لنا اليوم وكن في الغد
لولا ضـــلال سابق لم يقم   من اجلك الخلق ولم يقعـــد

الاندلسية :

اختلاف النهار والليل ينسي فاذكرا لي الصبا وايام انسي
وسلا مصر هل سلا القلب عنها او اسا جرحه الزمان المؤسي
كلما مرت الليالي عنـــه رق والعهد في الليالي تقسي
راهب في الضلوع للسفن فطن كلمـــا نرن شاعهن بنقس
يا ابنة اليم مـــا ابوك بخيل ما له مولعـــاً بمنع وحبس
احرام على بلابـــله الدوح حـــلال للطير من كل جنس
وطني لو شغلت بالخلد عنـــه نازعتني اليه بالخـــلد نفسي
شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسي
يا فؤادي لكل امرٍ قرار فيه يبدو وينجلي بعد لبس
ومواقيت للامور اذا مـــا بلغتها الامور صارت لعكس
دول كالرجـــال مرتهنات بقيام من الجـــدود ونحس

. . . .

وعظ البحتري ايوانُ كسرى وشفتني القصور من عبد شمس
فتجلت لي القصور ومن فيها من العز في منـــازل قعس
واذا الدار ما بها من انيس واذا القوم ما لهم من محس
ورقيـــق من البيوت عتيق جاوز الالف غير مذموم حرس
مرمر تسبح النواظر فيـــه ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كانهـــا في استواء الفات الوزير في عرض طرس
ويحهـــا كم تزينت لعلـــيم واحد الدهر واستعدت لخمس
وكأن الرفيف في مسرح العين مـــلأ مدنرات الدمقس
وكأن الايات في جـــانبيه يتنزلن من معـــارج قدس
ومكان الكتاب يغريك ريا وَرْدِهِ غائبـــاً فتدنو للمس
من لحمراء جُلّلت بغبار الدهر كالجرح بـــين برء ونكس
وقبـــاب من لازورد وتـــبر كالربى الشم بين ظل وشمس

وترى مجلس السباع خلاء   مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جواري الثريا   يتنزلن فيه اقمار انس
مرمر قامت الاسود عليه   كله الظفر لينات الجس
تنثر الماء في الحياض جمانا   يتنزى على ترائب ملس

. . . .

في اسوان :

ايها المنتحي باسوان دارا   كالثريا تريد ان تنقضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى   ممسكاً بعضها من الذعر بعضا
كعذارى اخفين في الماء بضا   سابحات به وابدين بضا
شاب من حولها الزمان وشابت   وشباب الفنون ما زال غضا
رب نقش كانما نفض الصانع   منه اليدين بالامس نفضا
ودهان كلامع الزيت مرّت   اعصر بالسراج والزيت وضّا
وضحايا تكاد تمشي وترعى   لو اصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها   عزمات من عزمة الجن امضى

الثورة السورية :

سلام من صبا بردى ارق   ودمع لا يكفكف يا دمشق
ومعذرة اليراعة والقوافي   جلال الرزء عن وصف يدق
دخلتك والاصيل له ائتلاق   ووجهك ضاحك القسمات طلق
وتحت جنانك الانهار تجري   وملء رباك اوراق وورق
وحولي فتية غر صباح   لهم في الفضل غايات وسبق
غمزت اباءهم حتى تلظت   انوف الاسد واضطرم المدق
وضج من الشكيمة كل حر   ابي من امية فيه عتق

. . . .

وقيل معالم التاريخ دكت   وقيل اصابها تلف وحرق

ألست دمشق للاسلام ظئراً ومرضعة الابوة لا تـُعق
سماؤك من حلى الماضي كتاب وارضك منحلى التاريخ رَق
بنيت الدولة الكبرى وملكا غبار حضارتيه لا يشق
له بالشام اعلام وعرس بشائره باندلس تدق

. . . .

بليل للقذائف والمنايا وراء سمائه خطف وصعق
اذا عصف الحديد احمرّ افق على جنباته واسودّ افق
سلي من راع غيدك بعد وهن ابين فؤاده والصخر فرق
وللمستعمرين وان ألانوا قلوب كالحجارة لا ترق
رماك بطيشه ورمى فرنسا اخو حرب به صلف وحمق
اذا ما جاءه طلاب حق يقول عصابة خرجوا وشقوا
دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم انه نور وحق

. . . .

نصحت ونحن مختلفون دارا ولكن كلنا في الهم شرق
ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت أو حياة فان رمتم نعيم الأرض فاشقوا
وللاوطان في دم كل حر يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرّجة تدق

. . . .

وما كان الدروز قبيل شر وان اخذوا بما لم يستحقوا
ولكن ذادة وقراة ضيف كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
لهم جبل اشم له شعاب موارد في السحاب الجون بلق
كأن من السموأل فيه شيئاً فكل جهاته شرف وخلق

دمشق :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا   مشت على الرسم احداث واحزان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له   رث الصحائف باق منه عنوان

. . . .

بالأمس قمت على الزهراء اندبهم   واليوم دمعي على الفيحاء هتان
لولا دمشق لما كانت طليطلة   ولا زهت ببني العباس بغذان
مررت بالمسجد المحزون أسأله   هل في المصلى ام المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت   على المنابر احرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته   إذا تعالى ولا الآذان آذان

لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم   يرسم بأزين منهما ملكوته
ملك الهضاب الشم سلطانُ الربى   هامُ السحاب عروشه وتخوتهُ
سيناء شاطره الجلال فلا يرى   الا له سبحاته ومروته
جبل على آذار يزري صيفه   وشتاؤه يئد القرى جبروته
وكأن أيام الشباب ربوعه   وكأن احلام الكعاب بيوته
وكأن اثداء النواهد تينه   وكأن اقراط الولائد توته
وكأن همس القاع في اذن الصفا   صوت العتاب ظهوره وخفوته

زحله :

شيعت احلامي بطرف باك   ولممت من طرق الملاح شباكي
ورجعت ادراج الشباب ووردِه   امشي مكانهما على الاشواك
وبجانبي واهٍ كأن خفوقه   لما تلفت جهشة المتباكي
قد راعه اني طويت حبائلي   من بعد طول تناول وفكاك
لم تبق منا يا فؤاد بقية   لفتوة او فضلة لعراك
كنا اذا صفّقت نستبق الهوى   ونشدّ شدّ العصبة الفتاك

واليوم تبعث في حين تهزني ما يبعث الناقوس في النساك

يا جارة الوادي الخ ...

قسما لو انتمت الجداول والربى لتهلل الفردوس ثم نمـــاك
تلك الكروم بقية من بابل هيهات ينسى البابليُّ جناك
لم انس من هبة الزمان عشية سلفت بظلك وانقضت بذراك
كنت العروس على منصة جنحها لبنان في الوشي الكريم جلاك
ضمت ذراعيها الطبيعة رقـــة صنين والحرمون فاحتضناك
ان تكرمي يا زحل شعري انني انكرت كل قصيدة إلاك
انت البيان بديعه وغريبـــه الله صاغك والزمان رواك

قبر العظمة :

ساذكر ما حييت جدار قبر بظاهر جلق ركب الرمالا
سراج الحق في تيج الصحارى تهاب العاصفات له ذبالا
إذا مرت الاجيـال تترى سمعت لها ازيزا وابتهالا
تعلق في ضمـــائرهم صليبا وحلق في سرائرهم هلالا

الحرية الحمراء :

في مهرجان الحق او يوم الدم مهج من الشهداء لم تتكلم
يبدو على هاتورَ نورُ دمائها كدم الحسين على هلال محرم
لا بـــد للحرية الحمراء من سلوى ترقّد جرحها كالبلسم
وتبسم يعلو اسرّتها كما يعلو فم الثكلى وثغر الأيّم
يوم البطولة لو شهدتَ نهاره لنظمت للأجيال ما لم ينظم
لولا عوادي النفي أو عقباته والنفي حال من عذاب جهنم
جمعت ألوان الحوادث صورة مثّلت فيها صورة المستسلم

صورة :

رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكريم عن جيرانه

بعثتني معزيـــاً بمآقي وطني أو مهنئـاً بلسانه
كان شعري الغناء في فرح الشرق وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله ان يؤلفنا الجرح وان نلتقي على اشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جرح جنبه في معانه
وعلينـا كما عليـكم حديـد تتنزى الليوث في قضبانه
نحن في الفكر بالديار سواء كلنـا مشفق على اوطـانه
وتر في اللهات ما المغني من يد في صفائه أو ليانه

حنين :

والنيل يقبل كالدنيا اذا احتفلت لو كان فيها وفاء للمصافينا
اعداه من يمنه التابوت وارتسمت على جوانبـه الانوار من سينـا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيـد التشتيت غالينـا
ولا يحولُ لنا صبغ ولا خلق إذا تـلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
ألم تؤلـّه على حافاتـه ورأت عليه أبناءهـا الغرّ الميامينا

تحليل النص ونقده

ماذا يجب علينا ان نفعل ؟

اولاً : الاشارة إلى المكان الذي اخذت منه القطعة – اذا امكن – وبعد قراءة العنوان يشار باختصار إلى المقام الذي تشغله القطعة من الكتاب .

ان التلميذ لا يستطيع دائماً هذا التعيين ولا يجب دائماً ان يسأل عنه الا حيث يمكنه ذلك ، كتعيين مشهد من رواية او قطعة مشهورة ، فالمهم تعويده هذا النهج . وهذه المسألة مسألة تدريب عقلي ليس إلا . فلينُمِّ الاستاذ في تلميذه محبة الجد في طلب القطعة ، ليبذل التلميذ جهده حتى يعرف مكانها ، وليطرح عليه استاذه السؤالات مستعيناً باختباراته الشخصية ليضطره إلى الرجوع إلى كتاب آداب اللغة ومعاجمها ، بل إلى الكتاب كاملاً اذا كان لديه هذا الكتاب .

ليس على التلميذ ان يعرف الكاتب فقط وكتاباته ، بل عليه ايضاً معرفة المحيط الذي نشأ فيه حتى كتب ما كتب . وتفسيره هذا هو :

١ً – هل اوحى اليه الموضوع داعٍ من دواعي حياته الخاصة او السياسية ؟

٢ً – هل اوحاه حادث تاريخي قبله او معاصر له ؟

٣ً – هل دفعته إلى الكتابة مطالعته التي اثرت به ؟ وهل وهل ؟ الخ ...

وهكذا تنمو في الطالب معرفة المقابلة والتاريخ . ويجب تجنب ايقاعه في الاعجاب المفرط بشيء من القطع ظاهرها أدبي ، فيتوغل في انتقادها كثيراً ويحسبها شيئاً مهماً في حين انها تتضاءل فجأة عندما ترجع لتاريخ او حدث .

اننا لا نريد ان نجعل من تلاميذنا متصنعين ومدعين ، ولكن نريد ان نجعل فيهم عقولاً صحيحة . علينا ان نقنعهم ان الانتقاد الصحيح يرتكز على قاعدة كالقاعدة الحسابية التي لا يختلف فيها اثنان .

ثانياً : قراءة القطعة – قد يقرأ تلميذ واحد القطعة المعدة للشرح واحياناً توزع على الطلبة . فاذا كان التلميذ قد استعد عليها كتابة ، فعلى المعلم ان يتطلب منه قراءة تقرب من الكمال . نعني بهذا قراءة تتلون وتتنوع مع المعنى كأنها نوع من البحث الانتقادي . ولكننا لا نسلّم بدفع التلامذة إلى الالقاء ، انما يكفينا منهم اللفظ الصحيح المحكم جيداً ، واظهار نبرات الكلمات المهمة . فالصف غير مسرح التمثيل .

ثالثاً : الرسم – (مصور القطعة . خريطتها) يظهر لنا ان هذه النقطة هي اهم اجزاء التحليل ، فيجب ان نحمل التلاميذ على ان يسألوا انفسهم متى قرأوا شعراً او قطعة خيالية او قصة او رسالة الخ ... عن سياق الافكار والبراهين والاسهاب وغير ذلك .

فكل كاتب له سياق خاص ورسم خاص . وما الانشاء الا نظام افكار الكاتب وحركتها ، وعن هذا النظام يجب ان نفتش لنجده . ان التحليل والتركيب ينمي الذكاء جداً . واننا بهدم صفحة واحدة من الشعر او من النثر وبنائها ندرك فائدة لا تقدر ، فبهذا التحليل نكون كمن يحل خيوط قطعة منسوجة نسجاً محكماً فيفهم خصائص كل خيط منها . فعملنا هذا يؤدي بنا إلى فهم آلة دماغ او قلب ما كنا لنفهم اسرارها لولا تفكيكها قطعة قطعة .

ان هذا التمرين نافع جداً لتلونه ، فليس هناك نظرية واحدة تطبق على كل الكتّاب ، فكل كاتب يريك شيئاً جديداً بل صعوبة جديدة في تحليله . فرسم الجاحظ او نظامه يظهر كالفوضى اذا قابلته بغيره من الكتاب ، ومع ذلك فعدم نظامه هذا هو نظام خاص له .

ولو بحثنا كاتباً خيالياً يظهر لنا انه لا يهتم للنظام والترتيب في سياق افكاره ، ثم نجد بعد البحث ان له نظاماً خاصاً ، اي نظام تأثراته وشواعره .

والقصد من ذلك تسلسل الافكار مجتمعة. والمناقشة وحدها في موضوع الترتيب تؤلف احياناً بحثاً كافياً.

رابعاً: البحث – بعد التعيين التاريخي، والقراءة، ودرس الرسم، تراجع القطعة جملة جملة للبحث فيها. وهنا اختلاف الطرق في النوع والنظام والنسبة، وكلها نقط تظهر لنا ذوق الاستاذ، اي الذوق الشخصي، ونوع الدراسة الذي ينم عن اخلاقه. فالمعلم الفلاني يهتم كثيراً للنحو، والآخر بالبيان، وغيره يتعمق بالعواطف والافكار والنظريات، وغيره في درس الانشاء والفن، ولهذا نرى من المناسب ان يدرّس الصف الواحد عدة اساتذة، ولتكن دروسهم كل سنة ذات صلة بدروسهم السابقة.

يختلف البحث باختلاف الاذواق، ولكن هناك اشياء لا بد من مراعاتها وهي:

١ً – المنع المطلق لمراجعة المترادفات، أي ان نفسر الجملة بجملة ركيكة أو ان نبدل لفظة بلفظة على حـــد قول الشاعر العربي: وفسّر الماء بعد الجهد بالماء.

فاذا أطلق للتلميذ العنان في تهيئة مترادفين أو ثلاثة تحل محل بعض كلمات القطعة فانه يعطيك نثراً كريهاً بدلاً مما يقرأه، وهذا كل الشرح في عرفه. فمن المهم ملافاة هذا العيب منذ الابتداء، وابسط الطرق لملافاته هي ان يسأل المعلم بنفسه السؤالات، ويوقف التلميذ على الكلمات المحتاجة الى التفسير. فيسأل مثلاً: لماذا استعمل الشاعر أو الكاتب تلك الكلمة المجازية بدلا من الكلمة الحقيقية، في حين أنه كان في وسعه استعمالها؟ الى غير ذلك من الاسئلة التي يراها مناسبة حتى يتعود التلميذ ان يتساءل ويفسر تفسيراً منتجاً ويشرح عوضاً من ان يعيد الكلمات عينها أو يأتي بما يكره سماعه من الانشاء.

٢ً – هذه القاعدة تشتق من التي سبقتهـا. واننا نؤكد ان الأساس المهم للشرح هو البحث والمناقشة في تأدية التعبير المعنى المقصود، ويحسن ان نفسح للتلميذ في مجال البحث، ولو بالغ فيه، بشرط ان لا يتجاوز الحد. فبهذا نجعل التلميذ يزن قيمة الاسماء والنعوت والافعال والظروف ويقدرها حق قدرهـا

ونساعده على ايجاد القوة الاشتقاقية . وليبحث في نوع كتابة الكاتب وطبيعة القراء في عصره، وميول معاصريه التي اضطرت الكاتب لارضائهم باتباع ما اتبع من الاساليب والافكار. وعلينا ان ندفع التلميذ ايضاً الى التمييز بين معاني الكلمات في العصر الذي استعملت فيه ومعانيها في العصر الحاضر .

٣ً — من جهة قواعد اللغة لا يجوز إلا بحث ما خرج عن الاستعمال المألوف ، هذا اذا لم تكن القطعة منتقاة خصيصاً للتمرين على قواعد اللغة .

٤ً— في الإنشاء — يجب ان نهتم خصوصاً بتحليل الصور وبحثها ، ولا يجوز ان نعلم التلامذة لائحة (ليستة) بصور الافكار وصور الكلمات لنقيدهم بافكارنا ونظرياتنا ، بل ينبغي ان نحملهم على التفكير وخلق الصور التي يرونها بانفسهم عند الكاتب .

وعلى الاستاذ ان يعوّد التلاميذ ، وقت الشرح والتفسير ، على الانتباه الى الحركات المختلفة ، كالنداء والاستفهام العادي والانكاري ، وتكرار الالفاظ ، والتعجب ، والصور البيانية ، والصور الكثيرة الاستعمال من البديع الخ.. اننا لا نستطيع درس الشعراء وتذوّق ما يكتبونه الا اذا اعتمدنا هذه الطريقة في تدريسهم .

٥ً — استخراج النتائج — بعد تحليل القطعة ونقدها يبقى علينا استخراج النتائج الادبية والفلسفية والادبية. هنا يجب اتقاء خطر فاضح وهو كثرة الكلام الفارغ (الحشو واللغو) . علينا ان نستخرج الملاحظات والنتائج من القطعة نفسها ، اي من منطوقها لا من نظرياتنا الخاصة ، اذ يجب ان تكون القطعة الحد الاقصى لبحثنا ، فلا نتعداها الى آرائنا الخصوصية . ولنحتم على تلميذنا ألا يخرج كذلك عن القطعة التي اعطيها للبحث — كتابة أو شفوياً — بل فليحصر بحثه في القطعة ويبدي الملاحظات التي رآها فيها ليس إلا .

إن ما نتساءل عنه هو : لماذا نشرح ونفسر ونبحث ؟ الجواب طبعاً : لكي نفهم . إذن ، ليست الغاية الاولى من الشرح والتحليل فهم الصور البيانية لأنها بيانية لذيذة ، بل لنتوصل بواسطتها الى الفهم ، إلى ما يرمي اليه الكاتب تماماً .

وقصارى الكلام إن الغاية من الشرح والتحليل والبحث هي فهم الفكر والشعور فهماً دقيقاً كأننا نحن ذاك الكاتب نفسه .

تطبيق

١ً — مصدر النص . ٢ً — صفاته العامة : خيالي ، تأمل ، رؤيا ، وصف ، هجر ، قصف ، الخ . ٣ً — المدخل أي سبب الكتابة . ٤ً — الرسم وتتفرع منه الفكرة العامة ووحدة الموضوع . ٥ً — تبيين المحاسن والعيوب وبيان الصور البديعة والمستهجنة . ٦ً — اللغة وما يتبعها كما اذا كان هناك مخالفة لغوية او نحوية او بيانية . ٧ً — نوع الانشاء ، اهو من الانشاء العالي او المنمّق او البسيط. ٨ً — النتائج الادبية والفلسفية وما يرمي اليه الكاتب او الشاعر .

تنبيه : في الشعر المنمق يُلتجأ إلى رده إلى النثر ، واذ ذاك يعرف مبلغ الافكار ، أي اذا كان الكاتب ممن يعنون بالالفاظ والتعابير اكثر من المعاني والافكار .

شعر رنّان: كلمة نسمعها كثيراً ،فللاهتداء إلىهذا السر انظر الىالاهتزازات التي يحدثها استعمال بعض الفاظ موسيقية في اللغة وانتبه الى استعمال الافعال والاسماء والكلمات المشددة وبعض الحروف التي لها تأثيرها .

ملاحظة هامة : سر هكذا في ترتيب نقدك :

١ً — كلمة مختصرة عن الموضوع كمدخل له او تمهيد .

٢ً — قسّم نقدك هكذا :

١ً — **الايجاد** : ويقسم إلى ثلاثة اقسام : أ — عمل الحس . وهو ما احس به الشاعر او الكاتب حتى كتب ما كتب ، وهذا ما يعبرون عنه اليوم بالتجربة . ب — عمل الخيال ، وينتج عن الحس ، اي ان الشاعر يحس اولاً ثم يتخيل .

جـ - وبعد الحس والخيال يأتي عمل الذهن فهو الخزينة الواعية .

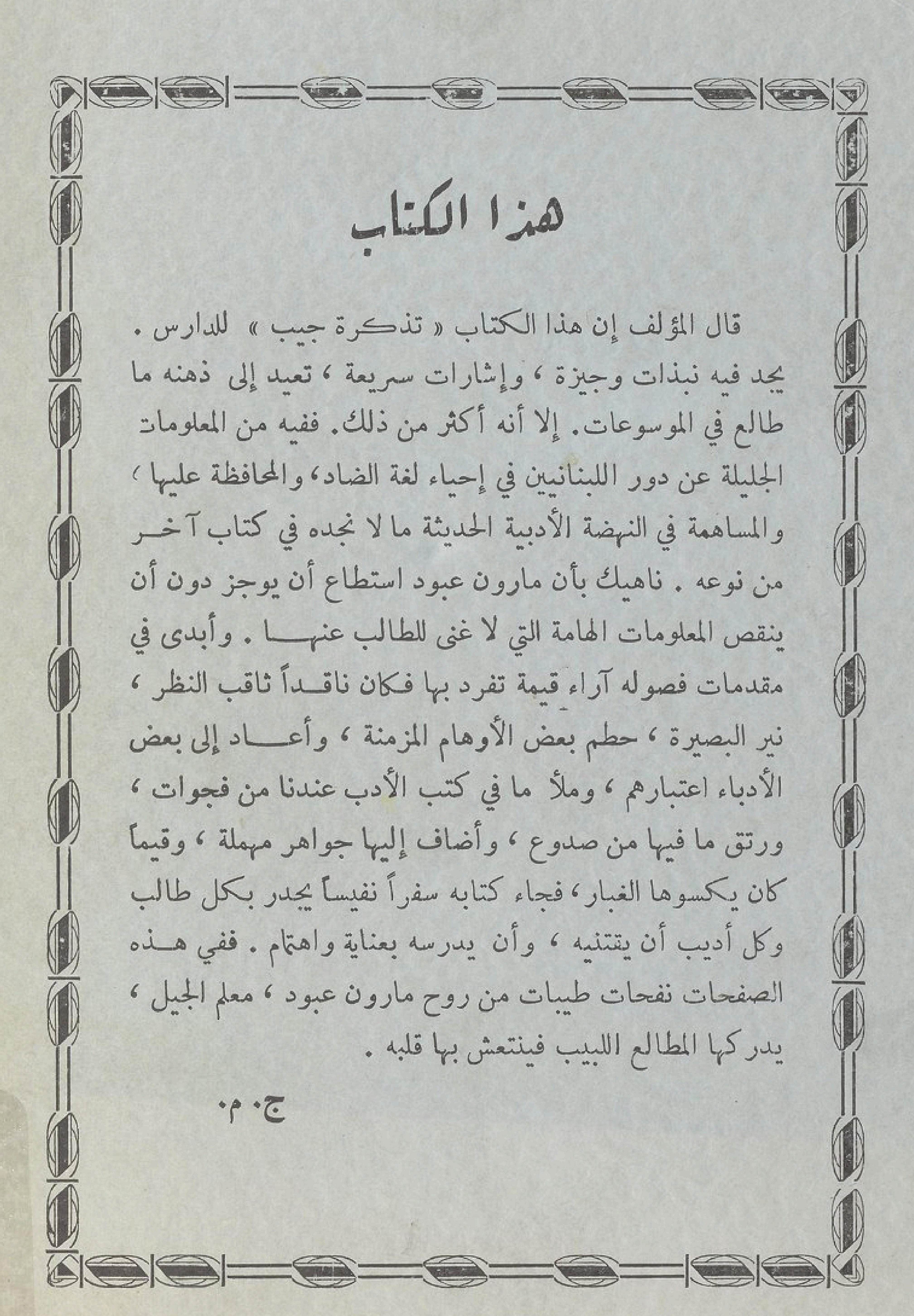
٢ - **التنسيق** : وظيفة الذهن ترتيب المعاني التي تجتمع بالايجاد ، والذهن ايضاً يقرر النسبة والوحدة بين اجزاء القصيدة ، وهذا ما نسميه التنسيق ، وهو يقسم إلى ثلاثة اقسام : أ - الوحدة : وهي تكون بوحدة العاطفة والفكر وما يرمي اليه الكاتب من غرض . ب - الرسم : وهو ما تتألف منه القطعة من اجزاء رئيسية . جـ - تنسيق التفاصيل : وهو تفصيل ما تألفت منه الاجزاء الرئيسية وحسن ترتيبها وتنسيقها .

٣ - **البيان** : وهو ثلاثة اقسام ايضاً : أ - اتساق الابيات او الانشاء ، أي جلاؤها ووضوحها . ب - صفات الانشاء العمومية : يبين فيه كل شيء من محاسن وعيوب . جـ - الاشكال البديعية والمجازات : تذكر منها المستحسن والقبيح وما يلفت نظرك من جمال فني .

هذه آراء معلـّمي النقد الأجانب وقد لخصناها لك تتميماً للفائدة .

فهرست

٦٨/٧/



هذا الكتاب

قال المؤلف إن هذا الكتاب « تذكرة جيب » للدارس . يجد فيه نبذات وجيزة ، وإشارات سريعة ، تعيد إلى ذهنه ما طالع في الموسوعات. إلا أنه أكثر من ذلك. ففيه من المعلومات الجليلة عن دور اللبنانيين في إحياء لغة الضاد، والمحافظة عليها ، والمساهمة في النهضة الأدبية الحديثة ما لا نجده في كتاب آخر من نوعه . ناهيك بأن مارون عبود استطاع أن يوجز دون أن ينقص المعلومات الهامة التي لا غنى للطالب عنها . وأبدى في مقدمات فصوله آراء قيمة تفرد بها فكان ناقداً ثاقب النظر ، نير البصيرة ، حطم بعض الأوهام المزمنة ، وأعاد إلى بعض الأدباء اعتبارهم ، وملأ ما في كتب الأدب عندنا من فجوات ، ورتق ما فيها من صدوع ، وأضاف إليها جواهر مهملة ، وقيماً كان يكسوها الغبار، فجاء كتابه سفراً نفيساً يجدر بكل طالب وكل أديب أن يقتنيه ، وأن يدرسه بعناية واهتمام . ففي هذه الصفحات نفحات طيبات من روح مارون عبود ، معلم الجيل ، يدركها المطالع اللبيب فينتعش بها قلبه .

ج. م.

الثمن : ٩٠٠ ق. ل